تاريخ العرب الحديث

تأليف

دكتور رأفت غنيمى الشيخ

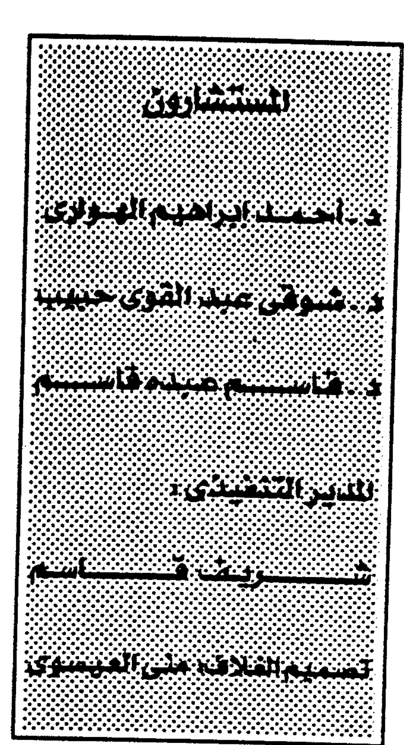
طبعة معدلة ومزيدة ومنقحة

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

ÈIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES



الناشر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية
٥ شارع ترعة المريوطية - الهرم - ج.م.ع تليفون وفاكس ٣٨٧١٦٩٣

Publisher:EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES
5, Maryoutia St ., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693
E-mail : dar_Ein@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لم تبدأ العلاقات العربية التركية باستيلاء السلطان سليم الأول سلطان الدولة العثمانية (١٥١٢-١٥٢٠م) على الأقطار العربية : العراق وبلاد الشام ومصر والحجاز خلال السنوات ١٥١٤-١٥١٧م، ثم ضم الدولة العثمانية لكل من الجزائر عام ١٥١٨ وليبيا عام ١٥٥١م ، وتونس عام ١٥٧٤م . وإنما تبدأ العلاقات العربية التركية منذ الفتح العربى الإسلامى لبلاد تركستان التى عرفت باسم بلاد ما وراء النهر فى الفترة من ٤٠هـ إلى ٩٦ هـ .

وعلى هذا كان لابد لنا من مناقشة جذور العلاقات العربية التركية منذ الفتح العربى الإسلامى لبلاد الترك والتى أصبحت بموجب هذا الفتح جزءًا من الدولة العربية الإسلامية (الخلافة الأموية ثم الخلافة العباسية) ، حيث شاركت بلاد الترك فى إثراء التراث العربى الإسلامى بظهور علماء فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية، وبإنشاء مؤسسات ثقافية متميزة ذات تأثير حضارى ليس على بقية الأقطار العربية والإسلامية فحسب بل وعلى بقية دول العالم.

وكان أحمد بن طولون المنتمى لبلاد الترك مظهرا من مظاهر العلاقات التركية العربية ، حيث استطاع أن يتولى حكم مصر وبلاد الشام حكما وراثيا ، وأن يواصل البناء الحضارى مستفيدا من موقع مصر وإمكاناتها البشرية والاقتصادية، وتعاون معه فى البناء أبناء مصر، كما تعاونوا مع ابنه خمارويه وهكذا .

كما كان الظاهر بيبرس الذى قاد من مصر مع خشداشينه أمراء الجند المماليك أمثال عز الدين أيبك وسيف الدين قطز ، جيشا قويا خرج به من مضر لملاقاة جيش المغول بقيادة هولاكو الذى نجح فى ضم بلاد الفرس وبلاد الرافدين (العراق) حتى وصل إلى بلاد الشام، ونجح جيش المماليك فى هزيمة جيش المغول هزيمة نكراء في عين جالوت بفلسطين عام ٦٥٨هـ الموافق لعام ١٢٦٠م ، كان الظاهر بيبرس من بلاد الترك قبل أن يصبح مملوكا لسيده فى مصر . ثم جاء الترك إلى المنطقة المجاورة للأقطار العربية ، وأعنى شبه جزيرة آسيا الصغرى (الأناضول) حيث أسسوا إمارة تركية صارت دولة عرفت باسم أول أمرائها عثمان بن أرطغرل الذى حوّل القبيلة إلى كيان سياسى له حكومة وجيش منظم وإدارات لازمة لتسيير أمور الدولة فى مختلف النواحى عام ١٢٩٩م هذه الدولة استمرت فى توسعها على حساب الإمارات

التركية الأخرى فى آسيا الصغرى وعلى حساب الإمبراطورية البيزنطية فى شبه جزيرة البلقان حتى وصل الفتح العثمانى إلى أسوار ڤيينا عاصمة النمسا عام ١٥٢٩م.

إلا أن الأقطار العربية لم تكن بعيدة عن اهتمام السلاطين العثمانيين ومن ثم استولى العثمانيون على العراق وبلاد الشام ومصر والجزائر والحجاز وليبيا وتونس خلال ٦٠ سنة من ١٥١٤م حتى ١٥٧٤م، وظل العثمانيون يحكمون الأقطار العربية حتى أخذها منهم الاستعماريون الأوربيون (البريطانيون والفرنسيون والإيطاليون) خلال سنوات القرن التاسع عشر والقرن العشرين الميلادى .

ورغم أن الأقطار العربية عانت من سلبيات نظام الحكم العثمانى المطبق فيها خلال حوالى ٤٠٠ سنة ، فقد شهدت تلك الأقطار مظاهر يقظة عربية إسلامية واجهت التخلف والعزلة ، ودعت إلى العودة إلى ما كان عليه السلف الصالح من المسلمين الأوائل من إيمان ووحدة ودعوة للتحرر من الاستعماريين.

وشهدت السنوات الخمسين الأولى من القرن العشرين صراعا قاده الوطنيون العرب فى أقطارهم ضد مستعمريهم، حتى أعلن استقلال كل قطر استقلالاً تامًا أو منقوصًا فى البداية ثم استكمل الاستقلال بمزيد من الكفاح ضد الاستعماريين وحلفائهم من أبناء القطر.

وفى صفحات هذا الكتاب الذى يتناول تاريخ العرب الحديث خلال القرون الممتدة من العلاقات العربية التركية فى نهاية العصر الوسيط وبداية التاريخ الحديث، حتى أوائل القرن العشرين، وبصفة خاصة بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، يأتى هذا التناول جديدا فى الفكر التاريخى الممتد والذى استكمله بكتاب آخر هو تاريخ العرب المعاصر الذى يتناول تاريخ الأقطار العربية فى القرن العشرين الميلادى وعلى الله قصد السبيل.

أ.د. رأفت غنيمى الشيخ

الباب الأول

العثمانيون والعرب

- مقدمة
- الفصل الأول : العرب والترك قبل قيام الدولة العثمانية .
- الفصل الثانى : قيام الدولة العثمانية وضم الأقطار العربية .
- الفصل الثالث : نظام الحكم العثمانى.

الفصل الأول

العرب والترك قبل قيام الدولة العثمانية

أولا : الفتح الإسلامي لبلاد الأتراك

ثانيا : أحمد بن طولون والعنصر التركي

ثالثا : الظاهر بيبرس وأصله التركي

أولا : الفتح الإسلامي لبلاد الترك

ارتبطت الفتوحات العربية الإسلامية لبلاد الأتراك بالفتوحات في كل من بلاد الشام والعراق وفارس، ذلك أن القوات العربية الإسلامية خاضت معارك شديدة في العراق ضد الفرس، انتصرت فيها الجيوش العربية انتصارات حاسمة أدت إلى إنهيار الإمبراطورية الساسانية بأكملها على يد كل من خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وغيرهما.

وقد بدأ الفتح الإسلامي بالحيرة والأنبار، وكان ذلك زمن الخليفة الأول أبوبكر الصديق، ثم استمر الفتح في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب الذى كلف سعد بن أبي وقاص عام ١٥هـ الذى نجح في فتح الأبُلّة وتخطيط مدينة البصرة على شط العرب قرب التقاء نهري دجلة والفرات. في معركة شهيرة عرفت بمعركة القادسية التي أتبع نجاح العرب المسلمين في تحقيق الانتصار فيها سقوط المدائن عاصمة الدولة الساسانية في يد الجيش العربي الإسلامي.

وتتابعت المعارك بين الجيوش العربية الإسلامية والجيوش الفارسية ، كان من أهمها موقعة نهاوند عام ٢١هـ، التي تعتبر خاتمة المعارك الفاصلة في تاريخ الفتح العربي لفارس، ولذلك سميت فتح الفتوح ، وبها انهار سلطان الفرس نهائيا، حيث ترتب على انتصار المسلمين في نهاوند سقوط عدد من المدن الفارسية في يد الجيوش العربية الإسلامية[١].

واستمرت الغزوات العربية الإسلامية شرقا ، حيث تم فتح الجزيرة منذ عام ١٩هـ [٢]، وأهم مدنها الرقة والرها وحران ونصيبين وميافارقين وقرى الفرات حتى عام ٢٠هـ، وحيث تم فتح

١- د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية، تاريخ العرب منذ عصر الجاهلية حتى سقوط الدولة الأموية ، القاهرة ١٩٧١ ، ص٥١٣ .

٢- يعني بالجزيرة الأراضي الواقعة بين نهري دجلة والفرات.

أرمينية الذى بدأ فى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان واستكمل على يد عامل الدولة على الشام معاوية بن أبى سفيان، وأهم المدن الأرمينية «دبيل» و «جرزان» و «تفليس» وغيرها[١].

وقد اتجهت أنظار الدولة العربية الإسلامية إلى استمرار الفتوحات شرقا، وقد شهد عهد الدولة الأموية فتح كل بلاد ما وراء النهر، وجرجان وطبرستان، والسند، فقد تمثلت فتوحات بلاد ما وراء النهر وأهمها خراسان وتركستان وما وراء نهر جيحون، وذلك فى عهد الخليفة الأموى يزيد بن معاوية ، حيث تم فتح إقليم خوارزم ثم عبر الجيش العربى نهر جيحون إلى تركستان (بلاد ما وراء النهرين) فضم أهم مدنها مثل سمرقند وخجندة، ومرو وبلاد الصغد التى خضعت على يد المهلب بن أبى صفرة، وترمذ[٢].

وعندم تولى قتيبة بن مسلم الباهلى ولاية خراسان عام ٨٦هـ فى عهد خلافة الوليد بن عبد الملك اتخذت الفتوحات العربية الإسلامية فى بلاد ما وراء النهر نشاطا كبيرا، فقد تم منح مدن: فرغانة ، كاشان، أورشت ، بيكند، بخارى، سمرقند، طقشند (الشاش) عام ٩٥هـ ، وفى نفس العام غزت الجيوش العربية، الإسلامية «كاشغر» أدنى مدائن الصين وطرقت أبواب الصين من الجهة الغربية [٣].

وهكذا كانت فتوحات قتيبة فى بلاد ما وراء النهر فاتحة لاتصال العرب بالجنس التركى، كما كان لجهود قتيبة الموفقة أعظم الأثر فى إنشاء مراكز جديدة للثقافة العربية والإسلامية فى وسط آسيا، كما قوت ومكنت العلاقات بين الدولة العربية والصين، وعندما قتل قتيبة عام ٩٦هـ، خسرت الدولة العربية الإسلامية خسارة عظيمة حيث يعد من أعظم قادة الفتح الإسلامى، ولو أنه عاش أطول من ذلك لأمكن للمسلمين أن يتوغلوا حتى الصين، بدليل أنه لما قتل توقفت فتوحات المسلمين فى بلاد الترك إلى الحد الذى وصل إليه قتيبة بن مسلم الباهلى[٤].

وعندما ولى يزيد بن المهلب واليا على خراسان والعراق عام ٩٧هـ فى عهد الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك بن مروان، وجه همه لفتح جرجان وطبرستان، ولم تكن أقدام الجيوش

١- د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق، ص٥١٧ .

٢- ابن الأثير (على بن أحمد بن عبد الكريم): كتاب الكامل فى التاريخ، لقاهرة ١٣٤٨هـ، ج٤، ص٤٥٤ .

٣- ابن الأثير: المرجع السابق، ص٥٣٣ .

٤- فيليب حتى: تاريخ العرب المطول، ج١، ص٢٧٥ .

العربية الإسلامية قد وطئت أراضى تلك البلاد قبلا، فتم فتح كل من فهستان وكل سكانها من الترك، ثم زحف إلى جرجان فدعاه أهلها إلى الصلح فأجابهم يزيد إلى ذلك، وبعد ضم جرجان صلحًا طمع يزيد فى الاستيلاء على مدينة طبرستان الحصينة وكانت تعرف أيضا باسم «مازندران» وتقع إلى الجنوب من بحر قزوين ، وكانت تسكنها عناصر فارسية.

ولايمكن ضمان استقرار الفتح الإسلامى العربى فى تركستان وخراسان دون فتح بلاد السند، تلك البلاد التى تقع فى شمال شبه القارة الهندية والتى يعرفها العرب ويرجون فتحها منذ عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب، وقد بدأت عمليات الفتح منذ عام ٣٨هـ فى عهد الخليفة الرابع على بن أبى طالب ، وفى عهد الدولة الأموية نجحت الجيوش العربية الإسلامية فى فتح كل من مكران، قندهار ، الديبل، البيدون، مهران، برهمتاباد العتيقة ، الملتان وهى أكبر مدن السند الأعلى وأحصنها على الإطلاق [1].

ثانيا : أحمد بن طولون من أصل تركى

للحديث عن أحمد بن طولون وأصله التركى حتى وصوله حاكما لإمارة تضم كلا من مصر والشام، نشير إلى ظهور وغلبة العنصر التركى فى زمن الخلافة العباسية فى زمن ضعفها خاصة فى العصر العباسى الثانى، وعندما أحست العناصر التركية فيما وراء النهر بضعف السلطة المركزية أخذت تلك العناصر التركية، تحاول إنشاء دول تركية إسلامية على أنقاض الدولة العباسية المنحلة، وقد ساعدتهم صفاتهم الجسمانية وثقافتهم الحربية والسياسية التى ورثوها عن الدولة التى اتصلوا بها[2].

ورغم قوة واتساع وتماسك الدولة العباسية منذ نشأتها على أعقاب الدولة الأموية حتى نهاية حكم الخليفة هارون الرشيد، فقد أخذت الدولة فى التدهور والانهيار منذ منتصف القرن الثالث الهجرى نتيجة للفساد السياسى والارتباك الاقتصادى، ونتج عن ذلك ظاهرتان خطيرتان هما:

١- ظاهرة المصادرات التى سنها الخلفاء للضيق المالى الذى انتابهم .

٢- ظاهرة تغلب أمراء الأطراف واستقلال الولايات البعيدة، مما آذن بانتهاء عصر وبدء

١- د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص٦٣٠-٦٣١ .

٢- د. حسين مؤنس : الشرق الإسلامى فى العصر الحديث، القاهرة ١٩٣٨، ص١٨ .

عصر ثان له خصائصه ومميزاته، ويمكن أن يطلق عليه عهد الدول المستقلة أو انحلال الدولة العباسية ، واستقلال ولاياتها[١].

وكان استخدام العنصر التركى فى عهد الخليفة العباسى المعتصم بالله الذى خلف المأمون عام ٢١٨هـ ، فى الجيش العباسى، وعمالاً على الولايات ، نقطة تحول فى تاريخ الدولة العباسية تمثل فى ضياع نفوذ الخلافة واستيلاء الأتراك على الحكم، وكان مبدأ ظهور العنصر التركى فى عهد الخليفة المعتصم بالله بعد اشتراكهم فى محاربة الروم وانتصارهم باسم الخليفة فى موقعة عمورية وكان قائد الجند العباسيين أشناس التركى . وبعد أن كانت الأحداث تتصل بزعامات فارسية تمثلت فى أبى مسلم الخراسانى والبرامكة، ارتبطت الأحداث فى عهد المعتصم بزعامات تركية مثل: أشناس، وإتياخ، وغيرهما[٢].

وبسبب استفحال نفوذ الترك فى بغداد عاصمة الخلافة العباسية، بنى المعتصم مدينة جديدة عرفت باسم «سر من رأى» اختصر الاسم إلى «سامراء» تكون مقرا للعنصر التركى مما زاد فى نفقات الدولة وألجأ الخليفة المعتصم إلى مصادرة أموال الوزراء وغيرهم لزيادة دخل الدولة وللإنفاق على طلبات العنصر التركى المتزايدة.

وفى عهد الواثق بن المعتصم (٢٢٧-٢٣٢هـ) ازداد وفود العنصر التركى من بلادهم (تركستان) ومن ثم زادت أعدادهم فى عاصمة الخلافة وفى الجيش العباسى، فزاد نفوذهم بسبب ما بذلوه فى المعارك العسكرية من بطولات لخدمة الخلافة العباسية ، وقد ازدادت سلطة أشناس التركى فى عهد الخليفة الواثق، حيث استخلفه علي السلطنة وألبسه وشاحين مجوهرين وتاجا مجوهراً[٣].

وبعد وفاة الواثق كان للعنصر التركى دوره فى اختيار جعفر بن المعتصم الذى لقب بالمتوكل على الله حيث أخذت له البيعة فى ٢٤ ذى الحجة ٢٣٢هـ / أغسطس ٨٤٧م ، وفى عهده علا شأن العنصر التركى وبرز من بينهم «إتياخ» الذى تسلط على الجيش والمغاربة والأتراك والموالى والبربر والحجابة ودار الخلافة[٤]. ثم جاء مقتل الخليفة المتوكل على الله عام

١- د. محمد على حيدر: الدويلات الإسلامية فى المشرق، القاهرة.

٢- أحمد أمين : ظهر الإسلام ، القاهرة، ١٩٥٣ ، ج١، ص٦ .

٣- جلال الدين السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص١٣٥ .

٤- الطبرى (محمد بن جرير) : تاريخ الأمم والملوك ج١١، ص٣٣ .

٢٤٧هـ / ٨٦١م، على أيدى الأتراك، وبذلك انتقلت السلطة للعنصر التركى الذى أصبح بيدهم تعيين وعزل من يشاءون فى منصب الخلافة.

وعمل العنصر التركى على تعيين الخلفاء المنتصر بالله لمدة ٦ شهور ، ثم محمد بن أحمد بن المعتصم الذى لقب بالمستعين عام ٢٤٨هـ الذى جعل «أتامش» التركى وزيره ، حتى تم قتل «أتامش» ثم انتقل المستعين من سامراء إلى بغداد عام ٢٥١هـ ، ثم خلعه الأتراك عام ٢٥٢هـ ونفوه إلى «واسط» واختار الأتراك أحمد بن طولون لصحبته فى منفاه، فأحسن إليه وأطلق له الحرية فى التنقل والصيد ، ثم طلب الأتراك من أحمد بن طولون قتل المستعين ويمنونه ولاية «واسط» فلم ترض نفسه أن يقتل خليفة له فى رقبته بيعة، فأرسلوا سعيد الخادم أحد حجاب القصر فى شرذمة من الجيش إلى واسط ، وتولى قتل الخليفة بنفسه [١]. وتولى بعده المعتز بالله.

وكان هذا أول ذكر لاسم أحمد بن طولون فى خضم هذه الأحداث ، وهو من أصل تركى ، سيستعمله الخلفاء العباسيين واليا على مصر والشام، فمن هو أحمد بن طولون وأصل أسرته التركية ؟ وهو الذى ارتبط اسمه بكبير الأتراك «بايكباك» الذى يلقى دعما من الخليفة المعتز بالله، ومن بعد المعتز بالله الخلفاء المهتدى ثم المعتمد، عام ٢٥٦هـ . وقد شهدت الخلافة العباسية أحداثًا كثيرة فى عهد المعتمد أهمها حركة الزنج وحركة القرامطة [٢].

كان طولون ، أبو أحمد ، مملوكا تركيا ممن أرسلهم حاكم «بخارى» باقليم تركستان (بلاد ما وراء النهر) نوح بن أسد السامانى فى جملة من الرقيق والهدايا للخليفة المأمون وهو بمدينة «مرو» عام ٢٠٠هـ الموافق لعام ٨١٥م، فهو إذن من أصل تركى مما يعرف الآن بأوزبكستان حيث تقع بخارى وطقشند وسمرقند وخوارزم التى كانت مراكز لتربية المماليك الأتراك .

وعندما وفد طولون إلى بغداد أظهر نبوغا وكفاءة أهلته إلى التدرج فى حياة المماليك بالمجتمع العباسى حتي صار رئيسا لحرس الخليفة، وتمكن من تربية ابنه- أو متبناه فى رأى بعض المؤرخين- أحمد بن طولون تربية إسلامية عسكرية ، وهى التربية التى كان جميع

١- د. حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج٣، ص٨ .

٢- د. محمد على حيدر: المرجع السابق ص٣٢ .

المماليك يخضعون لها منذ أن بدأ نظام المماليك فى عهد الدولة الأيوبية ، ونتيجة للتربية الإسلامية والعسكرية التى نبغ فيها أحمد بن طولون تأهل لأن يصبح حاكما على ولاية مصر العباسية عام ٢٥٤هـ الموافق عام ٨٦٨م ، نيابة عن بايكباك (١).

وكان من الطبيعى أن يعتمد أحمد بن طولون على المماليك من أبناء العنصر التركى الذى ينتمى إليه فى ولايته على مصر والشام، وعندما تطلع إلى الاستقلال المحدود بالولاية عن الخلافة العباسية اهتم بتشكيل جيش كان معظم أفراده من الأتراك ، وبسبب ضخامة عدد هذا الجيش بنى لهم أحمد بن طولون ثكنات عسكرية وهى القطائع خارج مدينتى الفسطاط والعسكر بمصر ، وتذكر بعض المصادر أن عدد الجند الأتراك فى جيش أحمد بن طولون بلغ أربعة وعشرين ألف رجل إلى جانب أعداد كبيرة أخرى من الزنوج ومن العرب.

وتذكر المصادر التاريخية أن أحمد بن طولون لجأ إلى منح الحرية، للرقيق الأتراك فى جيشه سواء كانوا قادة أو جنودا ، وذلك بهدف إنشاء جيش ممتاز، ولذا يرجح أنه لم يوجد فى جيش أحمد بن طولون وابنه خمارويه مماليك كثيرون، بل إن فكرة تحرير المماليك صارت سمة من سمات عهد الدولة الطولونية للجنود الأتراك أساساً .

وتذكر المصادر أيضا عن تربية أحمد بن طولون – التى تفسر سياسته فى تحرير الجند المماليك– أنه نشأ فى أشرف عصور بغداد جنديا مطبوعا على أجمل صفات الجندى الشريف، وتلقن فى بيته وهو طفل أمورا أفادته فى حياته، وحفظ القرآن وجوده ، وفصح بالعربية ، فعد من فصحاء رجال السياسة بلسانه وقلمه ، وأخذ عن المحدثين قطعة صالحة من العلم، ورزق صوتا جميلا، وأتقن الموسيقى ، ونظم الشعر بالتركية لغة أبيه وأمه ، وتأفف عنفوان شبابه من الظلم الذى يأتيه الأتراك فى عاصمة الخلافة (٢).

١– د. أحمد مختار العبادى: فى تاريخ الأيوبيين والمماليك، الإسكندرية ١٩٩٤م ، ص٣٠ وقد مات طولون والد أحمد عام ٢٤٠هـ ولأحمد عشرون سنة من جارية كانت لأبيه تعرف بقاسم، ولدت أحمد فى سنة ٢٢٠هـ وولدت بعده أخاه موسى . فنشأ أحمد بن طولون نشوءا جميلا غير نشوء أولاد العجم من بعد الهمة وحسن الدين.

٢– أبى محمد بن عبدالله بن محمد المدينى البلوى تحقيق وتعليق محمد كرد على: سيرة أحمد بن طولون، القاهرة ، ص٣٤ .

وتذكر بعض المصادر عن سيرة أحمد بن طولون أنه مع نفاسته وجلالته فى نفوس الأتراك كان شديد الازدراء لهم، يستصغر عقولهم وآدابهم، ويذكر أنهم قد تسنموا من المراتب مالا يستحقون ، وأن حرمة الدين بهم مهتوكة ، وفرائضه معطلة، وعندما وصل إلى طرسوس - التى كان يخرج إليها كثيرا حيث لقى شيوخ المحدثين وسمع منهم وكتب العلم وحصل له من ذلك قطعة كبيرة- ورأى ما الناس عليه من الأمر بالمعروف ومجانبة المنكر ، أنست نفسه وزال استيحاشه وتبع المحدثين ، ولم يكن يدخل إلى منزله من التشاغل بهم إلا ليلاً[١].

وعرف عن أحمد بن طولون حبه للزهاد وأهل الدين والورع ، ومن ثم تمكن له فى قلوب الأولياء ما ارتفع به على طبقته ، وبان فضله على وجوه الأتراك ، وصار محله عندهم من يوثق به على الأموال والأسرار، ومثل هذا عند العجم محله عظيم فى نفوسهم ، فخطب إلى «بارجوخ» ابنته فزوجه ، وكانت أم ابنه العباس وابنته فاطمة[٢].

ونتيجة لذلك أوصى «باكباك» بأن يتولى أحمد بن طولون ولاية مصر ، باعتباره الثقة ، الأمين ، الحبْر الدّين ، الخيّر ، وضم إليه الجيش، فوصل مصر يوم الأربعاء ٢٣ رمضان ٢٥٤هـ ، وضم الخليفة إلى أحمد بن طولون بلاد الشام كلها إلى جانب الثغور الشامية ، وقد اعتمد على المصريين فى تسيير أمور إمارته، وقال: إن الكاتب المصرى أكتب من الكاتب العراقى ، لأن أصبح الأشياء لمن ملك بلدا أن يكون كاتبه منه، كما اشتهر عن أحمد بن طولون بإشفاقه على أهل مصر، حتى أنه كان يجوز إشفاق الوالد على ولده، يحوطهم، ويراعى أحوالهم ومصالحهم، ويدفع كل مكروه عنهم.

وفى أول شهر ذو القعدة ٢٧٠هـ قلد أحمد بن طولون ، ابنه العباس جميع الأعمال (البلاد) الخارجة عن حدود مصر، مثل بلاد الشام والثغور، وتوفى أحمد بن طولون ليلة الأحد لعشر ليال خلون من ذى القعدة سنة سبعين ومائتين (٢٧٠هـ) ، وقد خلف من الولد ثلاثة وثلاثون ولدا منهم سبعة عشر ذكرا، وست عشرة أنثى، فأما الذكور فأكبرهم أبو الفضل العباس، ثم أبو الجيش خمارويه [٣].

١- المرجع السابق ، ص٣٥ .

٢- بارجوخ وزير الخليفة العباسى المهتدى بالله . المرجع السابق ص٣٥ أيضا .

٣- نفس المرجع السابق .

ثالثاً :الظاهر بيبرس التركى الأصل

وحتى نتحدث عن الظاهر بيبرس المملوك التركى الذى صار سلطانا على مصر بعد معركة عين جالوت التى كسبها المماليك ضد قوات التتار عام ٦٥٨هـ الموافق لعام ١٢٦٠م، لابد أن نتحدث عن ظروف تلك المعركة ، حتى يتبين لنا كيف ظهر نجم الظاهر بيبرس الذى بزغ نجمه بعد تلك المعركة بسبب بلائه البارز فيها.

بانتهاء حكم الأسرة الأيوبية لمصر والشام بموت شجر الدر وزوجها زعيم مماليكها عز الدين أيبك أصبح الصراع واضحا بين زعماء الأمراء المماليك، ذلك الصراع الذى حسمه قرب التتار من بلاد الشام بعد استيلائهم على العراق وتخريبهم للعاصمة بغداد عام ٦٥٦هـ الموافق لعام ١٢٥٨م، حيث استطاع أحد أمراء المماليك والذى عرف باسم سيف الدين قطز أن يستفيد من تلك الظروف ليقود المماليك فى الحرب ضد التتار وهنا قفز اسم الأمير الظاهر بيبرس الذى كان بالشام وتحالف مع الأمير سيف الدين قطز فى هزيمة التتار فى موقعة عين جالوت بفلسطين عام ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م.

وبعد انتصار المماليك فى عين جالوت نجح سيف الدين قطز بتطهير بلاد الشام من بقايا الوجود التترى ، بينما نجح ركن الدين بيبرس فى مطاردة بقايا التتار من حلب، وكان يطمع فى تولى عمالة حلب إلا أن قطز أعطاها لصاحب الموصل مما جعل الوحشة تدب منذ ذلك الوقت بين قطز وبيبرس حتى انتهى الأمر بمقتل قطز على يد بيبرس قرب مدينة الصالحية بإقليم الشرقية ، أثناء العودة إلى مصر القاهرة[1].

خلص الحكم فى مصر لركن الدين بيبرس، الأمير المملوكى التركى الأصل، فمن أين هو؟ وإذا كانت سيرة بيبرس يشوبها بعض الغموض ، فإن الراجح أنه تركى من قبائل التتر القفجاق فى مناطق الإستبس بوسط آسيا، وربما كانت طفولته الباكرة فى تلك الأنحاء ، ثم خطفه تجار الرقيق ، وانتقل من تاجر إلى آخر حتى وصل إلى حماة ببلاد الشام، حيث اشتراه الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار ، ولهذا نسب إليه بيبرس وعرف بلقب البندقدارى،

١- د. سعيد عبد الفتاح عاشور : الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام، القاهرة، ١٩٩٠ ، ص٢٠٠ .

وتذكر المصادر أن أصل اسم قطز هو: محمود بن مودود، وأنه ينتسب إلى بيت الملك فى خوارزم- ابن أخت جلال الدين خوارزمشاه، ولما قضى التتار على ملك هذه الأسرة كان قطز من السبايا الذين حملوا إلى دمشق، وهناك بيع الرقيق للسطان أيبك التركمانى ويقال أن كلمة قطز معناه بالتركية الكلب الشرس، وهذا يتضح أصله التركى، د. أحمد مختار العبادي : المرجع السابق، ص١٣٢ .

ثم انتقل بيبرس إلى خدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب الذى لم يلبث أن منحه حريته مما أعطاه الفرصة كاملة لإثبات شجاعته وفروسيته ، ثم انتقل إلى خدمة ابنه تورانشاه بعد وفاته، ثم صار من زعماء المماليك البحرية بعد مصرع تورانشاه [١]

وبدخول بيبرس قلعة الجبل اتخذ لقب «السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى» ، وأرسل إلى الملوك والأمراء فى الشام واليمن وسائر الأقطار ليعترفوا بسلطنته ، وسعي لإحياء الخلافة العباسية بالقاهرة بعد سقوطها على يد التتار عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م فى بغداد، ومن ثم استدعى أميرا عباسيا هو أحمد بن الظاهر بن الناصر العباسى ، وقد وصل فعلا مصر، فاستقبله بيبرس بالحفاوة والإكرام ، ثم عقد مجلسا بالقلعة حيث شهد القضاة والعلماء بصحة نسب الخليفة، فبايعه السلطان الظاهر بيبرس الخليفة الجديد- الذى لقب بالمستنصر - وتبعه القضاة والعلماء وسائر الناس[٢].

وبمبايعة الناس للأمير أحمد بن الظاهر العباسى خليفة للمسلمين ومقره القلعة قام الخليفة الجديد بتقليد الظاهر بيبرس السلطنة ، وتم ذلك فى حفل كبير أقيم بعد أيام ، وبذلك تحقق لبيبرس ما أراد ، وصار يتولى منصبه بتفويض من السلطة الشرعية العليا فى العالم الإسلامى، وهى الخلافة، وحسب السلطان الظاهر بيبرس أن الخليفة المستنصر بالله قلده البلاد الإسلامية وما سيفتحه من بلاد الكفار، وبذلك أضفى على نفسه وعلى حكمه صبغة شرعية ، ومنذ ذلك الوقت صارت السكة تضرب باسمى السلطان والخليفة ، كما صار يدعى للخليفة على منابر الجوامع يوم الجمعة قبل الدعاء للسلطان[٣].

وقد توفى الملك الظاهر بيبرس فى الثامن والعشرين من شهر المحرم سنة ٨٧٦هـ / ٣٠ يونيو عام ١٢٧٧م ، بعد أن تجاوز الخمسين من عمره، بعد فترة حكم طالت إلى سبع عشرة سنة وشهرين واثنى عشر يوما ، وكانت وفاته بدمشق فدفن قرب داريا ببلاد الشام حسب وصيته ، وتولى ابنه «بركة خان» عرش السلطنة بعد أبيه الذى لم يطل حكمه طويلا حتى نجح سيف الدين قلاوون فى استخلاص العرش لنفسه [٤].

١- د. قاسم عبده قاسم وآخر: الأيوبيين والمماليك ، التاريخ السياسى والعسكرى ، القاهرة ١٩٩٦ ، ص١٤٨ .

٢- د. سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق ص٢٠٥ .

٣- نفس المرجع ص٢٠٦ .

٤- د. قاسم عبده قاسم وآخر : المرجع السابق ص١٦٩-١٧٠ ، وكان بيبرس قد زوج ابنه بركة خان من ابنة سيف الدين قلاوون لكى يضمن له ولاء هذا الأمير وبقية المماليك.

الفصل الثانى

الدولة العثمانية والوطن العربى

- مقدمة .
- أولا الوطن العربى .
- ثانيا : الدولة العثمانية.

مقدمة :

يعتبر تاريخ العرب الحديث مجالا خصبا للدراسات العلمية بما يشتمل عليه من حركات دنياميكية حددت مسار تاريخ الشعوب العربية على امتداد الوطن العربى. وإذا كان الدين الإسلامى قد أوجد منذ القرن السابع الميلادى حركة ديناميكية ذات تأثير ثقافى كبير ودائم فى كل بلد وصل إليه مستندا إلى الإسلام كعقيدة وإلى اللغة العربية كوسيلة لنشر هذه العقيدة وحفظها، فإن الشعوب العربيةالتى حملت الفكرة العربية مع العقيدة الإسلامية قد حافظت على جوهر الفكرة وأصل العقيدة.

ويبدأ تاريخ العرب الحديث بدخول العثمانيين فاتحين للأقطار العربية أوائل القرن السادس عشر بدءا بالعراق عام ١٥١٤ ثم الشام عام ١٥١٦م فمصر والحجاز عام ١٥١٧ فالجزائر عام ١٥١٨ م فطرابلس الغرب عام ١٥٥١م فتونس عام ١٥٧٤م. كما ينتهى مع نهاية الحرب العالمية الأولى ليبدأ التاريخ المعاصر للأمة العربية .

وفى تناول تاريخ العرب الحديث لابد أن نتعرض لموقع الوطن العربى وظروفه الجغرافية وظروفه السياسية قبل قدوم العثمانيين، والعلاقات التى ربطت بين أقطار الوطن العربى منذ القرن الحادى عشر الميلادى الذى شهد غزوات الصليبيين للأرض العربية حتى القرن السادس عشر عند ماجاء العثمانيون فاتحين للأقطار العربية .

أولا : الوطن العربى :

الوطن العربى يشمل من الناحية الجغرافية تلك الأرض الممتدة من إيران شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا ومن البحر المتوسط شمالا إلى المحيط الهندى والبحر العربى ووسط أفريقيا جنوبا، وهى مساحة كبيرة تقارب مساحة القارة الأوروبية، ولو اجتمعت الدول العربية كلها فى دولة واحدة لكانت الدولة الثانية في العالم من حيث الامتداد بعد الاتحاد السوفيتى(١).

ومن الأمور الجديرة بالملاحظة بالنسبة لمساحة الوطن العربى وامتداده أن هذه المساحة تمثل رقعة واحدة متصلة لاتكاد تفصل بينها فواصل طبيعية فلا يوجد داخلها بحار واسعة أو صحراوات شاسعة أو جبال مرتفعة، كما أن حدود الوطن العربى مع غيره من الأقطار غير العربية حدود طبيعية سواء فى المشرق أو المغرب، ففى المشرق البحر المتوسط والجبال من الشمال الغربى والمحيط الهندى وبحر العرب وخليج عمان والخليج العربى من الجنوب والجنوب الشرقى، وفــى المغرب البحر المتوسط من الشمال والصحراء الكبرى وخط تقسيم المياه بين نهرى النيـل والكنغو وهضبة البحيرات وهضبة الحبشة من الجنوب.

وتقع الأرض العربية مناخيا بين المنطقة المعتدلة والمنطقة المدارية وتمتد من خط عرض ٤ درجة إلى خط عرض ٣٧ درجة شمالا، وهذا الامتداد ليس عيبا أو له آثار سلبية بل على العكس من ذلك فإنه امتياز للوطن العربى وآثاره إيجابية على نشاط السكان وتعدد الغلات الزراعية بما يساعد على التكامل بين أقطار الوطن العربى ويدفعها إلى الارتباط والوحدة لمصلحة كل الأقطار.

وأما سكان الوطن العربى البالغ عددهم حوالى خمسمائة مليون نسمة فإنهم يتميزون بتجانس عنصرى أى أنهم ينتمون إلى جنس واحد ينتمى إلى المجموعة الجنسية المعروفة بجنس البحر المتوسط ثلثهم تقريبا فى قارة آسيا والباقى فى قارة أفريقيا، ولا يقلل من وحدة الجنس فى أقطار الوطن العربى وجود قلة زنجية جنوب السودان أو أقلية كردية فى شمال العراق.

وقد حاول المستعمرون الأوروبيون أن يكرسوا فرقة وانقسام العرب وبعدهم عن بعضهم البعض بترويج الادعاءات غير الحقيقية والقائلة بوجود اختلاف جنسى بين العرب، بأن أهل

١- د. عزة النص : أحوال السكان فى العالم العربى ص٣٢ .

الشام فينيقيون وأهل العراق أشوريون والمصريون فراعنة والسودانيون أفارقة، وأهل شمال أفريقيا بربر وهذه ادعاءات مغرضة لأنه ثابت علميا أن هذه الصفات التى ألصقت بالعرب هنا وهناك فى أقطار الوطن العربى إنما هى صفات ثقافية وليست صفات جنسية كما أنه من الثابت أن العرب يرجعون إلى أصل واحد..

ولعل الوحدة الثقافية التى تظلل أقطار الوطن العربى من أهم علاماته المميزة. ذلك أن اللغة العربية هى لغة كل العرب فى الوطن العربى، وهى اللغة السائدة فى مشرقه ومغربه ولا يقلل من سيادتها وجود لهجات محلية مشتقة من اللغة العربية ذاتها، أو وجود لغة خاصة بالأقلية الزنجية فى جنوب السودان واللغة الخاصة بالبربر فى أقطار شمال أفريقيا، علما بأن الأكراد والبربر يتكلمون اللغة العربية.

وأما الدين الإسلامى الذى هو دين غالبية العرب فى الوطن العربى الذين تصل نسبتهم أكثر من ٩٠٪ من عدد سكان الوطن العربى، فإنه يعتبر من عوامل الوحدة الثقافية بين أقطار الوطن العربى، ورغم وجود أقلية مسيحية وأقلية ضئيلة يهودية فإن ارتباط المسيحية والاسلام ساعد على الوحدة العربية بين العرب فى الوطن العربى الواحد.

ويشمل الوطن العربى جناحين أحدهما فى أسيا والثانى فى أفريقيا، فأما الجناح الأسيوى فيضم ما عرف بمنطقة الهلال الخصيب، ومنطقة المربع العربى، والهلال الخصيب عبارة عن قوس أو هلال يبدأ طرفه الشرقى فى حوض نهرى دجلة والفرات أى العراق - النصف الشرقى من الهلال - ثم ينحرف إلى الغرب ليضم إليه سوريا ولبنان، ثم ينحدر إلى الجنوب ليشمل فلسطين والأردن. وقد بقى النصف الغربى من الهلال قرونا عديدة يعرف باسم سوريا أو بلاد الشام إلى أن تفككت وحدته بعد الحرب العالمية الأولى(١) .

ووحدات الهلال الخصيب السياسية هى : العراق، سوريا، لبنان، المملكة الأردنية الهاشمية، وفلسطين، وأما المربع العربى فيشمل شبه الجزيرة العربية ويضم الوحدات السياسية التالية: المملكة العربية السعودية والجمهورية العربية اليمنية، وجمهورية اليمن الديموقراطية *، ودولة الكويت، ودولة قطر، ودولة البحرين، ودولة الإمارات العربية المتحدة ثم سلطنة عمان.

١- د. محمد أنيس : الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر ، ص . ج.

* تم توحيد اليمنين عام ١٩٩٠ تحت اسم الجمهورية اليمنية.

ويضم الجناح الأفـريقى من الوطن العـربى كـلاً من جـمـهـورية مـصـر العـربيـة، وجمهورية السودان الديموقراطية و الجمهورية العربية الليبية، والجمهورية التونسية والجمهورية الجزائرية الديموقراطية، والمملكة المغربية، والجمهورية الموريتانية الاسلامية، وجمهورية الصومال وجمهورية جيبوتى.

وإذا كانت صورة الوطن العربى الراهنة بهذا التفتت والانقسام الذى كان نتيجة لجهود وسياسة الاستعمار. فقد كان هذا الوطن عند ظهور الإسلام فى شبه الجزيرة العربية وعند تأسيس الدولة العربية الإسلامية قد تأثر فى القرن السابع الميلادى بحركة الإسلام الديناميكية وبالحركة العربية التى ظهرت بها قوة اللغة العربية التى رافقت الإسلام كدين فى انتشاره السريع، وقد أثرت الحركتان العربية والاسلامية على المجتمع العربى فى أنحاء الوطن العربى من القرن السابع الميلادى حتى الوقت الحاضر، وظهر تأثيرهما فى جميع مرافق حياة المواطن العربى .

وتعتبر حضارة الوطن العربى الإسلامية العربية خلاصة تفاعلات بين ثقافات واتجاهات وأجناس وشعوب مختلفة تآلفت وامتزجت فى ظل الخـلافة الاسلامية التى ظهرت أولا فى شبه الجزيرة العربية عندما ظهر الإسلام وانتشر فى أيام الخلفاء الراشدين، ثم فى ظل دمشق عاصمة الأمويين، فبغداد عاصمة العباسيين، ثم فى ظل القاهرة عاصمة آخر خلافة عربية.

وعلى الرغم من انتقال مركز السلطة من مكة والمدينة المنورة إلى دمشق فبغداد فالقاهرة، فقد وجدت وحدة مشتركة بين أقطار الوطن العربى كان أساسها كما ذكرنا وحدة الجنس والأرض والثقافة المتمثلة فى اللغة العربية والدين الاسلامى، وكان قوام الوحدة الثقافية العربية الإسلامية ثلاثة هى :

١ – الوحدة الروحية التى تجمع شعوب المنطقة العربية.

٢ – ارتباط السلطة الدينية بالسلطة الزمنية، فقد كان الخليفة هو الزعيم السياسى إلى جانب كونه الزعيم الدينى للمسلمين.

٣ – شيوع مبادىء الإخاء والمساواة التى تحطم الحواجز بين الناس دون النظر إلى الجنس أو اللون، وهذه المبادىء تستند إلى شرائع الدين الإسلامى .

وقد تعرض الوطن العربى لانقسامات داخلية بعد ضعف الخلافة العباسية حتى رأينا دويلات إسلامية تقوم هنا وهناك فى أنحاء الوطن العربى ولكنها لم تنفصل عن الخلافة

الإسلامية، كما لم يضع حكام هذه الدويلات أية قيود أو حواجز تحول دون انتقال المواطن العربى من قطر لآخر أو تحول دون اتصال العرب فى المغرب بإخوتهم عرب المشرق. بل استمر العرب وحدة شعبية وإن اختلفت حكوماتهم وتعددت دولهم، فبلاد العرب لكل العرب.

وكانت ظروف الوطن العربى فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى أى عند زحف العثمانيين نحو الوطن العربى على النحو التالى :

أولا : مصر والشام والحجاز تحت حكم سلاطين المماليك منذ انتهاء الدولة الأيوبية ووقوف المماليك ضد الخطر الصليبى فى الشام والخطر المغولى الذى دمر بغداد وكل سكانها عام ١٢٥٨م - ٦٥٦هـ، ولكن وحدة الشام ومصر تحت حكم المماليك استمرت بعد هزيمة المغول عام ١٢٦٠م ٦٥٨هـ فى عين جالوت حتى تم الزحف العثمانى واحتلال بلاد الشام ومصر عام ١٥١٧م.

ثانيا : العــراق . بقيت العراق تحت سيطرة بقايا الحكم المغولى منذ عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م حتى خضعت لدولة الشاه إسماعيل الصفوى الشيعية التى أسسها فى فارس عام ١٥٠٠ م وامتد بها إلى العراق عام ١٥٠٨م وأخذ يبسط بها المذهب الشيعى.

ثالثا : الخليج العربى، وتتكون أقطاره من مسقط وعمان وقطر والبحرين وإمارات الساحل المتصالح والكويت، فقد كانت تسكنها قبائل عربية تعمل بالتجارة واستخراج اللؤلؤ والرعى، وقد تعرض بعضها للاحتلال من قبل البرتغاليين أوائل القرن السادس عشر مثل البحرين ودولة هرمز التى كانت دولة مزدهرة مقرها على شاطىء الخليج وتضم الجزيرة المواجهة والتى تحمل نفس الاسم، أما عمان فقد كانت أكثر مناطق الخليج تنظيما سياسيا بسبب وجود إمامة المذهب الإباضى بجبال عمان بالداخل، كما كانت أقرب إلى المجتمعات الحضرية. وواضح من هذا أن أقطار الخليج العربى كانت تحكمها التنظيمات القبلية حتى أوائل القرن السادس عشر وهو الوقت الذى بدأ فيه الزحف العثمانى على أقطار الوطن العربى .

رابعا : اليمن والجنوب العربى. كان الأئمة الزيديون يحكمون اليمن ويعترفون لدولة المماليك فى مصر بالسيادة عليهم شأنهم فى ذلك شأن أشراف مكة الذين يحكمون الحجاز، وأما الجنوب العربى - وهى حضرموت وعدن - فكانت تابعة لليمن ولم تنفصل عنها قبل قدوم العثمانيين إلى اليمن .

خامساً : نجد والأحساء هذه المنطقة تمثل أكبر قسم من شبه الجزيرة العربية، وكانت تخضع لتنظيمات قبلية طبقا للقبائل التى تسكن تلك الجهات .

سادسا : السودان. فقد كان انتشار الإسلام فيه أيام حكم المماليك لمصر دافعا لكى تعيش القبائل السودانية فى ظل الولاء للمماليك، ولكن السودان لم يكن موحدا ولم يكن الحكم فيه مركزيا حتى قامت دولة الفونج الإسلامية عام ١٥٢٢ م وحاولت توحيد وادى النيل فى دولة إسلامية عربية بعد أن تعددت دوله ومملكاته.

سابعا : ليبيا : كانت ليبيا تعيش فى ظل دويلات صغيرة متعاقبة حتى أحتلها الأسبان عام ١٥١٠م ثم أهداها الأسبان إلى فرسان القديس يوحنا الذين كانوا يتخذون من جزيرة مالطة مركزا لنشاطهم الصليبى والقرصنة فى الحوض الغربى للبحر المتوسط، عام ١٥٣٥م . وقد ظل فرسان القديس يوحنا فى ليبيا حتى طردهم منها العثمانيون عام ١٥٥١م.

ثامنا : تونس : كانت تحكمها الدولة الحفصية من عام ١٢٢٨ - ١٥٣٤ م وقد امتد سلطانها فى بعض فترات التاريخ شرقا إلى طرابلس، وحكمها أكثر من عشرين أميرا من الأسرة الحفصية، وقد امتدت الدولة إلى الأندلس أيضا فى بعض فترات التاريخ.

تاسعا : الجزائر : حكمها أمراء أسرة بنو عبد الوديد الذين اتخذوا من تلمسان مركزا لدولتهم فى الجزائر، وهم من أهل البلاد المتحضرين وبلغ عدد من تولى الحكم منهم عشرة أمراء، بين عامى ١٢٣٥- ١٤٠٠م، حتى سقطت فى يد المسيحيين الأسبان .

عاشراً : مراكش : حكمها أمراء بنى واطس ومركزهم فاس من عام ١٤٧٠ إلى ١٥٥٠ م ووقفوا يواجهون المسيحيين الأسبان، ويواجهون الأسرة الشريفة فى مراكش حتى ظهر الأسطول التركى فى البحر المتوسط أمام الشواطىء المغربية.

ولنا أن نتساءل عن طبيعة العلاقات العربية الأوروبية قبيل زحف العثمانيين على أقطار الوطن العربى ؟ إن الإجابة على هذا التساؤل يجب أن تشمل بيان نشاط كل من البندقية وجنوة، وأسبانيا وفرسان القديس يوحنا والبرتغال إلى جانب إبراز آثار الغزو الصليبى للأقطار العربية.

فيما يتعلق بكل من البندقية وجنوة فقد كانتا حريصتين على إقامة علاقات طيبة وسلمية مع أقطار الوطن العربى فى أفريقيا الشمالية وفى آسيا باعتبار هذه الأقطار تطل على البحر

المتوسط وهى طريق التجارة مع الهند، وكلا البلدين - البندقية وجنوة - تركز نشاطها في التجارة، ولذلك نجدهما تتنافسان للفوز بالعلاقات الأقوى والأحسن مع أقطار الوطن العربى وخاصة مصر قلب هذا الوطن وبها أقصر طريق إلى الهند.

وفيما يتعلق بأسبانيا فإن هناك تاريخ بعيد منذ الفتح العربى للأندلس وإقامة الدولة الأموية هناك ثم الدويلات المنقسمة على نفسها أمام تزايد القوى المسيحية واتحادها حتى تم إجلاء آخر وجود إسلامى من أسبانيا عام ١٤٩٢ م وعندئذ اتخذت أسبانيا سياسة صليبية انتقاما للمد العربى الإسلامى فى أراضيها وعملت أساطيل الأسبان علي مهاجمة السواحل العربية فى شمال أفريقيا بل واحتلال بعض هذه الأقطار كما سبق أن ذكرت، وقد استمرت العلاقات الأسبانية العربية متوترة وغير طيبة وحتى مجىء العثمانيين إلى الأقطار العربية وصدامهم مع الأسبان.

وفيما يتصل بفرسان القديس يوحنا، فقد كانوا بقايا الغزو الصليبى لفلسطين ولما تم طردهم منها انتقلوا إلى جزيرة رودس وبقوا بها يهددون أقطار المشرق العربى حتى طردهم الأتراك العثمانيون منها فانتقلوا إلى جزيرة مالطة ومنها مارسوا نشاطا صليبيا بالتعرض لسفن وساحل الأقطار العربية الإسلامية فى شمال أفريقيا ووصل الأمر إلى احتلالهم لطرابلس عام ١٥٣٥م حتى طردهم منها الأتراك العثمانيون عند مجيئهم إلى طرابلس عام ١٥٥١م.

وأما ما يتعلق بالبرتغال فكانت تشارك الأسبان عداءهم للعرب والمسلمين وتشارك أسبانيا أيضا فى ضرورة اتباع أسلوب صليبى ضد الأقطار العربية والإسلامية ومن ثم اتجهت البرتغال إلى أعمال الكشف الجغرافى المرتبط بمحاربة المسلمين أينما وجدوا، فلما نجح البرتغاليون فى الوصول إلى مياه الهند اصطدموا بالمسلمين العرب بزعامة سلطنة المماليك فى مصر والشام وكانت الهزيمة للجانب العربى عام ١٥٠٩ م أمام بومباى فيما عرف بمعركة ديو البحرية، ومن ثم استولت البرتغال على جزيرة هرمز المتحكمة فى مدخل الخليج العربى، وجزر البحرين فى الخليج، وأخذت تهدد وتتعقب سفن العرب والمسلمين العاملين فى الهند والشرق الأقصى لحرمانهم من أن يكون لهم نشاط ينافسهم فى هذه الجهات التى احتكروها لأنفسهم .

وفيما يتعلق بآثار الغزو الصليبى فإنه يمكن القول بأنه نظرا لفشل الغزو الصليبى لفلسطين بطرد الصليبيين على يد العرب المسلمين، لم تنته الروح الصليبية الأوروبية ضد أقطار الوطن العربى بل يمكن القول أن هذه الروح كانت المحرك للمشروعات الاستعمارية

الأوربية في أقطار الوطن العربي لا في القرن التاسع عشر فقط بل قبل ذلك وبعدذلك وإلى الآن باعتبار أن الحركة الصليبية هي في واقع الأمر حركة استعمارية اتخذت من الدين ستاراً لتحقيق أهدافها الاستغلالية.

ثانيا :الـدولة العثمـانية

تنسب الدولة العثمانية إلى عثمان بن أرطغرل مؤسسها بوسط آسيا الصغرى في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي - وبالتحديد عام ١٢٩٩ م وهو تاريخ ارتقاء عثمان الإمارة - وفي عصورها الأولى أطلق عليها المؤرخون العثمانيون اسم «دولت علية» أي الدولة العلية، ثم أطلقوا عليها اسم «سلطنت سنية» أو السلطنة السنية، كما أطلق عليها بعد اتساع ممتلكاتها في أوروبا وآسيا وأفريقيا اسم «إمبراطور لق عثمانلي» أي الإمبراطورية العثمانية وعرفت أيضا بالاسم الذي ارتاح له الأتراك العثمانيون وهو «دولت عثمانلي» أي الدولة العثمانية .

وكان العثمانيون يتمسكون بكلمتي «عثمانلي» و «عثمانيين» لقبا مميزا لهم تعبيرا عن اعتزازهم بانتسابهم إلى عثمان الأول - كما ذكرنا - من ناحية واستعلاء على هذه الأجناس التركية الآسيوية المتبربرة في نظرهم من ناحية أخرى. وظل ذلك الموقف العثماني من لفظة تركي حتى أوائل القرن العشرين. على الرغم من أن لغتهم كان يطلق عليها في جميع العصور التاريخية اللغة التركية[١] .

لقد جاء بناء الدولة العثمانية الفتية أوروبيا من البداية، حيث انطلقت الجيوش العثمانية من شبه جزيرة آسيا الصغرى وانقضت على الدولة البيزنطية الهرمة المتاخمة لها في شبه جزيرة البلقان، وأخذت تهزمها في كل الميادين حتى استطاع محمد الثاني فتح مدينة القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية عام ١٤٥٣م واتخذها عاصمة لدولته وأطلق عليها اسم «إسلام بول ». ولم يتوقف العثمانيون في زحفهم بشرق أوروبا إلا بعد أن وصلوا إلى أبواب مدينة «ڤينا» عاصمة النمسا عام ١٥٢٩[٢].

١- د. عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج١ ، ص١١-١٢ .

٢- نفس المرجع ، ص١٦-١٧ .

وكانت أقطار الوطن العربى والإسلامى تنظر إلى انتصارات العثمانيين وفتوحاتهم على حساب الإمبراطورية البيزنطية نظرة ملؤها الاحترام والحماس والتأييد فى الوقت الذى جعلت فيه هذه الانتصارات العثمانيين ينظرون إلى أنفسهم نظرة حماة الدين الإسلامى والأقطار الإسلامية.

يعود أصل الأتراك سكان شبه جزيرة آسيا الصغرى - إلى السلاجقة الذين ينتمون إلى «الغز» الذين كان موطنهم يمتد من حدود الصين حتى شواطىء بحر الخزر (قزوين) وكانوا على اتصال مستمر ببلاد ماوراء النهر خاصة مناطق التركستان الشرقية .

ويرجع تاريخ الأتراك الذين سكنوا هضبة الأناضول إلى أوائل القرن السابع الهجرى الموافق لأوائل القرن الثالث عشر الميلادى، عندما هاجرت مجموعة من أتراك وسط آسيا هربا من الفظائع التى ارتكبها جنكيز خان وأولاده ضد المسلمين هناك، وهذه المجموعة سارت حتى وصلت إلى شبه جزيرة آسيا الصغرى بزعامة «أرطغرل» الذى انضم إلى أحد فريقين من سكان الأناضول يتقاتلان، وعندما انتصر الفريق الذى نصره أرطغرل ورجاله منحهم السلطان السلجوقى المنتصر - وكان سلطانا على قونية - أرضا خصبة متسعة تقع على الضفة اليسرى لنهر سقاريا وسفوح جبال أرمينيا وهضابها على حدود الإمبراطورية البيزنطية، ثم نصبه أميرا على مقاطعة إسكى شهر.

وترجع تسمية الإمارة التركية هذه باسم إمارة عثمان أو الإمارة العثمانية إلى عثمان ابن أرطغرل الذى يرجع تاريخ ميلاده إلى عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م ، ومن الصُدف أن يكون مولد عثمان فى نفس السنة التى غزا فيها المغول بقيادة هولاكو بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وفى عام ٦٩٩ هـ / ١٣٠٠ م نجح عثمان فى صد هجوم المغول على آسيا الصغرى خاصة بعد أن هرب من وجههم آخر سلاطين السلاجقة حيث قتل فى بلاد امبراطور الدولة البيزنطية. ومن ثم بسط عثمان سلطانه على الإمارات التركية الأخرى فى أسيا الصغرى، وضرب السكة باسمه وجعل الدعاء فى الخطبة له واستمر فى التوسع على حساب الدولة البيزنطية حتى بلغ شواطىء البحر الأسود وبحر مرمرة ، وفتح له ابنه «أورخان» مدينة «بروسة» فاتخذها عاصمة له وتوفى بها عام ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م.

وتوالى على حكم الدولة العثمانية سلاطين عظام لمدة قرنين ونصف تقريباً أمثال أورخان بن عثمان الذى أنشأ فرق الإنكشارية للمساعدة فى محاربة جيوش الإمبراطورية البيزنطية،

والذى نزلت قوات دولته لأول مرة فى الأراضى الأوروبية واستولت على «تراقيا» ومات عام ٧٦١ هـ/ ١٣٥٩هـ.

و «مراد الأول بن أورخان» الذى دخلت قواته مدينة «أدرنة» واستولت عليها من أيدى القوات البيزنطية وأصبحت هذه المدينة عاصمة للدولة العثمانية ابتداء من عام ٧٦٨هـ / ١٣٦٦ م ، إلى جانب الاستيلاء على مقدونيا وسالونيك ومدينة صوفيا حاضرة الصرب وبلغاريا ، كما استولى « مراد الأول» على كل الإمارات الباقية والتى قامت على أنقاض الأتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى ومنها أنقرة وقونية وقرمان وقرمه سى.

وعندما قتل «مراد الأول» غدرا على يد أمير صربى خلفه ابنه «بايزيد الأول» عام ٧٩٢هـ/ ١٣٨٩ م ، الذى هزم تحالف الصليبيين من الألمان والفرنسيين والروس بقيادة ملك المجر «سيجسموند»، ذلك التحالف الذى تشكل بهدف طرد العثمانيين المسلمين كما أن «تيمورلنك» بدأ الاغارة على أطراف الدولة فى الأناضول واستولى على بعض بلادها حتى وفاة «بايزيد الأول» عام ١٤٠٣م .

وبوفاة بايزيد الأول خلفه ابنه «محمد الأول» الذى قضى عشر سنوات يقضى على الفتن الداخلية سواء تلك التى حدثت بين أخوته للوصول إلى الحكم أو الدراويش أو أدعياء التصوف حيث ارتقى الحكم فى عام ٨١٦هـ / ١٤١٣م وإن لقى بعض الهزائم فى بحرايجة على يد أسطول البندقية أو أمام صلابة أهل المجر، وقد توفى عام ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م.

وخلفه «مراد الثانى» الذى قضى مدة حكمه فى القضاء على ثورة القرمانليين بآسيا الصغرى، وفى محاربة أمراء الصرب والبشناق والأفلاق والمجر بزعامة القائد المجرى الشهير «هونياد»، تلك الحرب التى انتهت عام ١٤٤٨م بخضوع الصرب كلها للسلطان العثمانى، كما حارب مراد الثانى الألبان بزعامة قائدهم «اسكندر بك» الذى ظل يقاتل العثمانيين فى عهد كل من مراد الثانى ومحمد الثانى .

وكان «محمد الثانى» المشهور باسم الفاتح قد خلف أبوه مراد الثانى الذى مات ودفن بأدرنة عام ١٤٥١م ، وقد انصرف إلى القضاء على فتنة القرمانليين بآسيا الصغرى التى لم تكن قد خمدت نهائيا فى عهد مراد الثانى، كما أنه عزم على فتح القسطنطينية ليتخلص من مؤامرات الإمبراطور البيزنطى، وقد استطاعت الجيوش العثمانية دخول المدينة من فتحة بالسور وتحولت كنيسة أيا صوفيا إلى مسجد، وأطلق عليها اسم «إسلام بول» أى مدينة

الإسلام ورُفع عليها العلم التركى ذو الهلال. كما نجح محمد الثانى فى إخضاع بلاد المورة وبلاد الصرب وألبانيا، كما سلّمت له كل جزر الأرخبيل اليونانى، واهتم بأعمال العمران والعلم والفن حتى توفى عام ١٤٨١م.

وبعد وفاة «محمد الثانى» خلفه ابنه «بايزيدالثانى»، وكانت أهم الأحداث في عهده تأزم العلاقات بينه وبين سلاطين المماليك فى مصر والشام بسبب التجاء «جم» أخ «بايزيد الثانى» إلى مصر، وقيام الاسطول العثمانى بقيادة «كمال ريس» بنجدة مسلمى غرناطة الفارين بدينهم من ملاحقة الأسبان الكاثوليك المتعصبين والدخول فى حرب مع أساطيل البندقية وأسبانيا والبابوية .

وفى أوائل القرن السادس عشر الميلادى قفز « سليم بن بايزيد» إلى الحكم بعد أن خلع والده من عرش السلطنة العثمانية، وكانت أهم أحداث عهده مايلى :

١ - تعقب معتنقى المذهب الشيعى فى أملاك الدولة الشرقية وقضى عليهم.

٢ - تخلص من منافسيه على الحكم : إخوته وأمراء الأسرة.

٣ - شن حرب ضد الشاه إسماعيل الصفوى شاه فارس الشيعى عام ١٥١٤م وهزيمة الأخير فى موقعة «جالديران» وهربه أمام تقدم «سليم الأول» إلى العاصمة الفارسية «تبريز»، ثم العودة إلى استانبول.

٤ - شن حرب ضد سلطنة المماليك بالاستيلاء على الشام عام ١٥١٦م ومقتل «قانصوه الغورى» سلطان المماليك فى مرج دابق قرب حلب، ثم التقدم إلى مصر والإستيلاء عليها عام ١٥١٧م وشنق السلطان «طومانباى».

وبعد وفاة «سليم الأول» خلفه فى السلطنة ابنه «سليمان » عام ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م. وقد شهدت الدولة فى عهده عدة أحداث أهمها الاستيلاء على جزيرة رودس وطرد محتليها فرسان القديس يوحنا، واقتحام مدينة «بلغراد» عاصمة الصرب والاستيلاء عل بلاد المجر وعاصمتها «بودا بست» عام ١٥٢٦م، وحاول الاستيلاء على مدينة «ڤينا» عاصمة النمسا بعد أن هزم النمساويين عام ١٥٢٩م، ولكنه فشل. إلى جانب تأييد عمليات الجهاد البحرى الإسلامى ضد الأسبان وفرسان القديس يوحنا فى الحوض الغربى للبحر المتوسط بقيادة «بابا عروج» و «خير الدين بارباروسا» و «سنان باشا» و «طرغود باشا» وغيرهم، بالإضافة إلى إرسال سفن

حربية عثمانية لمساعدة مسلمى الهند ضد البرتغاليين. كما يرجع الفضل إلى سليمان فى وضع نظام حكم للدولة بتقسيمها إلى ولايات. ومن ثم عرف بالقانونى أو المشرع .

وتوفى «سليمان القانونى» فى، أغسطس عام ١٥٦٦م أثناء معاركه مع المجريين فخلفه ابنه «سليم الثانى» الذى تم فى عهده الإستيلاء على جزيرة قبرص بعد هزيمة أساطيل أسبانيا والبندقية والبابوية، وان اتسم عهده بالضعف حتى ترك لليهود فرصة التحكم فى الأمور الاقتصادية.

وجاء بعد سليم الثانى ابنه «مراد الثالث» الذى رغم استمرار مظاهر ضعف الحكم فى عهده إلا أن الجيش العثمانى حقق انتصارات على الفرس بعد اختراق القوقاز والاستيلاء على «تفليس»، مما اضطر الشاه «عباس الكبير» إلى التنازل للعثمانيين عن «أذربيجان» و «الكرج» والكف عن مهاجمة الخلفاء الراشدين الثلاثة أبو بكر وعمر وعثمان فى بلاده.

وخلف مراد الثانى سلاطين ضعاف لم يسجل لهم التاريخ أحداثا مهمة مثل محمد الثالث، وأحمد الأول ، وعثمان الثاني، ومصطفى الأول. ثم تولى الأمر السلطان «مراد الرابع» الذى قضى على ثورة الجند الأنكشارية واسترد بغداد من الفرس وقضى على ثورة الأمير«فخر الدين المعنى» الدرزى بلبنان وتوفى عام ١٦٤٠م، وبعده عاشت الدولة عصرا من الهزائم بسبب ضعف السلاطين أمثال «إبراهيم»، و«محمد الرابع»، و «سليمان الثانى»، و «مصطفى الثانى، وقد هيأ الله لسلاطين آل عثمان الضعاف هؤلاء أسرة ألبانية عرف رجالها بالكفاية والحزم والذكاء هى أسرة «كوبريلى» التى تولت زمام الأمور فى استانبول فى منصب الصدارة العظمى لمدة ٥٠ سنة من عام١٦٤٠م إلى عام ١٦٩١م، وقد استطاع أفراد هذه الأسرة الحفاظ على كثير من مكاسب الدولة فى حروب متصلة مع فارس ومع الدول الأوروبية.

وبظهور السلطان «مصطفى الثالث» عام ١١٧١هـ/ ١٧٥٧م يستمر الصراع العثمانى مع روسيا وفارس وفيه خسر الأتراك العثمانيون كثيرا من ممتلكاتهم فى أوربا لصالح روسيا – مثل القرم – وإقرار الامتيازات الأجنبية للروس فى الدولة العثمانية واستمر هذا الوضع في عهد السلطان «عبد الحميد الأول» الذى حدثت فى عهده عقد معاهدة «كجوك قينارجة» بين الدولة العثمانية وروسيا بعد هزيمة العثمانيين، وذلك عام ١٧٧٤م.

وقد بدأ عصر الإصلاح فى الدولة العثمانية المعروفة باسم التنظيمات، وبدأ الأخذ بهذه التنظيمات فى عهد السلطان «سليم الثالث» وفى عهد السلطان «محمود الثانى» الذى خلف سليم الثالث الذى قضى على ثورة الإنكشارية، واستقلت فى عهده كل من صربيا واليونان، ورغب محمد على الاستقلال بمصر بعد تدمير الأسطولين المصرى والعثمانى في حرب المورة عام ١٨٢٧م، وحدثت في عهده ماعرفت باسم حرب القرم بين الدولة العثمانية وروسيا .

وفى عهد السلطان «عبد العزيز» عام ١٨٦١م استقلت رومانيا عن الدولة وحصل «اسماعيل باشا» حاكم مصر على لقب خديوى وبعض الإمتيازات التى ميزته عن بقية باشوات الدولة.

وعندما تولى الحكم السلطان « عبد الحميد الثانى» عام ١٨٧٦م كلف وزيره «مدحت باشا» بإعداد دستور لحكم البلاد، ولكنه مالبث أن عزل الوزير وألغى الدستور، كما فقدت الدولة فى عهده أراضى كثيرة فى البلقان والقوقاز، وبدأ الغزو الاستعمارى لأملاك الدولة فاحتلت فرنسا تونس عام ١٨٨١م بعد استيلائها على الجزائر عام ١٨٣٠م، واحتلت بريطانيا مصر عام ١٨٨٢م، حتى حدثت ثورة حزب تركيا الفتاة عام ١٩٠٨م وأرغموا السلطان عبد الحميد الثانى على إعادة الدستور، ثم مالبث أن عزل عام ١٩٠٩.

تم اختيار السلطان «محمد رشاد الخامس» خلفا للسلطان عبد الحميد الثاني، وفى عهده ثارت شعوب البلقان ضد الدولة من جديد حيث لحقت هزائم بالدولة لولا وقوف قادة تركيا الفتاة أمثال «أنور باشا» و «مصطفى كمال»، كما دخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا والنمسا حيث خرجت منهزمة لتفقد بقية ممتلكاتها فى المشرق العربى إلى جانب فقدها لولاية طرابلس الغرب بموجب معاهدة «لوزان» عام ١٩١٢م.

وبعد الحرب العالمية الأولى تولى السلطان «محمد وحيد الدين» خلفا للسلطان محمد رشاد وفى عهده خاض قادة تركيا الفتاة النضال ضد غزاة بلادهم الفرنسيين والروس وإيطاليا، وذلك بين عامى ١٩٢٠ و ١٩٢٢م، حيث استطاعوا انتزاع أراضيهم واعتراف الجميع بذلك فى معاهدة «لوزان» عام ١٩٢٣م حيث تم جلاء اليونان والحلفاء عن استانبول وتراقيا الشرقية، وألغيت الامتيازات الأجنبية التى كان يتمتع بها الأجانب. وفى مارس ١٩٢٤م اتخذت الجمعية الوطنية التركية قرارا بإلغاء الخلافة وإخراج السلطان عبد المجيد خان آخر الخلفاء من البلاد، وقد آثار إلغاء الخلافة الإسلامية موجة من السخط والغضب فى البلاد الإسلامية، كما ثار الأكراد بأراضى تركيا الشرقية، ولكن قضى على ثورتهم.

واتخذ «مصطفى كمال» عدة خطوات بعد أن صار رئيسا للجمهورية التركية وعدة إجراءات بكتابة اللغة التركية بالأبجدية اللاتينية بدل الأبجدية العربية، وذلك عام ١٩٢٨م، ونبذ الطربوش لباسا للرأس وإحلال القبعة مكانه، وتتريك الأسماء والألقاب، وصار هو نفسه يعرف من عام ١٩٣٤م باسم «كمال أتاتورك» - أى أبو الأتراك - وصار اسم رفيق كفاحه «عصمت باشا» يعرف باسم «عصمت إينونو» نسبة إلى معركة إينونو المشهورة فى هزيمة اليونان بالأناضول خلال حرب التحرير.

وبتولية «مصطفى كمال» أتاتورك رئاسة الجمهورية التركية انتهى عهد الدولة العثمانية الممتد من عام ١٣٠٠ حتى عام ١٩٢٤، ليبدأ عهد الجمهورية التركية فى تاريخها المعاصر الممتد من عام ١٩٢٤ حتى الآن.

الفصل الثالث
نظام الحكم العثمانى

أولا : الزحف العثمانى وضم الأقطار العربية

ثانيا: إيجابيات نظام الحكم العثمانى

ثالثا : سلبيات نظام الحكم العثمانى

أولا : الزحف العثمانى وضم الأقطار العربية

ولنا أن نتساءل أيضا عن حقيقة الزحف العثمانى وأسبابه نحو أقطار الوطن العربى ؟ وللإجابة على هذا التساؤل نقول أن بناء الدولة العثمانية الفتية كان أوروبيا حيث انطلقت من شبه جزيرة آسيا الصغرى وانقضت على الدولة البيزنطية الهرمة المتاخمة لها فى البلقان. وأخذت تهزمها فى كل الميادين حتى فتحت القسطنطينية واستولت عليها واكتسحت شبه جزيرة البلقان. ولم يتوقف العثمانيون في زحفهم إلا بعد أن وصلوا إلى أبواب فينا عاصمة النمسا. وكانت أقطار الوطن العربى والإسلامى تنظر إلى انتصارات العثمانيين وفتوحاتهم على حساب الدولة البيزنطية نظرة ملؤها الاحترام والحماس والتأييد في الوقت الذى جعلت هذه الانتصارات العثمانيين ينظرون إلى أنفسهم نظرة حماة الدين الإسلامى والدول الإسلامية.

ولكن الدولة العثمانية بعد أن زادت فى التوسع غربا توقف الزحف أو كاد وفى مقابل ذلك وجدناها تتجه شرقا وتزحف نحو أقطار الوطن العربى لتستولى عليها. فما الذى دفع الدولة العثمانية إلى الاستيلاء على الأقطار العربية ؟

* هل أن الدولة العثمانية قد وصلت إلى درجة التشبع في فتوحاتها فى أوروبا ولم يعد أمامها فى نهمها للفتوحات سوى أقطار الوطن العربى. أو بعبارة أخرى أن الدولة العثمانية قد وصلت إلى أقصى مدى فى الغرب يمكن أن تصل إليه ولا يمكنها تجاوز هذا المدى فإذا أرادت التوسع فليس أمامها إلا الشرق ؟

* أو هل كان السبب هو رغبة الدولة العثمانية السنية المذهب فى الوقوف أمام خطر الصفويين الشيعة فى فارس الراغبين فى السيطرة على العالم الإسلامى ؟

* أو هل كان الدافع هو اتجاه الدولة العثمانية الفتية والقوية التصدى لأطماع البرتغال فى البحر الأحمر والخليج العربى ومداخلهما وإيقاف التهديدات والأخطار البرتغالية الموجهة ضد الأقطار العربية الإسلامية، وذلك بعد أن فشلت دولة المماليك فى مصر والشام فى القضاء على التهديدات والأخطار البرتغالية ؟

* أو هل كان الدافع هو رغبة العثمانيين فى شن حملات لتأديب الأسبان وفرسان القديس يوحنا في البحر الأبيض المتوسط والذين يهددون نشاط الأسطول العثمانى في هذا البحر كما يهددون أمن وسلامة الأقطار العربية الإسلامية المطلة على هذا البحر وخاصة فى شمال أفريقيا ؟

* أو هل كان الدافع لهذا الاتجاه العثمانى هو الأطماع لدى سلاطين آل عثمان فى تكوين امبراطورية مترامية الأطراف حول البحر المتوسط تجعل من هذا البحر بحيرة عثمانية ؟

وهذه الدوافع على كثرتها هى فى واقع الأمر من استنتاجات المؤرخين، ومن ثم تعددت، ولهذا وجب علينا أن نناقشها قبل أن نسجل رأينا حول الدافع الذى جعل العثمانيين يزحفون نحو الأقطار العربية.

بالنسبة للدافع الأول فنحن لا نستطيع أن نغفل أن الفتوحات العثمانية استمرت فى أوروبا فى عهد السلطان سليمان بن السلطان سليم حتى وصلت إلى أسوار فينا عام ١٥٢٩ م إلا أننا فى نفس الوقت لايمكن أن نغفل أن الدولة العثمانية وعاصمتها الأستانة لم يكن فى مقدورها أن تتوغل أكثر من هذا. فلكل دولة مدى معين في التوسع ودولة مركزها الأستانة من المعقول أن يقف مداها عند المجر (١).

وفيما يتصل بالدافع الثانى الذى يرجع اتجاه العثمانيين نحو الشرق إلى التصدى لأطماع الصفويين الشيعة، فإن المؤرخ البريطانى أرنولد توينبى Toynbee على رأس المؤرخين القائلين به، ولا يقلل من هذا الرأى كون السلطان سليم عند انتصاره على الشاه إسماعيل الصفوى فى موقعة جالديران عام ١٥١٤ ودخوله عاصمة الدولة الصفوية «تبريز» واستيلائه على مناطق العراق الشمالية. أنه لم يشأ أن يستمر فى زحفه داخل فارس وعاد إلى عاصمة

١- د. محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص١٠٠ .

ملكه لأن «اختلاف المذاهب بين العثمانيين السنيين والفرس الشيعة جعل العثمانيين لايرحبون بالسيطرة على فارس خوفا من عدم استتباب الأمور لهم فيها» (١).

وفيما يتعلق بالدافع الثالث والرابع والخاصين برغبة العثمانيين فى الوقوف أمام الخطر الاستعمارى الأوروبى من ناحية البرتغال والأسبان وفرسان القديس يوحنا فإننا نعتبر هذا الدافع نتيجة وليس سببا لاتجاه العثمانيين نحو أقطار الوطن العربى وإن كان يجب أن نذكر أن العثمانيين هم الذين طردوا فرسان القديس يوحنا من جزيرة رودس وساقوهم أمامهم حتى استقروا فى جزيرة مالطة.

أما بالنسبة للدافع الأخير والخاص برغبة سلاطين آل عثمان فى تكوين إمبراطورية مترامية الأطراف، فإنه رغم أنه من المحتمل أن يكون السلطان سليم قد تطلع إلى أن يضم إلى ملكه الأراضى المقدسة فى الحجاز، إلا أن فكرة ضم الشام ومصر ثم بقية البلاد العربية لم تكن فى ذهنه وفى مخططه ولكن الظروف هى التى أدت إلى حدوث هذا الضم فقد قال السلطان سليم للسلطان طومانباى بعد انكسار الأخير ووقوعه فى قبضة الأول مانصه. «والله ما كان قصدى أذيتك، ونويت الرجوع من حلب، ولو أطعتنى من الأول وجعلت السكة والخطبة باسمى ماجئت لك ولا دست أرضك» (٢) ولكن الهزائم التى حاقت بسلاطين المماليك أطمعت السلطان سليم فى احتلال ممتلكاتهم في الشام ومصر والحجاز، ومن ثم أغرته انتصاراته ليواصل فتح بقية الأقطار العربية.

والرأى عندى هو أنه لا يمنع من أن تكون معظم هذه الدوافع أو كلها مسئولة مسئولية مشتركة عن اتجاه الدولة العثمانية إلى الشرق والتوسع بالاستيلاء على الأقطار العربية، وإذا كانت ظروف الدولة العثمانية القوية قد هيأت لها التوسع، فإن ظروف الوطن العربى قد سهلت على الدولة العثمانية تحقيق اتجاهها للتوسع..

كانت العراق وفارس قد عانت من الدمار والفوضى نتيجة الإغارات المغولية المدمرة الشىء الكثير حتى استطاعت الدولة الصفوية فى أوائل القرن السادس عشر تكوين وحدة سياسية من العراق وفارس على أساس دينى شيعى يعادى المذهب السنى الذى تدين به الدولة العثمانية بانتصاراتها على الدولةالرومانية الشرقية (البيزنطية) فى الغرب .

١- ساطع الحصرى: البلاد العربية والدولة العثمانية ص٤١ .

٢- ابن زنبل أحمد الرمال : آخرة المماليك فى مصر ص١٢٦ .

وإذا كانت مصر والشام قد نجتا من الإغارات المغولية المخربة بواسطة سلاطين المماليك، إلا أن دولة المماليك رغم ضخامتها - حيث كانت لها السيادة على الحجاز إلى جانب مصر والشام - كانت في أوائل القرن السادس عشر قد وصلت إلى حالة من الأعياء الشديد بسبب تحول تجارة الهند والشرق الأقصى عن طريق مصر والبحر الأحمر إلى طريق رأس الرجاء الصالح. وبسبب حروب المماليك المستمرة وبصفة خاصة ضد الزحف البرتغالى على منافذ البحار العربية الجنوبية وليس أدل على ضعف المماليك من هزيمتهم أمام البرتغاليين فى مياه الهند فيما عرف بمعركة ديو البحرية عام ١٥٠٩م ولذلك كانت مقاومتهم للزحف العثمانى نحو الشام ومصر مقاومة غير عنيدة بل كانت قوتهم مفككة.

أما أقطار الوطن العربى فى شمال أفريقيا ليبيا وتونس والجزائر فقد دخلت فى حظيرة الدولة العثمانية دون مقاومة من سكانها بل برغبة من بعض أهلها للتخلص من تهديدات الدولة الأسبانية المسيحية وتهديدات فرسان القديس يوحنا القراصنة بل ورغبة من مواطنى هذه الأقطار العربية فى أن تقضى الدولة العثمانية الإسلامية الفتية على السيطرة المسيحية فى مياه هذه الأقطار العربية وبعض شواطئها. وقد سارعت الدولة العثمانية إلى بسط سيطرتها على أقطار الوطن العربى فى المغرب حتى تحكم الحلقة حول البحر المتوسط وتكتمل السلسلة العربية من الأقطار الداخلة فى حوزة السلطنة العثمانية.

حدث إذن زحف واستيلاء عثمانى على الأقطار العربية نتيجة توفر عوامل أو ظروف هيأت لهذا الزحف والاستيلاء سواء فى داخل الدولة العثمانية أو فى أقطار الوطن العربى وقد استمر هذا الاستيلاء طوال أربعة قرون تعرضت فيها الأقطار العربية لتطورات داخلية وخارجية كقيام حركات استقلالية فى أنحاء الوطن العربى، وظهور حركات سلفية اصطدم بعضها بالدولة العثمانية، إلى جانب الثورات المحلية ضد الحكم العثمانى، بالإضافة إلى الزحف الاستعمارى الأوروبى على أجزاء من الوطن العربى التى هى ولايات عثمانية.

وأما المدة التى بقيت فيها أقطار الوطن العربى خاضعة للحكم العثمانى، فإنه رغم أن السيطرة العثمانية استمرت لمدة أربعة قرون كما ذكرت إلا أن استمرار هذه السيطرة طوال هذه القرون الأربعة حدثت فى أقطار دون أخرى وأعنى فى الأقطار التى لم تتعرض لغزوات استعمارية أوروبية والتى بقيت تحت السيطرة العثمانية حتى قيام الحرب العالمية الأولى .

وتفصيل ذلك أن الشام بأقسامه الأربعة المعروفة حاليا وأعنى سوريا ولبنان وفلسطين والأردن، والعراق والحجاز ومعظم شبه الجزيرة العربية بقيت تحت السيطرة العثمانية طوال القرون الأربعة من أوائل القرن السادس عشر وحتى أوائل القرن العشرين. وأما مصر فقد بقيت تحت السيطرة العثمانية مع مشاركة مملوكية في الحكم منذ عام ١٥١٧م حتى جاءت الحملة الفرنسية على مصر وبقيت بها ثلاث سنوات من ١٧٩٨ - ١٨٠١ م حيث فصلت مصر عن الدولة العثمانية، ثم عادت مصر ولاية عثمانية وإن ظهر بها محمد على منذ عام ١٨٠٥ م فى حركة قصد بها الإستقلال الذاتى مع التبعية للدولة العثمانية، واستمرت أسرة محمد على تحكم مصر حتى حدث الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢م ولكنه لم يغير من علاقة مصر بتركيا حتى عام ١٩١٤ م عندما أعلنت انجلترا حمايتها على مصر وفصلها عن تركيا تأديبا لتركيا بسبب انضمامها إلى ألمانيا ضد انجلترا وحلفائها فى الحرب العالمية الأولى . وما جرى على مصر انسحب على السودان الذى دخل تحت سيادة الدولة العثمانية منذ أن فتحه محمد على فى العشرينات من القرن التاسع عشر.

وأما ليبيا فقد ظلت تحكمها الدولة العثمانية منذ عام ١٥٥١م حتى حدثت بها حركة أحمد القرمانلى ذات الاستقلال الذاتى عام ١٧١١م وإلى عام ١٨٣٥م ، ثم عادت ليبيا تحت الحكم المباشر للدولة العثمانية حتى احتلتها إيطاليا عام ١٩١١ م فانتهت السيادة العثمانية على ليبيا.

وأما تونس فقد بقيت ولاية عثمانية منذ عام ١٥٣٤ م وفى القرن السابع عشر شهدت تونس حركات استقلالية وراثية تدين بالتبعية للدولة العثمانية كالأسرة المرادية والأسرة الحسينية حتى حدث الغزو الفرنسى لتونس عام ١٨٨١م وأما الجزائر فكانت جزءا من الإمبراطورية العثمانية منذ عام ١٥١٨م ولكنها استمرت تدين بتبعية اسمية للسلطنة العثمانية بل كانت الجزائر تملك حق عقد المعاهدات مع الدول الأجنبية دون الرجوع إلى السلطان، وظل هذا الوضع قائما فى الجزائر حتى احتلتها فرنسا عام ١٨٣٠م. ورغم أن الأتراك العثمانيين لم يستولوا على مراكش، إلا أنه منذ وجودهم فى الجزائر أخذوا يتدخلون ضد الأشراف العلويين حكام مراكش من ١٦٥٤ - ١٨٣٠م كما أخذوا يحرضون أعداء الأشراف العلويين للثورة، ولكن تدخلاتهم وتحريضاتهم لم تؤد إلى استيلاء الأتراك العثمانيين على مراكش، ومن ثم بقيت مراكش غير خاضعة للحكم العثمانى حتى احتلتها فرنسا عام ١٩١٢م.

خضعت الأقطار العربية للحكم العثمانى بتنظيماته التى وضعها سلاطين آل عثمان وبصفة خاصة سليمان بن سليم الأول الذى عرف بسليمان القانونى رغم أن الأقطار العربية التى

خضعت للحكم العثمانى وتنظيماته وفى مقدمة هذه الأقطار مصر بطبيعة الحال كانت أكثر تحضرا من الدولة العثمانية، ويرجع المؤرخون هذه التنظيمات العثمانية إلى تأثيرات عوامل متعددة هى :

أولا : بيئة الأتراك العثمانيين الأصلية في وسط آسيا التى أثرت على ثقافة الأتراك بصفة خاصة، وخاصة اللغة والعادات والتقاليد القبلية وإن كنا يجب أن نوضح أن تأثير هذا العامل ضعف واستمر فى الضعف مع مرور الزمن ومع بناءالدولة واتساعها فى أوروبا وفى الأقطار العربية وتأثر الأتراك بالبيزنطيين والعرب وثقافاتهم.

ثانيا : الحضارة الفارسية وما اشتملت عليه مظاهر الفخامة والتبجيل والاحترام للسلاطين إلى جانب التنظيمات الإدارية والسياسية فى الدولة فضلا عن اعتبار أصحاب الملل - أى غير المسلمين - مستقلين بأمورهم الداخلية، كل ذلك وجد طريقه إلى نظم الحكم العثمانى إما عن طريق الدولة السلجوقية فى فارس أوعن طريق العرب الذين تأثروا بالحضارة الفارسية أو عن طريق الدولة البيزنطية التى جاورت السلاجقة واحتكت بهم، وإذا كان المؤرخون قد اختلفوا حول الطريق الذى سلكته الحضارة الفارسية إلى تنظيمات الحكم العثمانى، وإذا كانوا قد اختلفوا فى مدى تأثير الحضارة الفارسية فى العثمانيين فمما لا شك فيه أن هناك تأثيرا حضاريا فارسيا فى التنظيمات العثمانية وإن كانت بمرورها قد صهرت هذا التأثير الفارسى مع غيره من تأثيرات لدى العثمانيين وأصبحت تكون سلوكا عثمانيا.

ثالثا :تأثيرات العرب الدينية واللغوية في مجالات التعليم ومجالات العبادة والقضاء والإفتاء، ويرجع بعض المؤرخين ما جبلت عليه التنظيمات العثمانية من جمود وتحفظ إلى التأثيرات العربية التقليدية، ولكن هؤلاء المؤرخين يسرفون فى ذلك وينسون أن تأثيرات بيئة وسط آسيا الرعوية القبلية وتأثيرات الحضارة الفارسية لها دورها الأكبر فى التحفظ والتمسك بالتقاليد ومقاومة كل الحركات التقدمية فى المجتمع العثمانى.

رابعا : تأثيرات البيزنطيين على التنظيمات العثمانية خاصة فى النواحى الإدارية والضرائبية ومظاهر العظمة والأبهة فى البلاد إلى جانب تمتع الأجانب بامتيازات محددة تتفق مع نظام الدولة. كل ذلك يفسر كثيرا من التنظيمات العثمانية..

كان العرب يشكلون الجزء الإسلامى الأكبر في مجموعة ولايات الدولة العثمانية وبهذا كانوا أكثر الولايات العثمانية تأثرا بالتنظيمات العثمانية، إيجابيا وسلبيا وكان العرب ينظرون

إلى الدولة العثمانية قبل اتجاهها الشرقى نظرة إكبار وفخار لما كسبته المسلمين من فتوحات فى بلاد الروم، كما ظل العرب بعد خضوعهم للحكم العثمانى ينظرون إلى العثمانيين باعتبارهم حماة للدين الإسلامى بل واعتبارهم المحافظين على الخلافة الاسلامية.

وضع السلطان سليمان القانونى لحكم الولايات العثمانية - ومنها الأقطار العربية - نظاما للحكم يقوم على توزيع السلطة بين ثلاث قوى كانت على النحو الآتى :-

أولا : الوالى : ويلقب بالباشا وهو نائب السلطان في حكم الولاية وله سلطة تنفيذ أوامر السلطان والرئاسة على جميع الموظفين العثمانيين فى الولاية وإن كانت سلطته مقيدة بوجود قوى أخرى تشاركه فى السلطة مثل رؤساء الجند والعصبيات المحلية، كما أنها محدودة بفرمان يصدر من السلطان بالتعيين لمدة سنة قابلة للتجديد.

ثانيا : رؤساء الجند : وهم قادة الفرق أو الأوجاقات. تلك الفرق الموكول إليها الدفاع عن الولاية ضد الغزو الخارجى وحفظ النظام والأمن الداخلى وخاصة بالتصدى للثورات التى قد يقوم بها أهالى الولاية ضد الحكم العثمانى، ومن اجتماع قادة الفرق يتألف مجلس شورى الوالى المسمى بالديوان الذى له السلطة الكبيرة فى إدارة الحكومة حيث لا يستطيع الوالى أن يبرم أمرا إلا بموافقة أعضائه، فهم بمثابة سلطة رقابة وإشراف على سلطة الوالى، وحتى عندما انقسم الديوان إلى ديوان كبير وديوان صغير ظل لسلطة قادة الجند القوة فى مواجهة الوالى .

ثالثا : العصبية المحلية : خير مثل للعصبية المحلية وسلطتها في حكم الولاية، المماليك في مصر حيث أصبح لهم حكم الأقاليم المختلفة للولاية بحكم أنهم أعرف بأهل البلاد وظروفها، وفى وقت ضعف الدولة وجندها تقوى شوكة العصبية المحلية حتى يصير فى إمكانهم عزل الوالى أو الاستئثار بالنفوذ دونه.

وكان يساعد هذه القوى الثلاث مجموعة من الموظفين يعينهم السلطان العثمانى مثل الكتخدا أى وكيل الوالى والدفتردار المسئول عن الشئون المالية والسلاح دار (السلحدار) المسئول عن أمور التسليح والخازن دار (الخزندار) المكلف بالخزانة العامة للولاية.. الخ.

ثانيا: إيجابيات نظام الحكم العثمانى

يمكننا أن نعدد التأثيرات الإيجابية للتنظيمات العثمانية في الحكم على الأقطار العربية فيما يلى :

أولا : أن سيطرة العثمانيين على أقطار الوطن العربى قد وحد هذه الأقطار فى إطار سياسى واحد بعد أن كانت كيانات متنافرة وتكاد تكون متباعدة بين بعضها البعض منذ أن سقطت الوحدة الإسلامية نتيجة ضعف الخلافة العباسية وظهور زعامات طامعة فى الحكم فى أنحاء العالم العربى، وبصفة خاصة بعد أن تعرضت بغداد للتدمير المغولى الشامل فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى الموافق منتصف القرن السابع الهجرى.

ورغم أن هذه الوحدة السياسية قد حققت استقرارا نسبيا فى أقطار الوطن العربى، فقد فرضت جمودا وعزلة على نشاطها فى مجالات السياسة والاقتصاد والثقافة، ولم يعد العرب يشاركون العالم بنشاطهم فى هذه المجالات، بل تسبب العثمانيون فى قتل النشاط الإقتصادى المزدهر فى معظم أقطار الوطن العربى. ففى مصر مثلا نقل السلطان سليم الأول إلى العاصمة العثمانية عند رحيله من مصر عام ١٥١٨م أكثر ما فى القلعة وما فى منازل السلاطين والأمراء من النخائر والنفائس والكتب، كما أخذ ماكان من ذلك فى المساجد والأربطة والزوايا، حتى أعمدة الرخام ولقد ذكر الجبرتى أنه فقد من مصر نيف وخمسون صنعة[1].

ثانيا : يعتقد بعض المؤرخين أن السيطرة العثمانية على أقطار الوطن العربى قد وقفت أمام خطر الصفويين الشيعة للسيطرة علي العالم العربى السنى خاصة وأن الشاه إسماعيل الصفوى غزا العراق عام ١٥٠٨م بحجة ضم مزارات الشيعة فى النجف الأشرف وكربلاء وهى الأماكن التى لها تقدير واحترام كبيرين عند الشيعة فى كل أنحاء العالم الإسلامى. ونحن نتفق مع هذا الرأى حيث أن الصفويين استمالوا بعض الرعايا العثمانيين فى الأناضول لاعتناق مذهب شيعى فوضوى عرف باسم «قزل باش» أى الرأس الأحمر، كخطوة للقضاء على المذهب السنى فى الدولة العثمانية، ولانستبعد أنه إذا نجح الصفويون فى ذلك بنشر مذهبهم فى الدولة العثمانية وسيطروا عليها أن يتجهوا إلى الشام ومصر لفرض سيطرتهم ومذهبهم عليها.

١- محمود الشرقاوى، مصر فى القرن الثامن عشر ، ص١٠ .

ثالثا : استطاع العثمانيون وقف توغل البرتغاليين فى البحار العربية فى البحر الأحمر والخليج العربى بعد أن عجز المماليك وحلفاؤهم العرب من المغاربة وغيرهم عن الوقوف أمام تهديدات البرتغال لأقطار الوطن العربى، فكما علمنا انهزم التحالف المملوكى العربى أمام البرتغاليين فى «ديو» أمام بومباى عام ١٥٠٩. ولكن يجب أن ندرك أن العثمانيين لم يستطيعوا طرد البرتغاليين من المنطقة العربية ويجب أن ندرك أيضا أن العثمانيين بوقفتهم هذه أمام البرتغاليين قد فرضوا حمايتهم على أقطار الوطن العربى ضد الأطماع الاستعمارية الأوروبية حتى أواخر القرن الثامن عشر عندما بدأ الضعف يدب فى كيان الدولة العثمانية ذاتها.

رابعا : استطاع العثمانيون ملاحقة فرسان القديس يوحنا وطردوهم من ليبيا عام ١٥٥١م بعد أن سبق لهم أن طردوهم من جزيرة رودس التى انتقلوا إليها بعد طردهم من فلسطين على زمن سلاطين المماليك فى مصر والشام، كما استطاع العثمانيون كسر شوكة الأسبان فى حوض البحر المتوسط الغربى. وفرضوا حمايتهم على أقطار الوطن العربى فى الشمال الأفريقى ووقفوا ضد تهديدات الأسبان وفرسان القديس يوحنا للأقطار العربية فى شمال أفريقيا.

خامسا : فرضت الدولة العثمانية أثناء صدامها مع البرتغاليين حول مداخل البحار العربية تقليدا جديدا يقضى بمنع دخول المراكب المسيحية فى البحر الأحمر بحجة أنه يطل على الأماكن المقدسة للمسلمين فى الحجاز. وهو التقليد الذى ظلت الدولة العثمانية متمسكة به حتى أواخر القرن الثامن عشر [١]. وهذا التقليد قد أفاد أقطار الوطن العربى ومنع الدول الاستعمارية الأوروبية من تحقيق أطماعها فى العالم العربى .

سادسا : استفادت شعوب الأمة العربية الإسلامية من الحكم العثمانى المسلم فى تقوية الحياة الدينية الإسلامية. وذلك أن الحكام الأتراك حافظوا على مشاركة الشعوب العربية الإسلامية فى الاحتفالات الدينية ومراعاة الشرائع الإسلامية وكل ذلك انعكس على تاكيد القيم والمبادىء الدينية فى نفوس العرب المسلمين.

وكان الاتصال بين العرب فى موسم الحج أو التعليم بالجامع الأزهر وغيره من المساجد التى أدت دورا دينيا وتعليميا من عوامل ترابط العرب المسلمين واتصالهم الوثيق بعضهم ببعض وتأصيل القيم الدينية فى نفوسهم خاصة أن التعليم كان جوهره دينيا، وكان يؤدى

١- د. محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ، ص١٢٨ .

وظيفة اجتماعية بما يضفيه على المتعلم من مركز أدبى واجتماعى ومادى. وبقى مثلا فى مصر «نفوذ العلماء لدى السلطات الحاكمة التركية المملوكية وإقبال هذه السلطات على تشجيع العلماء من رصد أوقاف معينة على بعض المعاهد وحضور الكثير من الأمراء والمماليك دروس العلماء فى المدارس والمجالس الخاصة. ومنحهم الهدايا والمنح للعلماء من وقت لآخر. كذلك كان السلطان العثمانى يهدى رجال الأزهر الكثير من الهدايا أو يأمر بمرتبات تصرف من الضربخانة - دار سك النقود - وكان يجارى السلطان العثمانى فى ذلك سلطان المغرب ولا سيما السلطان محمد فى القرن الثامن عشر» (١).

سابعا : استفادت أقطار الوطن العربى من سياسة الدول الأوروبية وعلى رأسها انجلترا الداعية إلى المحافظة على الدولة العثمانية وممتلكاتها حتى القرن التاسع عشر ومن ثم تمتعت أقطار الوطن العربى بالحماية العثمانية، وإن كنا يجب أن ننبه إلى أن هذه الحماية كان ثمنها عزلة الشعوب العربية عن التيارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية فى أوروبا.

ثامنا : استفادت الشعوب العربية من كون الحكم العثمانى للأقطار العربية كان حكما غير مباشر، حيث لم يتدخل العثمانيون لتغيير البناء الاجتماعى والاقتصادى السائد فى العالم العربى قبل القرن السادس عشر، ومن ثم احتفظ العرب تحت الحكم العثمانى بمؤسساتهم السابقة ولغتهم وعاداتهم وتقاليدهم. وليس أدل على ذلك أن العثمانيين أبقوا على التقسيم الشائع فى المجتمعات العربية الإسلامية إلى طبقات : رجال السيف، ورجال القلم، والتجار وأصحاب الحرف، وأهل الذمة، والعبيد. كما أبقوا علي انتظام أصحاب الحرف فى طوائف لكل منها شيخ ينظم شئون العاملين فيها ويكون حلقة الاتصال بينهم وبين رجال الحكومة. ونتيجة للحكم العثمانى غير المباشر، ونتيجة لبقاء التراث العربى بعيدا عن تدخل التنظيمات العثمانية، فقد استفاد العرب فى بقاء الفكرة القومية ومقوماتها فى نفوسهم إلى أن تهيأت لها الظروف فى أوائل القرن العشرين لتنطلق إلى مجال الإعلان والتحرك نحو الوجود والتحقيق.

١- د. محمد أنيس : أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، ج٣ ، ص١١٠٨ .

ثالثا : سلبيات نظام الحكم العثمانى

يمكن لنا تحديد التأثيرات السلبية للحكم العثمانى على أقطار الوطن العربى فى النقاط التالية :-

أولا : فهم العثمانيين لوظائف الدولة ومسئولياتها نحو رعاياها، ذلك أن هذا الفهم كان يقوم على أن مهمة الدولة ومسئولياتها تتمثل فى ثلاثة أمور فقط هى :

١ - الدفاع عن الولايات ضد أية اعتداءات خارجية، وهذا يستلزم وجود قوات عثمانية تدافع عن البلاد أو تشارك فى مهاجمة الدول المعادية للسلطنة كما تحافظ على الأمن والنظام فى البلاد، فمهمتها عسكرية بوليسية فى آن واحد لكى تضمن بقاء الولايات تدين بالتبعية للسلطنة العثمانية. وبطبيعة الحال فالقوات التى وجدت بالولايات العربية لم تكن عربية بل كانت عثمانية بتشكيلاتها مما أفقد المواطنين العرب الإحساس بقدرتهم على حماية بلادهم والدفاع عنها.

٢ - تحصيل الأموال الأميرية (الضرائب) على تنوعها. ثم توزيعها على وجوهها المختلفة عن طريق إدارة مالية. وأهم وجوه إنفاق هذه الأموال هو إرسال الجزية السنوية للسطان التى تعرف بالميرى إلى جانب الهدايا السنوية وفى المناسبات المتعددة كمناسبة صدور فرمان بالولايات أو إنعام سلطانى بلقب .. الخ ولم يكن ذلك يتطلب أكثر من الإشراف على الموظفين الذين يجمعون الضرائب والملتزمين ولا يهم ما يقع على الرعايا من ظلم أو إجحاف.

٣ - الفصل فى الخصومات بين الناس، وهذا يستلزم من الدولة إقامة نظام قضائى حسب ما تقضى به الشريعة الإسلامية، وهذا أمر له أهمية عند السلطان العثمانى باعتباره خليفة المسلمين فى نفس الوقت .

ولم يكن فهم العثمانيين لوظائف الدولة ومسئولياتها يدرك أن هناك أمورا أخرى على درجة من الأهمية تدخل فى وظائف الدولة مثل التعليم والصحة والتنمية الإقتصادية والرعاية الاجتماعية، ولذلك فقد تركت الدولة العثمانية هذه الأمور للأفراد والهيئات تقوم بالصرف عليها باعتبارها خارجة عن مسئولياتها التى حددتها الأنظمة الموضوعية.

فإذا احتاج الناس إلى تعليم أبنائهم عهدوا بهم إلى بعض من يحسنونه أو قد لا يحسنونه، وإذا احتاجوا إلى علاج من مرض بحثوا عنه عند بعض الأدعياء وأما الزراعة فتسير على مألوف ما اعتاده الفلاحون العرب الذين يخضعون للملتزمين، فى الوقت الذى تركت فيه أمور

الصناعة فى يد أصحاب الحرف ينظمونها فى طوائفهم ويتوارثون العمل فيها خلفا عن سلف، وأما التجارة فقد خضعت لتأثيرات الامتيازات التى منحت للأوروبيين فى الولايات العربية فى مجال التجارة وغيرها من المجالات. كل ذلك يجرى دون تدخل من الدولة العثمانية لترسم سياسة، بل إن ترك هذه المجالات قد أدى إلى حدوث أنهيار اقتصادى وفوضى سياسية وتأخر اجتماعى وعزلة ثقافية حلت بالوطن العربى.

ثانيا : نظرة العثمانيين إلى المجتمع وتقسيمه إلى طبقتين متميزتين هما :

١ - الطبقة الحاكمة التركية التى كونت داخل مجتمعات أقطار الوطن العربى أرستقراطية حاكمة منعزلة عن بقية أجزاء المجتمع بحكم فهمها لوظيفتها وإحساسها بذاتها، وكانت هذه الطبقة التركية تستمد كيانها من القوة العثمانية، وكانت حريصة على عدم الاختلاط بالشعوب العربية باعتبارهم - العرب - أدنى مرتبة ووظيفتهم خدمة الطبقة الحاكمة.

٢ - الرعايا العرب فى بلادهم الخاضعة للحكم العثمانى بتصوراته وفهمه. وعلى الرعايا خدمة الحكام ومدهم بما يحتاجون إليه، كما كان على الرعايا تنظيم أمورهم الحياتية حسب مألوف ما اعتادوه قبل مجيء العثمانيين، فاستمرت الطوائف الحرفية تؤدى دورها المعتاد تحت إشراف مشايخ الطوائف، وبقيت الطوائف الإجتماعية بمكانتها دون تدخل العثمانيين كأهل الذمة، وأصحاب القلم أى العلماء . وغيرهم..

ولاشك أن هذه النظرة العثمانية القاصرة نحو تقسيم المجتمع قد تركت تأثيرات سلبية على المجتمعات العربية أدت إلى عدم شعور المواطن العربى بالولاء للدولة العثمانية بل أحس كل مواطن بولائه لوطنه وقطره العربى الذى ولد فيه، ولعل هذه التأثيرات السلبية تفسر لنا ضآلة تأثير الحكم العثمانى فى أقطار الوطن العربى رغم السنوات الطويلة التى خضعت فيها الأقطار العربية للحكم العثمانى.

«وهنا تبدو الفروق واضحة بين سياسة العثمانيين وبين سياسة العرب حين انطلقوا من قلب الجزيرة العربية فى موجات بشرية متلاحقة، فاتحين مبشرين برسالة الإسلام والعروبة فقد اقترب العرب من سكان البلاد الأصليين منذ نهاية القرن الثانى ومطلع القرن الثالث للهجرة»[١].

١- د. عبد العزيز الشناوى: من أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، ج٦ ص٦٦٨ .

ثالثا : الشك وعدم الثقة فى ممثلى السلطنة العثمانية فى الولايات العربية، وكانت نتيجة ذلك أن الوالى وهو الذى ينوب عن السلطان فى حكم الولاية والذى كـان يشـعـر بالشك فى تصرفاته يخضع لرقابة من قوى عثمانية أخرى فى الولاية كقادة الفرق العثمانية المعروفة بالأوجاقات، والكتخدا وهو وكيل الوالى، إلى جانب ما سارت عليه التنظيمات العثمانية من تقصير مدة حكم الوالى خوفا من استقلاله بالولاية، وعدم جمع السلطتين المدنية والعسكرية فى يده، وجعل تعيين القاضى والكتخدا بل والدفتردار المسئول عن الأمور المالية فى يد السلطان لا فى يد الوالى .. كل ذلك يجعل الوالى يشعر بعدم الاستقرار وعدم الاطمئنان لبقائه فى الولاية فلا يرتبط بولايته ولا بمشروعات يفكر فى إنجازها فى الولاية، وإنما ينحصر تفكيره فى جمع أكبر قدر من الأموال لنفسه يحتفظ بها عند عزله من منصبه.

ثم إن عدم الثقة فى الوالى أدت إلى تقسيم السلطة بينه وبين قادة الفرق العثمانية والعصبيات المحلية، مما أدى إلى التشاحن والخلافات بين أطراف السلطة الثلاثة وبالتالى تحملت الشعوب العربية نتائج هذه العلاقات.

رابعا : الرجعية وعدم التجديد، وكانت السياسة التى جرى عليها الحكم العثمانى فى البلاد العربية رجعية. ذلك أننا رأينا الحكم العثمانى يبقى الأوضاع الإجتماعية والإقتصادية والثقافية السائدة فى المجتمعات العربية كما كانت قبل الغزو العثمانى للأقطار العربية، بل أننا نرى أن مجموعة القوانين التى وضعت في عهد سلاطين آل عثمان الأول سليم وسليمان قد بقيت نافذة المفعول وأساسا سار عليه السلاطين الذين خلفوا أصحاب القوانين وواضعيها وهذا دليل على أن الدولة العثمانية لم تكن ترحب كثيرا بأى تجديد فى نظم الحكم السائدة أو فى عادات الناس وتنظيماتهم الاجتماعية ..

خامسا : الطابع العسكرى للحكم العثمانى فى الأقطار العربية، الذى تمثل فى اعتبار الجيش العثمانى أداة للحرب وأداة للحكم معا، باعتبار أن الجيش العثمانى غزا وسيطر وفتح أقطار الوطن العربى، ومن ثم يتفرع منه أداة الحكم فى الولايات .. ولا شك أن ذلك له تأثيره السلبى الخطير على الجيش نفسه الذى يبتعد بذلك عن وظيفته الأصلية وهى الدفاع عن البلد، وعلى العرب الذين يخضعون لحكم عسكرى يبعدهم عن حياتهم المدنية ويقاسون خشونة وغلظة الحكم العسكرين الأتراك.

سادسا : سـوء الإدارة العثمانية التى تجلت فى الاهتمام بالمدن والبلاد الواقعـة على سواحل البحار والطرق الرئيسيـة دون الاهتمام بالمناطق الصحـراوية والريفية والنائية من

أقطار الوطن العربى، رغم أن هذه المناطق تمثل الجانب الأكبـــر من الأقطار العربية، وتركها العثمانيون فى يد رؤساء القبائل، ولا عجب فى ذلك فقد كان العثمانيـون يهتمون بالأقطار العربية التى تدر عليهم أمـــوالا أكثر من غيرها ، فقد كان اهتمامهم بمصر مثلا أكثر بكثير من اهتمامهم بليبيا أو اليمن .

سابعا : إعطاء الأوروبيين امتيازات اقتصادية وثقافية ودينية فى الأقطار العربية، مما أدى إلى فتح الأقطار العربية للنفوذ الاستعمارى الأوربى الذى مارس نشاطه التجارى والتعليمى فى ظل هذه الامتيازات بإنشاء البنوك والوكالات التجارية والمدارس والكنائس، والادعاء برعاية المسيحيين، مما كان له أثره الخطير على أقطار الوطن العربى أدى في النهاية إلى تحقيق الأطماع الاستعمارية الأوروبية عندما حانت الفرصة بضعف الدولة العثمانية وتفككها..

ثامنا : فرض العزلة على الوطن العربى، وحرمان الشعوب العربية من الاتصال بالحضارة الأوروبيــة الناهضـــة بدعـــوى الخـــوف على الأقطار العــربيـــة من أطمـــاع الدول الأوروبيـــة الاستعمارية، وإذا كانت الأقطار العربية قد استفادت حقيقة ببقائها بعيدة عن أطماع الدول الأوروبية قرابة ثلاثة قرون تحت الحكم العثمانى أى إلى أواخر القرن الثامن عشر، فإن العزلة التى عاشتها الأقطار العربية قد جعلتها تتخلف مئات السنين عن الأقطار الأوروبية الناهضة بل وسلبتها ثقتها فى نفسها وفى قدرتها على استعادة مجدها الأول كدولة موحدة كبرى في منطقة الشرق الأوسط سبقت حضارتها المزدهرة الحضارة الأوروبية الناهضة فى الــقرن التاسع عشـــر، ومـــع ذلك فالقطـــر الذى تهيأت له فرصة يكسر فيهـــا نطـــاق العـــزلة المفــروضة عليــه استطـــاع أن يبنى نفســـه فى المجالات المختلفة على أسس حـــديثة، ومصـــر فـــى مطـــلع القرن التاسع عشر على يد محمد على خير دليل على ذلك.

«وقد ساعد على سلبية الحكم العثمانى فى المجتمعات العربية أن العثمانيين لم يكن لهم رصيد حضارى يقدموه للحياة العلمية فى مصر – وفى غيرها من الولايات العربية – فلم يتـعلم المصريون – وغيـرهم من العرب – اللغـة التـركيـة، ولم يدخلوا اللغـة التـركيـة فى الكتاتيب»[١].

١– د. محمد أنيس : أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ج٣ ، ص١٠٧٨ .

الباب الثانى

العصبيات المحلية فى الوطن العربى

- مقدمة .
- الفصل الرابع : العصبيات فى بلاد الشام والعراق .
- الفصل الخامس : العصبية المحلية فى مصر .
- الفصل السادس:العصبية المحلية فى طرابلس الغرب.

الفصـــل الرابع

العصبيات المحلية فى أقطـــار الشـــام والعـــراق

مقدمة

نتناول فى هذا الفصل تاريخ أقطار الشام والعراق من خلال العصبيات المحلية التى كان لها دور في تاريخ هذه الأقطار تحت الحكم العثمانى، إذ شهد جبل لبنان ظهور أسرات درزية ثائرة على الحكم العثمانى ومتصارعة مع الموارنة الكاثوليك. وشهدت سوريا حكما أسريا دام حوالى ستين سنة هو حكم أسرة العظم العرب. كما شهدت فلسطين محاولة زعيم عربى طموح هو ظاهر العمر وصراعه من أجل تكوين إمارة عربية. كما شهد العراق حكما أسريا تمثل فى أسره حسن باشا ومماليكه.

وفى هذا التناول غير التقليدى نفسر ونحلل الأحداث التاريخية فى العصر الحديث تحت الحكم العثمانى التى اتخذت مسرحها فى هذه الأقطار وإبراز الدور الذى لعبته العصبيات المحلية فى هذه الأقطار والأسباب التى أدت إلى ظهور هذه العصبيات والأحداث التى صنعتها والنتائج التى تمخضت عن ظهور هذه العصبيات.

ومن الملاحظ أن عصبيات الشام والعراق ظهرت فى شكل أسرى فى معظمها تمثلت فى الأسرات الدرزية بجبل لبنان وأسرة العظم فى سوريا وأسرة حسن باشا ومماليكه في العراق، ولو طال العمر وتحسنت الظروف فى فلسطين لأصبح لظاهر العمر فى فلسطين حكما أسريا أيضا.

أولا : لبنـــــان

لبنان ذلك القطر العربى المستقل تحت اسم الجمهورية اللبنانية الآن كان عند الزحف العثمانى على أقطار الوطن العربى عبارة عن قضاء من أقضية بلاد الشام، وقد قسم الحكم العثمانى بلاد الشام إلى ثلاث باشويات هى :

١ - باشوية الشام ومقرها دمشق وتضم معظم بلاد الشام.

٢ - باشوية حلب وتشمل شمال سوريا .

٣ - باشوية طرابلس (فى لبنان) وتشمل الساحل.

ولبنان له وضع جغرافى وتاريخى خاص، ذلك أن ثلثى أراضيه عبارة عن جبال عالية بينها وديان تتصف بالعمق والضيق، كما أن السهول الواقعة بين الجبال نجدها محدودة الامتداد فى الغرب حيث تكاد الجبال أن تصل إلى مياه البحر المتوسط، فيما عدا سهل البقاع الخصيب الذى يفصله عن البحر جبال عالية تجعل الأمطار التى تسقط عليه قليلة إلى حد ما .

وعلى هذا نجد أن الجبال والوديان التى تتخللها حيث تكثر الأمطار ذات موارد أكثر من السهول الداخلية، وينتج عن ذلك تركز السكان حيث تتوفر الموارد، على أن الشرائط الطبيعية وحدها لا تكفى لتعليل التكاثف البشرى الشديد فى الجبال اللبنانية، بل هناك الأسباب التاريخية والطائفية التى حملت الدروز والموارنة على الاعتصام بالمرتفعات الأمينة حفاظا على كيانهم (١).

وسكان لبنان لهم وضعهم الخاص من حيث تركيبهم الاجتماعى والدينى إلا أن فكرة العروبة عندهم تتجلى فى منازع الشعب ومشاعره أكثر مما تتجلى فى النصوص التشريعية والأحكام الدستورية، إن إيمان الشعب اللبنانى بثقافته العربية وحرصه على القيام بواجباته نحو إخوانه فى الأقطار العربية لايقلان عن إيمانه بالحقيقة اللبنانية(٢).

وإذا كان العثمانيون قد استولوا على لبنان عام ١٥١٦م بالإضافة إلى المناطق الجبلية من سوريا وفلسطين، فإن وضع لبنان الخاص كان يستدعى من الدولة العثمانية تعاملا خاصا، ذلك أنه كان هناك تركيب اجتماعى يقسم السكان إلى قيسية ويمنية، وتركيب دينى يقسمهم

١- د . عزة النص : أحوال السكان فى العام العربى ص ٥٦.

٢- د. جميل صليبا : الاتجاهات الفكرية فى بلاد الشام ص ١٣ .

إلى مسلمين ومسيحيين، بل كان التقسيم الدينى أكثر تفصيلا فوجدنا بين المسلمين، سنة وشيعة ودروزا يحاولون الانتساب للمسلمين، ووجدنا بين المسيحيين موارنة وكاثوليك وأرثوذكس وغيرهم، وإذا كان الحكم العثمانى لم يفهم طبيعة الشعب فى لبنان ومن ثم جهل بكيفية حكمه الحكم السليم فلا عجب أن نرى لبنان يكون أول قطر عربى يثور ضد الحكم العثمانى بعد أن تم فتح الأقطار العربية وخضوعها للدولة العثمانية.

الأمير فخر الدين الأول

عهد السلطان سليم الأول العثمانى بأمر لبنان والمناطق الجبلية فى سوريا وفلسطين إلى الأمير فخر الدين المعنى الدرزى الأول الذى ينتمى إلى الأسرة المعنية- من الدروز فى لبنان - مقابل أن يعترف هذا الأمير بالسيادة العثمانية ويقدم للدولة فى استانبول الجزية السنوية، ومعها دلائل خضوعه لها.

إلا أن اشتطاط الدولة العثمانية فى طلباتها قد دفع الأمير فخر الدين إلى أن يعلن العصيان ضد الدولة ويثير القبائل فى لبنان مما عجل بالصدام بين الدولة العثمانية التى هالها أن يخرج عن طاعتها حاكم معين من قبلها يحكم باسمها ويخضع لها وبين الأمير فخر الدين. وقد ظل هذا الصراع بين الطرفين طويلا والحرب فيه سجال بين الجانبين حتى انتهت حياة الأمير عام ١٥٤٤م فى بلاط باشا الشام بدمشق.

ولكن موت الأمير فخر الدين لم ينه الصراع بين الأسرة المعنية والدولة العثمانية إذ واصل ابنه قرقماس الكفاح ضد حملات التنكيل التركية التى أرسلت لإبادة الدروز ومن والاهم من أهل لبنان، ولكن قرقماس لقى حتفه عام ١٥٨٥ م مع كثيرين من زعماء لبنان وقادته أثناء حرب القوات التركية الكبيرة التى نزلت إلى لبنان للتنكيل بأهله.

الأمير فخر الدين الثانى

لم يكن مقتل قرقماس فى ساحة المعركة ضد الأتراك نهاية للصراع بين الطرفين لأن ابنه فخر الدين الثانى تولى الزعامة من بعده، وبالتالى واصل الصراع ضد الأتراك. وقد امتاز هذا الأمير بالحنكة السياسية، فرغم أنه كان درزيا إلا أنه كان يتقنع بقناع المسيحية أمام المسيحيين، ويدعى الانتماء للمسلمين السنيين أمامهم وذلك لكسب ود كل هؤلاء وليستطيع تحقيق أهدافه.

بدأ الأمير فخر الدين الثانى زعامته عام ١٥٩٠ م فأخذ يبث عيونه فى الآستانة عند كبار الزعماء وقصور الباشوات، وذلك لكى يقف على أسرار الجميع ومن ثم يستطيع تدبير المؤامرات للتخلص من منافسيه ومعارضيه وليوقع الفرقة فى صفوف أعدائه، وقد كانت صفاته هذه سببا فى أن اعتبره بعض المؤرخين تلميذا مخلصا لمكيافيللى الأديب الإيطالى صاحب كتاب الأمير.

ورغم أن الأمير فخر الدين الثانى قد شارك جان بلاط الكردى الثورة على الباب العالى منذ سنة ١٦٠٣م فإن الدولة لم تتعرض له حتى بعد هزيمة جان بلاط بل تركت إليه حكم البلاد الواقعة فى حوزته لقاء جزية سنوية يدفعها (١) وكانت مهارته هى سبب موقف الباب العالى الودى منه، ذلك أنه بعث للسلطان العثمانى بجزية ضخمة وأعلن أن كل ما يغتنمه فى حروبه سيتقاسمه مع الباب العالى فكانت النتيجة كما رأينا موافقة السلطان على تعيينه واليا على جبال لبنان والمناطق الساحلية التابعة له وعلى قسم كبير من سوريا فلسطين.

ولكن الأمير فخر الدين الثانى لم يكن ليقبل الاستمرار فى الخضوع للدولة العثمانية وعول على طرح سيادتها عليه جانبا حتى ولو استدعى الأمر تحالفه مع الدول الأجنبية المسيحية، لذلك وجدنا الأمير يشرع فى الثورة على تركيا عام ١٦١٣م بعد أن أعد جيشا كبيرا وقوى حصون بلاده وتفاوض مع دوق تسكانيا الإمارة الإيطالية الذى عمرت نفسه روح المغامرة ويبغى فتح أسواق جديدة لتجارة فلورنسا (٢)، كما تفاوض فخر الدين مع أسبانيا ومع بابا روما من أجل مساندته فى حربه ضد الدولة العثمانية.

وكان فخر الدين قد استولى على بعلبك عام ١٦١٠ وأخذ يهدد الشام بالاحتلال مما دفع العثمانيين إلى إرسال حملة عسكرية كبيرة نزلت فى لبنان وأجبرت فخر الدين على الفرار من لبنان إلى إيطاليا حيث مكث هناك خمس سنوات فى ضيافة كوسموس الأول ابن فرديناند حاكم تسكانيا، وأخذ وهو مقيم عنده يحثه على تكوين حملة صليبية جديدة لاحتلال فلسطين وطرد الأتراك من بلاد الشام ولكن كوسموس لم يبد تحمسا لهذا المشروع. وقد أظهر فخر الدين أثناء مقامه فى تسكانيا من دلائل البذخ والظهور بمظهر الأثرياء جدا ما جعل النفوس تتأثر بشخصيته ومظهره.

١- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص١٥٣ .

٢- نفس المرجع ونفس الصفحة، وفلورنسا إمارة إيطالية .

وكان عـداء الأمير فخـر الدين الثانـي لتركيا من الشدة بحيث أنه سعى إلى تكوين حلـف مع فرنسا والبابويـة وفرسان القـديس يوحنا فـي مالطة وأسبانيا وفلورنسا فـي إيطاليـا للعمل ضد الدولـة العثمانيـة، إلا أن الظـروف الدوليـة لم تكن تسمح بتكوين هـذا الحلف.

وكان الأمير فخر الدين الثانى قد حاول لكسب تأييد هذه القوى الأوروبية أن يظهر بمظهر الزعيم، صاحب النفوذ الكبير الذى أتى لينال مساعدة أوروبا المسيحية على استرداد البقاع المقدسة فى مقابل مساعدته – خاصة فى البحر – على الاستقلال من حكم الترك. ولكن أوروبا المسيحية لم تتحمس للمشروع التحمس الكافى، وخشى البابا أن لا يجدى المشروع إلا فى إثارة غضب الترك ودفعهم إلى الانتقـام من رعاياهم المسيحيين (١)..

وفى عـام ١٦١٨م عاد الأمـير فـخر الدين الثانى إلى لبنان بعد أن عـفا عنه السلطان العثمانى الجديد عثمان الثانى، ليجد أمه الحكيمة نسب فى أثناء غيبته استمرت تدافع عن بلاده باسم حفيده أحمد على ضد باشا دمشق (٢). إلا أن الأمير فخر الدين اعترف بالأمير الجديد ولكنه تولى العمل الفعلى فى الإمارة حيث اندفع فى العمل على فرنجة بلاده وأخذ يعمل على تطوير اقتصادياتها، وتنظيم بيروت بما يقربها من المدن الأوروبية، واهتم بالتعليم وحرص على إرسال عدد من الشباب اللبنانيين للتعليم فى إيطاليا، وشجَّع الأوربيين على دراسة اللغة العربية وآدابها.

ولم يكن الأمير فخر الدين الثانى ليقبل الخضوع للحكم العثمانى حتى ولو كان هذا الحكم صاحب الفضل عليه بإعادته إلى بلده، ولذلك رأيناه يعلن راية الثورة ضد الدولة العثمانية مرة أخرى عام ١٦٣١م وزحف إلى أن استولى على الساحل السورى حتى مدينة أنطاكية. ورفض السماح لجيش من جيوش السلطان حشد لحرب فـارس أن يقضى فصل الشتـاء فى دياره وطرد هذا الجيش بقوة السلاح (٣).

وفى عـام ١٦٣٣م أرسلت الدولة العثمـانية قـوات بحرية إلى لبنان وكلفت باشوات الشام الزحف برا إلى لبنان ضد الأمير فخر الدين وابنه الأمير على، والتقى الطرفان فى ١٥ نوفمبر

١- د. أحمد عزت عبد الكريم وآخرون : دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة ص ٢٤١.

٢- كارل بروكلمان : نفس المرجع السابق . ص ٥٤.

٣- نفس المرجع ونفس الصفحة.

فى معركة فاصلة دارت فيها الدائرة على المعنيين وقتل فيها الأمير على واستسلم بعدها الأمير فخر الدين إلى العثمانيين فأرسل إلى استنبول حيث أعدم عام ١٦٣٥م وأما الإمارة المعنية فقد دمرت ونهبت ممتلكاته.

عادت السيطرة التركية كاملة على لبنان بعد انهيار إمارة الأمير فخر الدين الثانى، وحتى تحكم الدولة العثمانية سيطرتها على لبنان وعلى الدروز بصفة خاصة فإن العثمانيين أنشئوا عام ١٦٦٠م إيالة رابعة تتكون من المناطق الساحلية التى كانت تابعة لإيالة الشام، ومهمة هذه الإيالة الجديدة مراقبة دروز لبنان والموارنة وإخماد الثورة من جانبهم بالاستعانة بإيالة طرابلس (١).

وكانت سيطرة الأتراك عنيفة على لبنان قضت على ما اجتهد فيه الأمير فخر الدين لإقامته فى إمارته. فقد كان لبنان فى ظل حكومة فخر الدين المعنى يتنسم حرية الحكم ريثما جاءت جيوش الترك(٢) . ولكن المقاومة استمرت ضد الأتراك طوال القرن السابع عشر، واتسم الصراع بدخول فريق منافس للمعنيين فى لبنان. ذلك أن الأسرة المعنية وتنسب إلى القيسية وتلقبت بالحمرقادت الصراع ضد أسرة علم الدين اليمنية الملقبة بالبيض المؤيدين من الأتراك.

وحتى عام ١٦٩٧م استمر الصراع بين الأسرتين القيسية واليمنية كانت الغلبة فى كثير من الأحيان للقيسية، كان يستتبع تغلبها توطيد سلطتها فى لبنان وإعادة مجدها القديم حتى إذا انقرضت الأسرة المعنية فى ذلك العام استمرت القيسية بزعامة أسرة درزية أخرى هى الأسرة الشهابية.

الأسرة الشهابية

تسلم الأمير الدرزى بشير الشهابى الأول السلطة فى لبنان ولكنه ووجه عام ١٦٩٨م بثورة قام بها المتاولة الشيعة الذين يسكنون المنطقة الجبلية بين بحر الجليل وصيدا بزعامة شيخ يمنى، ولكن الأمير الدرزى بشير الأول وكان من القيسية تحالف مع باشا صيدا وباشا طرابلس وأخضع ثورة المتاولة، وعين الشيخ ظاهر فى صفد وهو ينتمى إلى أسرة قيسية تدعى بنو زيدان (٣).

١- د. محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ، ص٥٤ .

٢- د. زكى المحاسنى وآخرون : دراسات فى النهضة العربية الحديثة ص ٤٩٣.

٣- د. محمد أنيس : الشرق العربى فى التاريخ الحديث المعاصر ص ٦١.

ولكن الصراع لم يتوقف بين الأسرة الشهابية وبين الدولة العثمانية التى كانت كثيرا ما تلجأ فى صراعها إلى استخدام اليمنيين فى هذا الصراع، وإذا كان التحالف العثمانى اليمنى قد نجح عام ١٧١٠م فى الإطاحة بالأمير حيدر الشهابى، فإن الشهابيين لم يستسلموا وتمكنوا فى العام التالى من القضاء على كافة زعماء أسرة علم الدين اليمنية مما دفع الأتراك إلى التخلى عن معاداة الأسرة الشهابية والتدخل فى شئون لبنان الداخلية لمدة طويلة.

حتى إذا تسلم القيادة بشير الثانى فى أواخر القرن الثامن عشر ١٧٩٥ م عمل على وضع جميع لبنان تحت سلطته ودخل فى صراع مع أحمد باشا الجزار حاكم عكا (إيالة صيدا) المنتصر على حملة نابليون عام ١٧٩٩ م ، ووقف الباب العالى مؤيدا لبشير الثانى ضد استفحال نفوذ أحمد الجزار، ومنح بشير الثانى حكم مناطق البقاع والجبل الشرقى وجبيل وصيدا، وأصبحت تبعية بشير الثانى للسطان العثمانى مباشرة بدلا من تبعيته لباشوية عكا وواليها الجزار.

وكان ذلك مثار خلاف وصراع بين الرجلين حتى توفى الجزار عام ١٨٠٤م ، فأخذ بشير الثانى يعمل لإصلاح الأحوال فى لبنان ويضع السلطة كاملة فى يده بقوة مستخدما العنف والبطش بالانقساميين الطائفيين، ورغم ذلك اتسم حكمه بطابع التقدم، وجنى آثار النهضة الاقتصادية فى عهده بالعيش فى ترف تجلى فى قصره المسمى بيت الدين الذى يعتبر ذا شهرة معمارية فى لبنان.

وقد استطاع بشير الثانى بالخديعة حينا وبالحرب حينا وبالمهادنة حينا آخر أن يستقطب القوى المتنافرة فى لبنان، فمع أنه كان درزيا بصفة رسمية إلا أن هذا لم يمنعه أن يظهر أمام الموارنة بأنه مسيحى وأن يدعى اعتناقه الديانة المسيحية حتى يضمن ولاء الموارنة وخضوعهم له فى ظل وحدة لبنان .

ومنذ عام ١٨٢٠م بدأت متاعب بشير الثانى بسبب مطالب باشا عكا الكثيرة التى دفعت اللبنانيين إلى الثورة حتى هرب بشير الثانى إلى مصر عام ١٨٢٢م ، وكان هروبه سببا فى ظهور أسرة درزية أخرى برئاسة الشيخ جنبلاط، حتى إذا نجح محمد على فى الحصول على عفو من السلطان العثمانى لبشير الثانى، عاد إلى لبنان كحليف لمحمد على عام ١٨٣١م وبقى إلى ١٨٤٠ عندما غادر لبنان للمرة الأخيرة.

لبنان بعد الشهابيين

استمر لبنان يعيش جوا من الانقسامات والطائفية حتى ثارت فتنة دينية عام ١٨٥٧م بين الدروز والموارنة كانت نتيجتها مذبحة لكلا الطرفين شملت صيدا وحاصبيا وراشيا ودير القمر وزحلة إلى جانب عدد كبير من القرى المجاورة لبيروت ، وامتدت المذابح إلى سوريا، ويُرجع المؤرخون هذا المذابح إلى مؤامرات لعب فيها الدور الأول القنصل الفرنسى فى بيروت .

وكانت هذه المذابح دافعا لكى يعلن الإمبراطور الفرنسى نابليون الثالث أنه سوف يتدخل لإيقاف المذبحة بحجة أن فرنسا تحمى الموارنة الكاثوليك، وبالفعل نزلت قوات فرنسية فى أواخر أغسطس ١٨٦٠م إلى ميناء بيروت ولكن بعد أن التزمت فرنسا أمام انجلترا وروسيا والنمسا وتركيا بان الاحتلال مؤقت لن يتجاوز ستة أشهر ولن يزيد عدد الجيش الفرنسى عن ١٢ ألف جندى، وظل هذا الجيش حتى ٥ يونيو ١٨٦١م عندما جلا عن لبنان تحت ضغط الدول الأوروبية.

ونتيجة لهذه المذابح وتدخل الدول فى أمور لبنان فقد وضعت لجنة دولية فى يونيو ١٨٦١م نظاما أساسيا جديدا لحكم لبنان جعل بمقتضاه جبل لبنان منطقة تحكم حكما ذاتيا تحت رئاسة حاكم مسيحى يخضع للباب العالى مباشرة، وبالتالى يختاره السلطان العثمانى ويعينه وعرف باسم المتصرف يساعده مجلس إدارى مكون من ١٢ عضوا عضوان من كل طائفة من الطوائف الدينية الكبيرة الست هى : الدروز، المارونيين، السنيين، الشيعة، الروم الأرثوذكس، الروم الكاثوليك.

وقد اعتبر النظام الأساسى منذ عام ١٨٦٤ وحتى عام ١٩١٤م دستورا دائما بعد أن صادقت عليه الدول الكبرى وهى انجلترا والنمسا وروسيا وتركيا، فى عام ١٨٦٤م، وإن كانت عدة تعديلات طفيفة قد أدخلت عليه كإنشاء منطقة مارونية أخرى وتعديل عدد ممثلى الطوائف فى المجلس الإدارى المعاون للمتصرف .

ثانيا : ســوريا

لم يكن وقوع بلاد الشام فى يد السلطان سليم الأول العثمانى عام ١٥١٦م إلا بداية لفترة من الحكم العثمانى الطويل الذى يستمر لمدة أربعمائة سنة ظهرت خلالها مثالب التنظيمات العثمانية وما ساعد على قيام حركات ثورية واستقلالية فى أنحاء الشام، وإذا كانت الأسرة المعنية الدرزية قد بادرت برفع راية الثورة ضد الحكم العثمانى اعتبارا من عام ١٥١٦

نفسه فإن سوريا قد شهدت حركة أخرى وإن كانت حركة سلمية مع الدولة العثمانية، تمثلت فى تولى آل العظم الحكم فى سوريا لمدة بلغت ستين سنة، إلى جانب وقوع حركة استقلالية ثالثة فى جنوب سوريا هى حركة الشيخ ظاهر العمر..

ولما كان لكل شيء أصل وسبب، فإن ارتقاء آل العظم للولاية فى سوريا قد حدث بسبب توفر ظروف معينة اضطرت الدولة العثمانية إلى الاستعانة بأفراد هذه الأسرة لتولى مقاليد الحكم فى إيالات سوريا، وهذه الظروف تمثلت فيما أصاب سوريا من فوضى واضطراب بعد أن كانت الحالة فى بداية الحكم العثمانى طيبة والأمن مستتب والحياة الإقتصادية نشطة ومستقرة.

ومصدر الفوضى التى أصابت سوريا كانت من المسئولين عن استقرار الأمن وأتى من القوات العسكرية المتمركزة هناك، سواء المحلية أو الوافدة من مركز الدولة العثمانية، وإذا كانت مدينة حلب قد شهدت طوال قرنين من الزمان تقريبا من بداية الحكم العثمانى من الاستقرار والأزدهار الاقتصادى حتى أصبحت أكبر وأهم المراكز التجارية فى الليفانت بسبب وقوعها على الطرق المؤدية إلى تركيا من ناحية والعراق من ناحية أخرى ، فإن النزاع بين القوات المحلية فى المدينة والتى عرفت باسم الأسياد أو الأشراف (١) من ناحية وبين القوات الوافدة وأعنى الانكشارية، أدى إلى تدهور النواحى الاقتصادية واضطراب نشاط السكان.

أما دمشق فقد كانت المدينة الكبرى فى الشام ذات الوضع التاريخى والأدبى والروحى فقد شهدت هى الأخرى منذ بداية الحكم العثمانى رخاء وأنتعاشا فى المجالين الاقتصادى والاجتماعى، إلا أنها فى أوائل القرن الثامن عشر شهدت فترة من الفوضى والاضطراب أيضا بسبب النزاع بين الانكشارية السلطانية وهى القابقول وبين الإنكشارية المحلية التى تسمى يردلية (٢).

وفى وسط هذا الاضطراب والفوضى التى انتشرت فى سوريا لجأ الباشوات العثمانيون إلى أساليب ساهمت فى ازدياد الفوضى خاصة فى زمن الباشوات الضعاف، ذلك أن هؤلاء الباشوات لجأوا إلى استخدام جنود مرتزقة عرفوا بالمغاربة معظمهم من الجزائر والمغرب وتونس، وآخرين من التركمان.

١- يدعون الانتساب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام.

٢- د. محمد أنيس ود. حراز : الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر ص ٥٨.

ولكن هؤلاء الجند كانوا عاملا جديدا فى الاضطراب، وقد أدت الاضطرابات المتوالية وخصوصا فى حلب إلى انهيار الزراعة، فالرحالة الفرنسى فولنى Volney يذكر فى سنة ١٧٨٥م أن أكثر من ٣٢٠٠ قرية فى إيالة حلب كانت مسجلة أسماؤها فى سجلات الضرائب، ولكن لم يبق منها ذلك العام أكثر من ٤٠٠ قرية، أما بقية القرى فقد هجرها سكانها (١).

أسـرة العظم

فى وسط هذا الاضطراب الذى حدث فى حلب لاقت دمشق فترة من الاضطرابات حتى ظهرت أسرة حكمت هذه الإيالة لمصلحتها - أى مصلحة الأسرة - ولمصلحة الدولة العثمانية فى نفس الوقت، بمعنى أن آل العظم سعوا إلى تولى باشوية دمشق - الشام - وأثبتوا أمام السلطان العثمانى أنهم جديرون بثقته - رغم كونهم عربا - لأن باشوات هذه الأسرة حققوا أمل السلطان ورغبته ..

كانت دمشق مثار اهتمام السلطان العثمانى باعتبارها تتحكم فى طريق الحجاج الآتين من تركيا ومن شمال سوريا وتأمين هؤلاء الحجاج فى الطريق أمر له أهميته عند السلطان العثمانى باعتباره حامى حمى الإسلام والمسلمين، وتعرض الحجاج إلى سلب ونهب البدو فى طريق الحج عبر الشام إلى الحجاز مما يؤثر فى مركز السلطان الدينى باعتباره خليفة المسلمين.

وحرص السلطان العثمانى على سلامة الحج استدعى منه أن يعهد إلى باشا دمشق بقيادة حملة عسكرية لمرافقة قوافل الحجاج كل موسم لحمايتها من إغارات البدو، وكثيرا ما كان هذا الباشا يحمل لقب أمير الحج ومن ثم يتولى إمداد هذه القوافل بما تحتاج إليه من مؤن ورعاية طوال عبورها أراضى بلاد الشام حتى الأراضى المقدسة .

إذن اعتبر السلطان العثمانى حدوث اضطراب فى إيالة دمشق أمرا لا يمكن السكوت عليه، ولكن ماذا يفعل ؟ .. من الطبيعى أن يلجأ إلى تغيير الولاة، وعندما لجأ إلى هذا الحل لم يكن يتصور أن آل العظم الذين لجأ إليهم عام ١٧٢٤م سيضطر إلى تثبيتهم فى الباشوية رغما عن نظم الحكم العثمانية التى تميل إلى تقصير مدة الباشا فى الولاية، ورغما عن أن تثبيت أسرة أمر يخشاه السلطان العثمانى.

١- د. محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص١٥٢ .

ولنا فى تاريخ العراق فى أوائل القرن الثامن عشر - عام ١٧٠٤م بصفة خاصة - دليلا على اضطرار السلطان العثمانى إلى مخالفة التنظيمات العثمانية وقبوله المرغم على تثبيت الحكام الذين يكونون أسرات وراثية فقد حكمت العراق أسرة حسن باشا حكما وراثيا، فلا بأس أن تحكم أسرة العظم فى سوريا هى أيضا حكم وراثى.

إذن كانت استعانة السلطان العثمانى بآل العظم على أمل أن ينتهى الاضطراب والقلق فى إيالة الشام - دمشق - ولقد استطاع آل العظم بالفعل ضمان الأمن والاستقرار فى الإيالة وبالتالى تثبيت السيادة العثمانية على الإيالة مما أدى إلى عدم استطاعة الدولة العثمانية الاستغناء عن خدمات هذه الأسرة ..

كان أول باشوات آل العظم هو إسماعيل باشا الذى نقل من باشوية صيدا إلى باشوية الشام - دمشق - عام ١٧٢٤م كما ذكرنا. واستطاع إسماعيل أن يخضع حركات التمرد فى دمشق ويعيد إلى المدينة نوعا من الاستقرار، واستمر ماسكا بزمام الأمور مستعينا بجنده من مماليك البوسنة والمغاربة حتى طرد هو نفسه من دمشق عام ١٧٣٠م (١).

وتوالى أفراد أسرة العظم فى حكم باشوية الشام بل وتولى غيرها من باشويات الشام بعد إسماعيل العظم، فنسمع عن سليمان باشا العظم الذى تولى باشوية الشام من عام ١٧٣٢م إلى ١٧٤٢م حتى توفى فى تلك السنة والأمور مستتبة فى الباشوية وخلفه ابن أخيه أسعد باشا العظم الذى حكم حتى عام ١٧٥٦م تصدى خلال مدة حكمه الطويلة لمحاولات الخروج عليه من قبل اليردلية والدروز والطامعين فى الباشوية..

ذلك أن الفرقة العسكرية المعروفة باليردلية ثارت ضد أسعد باشا وكان يتزعمها الدفتردار سيد فتح الله الذى كان رأس أسرة كبيرة فى دمشق، ولكن أسعد استطاع عام ١٧٤٦م أن يقبض على فتح الله وعلى عدد كبير من اليردلية وأن يقتلهم جميعا (٢). كما اصطدم بحسين باشا بن مكى الذى كان حاكما لصيدا واستطاع عام ١٧٥٦ انتزاع دمشق من أسعد باشا العظم.

وفى عهد أسعد باشا اتسع نفوذ أسرة العظم بتوالى أفرادها فى باشوية دمشق وباستقرار الأمور فى أيديهم وتولى أسعد نفسه إيالة حلب منذ عام ١٧٥٥م ، إلى جانب أنه حصل على موافقة السلطان بتعيين أقاربه وأتباعه فى باشويات طرابلس وصيدا.

١- د. محمد أنيس و د . رجب حراز : المرجع السابق ص٥٩ .

٢- د. محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص١٥٢ .

ورغم اتساع نفوذ آل العظم، ورغم ضيق الدولة العثمانية من هذا الاتساع فقد أثبتت الأحداث أنهم أجدر بتأييد الدولة العثمانية ضد الخارجين عليهم ومن ثم فإن دمشق شهدت فترة من الاضطراب منذ خروج أسعد العظم منها عام ١٧٥٦م إلى أن تعين عثمان باشا العظم المعروف بعثمان الصادق ١٧٦١م، وحدثت خلال الخمس سنوات هذه صدامات بين القابيقول من ناحية واليردلية وحلفاؤهم الدروز من ناحية أخرى، كما تعرضت قوافل الحج لإغارات قبائل البدو.

وجاء تعيين عثمان باشا - الصادق - دليلا جديدا على اعتراف الدولة العثمانية بحاجتها لباشوات هذه الأسرة لضمان الأمن والاستقرار فى سوريا، ذلك أنه منذ أوائل الثلاثينات من هذا القرن - الثامن عشر - ظهر على مسرح الأحداث فى جنوب سوريا رجل عربى طموح تواق إلى الحكم هو الشيخ ظاهر العمر، وكان ازدياد خطر ظاهر العمر فى إيالة صيدا قد أجبر السلطان على تأييد آل العظم فى باشوية دمشق وتعيين أقاربهم وأتباعهم فى إيالات صيدا وطرابلس وفى حلب أحيانا (١).

ورغم أن عثمان باشا العظم فشل فى صد التحالف المملوكى المصرى الشامى أى تحالف جند على بك الكبير وجند الشيخ ظاهر العمر حتى دخل هؤلاء الجند دمشق نفسها عام ١٧٧١م مما جعل الدولة العثمانية تعزل عثمان باشا وتعين باشا آخر مكانه فإن آل العظم عادوا إلى الحكم مرة أخرى فى دمشق فى شخص محمد باشا العظم عام ١٧٧٨م الذى حكم حوالى عشرة سنوات حكما مستقرا بصورة سبق فيها غيره من الباشوات حتى صار محل تقدير أهل الإيالة.

سوريا بعد آل العظم

بانتهاء حكم آل العظم فى سوريا عام ١٧٨٦م عادت الانقسامات والفتن فى الإيالة مما جعلها تفقد الأهمية التى كانت لها، بل أن تصبح تابعة لإيالة صيدا خاصة بعد أن انتزع باشا صيدا أحمد الجزار إيالة دمشق وضمها إلى حكمه عام ١٧٩٠م. وبتسلط الجزار على دمشق عاشت الإيالة أسوأ ما عرفته من حكم وحكام حتى عام ١٨٠٤م ..

لقد كان من مظاهر سوء حكم أحمد الجزار فى دمشق فرض الضرائب الباهظة على الأهلين. وانخفاض العملة، وإسراف الباشا فى إراقة الدماء، مما اضطر الكثيرين من أهالى البلاد إلى الهرب من دمشق إلى لبنان أو حلب فرارا من بطش الجزار وإرهاقه.

١- د. محمد أنيس و د. رجب حراز : نفس المرجع ص٦٠ .

وخلف أحمد الجزار فى حكم جنوب سوريا قائد جيشه المسمى سليمان باشا، أما فى دمشق فقد توالى على حكمها الباشوات مطيحا اللاحق منهم بالسابق، فى الوقت الذى كان على هؤلاء الباشوات مواجهة المد السعودى حملة دعوة التوحيد إلى بلاد الشام. واستمر الوضع على هذا النحو من عدم الاستقرار حتى اتجه إلى الأقطار الشامية عام ١٨٣١م محمد على باشا وابنه إبراهيم باشا من مصر.

وبالجملة فقد كانت فترة حكم أسرة العظم فى سوريا فترة ذات فائدة لتلك البلاد، وإن كانت تلك الأسرة دعمت السيطرة العثمانية على تلك الجهات، فإن ذلك كان لفائدة مشتركة جنتها الدولة العثمانية كما جناها أهالى سوريا.

ثالثا : صيدا وفلسطين

خضعت بلاد الشام منذ دخول العثمانيين إليها فى أوائل القرن السادس عشر لنظم الحكم العثمانية وطبقا لهذه النظم فقد انقسمت بلاد الشام إلى ثلاث ولايات كما ذكرنا هى : ولاية[١] (إيالة) حلب وتضم مناطق شمال الشام. وولاية طرابلس تشمل بلاد وسط الشام، وولاية دمشق [٢] وتضم البلاد الجنوبية من سورية وكل فلسطين.

وقد ظل هذا التقسيم سارى المفعول حتى عام ١٦٦٠م حيث أعيد تقسيم بلاد الشام إلى أربع ولايات بإضافة ولاية صيدا التى ضمت المناطق الساحلية لبلاد الشام، وكانت حيفا وبلاد حارثة ويافا وجبل نابلس وغزة فى فلسطين تابعة لإيالة الشام الواسعة، ومن ثم كانت إيالة صيدا ضيقة ضيق سيف البحر لا تتجاوز مدن الساحل وضواحيها وبلاد صفد لأن أكثر البلاد الداخلة بحدودها ولا سيما العالية فى الجبال كان الغالب فيها الحكم الإقطاعى حيث لم يكن للوزير يد إلا ماندر [٣] .

وكان الدافع أمام الدولة العثمانية لإنشاء ولاية رابعة ببلاد الشام عام ١٦٦٠م - وهى ولاية صيدا - هو مراقبة الدروز والموارنة فى لبنان وضمان عدم تجدد الثورات من قبل هؤلاء أو أولئك بعد التجربة المريرة التى مرت بها الدولة العثمانية فى إخماد ثورة الأمير فخر الدين المعنى الدرزى.

١- الولاية كالإيالة أو مشتقة منها (ميخائيل الصباغ).

٢- كانت تعرف أيضا باسم ولاية الشام.

٣- ميخائيل نقولا الصباغ : تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيدانى ص ١٠.

وحتى تحقق هذه الولاية الجديدة رسالتها فى إخماد ثورات الدروز أو الموارنة فقد قضت التنظيمات العثمانية بأن تتعاون الولاية الجديدة (صيدا) مع ولاية طرابلس، وتتعاون الولايتان الساحليتان مع ولاية دمشق باعتبارها أكبر ولايات بلاد الشام.

وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر اكتسبت ولاية صيدا مركزا خاصا بين ولايات الشام، أى أصبحت أكثر مكانة بين ولايات بلاد الشام ويرجع إلى توفر عدة عوامل هى :

أولا : تجدد النزاع مع دروز لبنان.

ثانيا : تطلع البكوات المماليك فى مصر إلى جنوب بلاد الشام.

ثالثا : نشاط الأوروبيين التجارى فى صيدا (١).

وكما هو معلوم فى التنظيم العثمانى لحكم الولايات، كان يلى ولاية صيدا - شأنها شأن بقية الولايات - واليا وزيرا أو نائبا للسلطان كما كان يسمى - بيده السلطات العسكرية والمدنية (المالية والادارية والقضائية)، وكان يلتزم الولاية من الباب العالى بمال معلوم مع هدية سنية من المال على وجه ثابت.

وكانت ولاية صيدا - كغيرها من الولايات - مقسمة إلى إقطاعيات يلتزم كل مقاطعة منها شيخ من البيوت القديمة ذات الحيثية، من الوالى رأسا أو من أمير أعظم منه نظير مبلغ معين من المال لا يقبل الزيادة يقال له مال الميرى يدفعه الشيخ مع هدية مالية يقال لها عوائد (٢). وأصحاب المقاطعات لا يدعون الباشا يتدخل فى شئون بلادهم ويقاومونه إذا حاول التدخل متحصنين فى حصونهم وجبالهم ومستندين إلى اتحاد كلمتهم. وذلك أن هؤلاء المشايخ كانوا يتحصنون فى قلاع قديمة من بقايا آثار الصليبيين بالجبال، ويلتف حولهم رجال أشداء من عشائرهم ينفذون أوامر المشايخ ولا يخرجون عليهم.

ونظرا لأن ولاية صيدا كانت فى نظر الدولة أقل أهمية من بقية ولايات الشام فلم يتواجد بها قوات عسكرية من أهل البلاد أو من الانكشارية وإنما اعتمد الولاة على قوات عسكرية من الأكراد والتركمان والأرناءوط. ومن المغاربة ومن السودانيين وغيرهم، وقد تشكلت هذه القوات فى وحدات متنوعة بتنوع مواطن ولهجات ولغات أصحابها.

١- د. محمد أنيس : الشرق العربى - ص ٦١.

٢- ميخائيل الصباغ : مرجع سبق ذكره ص ١١.

وحيث أن هذه القوات مأجورة وغرباء عن أهل البلاد فلم يكن جنودها يتعاملون مع أهل البلا د إلا بوسائل السلب والنهب لمصلحتهم الخاصة ومصلحة الوالى الذى كان دائم السكوت عن أفعالهم وعدم إيقاف اعتداءاتهم المتكررة على الناس الذين ضجوا كثيرا بالشكوى منهم، وبلغ ضيق الناس بأفعال هؤلاء الجند أن أصبحوا مضرب المثل الذى لا يزال دارجا إلى اليوم بالقول بأن « فلان نظير عسكر الدولة ملحه على ذيله، أى لاذمة له ولا عهد ولا يذكر الخبز ولا الملح بفيه » (١).

ظـــــاهر

كانت أحوال بلاد الشام بصفة عامة وولاية صيدا بصفة خاصة على النحو الذى أوضحناه تهيء لرجل طموح مثل الشيخ ظاهر أن يعلن أماله وتطلعاته ويدافع عنها .. فمن هو ظاهر؟

هو ظاهر عمر الزيدانى عربى الأصل من قبيلة عربية تدعى بنو زيدان إحدى بطون قبيلة أكبر هى بنو أسد النازلة حول معرة النعمان (٢) بين الشام وحلب وكان بنو زيدان يدعون أنهم من نسل زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب، ولم يكن يعرف من بنى زيدان سوى عمر والد ظاهر عندما أقامه الأمير بشير شهاب الأول شيخا على بلاد صفد لأنه - أى عمر - كان قيسيا ليغريه بالشيخ السابق الذى كان يمنيا (٣)، وقد تم ذلك عام ١٦٩٨م وظاهر له من العمر تسع سنوات.

ولد ظاهر فيما تروى أقرب المصادر إلى الدقة حوالى ١٦٨٩م، وقد تأدب بالآداب العربية والثقافة الإسلامية حتى اشتهر بالأخلاق والرحمة مع الشجاعة والمهارة والذكاء، وقد استطاع بحسن سمعته وتدبيره أن يحصل من باشا صيدا على التزام طبرية فحكمها منذ عام ١٧٣٣ بالعدل ووفر لأهلها الاستقرار والأمن.

وباستقرار ظاهر العمر فى طبرية أخذ يوسع التزامه بضم البلاد التى حولها شيئا فشيئا بموافقة باشا صيدا الذى لم يكن يرفض طلبات ظاهر المدعمة بالهدايا، ولذلك أخذ ظاهر

١- نفس المصدر ص ١٢.

٢- معرة النعمان هى البادية الواقعة فى وسط سوريا الحالية .

٣- ميخائيل الصباغ : مرجع سابق ص ١٥، حدث هذا النزاع بين القبائل القيسية التى منها الشهابيين وعشيرة بنى زيدان، والقبائل اليمنية ومنها عشيرة المتاولة الشيعة.

بسهولة وبدون عقبات جميع البلاد التى حـــول طبرية، وقد فرح أهل تلك البلاد بحكم ظاهر لما اشتهر به من العدل والرحمة وقدرته علـى حمايتهم من إغـارات البدو وحملاتهم للسلب والنهب.

ونتيجة لصفات ظاهر هذه فقد ذاع صيته بين عرب فلسطين وأخذت وفود البلاد المختلفة تفد إليه وتطلب ولايته عليهم بل كثيرا ما كانوا يلجأون إليه ليرد عنهم ظلم حكامهم وملتزميهم، مما أوغر صدور هؤلاء الحكام والملتزمين ضد ظاهر وجعله هدفا لمؤامراتهم، وتحالفوا مع الدولة العثمانية وباشوات ولايات الشام ضد ظاهر العمر عندما تأزمت الأمور بين الطرفين.

وقد اتبع ظاهر سياسة المسالمة أولا فى ضم البلاد الراغب فى ضمها إلى التزامه فإذا فشلت سياسة المسالمة لجأ إلى الحرب، وكان النجاح حليفه فى معظم الأحوال إن لم يكن كلها .. فقد استطاع مثلا عام ١٧٣٩م أن يحصل على التزام صفد (١) من ملتزمها الذى يدعى محمد نافع بأن أخذ « يلاطفه ويحتال عليه بالوعد والوعيد إلى أن استنزله عنها وتولاها وأحضر تقريرها من وزير صيدا (٢).

ومن ناحية أخرى اتجه ظاهر إلى المتاولة وهم قوم من الشيعة وبلادهم بلاد بشارة بين جبل الدروز (الشوف) وبلاد صفد، يريد أخذ بلادهم، ولكنهم رفضوا التنازل عن بلادهم وأنذروه بالحرب، فحاربهم وغلبهم بالمكر والخديعة وأخذ بلادهم عام ١٧٤٢م وحصل على التزامها من باشا صيدا، ثم تحالف ظاهر مع المتاولة انتظارا لصدامه مع الباشوات العثمانيين.

ظاهر والدولة العثمانية

نتيجة لاتساع التزام ظاهر وقوة شوكته، ونتيجة لإثارة الملتزمين القدامى لباشا صيدا ضد ظاهر فقد أخذت العلاقات تسوء بين ظاهر من ناحية وممثلى الدولة العثمانية من ناحية أخرى، تلك العلاقات التى انتهت بالقضاء على ظاهر العمر نفسه وتفكك إمارته التى بناها طوال سنوات طويلة باللين تارة وبالحرب تارة أخرى.

كان المحك الأول بين ظاهر وباشا صيدا هو مدينة عكا التى أراد ظاهر أن يأخذ التزامها بحجة حمايتها من القراصنة المالطيين الذين كانوا يجوبون الحوض الشرقى للبحر المتوسط

١- كانت صفد حينئذ قلعة حصينة وقديمة.

٢- ميخائيل الصباغ : نفس المرجع ص٣٨ .

آنذاك، إلا أن باشا صيدا رفض إعطائها لظاهر رغم العروض السخية التى عرضها عليه ظاهر بزيادة المال الميرى المقرر عليها، فغضب ظاهر واستشار أخاه سعد الذى أشار عليه بأخذها عنوة.

وكان مما قاله سعد : لا تخف من غضب السلطان ، ما عليك بأس من السلطان إذا أخذتها وقمت له بما لها المقرر عليها لأن العثمانى (السلطان) لا يسأل إن كان المتولى باشا من رجاله أو من أهل البلاد، وعنده الأمر بالسواء بشرط إن مال الميرى يصل له تماما، ثم من حيث أن صارت معك كل البلاد وأهلها يريدونك فلماذا تجعل بينك وبين إسلامبول[1] (عاصمة الدولة) واسطة وتتغرم للباشا عوائد ولاتها وتدفع للولاة عليها عوائدهم فكأنك بهذا تدفع مضاعفا عوائد الولاة . ونحن عملنا ذلك فى ابتداء أمرنا برضانا لنتولى البلاد بتقرير من الباشا لأننا كنا لا نقدر على مخالفته وأما وقد صرنا بحمد الله أقوياء ولا يقدر الباشا أن يقاومنا فأرسل خذ عكا واقتل متسلمها واقطع عوائد ولاة البلاد التى تدفعها للباشا فإن رضى بذلك الباشا واقتصر على ميرى البلاد كان بذلك الخير وأن قصد الحرب والقتال معنا استعدينا له والنصر بيد الله يعطيه لمن يشاء (٢).

وهذا النصيحة التى نصح بها سعد أخاه ظاهر تدل على نوع الحكم العثمانى وطبيعة العلاقة بين الدولة العثمانية والباشوات وبين هؤلاء الباشوات وبين الملتزمين أمثال ظاهر العمر .. فالدولة لها المال الميرى واستقرار البلاد واستمرار خضوعها للسيادة العثمانية، والباشا له العوائد والاعتراف بسلطته والحصول على موافقته، ولكن الدولة وكذلك الباشا يخشى من زيادة التزام أحد الملتزمين مخافة الخروج من السيادة العثمانية وسلطة الباشا. وهو ما أشار اليه سعد لأخيه ظاهر عندما حرضه على حرب باشا صيدا بعد أن قويت شوكة ظاهر بينما كان ظاهر فى البداية يسترضى الباشا ويقدم له الأموال الوفيرة ليحصل على موافقته.

وقد نفذ ظاهر نصيحة أخيه سعد فاقتحمت قواته عكا حوالى عام ١٧٤٤م وقبضت القوات على متسلم المدينة وأرسل إلى ظاهر الذى أكرمه وأرسله إلى مولاه باشا صيدا، ثم أن ظاهر

١- هو الاسم الذى عرفت به بعد فتحها على يد السلطان محمد الفاتح وهى تعنى مدينة الإسلام الحامية له من الأعداء .

٢- ميخائيل الصباغ : نفس المرجع ص٤٢ .

انتقل إلى عكا واتخذها مقرا لحكمه. ولما وصل المتسلم إلى الباشا لم يقدر هذا أن يفعل شيئا لعدم قوته وصبر على ناره وصار يترصد الحوادث لظاهر وهو على حقد عظيم (١).

وعندما استمر ظاهر العمر فى ضم بلاد أخرى مثل الناصرة وحيفا والبلاد المجاورة لها كتب باشا صيدا - محمد باشا العظم - إلى صهره سليمان باشا وإلى باشوية الشام - دمشق - يستعين به على ظاهر الذى ضم إلى التزامه بلاد الباشوية - باشوية صيدا - ومنع عن الباشا العوائد التى كانت ترد عليه من حكامها وملتزميها ولم يعد يصل إليه سوى المال الميرى المقرر عليها والواجب للسلطان.

فكتب سليمان باشا إلى السلطان العثمانى يطلب الموافقة على محاربة ظاهر العمر، فلما وردت الموافقة قام كل من سليمان باشا ومحمد باشا العظم بحصار ظاهر فى طبرية لمدة ستة شهور، ولكن ظاهر استطاع بالخديعة تارة وبالقتال تارة أخرى إنهاء الحصار المضروب عليه وهزيمة قوات سليمان باشا - الذى قتل هو نفسه فى المعركة - وصهره محمد باشا العظم، وأتبع ذلك بأن أرسل ظاهر جيشا إلى صيدا طرد منها نائب الباشا، وأعلن توليه عليها وطلب من السلطان فرمانا بذلك، وقد وافق السلطان بعد أن وصلته الهدايا الكثيرة والأموال الوفيرة من ظاهر على إعطاء ظاهر فرمانا بولاية صيدا والإقطاعيات التى كانت فى يده من بلاد قبل صدامه بسليمان باشا ومحمد باشا العظم.

وبذلك استقر لظاهر الأمر فى تلك الجهات استقرارا مدعما بموافقة الدولة العثمانية، وقد أخذ يدعم جيشه ليكون مستعدا للوقوف أمام خروج القبائل عن طاعته والوقوف أمام قوات الدولة العثمانية التى ساءها - رغم موافقتها على ولايته الحكم فى باشوية صيدا وغيرها من البلاد المجاورة - أن يقوم رجل مثل الشيخ ظاهر بالإستيلاء على أجزاء من أملاكها بالقوة كما أن الشيخ ظاهر قد أعاد تحصين عكا بالأسوار والأبراج منذ انتقل إليها وجعلها مقرا لحكمه.

لم تكن موافقة السلطان العثمانى على ولاية ظاهر لباشوية صيدا إلا عملا مؤقتا ريثما تستعد الدولة عن طريق رجالها للقضاء عليه، حتى أن السلطان كلف أحد رجاله - عثمان باشا الصادق والى دمشق عام ١٧٦٠ م أن يترصد الأمور لظاهر ومتى أمكنته الفرصة يغتاله، لكن كان ظاهر قد أقام له بعض العيون لدى باب الدولة فأخبروه ولذلك أخذ حذره (٢).

١- نفس المرجع ص٤٣ .

٢- نفس المرجع ص٦٦ .

لذلك لم يلبث السلطان العثمانى أن أصدر أمرا لظاهر بالتخلى عن صيدا وتسليمها للوالى الجديد المدعو درويش باشا بن عثمان باشا الصادق والى دمشق فى الوقت الذى تولى محمد باشا الابن الثانى لعثمان باشا ولاية طرابلس. ولما كان السطان يدرك أن ظاهر لن يتخلى بسهولة عن صيدا فقد أصدر أمرا للباشوات الثلاثة. عثمان الصادق ولديه درويش باشا ومحمد باشا ومعهم باشا حلب وأمير الدروز بقتل ظاهر والقضاء عليه وعلى أسرته. كل ذلك ولما يمضى وقت طويل على وصول الفرمان السلطانى للشيخ ظاهر بولاية صيدا والبلاد التى فى يده من بلاد صفد.

إلا أن ظاهر استطاع هزيمة القوات المتحالفة المعادية له هزيمة كبيرة كان من نتيجتها ضعف مركز عثمان باشا وولديه، ثم تابع ظاهر انتصاراته بطرد درويش باشا من صيدا وتولية نائب عن ظاهر فيها بعد أن حصنها ظاهر، ثم رجع ظاهر إلى عكا ظافرا منتصرا، ومن هناك أخذ يوسع إمارته فضم كلا من يافا والقدس والخليل تلبية لطلبات أهلها، وأرسل للدولة العثمانية يطلب موافقتها، فاضطر السلطان العثمانى إلى إصدار فرمان بذلك نظير خمسمائة كيس من الأموال دفعها ظاهر.

ظاهر العمر وعلى بك الكبير

بدأت صلة ظاهر العمر بعلى بك الكبير فى مصر حوالى عام ١٧٧٠م عندما نفى على بك معلم دواوين مصر الذى يدعى ميخائيل الجمل والذى قدم إلى عكا ونزل فى ضيافة إبراهيم الصباغ وزير الشيخ ظاهر. وقد سر ظاهر ما سمعه من أخبار مصر وأميرها على بك الذى جاهر بالعداء للدولة العثمانية والخروج عن طاعتها.

انتهز ظاهر طلب ميخائيل الجمل شفاعته عند على بك لكى يعيده إلى وظيفته فى مصر ويرد عليه ماله الذى صادره منه، لكى يقيم علاقة وثيقة مع على بك يستعين على الدولة العثمانية خاصة أن عيونه فى إسلامبول كانوا يخبرونه بأن الحكومة العثمانية تحرض عثمان باشا والى الشام - دمشق - لاغتياله والقضاء عليه.

وقد كان قبول على بك شفاعة ظاهر فى ميخائيل بداية لعلاقة وثيقة بين الرجلين استمرت على قوتها حتى قضى عليها، وكان رد على بك مشجعا للشيخ ظاهر، حيث حثه على الوقوف ضد مؤامرات الحكومة العثمانية وأن يكون حذرا من مكر رجالها وأبدى على بك استعداده لنجدة الشيخ ظاهر ومساعدته ضد باشا الشام عثمان باشا، وكان ذلك سببا فى قوة عزيمة ظاهر.

وعندما علم ظاهر بأن الحكومة العثمانية أرسلت إلى عثمان باشا تحثه على أن يعد العدة من جديد للقضاء على ظاهر العمر، أرسل إلى على بك فى مصر يشكو له من خيانة الدولة التى رغم محاولات استرضائها وكسب مودتها بدفع الأموال الكثيرة فإنها تثير ضده باشوات الشام لحربه وطرده من إمارته، وختم رسالته لعلى بك برجاء أن يرسل نجدة تساعده على وقف زحف عثمان باشا على يافا والقدس والخليل.

سارع على بك بإرسال جيش مكون من حوالى أربعة آلاف جندى ليكون فى خدمة الشيخ ظاهر (١). ولما علم عثمان باشا بقدوم هذا الجيش المصرى وانضمامه لجند فلسطين بقيادة الشيخ ظاهر، ترك ميدان القتال وانسحب بجيشه وعاد مسرعا إلى دمشق وأنعم ظاهر على سناجق مصر وأرجعهم وأصحبهم بكتاب إلى على بك يخبره بما وقع (٢) وبذلك تخلص ظاهر مؤقتا من تهديدات عثمان باشا بفضل التعاون المصرى الفلسطينى.

ولكن الدولة العثمانية ورجالها فى الشام لم يتوقفوا عن المحاولات للقضاء على ظاهر العمر، وفى نفس الوقت كان على بك فى مصر قد أغضبه كذلك موقف الدولة العثمانية منه، ولذلك فقد أرسل جيشا بقيادة مملوكه محمد بك أبو الذهب إلى الشام اجتمع مع جيش ظاهر العمر بقيادة ابنه على وذلك عام ١٧٧٢م، واستطاع هذا الجيش المشترك أن يلحق الهزيمة بعثمان باشا وأن يطرده من دمشق، وبعد هذا الانتصار عاد محمد أبو الذهب إلى مصر ليقود ثورة ضد سيده على بك، فانتهز عثمان باشا الفرصة وعاد إلى دمشق، ومن هناك أخذ يستجمع قواه ويعد قواته لخوض حرب فاصلة ضد ظاهر.

إلا أن عودة ظاهر إلى صيدا بعد أن استطاع بمشاركة الجيش المصرى طرد عثمان باشا من دمشق قد جعلته يفكر فى أخذ بيروت من الدروز انتقاما من بسبب تحالفهم مع عثمان باشا ضده، وبالفعل استطاع ظاهر بمعاونة الأسطول الروسى العامل فى البحر المتوسط الاستيلاء على بيروت بطرد حاكمها من قبل الدولة العثمانية ويدعى أحمد باشا الجزار (٣).

١- عبد الرحمن الجبرتى : المجلد الأول ص٣٥٤ .

٢- ميخائيل الصباغ : نفس المرجع ص١٠٥ .

٣- كان الجزار سنجقا فى مصر فى عهد على بك الكبير، ولكنه فر من مصر بعد أن غضب عليه على بك وجاء إلى لبنان وأقام فى حمى الأمير يوسف الشهابى الذى رأى منه كل دهاء وبأس فعينه نائبا عنه فى بيروت لكى يحصنها ويحميها من الروس الذين كانوا يعملون فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط..

وفى عام ١٧٧٥ م قام محمد أبو الذهب بعد أن تغلب على سيده على بك فى مصر عام ١٧٧٣م ، وبعد أن فر على بك إلى فلسطين ليستنجد بصديقه وحليفه الشيخ ظاهر العمر ضد محمد أبو الذهب وضد الدولة العثمانية، قام محمد أبو الذهب بحملته الثانية على فلسطين هذه المرة باسمه ولتعقب سيده على بك ولتأييد سلطة الدولة فى الشام والمساهمة مع باشا الشام فى القضاء على الشيخ ظاهر وقد تمكن أبو الذهب من الاستيلاء على الجزء الجنوبى من إمارة ظاهر، ولكن أبو الذهب توفى فجاة فانسحب جيشه عائدا إلى مصر.

نهاية الشيخ ظـــاهر

كانت حملة محمد أبو الذهب على إمارة الشيخ ظاهر العمر بداية النهاية لحياة هذا الرجل بل ولإمارته أيضا. فقد تلى ذلك أن أرسلت الدولة العثمانية حملة كبيرة بقيادة القبطان باشا[١] حاصر عكا واستولى عليها وطارد الشيخ ظاهر حتى قتل على يد قائد حرسه الخاص وهو مغربى خان سيده بالاتفاق مع رجال الدولة العثمانية، وكان هذا القائد يدعى الدنكزلى، وقد تم ذلك فى أغسطس عام ١٧٧٥م.

وكان حسن باش قد جاء بتكليف من الحكومة العثمانية باجلاء ظاهر من عكا وإرغامه على قبول السيادة العثمانية أو مطاردته، وقد أرسل حسن باشا إلى ظاهر الرسالة التالية :

« من بعد السلام طلبت أعلمك عن سبب حضورى والآن أعرفك كل شىء وهو حضورى بئوامر من الدولة العلية صانها رب البرية لكى أستلم منك ميرى البلاد سبعة سنين المكسورة عندك وبعده أخذ رأسك واستلم البلاد. هذا هو سبب حضورى. ولكن لكونى أعرف جيدا زودحلم ورأفة الدولة العلية وشفقتها على رعاياها سيما على من يكون مطيع إلى أوامرها. فلذلك إن شئت تدفع لى مال الميرى المكسور عندك وتسلمنى مدينة عكا. وأنت تخرج إلى مواضعك القديمة. وأنا من رجوعى إلى الآستانة العليا أعرض عن طاعتك وقبولك للأوامر السلطانية ويخرج لك فرمان بالعفو تماما عن كل ما سلف منك وترجع إلى مدينتك كما كنت وبهذه الطريقة تكون صنت مالك وعرضك ورجالك وحفظت مقامك، ماذا وإلا أنا حاضر للمحاربة »[٢].

١- هو قبطان البحر حسن باشا .

٢- ميخائيل الصباغ : الوثائق نفس المرجع ص١٦٧ .

وتروى المصادر أن حسن باشا هذا عندما أحضر له الدنكزلى رأس ظاهر وضعها أمامه وسأل الدنكزلى عن بلده فى المغرب ومدة خدمته لظاهر التى بلغت أربعين سنة كان موضع رعاية وعطف ظاهر غضب وقال : تأكل خبز إنسان أربعين سنة وبخلك منه هذا المقدار وتخضب سيفك بدمه لينتقم الله منى إذا كنت لا أنتقم منك لظاهر، ثم أمر من كان فى حضرته من ملازميه فأخذوا الدنكزلى فخنقوه ورموه فى البحر (١).

وكان للشيخ ظاهر مكانته بين عرب الشام نظرا لما عرف عنه من البر والعناية بأهله وذويه وحاشيته وتحرى العدالة وإقامة الحد حتى على أهله وخاصته، ونظرا لما اشتهر به من شجاعة وشرف النفس وفطنة وفراسة، فهو عربى تجلت فيه صفات العربى الأصيل. كما كان للشيخ ظاهر مكانته حتى بين أعدائه فنجد مثلا عثمان الصادق يخاطبه فى رسالة بالعفو عنه قوله عام ١٧٧٤م : قدوة المشايخ الكرام، وعين أعيان العقلاء الفخام، صاحب المقام المعتبر أخونا الشيخ ظاهر العمر. وجاء فى مقدمة الفرمان السلطانى بالعفو عن الشيخ ظاهر : إلى قدوة الأماجد والأعيان الشيخ ظاهر العمر زيد قدره » (٢).

ظاهر العمر والدول

انطلاقا من كون حركة الشيخ ظاهر حركة استقلالية جاهرت بالعداء للدولة العثمانية وكان على صاحبها - ظاهر - أن يكون مستعدا دائما لملاقاة الدولة ورجالها باشوات الشام فكان عليه أن يتحالف مع الدول الأخرى وبصفة خاصة تلك التى تعادى الدولة العثمانية.

ومن هذا المنطلق كانت صلة الشيخ ظاهر بعلى بك الكبير فى مصر . وقد قوى هذه الصلة العداء المشترك للرجلين ضد الدولة العثمانية، ذلك العداء الذى انتهى كما رأينا بالقضاء على الرجلين لصالح الدولة ومن هذا المنطلق كذلك تحالف ظاهر مع الأمير يوسف الشهابى أمير الدروز، ومع روسيا وفرنسا واستعان بالأوروبيين تجارا وغيرهم لتدعيم إمارته لتقف ندا للسلطنة العثمانية ..

لم يكن ظاهر العمر هو صاحب الفضل فى الاتصال مع الروس. وإنما كان على بك الكبير فى مصر هو أول من تحالف مع الروس مقابل مساندته ضد الدولة العثمانية، وقد استفاد

١- نفس المصدر ص١٥٨ .

٢- نفس المصدر ص١٦٥ .

ظاهر من الوجود الروسى فى البحر المتوسط ووجد فيه الروس حليفا يمكن الاعتماد عليه. خاصة وأن العداء المستحكم والتقليدى بين روسيا والدولة العثمانية كان يدعو روسيا إلى تأييد الحركات الاستقلالية ضد الدولة العثمانية وتحريض الشعوب المحكومة من قبل العثمانيين - كاليونانيين - للثورة ضد الحكم العثمانى .

وقد استعان ظاهر وحليفه على بيك بالأسطول الروسى الذى كان يقوده الكابتن « ريزو» أثناء الحملة على الشام فى رفع الحصار العثمانى عن صيدا وقد استولى الروس على بيروت وبقوا بها حوالى خمسة أشهر عام ١٧٧٢م ثم غادروا السواحل الشامية بعد عقد الهدنة بين الروس والعثمانيين . ولكنهم أى الروس عادوا مرة أخرى لمساعدة الشيخ ظاهر ضد العثمانيين بعد انتهاء أجل الهدنة فى يونيو ١٧٧٢م وحاصر الأسطول الروسى بيروت لمدة ثلاث شهور.

وكانت عودة الروس هذه المرة بناء على دعوة من الشيخ ظاهر لتنفيذ وعودهم التى قطعوها على أنفسهم بمساندته ضد خصومه العثمانيين، إلا أن الروس وجدوا هذه الدعوة « فرصة سانحة للنهب وجمع المال تحت ستار تأييد ظاهر، فأخذوا من الشيخ ظاهر مبلغا من المال لقاء ضرب خصومه من الساحل، وأتت سفن روسية وضربت بيروت بالمدافع . ثم أخذوا ٦٠٠ كيس لقاء امتناعهم عن نهب المدينة وبقوا خمسة أشهر (أكتوبر ١٧٧٣ - فبراير ١٧٧٤م) حيت تسلموا ذلك القدر من المال ورفعوا علمهم فوق أبراج المدينة وعلقوا صورة إمبراطورتهم أيا كاترينا - فوق بابها الرئيسى. ثم نقلوا وفدا من الدروز ليقدم للأمبراطورة هدية من جياد الخليل »(١)

ولكن الأسطول الروسى غادر السواحل الشامية فى عام ١٧٧٤م بعد أن تم توقيع المعاهدة الروسية التركية للصلح المعروفة باسم « كجوك قينارجى » تاركين بذلك ظاهر حليفهم ليتلقى بمفرده ضربات الأتراك، وذلك رغم أن ظاهر كان يعطى تسهيلات بحرية للروس فى الموانى الشامية التى تحت سيطرته مثل عكا وصيدا وبيروت، وكان وزيره إبراهيم الصباغ هو واسطة الاتصال بين ظاهروالكونت ألكسيس أورلوف قائد عام الأسطول الروسى فى البحر المتوسط.

١- د. أحمد عزت عبد الكريم : دراسات فى النهضة العربية الحديثة ص٢٤٥- ٢٤٦ .

ولم يكن الوجود الروسى فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط وإغاراتهم على موانى الساحل الشامى فى تأييدهم المتخاذل لظاهر العمر ولعلى بك الكبير فى مصر من قبل إلا إضافة لعامل جديد لاضطراب التجارة الخارجية للشام ومصر مما كان له أثره الكبير فى ضعف البلاد اقتصاديا.

وقد ساعد الوزير إبراهيم الصباغ سيده ظاهر في إقامة علاقات مع الأوروبيين، فحدث اتصال بين ظاهرالعمر وفرسان القديس يوحنا الذين يتخذون من مالطة مقرا لهم منذ أن طردهم العثمانيون من جزيرة رودس، وقد ذكر فولنى أن بعض قراصنة مالطة هاجمت سفنا تركية ثم باعت ما نهبته فى سوق عكا، وهاجت الدوائر العثمانية، ولكن ظاهر ادعى جهله بالحادث وأرسل بعض سفنه لمطاردة سفن القراصنة، ولكنها اتصلت بها فى عرض البحر بعيدا عن أعين الرقباء (١).

ويرجع اتصال ظاهر العمر بفرسان القديس يوحنا الذين كانوايستخدمون أسلوب القرصنة ضد سفن الدولة العثمانية بصفة خاصة إلى ضيق ظاهر بمواقف الدولة العثمانية العدائى منه حتى بلغ به الأمر أن كتب إلى رئيس هؤلاء الفرسان يعرض عليه صداقته.

ومما تجب ملاحظته أن قراصنة مالطة والقراصنة اليونانين تسببوا فى تدهور تجارة المشرق العربى الخارجية، وقد استمرت اعتداءاتهم على الساحل السورى من الاسكندرونة حتى يافا، وكانوا يحتمون بالعلم الروسى ويعتدون على السفن الإسلامية والمسيحية جميعا، وظلوا سادرين فى اعتداءاتهم حتى بعد عقد صلح كجوك قينارجى عام ١٧٧٤م. (٢).

وفى سبيل تأكيد استقلال ظاهر فى إمارته فقد اتصل بفرنسا - كما فعل حليفه على بك فى مصر - وكان يبدى علامات المودة نحو القنصل الفرنسى والرعايا الفرنسيين، ورغم ذلك نجد القنصل الفرنسى فى عام ١٧٧٢م يدعو حكومته إلى إمداد الدولة العثمانية بعدة سفن حربية تساعدها على استعادة بلاد الشام الخاضعة لحكم ظاهر العمر حتى تستقر الأحوال فى تلك البلاد وتنتعش الحركة التجارية ويطمئن الأجانب على أنفسهم وأموالهم، ولكن الحكومة الفرنسية رفضت هذا الرأى تاركة للدولة العثمانية حرية الحركة والعمل فى ممتلكاتها بالأسلوب الذى ترغبه.

١- د. أحمد عزت عبد الكريم: نفس المرجع ص٢٤٦ .

٢- نفس امصدر ص٢١٥ .

تقييم حركة ظاهر

كانت حركة الشيخ ظاهر العمر حركة استقلالية عربية فى الوطن العربى عن الدولة العثمانية وكان يمكن أن تكون العلاقة بين الشيخ ظاهر والدولة العثمانية علاقة طيبة وقوية لمصلحة عرب الشام لولا دسائس رجال الدولة العثمانية ومؤامراتهم التى لا تنتهى.

ورغم أن الشيخ ظاهر كان يسترضى هؤلاء الرجال. بالهدايا والأموال المستمرة والكثيرة إلا أن المؤامرات والخطط كانت تدبر لاقصاء هذا الأمير العربى الذى أحيا الروح العربية بانتفاضته العربية الخالصة التى تجلت فيها صفات العروبة والرجال العرب المتحلين بالعدل والرحمة والمروءة والشجاعة وكل القيم العربية الأصيلة، فى وقت ضاعت هذه القيم على يد رجال الدولة العثمانية وقادة جندها.

لقد جاهد ظاهر ضد قوى كثيرة : الأتراك العثمانيون فى مركز السلطنة. والباشوات فى باشويات الشام والقبائل العربية فى بلاد الشام المناوئة له، بل والأكثر إيلاما خروج أبنائه عليه خاصة على وعثمان واستعان وتحالف مع الدروز تارة ومع المالطيين والروس والفرنسيين وغيرهم تارة أخرى وكانت صداقته لعلى بك الكبير صداقة مصير، وكان ظاهر وفيا لأصدقائه مخلصا لحلفائه . وإذا كان الشيخ ظاهر قد اكتسب محبة أهله وعشيرته وسكان إمارته بما كان يتحلى به من صفات طيبة، فقد أجبر أعداءه على احترامه فى حياته بل وحتى عند وفاته.

مـــاذا بعـــد ظاهر

منح السلطان العثمانى أحمد الجزار - المملوك المصرى الهارب إلى الشام زمن على بك - باشوية صيدا عام ١٧٧٥م جزاء خدماته الكبيرة لإخماد حركة الشيخ ظاهر العمر وتبع ذلك أن منحه السلطان ولايتى دمشق وطرابلس فأصبح بذلك الباشا الحقيقى والفعلى على سوريا كلها، واتخذ عكا مركزا لأملاكه.

وقد عاشت البلاد ثورات متعددة ومتعاقبة نظرا لقسوة الجزار وشدته الدموية فى التعامل مع الناس، واستمرت الثورات فى دمشق وبيروت وصيدا وغيرها من المدن الشامية حتى عام ١٧٩٨م عندما عين السلطان العثمانى واليا آخر على دمشق.

ثم تعرضت البلاد لحملة نابليون على مصر منذ فبراير ١٧٩٩م وقد سقطت البلاد ابتداء من العريش فغزة ويافا وحيفا دون مقاومة منظمة بسبب كراهية الأهالى للباشا التركى أحمد

الجزار، وإن كان الأهالى فى تلك المدن قد تحملوا عبء الدفاع عن مدنهم ضد الزحف الفرنسى.

وبعد مغادرة الفرنسيين فلسطين اشتدت سطوة أحمد الجزار الذى عزى إلى نفسه الانتصار ضد الفرنسيين، ومن هذا المنطلق تطلع إلى وضع سوريا بكاملها تحت سيطرته، فاصطدم بالشهابيين الذين سيطروا على لبنان، ولكن وفاته عام ١٨٠٤ قد أنهت أحلامه الواسعة. إلا أن سليمان باشا قائد جيش الجزار استطاع أن يحكم جنوب سوريا لمدة خمسة عشرة عاما من ١٨٠٤ - ١٨١٩م. بينما كانت دمشق ماتكاد تستقبل واليا جديدا حتى تودعه لتستقبل آخر أكثر منه قوة.

استمر لبنان تحت حكم الشهابيين، بينما خلف سليمان فى جنوب سوريا عبد الله باشا الذى أعاد إلى الأذهان حكم الجزار، واستمر الوضع حتى جاء محمد على إلى بلاد الشام عام ١٨٣٣م إلى عام ١٨٣٩م، وبعدها عادت بلاد الشام إلى الحكم العثمانى المباشر وتقطعت أوصالها مرة أخرى بعد أن تمتعت بالوحدة والرخاء على يد إبراهيم بن محمد على.

عاشت بلاد الشام فى ظل تنظيمات عثمانية جديدة، ولكنها شهدت ثورات كثيرة فى شمال سوريا وفى لبنان وفى جنوب سوريا، كما شهدت مذابح دموية بين الدروز والموارنة، وشهدت تدخلا من الدول الأوروبية لتحقيق أطماعها فى تلك البلاد، كما شهدت الخطط لإنشاء وطن لليهود فى فلسطين، كما شهدت غزوا فرنسيا للبنان وسوريا.

رابعًا : العـــــراق

كان العراق قد سقط فى يد الصفويين [1] عام ١٥٠٨م وهم شيعة. وصادف هذا تطلع العثمانيين إلى الشرق بعد أن اتسعت فتوحاتهم فى الغرب - فى أوروبا عبر البلقان - ووصلت إلى مداها، ومن هنا حدث الصدام بين الصفويين الشيعة والعثمانيين السنة على أرض العراق عام ١٥١٤م، وكانت العراق بذلك أول قطر عربى تدخله القوات العثمانية غازية.

١- ينتسب الصفويون إلى الشيخ صفى الدين صاحب طريقة صوفية فى أردبيل بأذربيجان من بين عدة طرق صوفية انتشرت هناك أثناء الاضطراب الذى عم إيران والعراق عقب سقوط دولة المغول الكبرى. وقد أصبح لهذه الحركة قوات عسكرية تتخذ لباسا للرأس عبارة عن تاج أحمر ذا أثنى عشر ذؤابة كناية عن الاثنى عشر إماما ، ولهذا أطلق عليهم العثمانيون « قزل باش » أى الروس الحمراء د. محمد أنيس.

جاء سقوط العراق فى يد الصفويين على يد زعيمهم الشاه إسماعيل الصفوى الذى يعتبر المؤسس الحقيقى للدولة فى إيران والذى استمر فى الحكم من ١٥٠٠ إلى ١٥٢٤م . ويذكر بعض المؤرخين وعلى رأسهم المؤرخ البريطانى توينبى Toynbee أن الشاه إسماعيل الصفوى مسئول عن تحول العثمانيين فى فتوحاتهم نحو الأقطار العربية وهو التحول الذى أدى إلى صدام بين الصفويين الشيعة والعثمانيين السنة، وذلك بمحاولات إسماعيل إثارة العثمانيين بشتى الطرق .

ورغم انتصار القوات العثمانية بقيادة سليم على القوات الصفوية بقيادة إسماعيل فى سهل جالديران عام ١٥١٤ ودخول السلطان سليم إلى العاصمة الصفوية تبريز واستيلائه على أموال وكنوز الشاه ونسائه، فإن هذا الانتصار لم ينه العداء بين الفريقين، بل استمر طويلا وكان العراق ميدانا للصراع والمعارك بين الطرفين، مما جعل العراق موزعا توزيعا متوازنا بين السنة والشيعة.

ورغم حملة سليم لم يخضع العراق كله للحكم العثمانى، بل خضع شماله فقط فى الموصل ودياربكر، وحتى فى هذه المناطق لم يكن الحكم العثمانى مستقرا كل الاستقرار. أما العراق الأوسط والجنوبى فقد ظل فى يد الايرانيين، (١) وكان هذا الانقسام من أسباب استمرار الصراع بين الأتراك العثمانيين والصفويين، واستفاد المغامرون وقبائل الأكراد وحكام الولايات التركية المجاورة للدولتين من هذا الصراع لمصالحهم الشخصية، وفى عام ١٥٣٣ قاد السلطان سليمان العثمانى حملة عسكرية استولى فيها على بغداد وانضمت البصرة آنذاك إلى العثمانيين طواعية، وبذلك أصبح العراق كله تقريبا خاضعا للدولة العثمانية حتى عام ١٦٣٣ عندما أعاد الصفويون الكرة واستولوا عليه وبقوا به لمدة خمس سنوات إلى أن قاد السلطان العثمانى مراد حملة عسكرية عام ١٦٣٨ استولى بها على العراق وأعاده إلى حظيرة الدولة العثمانية.

ولم تكن حملة مراد على العراق آخر مراحل الصراع بين الايرانيين والعثمانيين حول العراق، إذ أنه بعد سقوط الأسرة الصفوية فى إيران على يد نادر شاه عام ١٧٣٣م حاول هذا الشاه الجديد الاستيلاء على العراق ولكنه فشل، ثم أعاد الكرة من عام ١٧٤٣ إلى عام ١٧٤٧م عندما توفى نادر شاه، وعقدت بين إيران وتركيا معاهدة الحدود التقليدية بين الدولتين

١- د. محمد أنيس : الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر ص ٣٨.

مع دخول العراق فى حوزة الدولة العثمانية، وبهذه المعاهدة انتهت فترة الصراع الطويلة بين الإيرانيين والعثمانيين والتى كان العراق ميدانها.

مما يجب الإشارة إليه أن البصرة كان لها وضع خاص، فقد، استولى عليها الفرس - الصفويون - أولا فى سنة ١٦٩٧ ثم تركوها بعد عامين، ثم أغار عليها نادر شاه عام ١٧٤٣م ثم ارتد عنها (١)، وكانت البصرة بحكم موقعها على شط العرب على رأس الخليج مصدر اهتمام الدول الأوروبية، وقد استفادت العشائر العربية هناك من الاهتمام الأوروبى إلى جانب استفادتها من الصراع الإيرانى العثمانى .

أسـرة حسـن باشـا

وفى ظل الصراع الإيرانى العثمانى حول العراق كانت حاجة الدولة العثمانية إلى إقرار الأمور في العراق دافعا لكى تظهر أسرة حاكمة تحكم العراق منذ أوائل القرن الثامن عشر واستمر حتى عام ١٨٣١م. هذه الأسرة هى أسرة حسن باشا الذى تعين فى عام ١٧٠٤م، وقد نجح حسن « فى إخضاع القبائل العربية المتمردة حتى لم يعد فى استطاعه الباب العالى أن يستغنى عن خدماته » (٢).

ظل حسن باشا فى الحكم متخذا من بغداد مقرا له ونادرا ما كانت كل أقاليم العراق تخضع لحكمه، إذ كانت الموصل والبصرة كثيرا ما يعلن حكامهما عدم خضوعهما لباشوية بغداد، وبقى حسن باشا فى الحكم حتى عام ١٧٣٤م حيث خلفه ابنه أحمد فى الباشوية.

وكان حسن باشا ومن بعده ابنه أحمد قد نجحا فى البقاء في الباشوية بسبب تكوين قوة عسكرية من المماليك تحت إمرة كل منهما، وكان لهؤلاء المماليك منزلة كبيرة عند حسن باشا وأحمد باشا بسبب دورهم فى القضاء على الثورات المستمرة للقبائل العربية، مما دفع أحمد باشا إلى اتخاذ قائد الفرقة المملوكية كتخدا له - أى وكيلا أو نائبا - وزوجه من ابنته ويدعى سليمان أغا.

وعندما توفى أحمد باشا عام ١٧٤٧م وكان سليمان أغا يقوم بحملة عسكرية فى البصرة حاولت الدولة العثمانية إنهاء حكم هذه الأسرة وإعادة العراق إلى الحكم العثمانى المباشر

١- د. أحمد عزت عبد الكريم : دراسات في النهضة العربية الحديث ص ٢٣٠.

٢- د. محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص٥٠ .

ولكن جند الانكشارية في بغداد رفضوا قبول الباشا الجديد الذى أرسله السلطان العثمانى. وزحف سليمان أغا من البصرة ودخل بغداد بالقوة وأعلن أنه الباشا الشرعى، وطلب من السلطان العثمانى إصدار فرمان بذلك، وقد ساعده على بلوغ هدفه تقديمه الهدايا وحاجة الدولة العثمانية إلى استمرار استقرار الأمور فى العراق على الحدود مع إيران في نفس الوقت الذى كانت قد عقدت فيه معاهدة بين إيران وتركيا لأنهاء النزاع بينهما.

وبصدور فرمان من السلطان العثمانى بولاية سليمان أغا عام ١٧٤٩ تبدأ سلسلة الباشوات المماليك فى العراق التى استمرت حتى عام ١٨٣١م. ولكن مما تجدر الإشارة إليه أن الدولة العثمانية حاولت أكثر من مرة إنهاء حكم المماليك فى العراق ولكن محاولاتها لم تكن تستمر حتى يعود الباشوات المماليك إلى الحكم مرة أخرى. ومن أمثلة ذلك سليمان باشا الكبير (بويوق سليمان) زعيم المماليك الذى ساعدته شركة الهند الشرقية فى تولية باشوية بغداد وبقى بها من ١٧٨٠ إلى ١٨٠٢م.

ومما يذكر حول تولية سليمان الكبير أن المقيم البريطانى في بغداد « وسط سفير دولته فى الأستانة لصالح الباشا، فأثاب الباشا الشركة الانجليزية على ذلك بالرعاية والعطف اللذين أسبغهما عليها وعلى نشاطها فى العراق فى مدى عشرين عاما وقد أجابته الشركة إلى ما طلبه في سنة ١٧٨٢م من سلاح وعتاد فجلبتهما له من بومباى، ثم أردفت ذلك بعدد من المدربين الإنجليز جاءت بهم من الهند» (١) وكان آخر الباشوات المماليك وأعظمهم فى العراق هو داود باشا الذى حكم من عام ١٨١٧ إلى ١٨٣١م.

وكان داود باشا من جورجيا وبيع فى طفولته إلى سليمان باشا الكبير، وقد استطاع بمهارته وتعلمه أن يصبح مستشارا لسليمان باشا ثم زوجا لابنته، وبعد وفاة سليمان باشا أصبح مغضوبا عليه وعمل معلما بأحد مساجد بغداد فكون علاقات مع رجال الدين وأفراد الشعب العراقى إلى جانب تكوينه أتباعا من المماليك وهذه القوى ساعدته على ارتقاء الولاية.

وقد حكم داود باشا العراق حكما مطلقا لمدة ١٤ سنة، وكان يعاصر محمد على فى مصر وقد قلده فى سياسته القائمة على تركيز السلطة فى يده واحتكار تجارة الاستيراد والتصدير، وزراعة أصناف جديدة من المحصولات كالقطن وقصب السكر، قد أدى تنفيذه لسياسة تمركز السلطة فى يده إلى خوض معارك طويلة ضد القبائل العربية وضد أكراد شمال العراق، وإذا

١- أحمد عزت عبد الكريم: مرجع سبق ذكره ص٣٣٢ .

كان قد استطاع إخماد ثورات القبائل العربية فان إخضاع الاكراد قد أدى به إلى الصدام مع الإيرانيين الذين يؤيدون الأكراد ضد داود باشا.

وقد كان العداء بين داود باشا والإيرانيين عنيفا انقلب أثره المدمر على الإيرانيين الشيعة المقيمين بالعراق والمصالح الايرانية فى العراق، وانتهى هذا العداء بتوقيع صلح أرضروم في مارس ١٨٢٣م الذى أنهى إجراءات داود ضد الإيرانيين في العراق وأعاد كردستان إلى الحكم التركى.

وفى عهده ساءت العلاقة بينه وبين الانجليز، وعندما صدر الأمر بحل فرق الانكشارية عام ١٨٢٦م وأخذ الباشا يدرب جيشا جديدا رفض الانجليز مساعدته فى تدريب هذا الجيش وإمداده بالضباط والفنيين والأسلحة، مما اضطر الباشا إلى استخدام ضابطين من فرنسا لتدريب جيشه وأنشأ بعض المصانع الحربية التى عهد بالاشراف عليها لخبير سويسرى، وفى عهد داود باشا، بدأ الحديث عن فتح مواصلات سريعة بين أوروبا والهند عن طريق الفرات، وذلك باستخدام السفن التجارية فى دجلة والفرات، وأتى إلى العراق جماعة من الفنيين الإنجليز لعمل مسح لهذا الطريق والوقوف على مدى إمكانياته (١).

وبسبب صدام داود باشا بالانجليز كاد له هؤلاء فى البلاط العثمانى وبسبب هزيمة الأتراك فى حربهم ضد روسيا عامى ١٨٢٨/١٨٢٩م وفرض غرامة حربية كبيرة عليهم يدفعونها للروس طلب السلطان محمود الثانى مساهمة باشواته فى دفع هذه الغرامة، ولكن داود باشا رفض دفع أية أموال بل وقتل المبعوث التركى الذى وصل إلى بغداد فى ديسمبر ١٨٣٠م مما جعل الباب العالى يعلن تمرد داود باشا ويرسل جيشا لمحاربته.

أرسل السلطان محمود الثانى عام ١٨٣١م قوة عسكرية عثمانية إلى العراق دخلت بغداد - التى كانت تعانى من انتشار مرض الطاعون بها - ولم يستطع داود المقاومة بل استسلم للقوة حيث نفى إلى الجزيرة العربية حيث عمل شيخا للحرم النبوى فى المدينة المنورة إلى أن مات هناك، وبنفيه أنتهت أسرة حسن باشا والمماليك فى العراق ليعود الحكم العثمانى المباشر إلى هذا القطر العربى الذى كان أول قطر عربى تغزوه القـوات العثمانية.

١- نفس المصدر ص٢٣٤ .

العلاقات بين المماليك والدول الأجنبية

ونتساءل قبل الاسترسال فى الحديث عن الحكم العثمانى فى العراق بعد سقوط أسرة حسن باشا والمماليك فى العراق، ماذا كانت علاقات هذه الأسرة بالدول الأجنبية لقد كان الاهتمام الإنجليزى بالعراق سببه « اتخاذ الخليج والعراق وشمال بلاد الشام طريقا للمواصلات السريعة بين لندن والسلطات البريطانية فى الهند. هذا إلى جانب الأهمية العسكرية للخليج العربى بالنسبة للهند، وإن كان هذا الاهتمام العسكرى لم يظهر بشكل واضح إلا بعد الحملة الفرنسية على مصر (١).

وكانت انجلترا فى سبيل ذلك قد تحالفت مع إيران على طرد البرتغاليين من الخليج (من هرمز) وورثت الامبراطورية الهولندية من جزر الهند الشرقية، وفى الوقت الذى كان الإنجليز يبدون اهتمامهم بالعراق كانت أسرة حسن باشا والمماليك تحكم ذلك القطر العربى فى ظل تبعية إسمية للسلطان العثمانى بينما ينفردون بالحكم في العراق ويدعمون استقلالهم الفعلى عن الدولة العثمانية، وهم فى ذلك فى حاجة إلى تأييد دولة أجنبية قوية ضد محاولات السلطنة العثمانية إنهاء حكمهم وضد شاهات إيران للإغارة على ملكهم. وكانت انجلترا هى تلك الدولة الأجنبية التى سارعت إلى تأييد هؤلاء الباشوات .

وقد احتلت التجارة الإنجليزية فى العراق وإيران الاهتمام الأكبر عند انجلترا، وكانت «شركة الهند الشرقية البريطانية تعد وكالتها التى أنشأتها بالبصرة عام ١٦٤٢م مركز تجارتها الرئيسى، ولكنها لم تنشىء لها تمثيلا فى بغداد إلا فى سنة ١٧٥٥م وجعلته أولا تابعا للبصرة(٢) وقد شجع الحكومة البريطانية على إنشاء هذه الوكالة ما تمتع به العراق من استقرار وإصلاح فى عهد الباشوات المماليك الذين كانوا فى حاجة إلى علاقات طيبة مع الانجليز.

وكان هذا التقارب بين الباشوات المماليك والانجليز لمصلحة الطرفين، ففى الوقت الذى أيد الانجليز فيه الباشوات المماليك أمام أطماع شاهات إيران وأمام محاولات السلطان العثمانى إنهاء سيطرة الباشوات المماليك على العراق. رضى هؤلاء الباشوات « بتطبيق قاعدة

١- د. محمد أنيس ، الشرق العربى ص٩٩ .

٢- د. أحمد عزت عبد الكريم ، مرجع سبق ذكره ص٢٣٢ .

الامتيازات التى كانت تمنحها الدولة العثمانية للأوربيين وهى ٣٪ الأمر الذى أدى إلى نشاط التجارة البريطانية فى الخليج العربى » [١].

ولكن العلاقات الطيبة بين الطرفين شابها فتور بل وعداء فبعد أن أصبح فى بغداد مقيم بريطانى ثابت أصبح له اختصاصات قنصلية عام ١٨٠٢م وأصبحت بغداد منذ هذا التاريخ القاعدة الأولى للنفوذ الأنجليزى فى العراق بعد أن كانت البصرة تحتل هذه المكانة، وعلى الرغم من أن الباشا استمر يرعى المصالح البريطانية فى العراق ويقدم التسهيلات للرعايا البريطانيين حتى فى وجود حالة حرب بين انجلترا والدولة العثمانية عام ١٨٠٧م.

رغم كل ذلك فقد اتخذ داود باشا آخر الباشوات المماليك منذ عام ١٨١٧ موقفا عدائيا من النشاط الانجليزى الذى كان على قمته القنصل الانجليزى جيمس ريتش Rich منذ عام ١٨٠٨م ويبدو أن نشاط القنصل المتزايد واتصالاته الواسعة مع الموظفين الأتراك والأشراف وشيوخ البادية قد أثار « مخاوف داود باشا حتى أنه لم يتورع عن أن يعلن عام ١٨٢٠ أنه لا توجد حقوق أوروبية فى بغداد. وأردف ذلك بزيادة الرسوم الجمركية على البضائع البريطانية وأصبح داود باشا واثقا أنه لن يستطيع الاعتماد على شركة الهند الشرقية أو السفارة البريطانية فى الأستانة، بل أخذت هذه السفارة على عاتقها أن تكيد لداود باشا فى الدوائر العثمانية حتى نهاية حكمه عام ١٨٣١م [٢].

وعلى الرغم من أن العلاقات بين فرنسا والدولة العثمانية كانت فى مجملها علاقات طيبة وودية، إلا أنه بالنسبة للعراق فى عهد أسرة حسن باشا والباشوات المماليك لم تستطيع فرنسا أن تنافس بريطانيا فى هذه الولاية العثمانية، ورغم أنه كان لفرنسا قنصل فى البصرة إلا أن المصالح الفرنسية فى العراق لم تكن كبيرة، وكان الوكلاء الفرنسيون لايلقون رعاية ولا اهتمام من السلطات الحاكمة بسبب ما عرف عن انهيار النفوذ الفرنسى في الهند، وانعدام أى نفوذ لها في الخليج [٣]. ومع ذلك ورغم اعتقال الفرنسيين فى جميع أنحاء الدولة العثمانية ومنها العراق عقب غزو بونابرت لمصر عام ١٧٩٨م إلا أن باشوات العراق استخدموا بعض الفرنسيين، فقد استخدم سليمان باشا طبيبا فرنسيا واستخدم داود باشا ضابطا فرنسيا أيضا لتدريب جيشه بعد أن اختلف مع انجلترا كما سبق أن ذكرت.

١- د. محمد أنيس: الشرق العربى.

٢- د. أحمد عزت عبد الكريم : مرجع سابق ص٢٣٣ .

٣- نفس المصدر ص٢٣٢ .

ومما يجب الإشارة إليه أنه رغم فشل الحملة الفرنسية على مصر بقيادة بونابرت فقد استمرت سياسة محاربة المصالح البريطانية فى الهند من أسس تحركات الإمبراطور نابليون الأول، حيث وضع خطة منذ عام ١٨٠٥ لإنزال قوات فرنسية فى لبنان تزحف عبر العراق عن طريق وادى نهر الفرات إلى الخليج.

ولتحقيق هذه الخطة اتفق رجال الأمبراطور الفرنسى مع حافظ على باشا الوالى التركى الذى استولى على السلطة فى العراق بعد موت سليمان باشا الكبير عام ١٨٠٢م لقاء أن تقدم فرنسا مساعدات فنية ومعدات حربية لإعداد وحدة عسكرية نظامية على النسق الأوروبى، وقد ساعدت هذه القوة العسكرية سليمان الصغير (كوجوك) ابن أخى حافظ باشا - الذى أغتيل عام ١٨٠٧م للسيطرة على الأمور في العراق، كما ساعدته فرنسا لدى الباب العالى فى الاعتراف بسليمان الصغير واليا على العراق، ولكنه عزل عام ١٨١٠ بتأثير الإنجليز بسبب صداقته للفرنسيين.

العراق بعد حكم المماليك

عاش العراق بعد حكم المماليك تابعا تبعية كاملة للدولة العثمانية، وحرص الولاة الذين حكموه باسم السلطان العثمانى من عام ١٨٣١ إلى ١٩١٤م على إخضاع العراق للحكومة المركزية باستانبول والقضاء على آثار استقلال العراق الذى عمل له الباشوات المماليك، وقد أدت سياستهم هذه إلى أن تصبح سلطتهم على العراق وهمية وضعيفة عجزت عن القضاء على القبائل العربية المتحاربة فيما بينهما أو المحاربة للباشوات الأتراك، هذه القبائل ساندها محمد على والى مصر الذى كان يطمع فى ضم العراق إلى الكتلة العربية التى حرص على إقامتها فى هذه المنطقة بعد أن ضم بلاد الشام والحجاز والسودان إلى مصر بصفة خاصة.

وكانت سلطة الباشوات الأتراك ضعيفة أيضا فى مواجهة أكراد شمال العراق الذين يؤيدهم شاهات إيران، وقد استمرت الحرب دائرة بين الباشوات الأتراك وبين الأكراد من عام ١٨٣١ إلى عام ١٨٤٢م حتى عقدت فى مايو عام ١٨٤٢ معاهدة أرضروم الثانية بين تركيا وإيران. حددت الحدود بين الدولتين تنازلت بمقتضاها إيران عن السليمانية ومناطق أخرى مقابل تنازل تركيا لإيران عن الساحل الأيسر لشط العرب ومناطق أخرى، ولكن هذه المعاهدة لم تنه الإنتفاضات الكردية ضد الحكم التركى المباشر الذى بقيت سلطته وهمية.

وطبقا لمنشور التنظيمات الخيرية الذى صدر فى يونيه ١٨٥٦م انقسم العراق « إلى ثلاثة إيالات : ولاية بغداد، ولاية البصرة التى أنشئت عام ١٨٧٤، وولاية الموصل التى أنشئت عام

١٨٧٩م »(١) وأعادت هذه التنظيمات تنظيم جهاز الدولة ولكنها لم تنه إساءات الموظفين وابتزازهم الأموال لمصالحهم الخاصة.

وقد شهدت العراق عهدا من الإصلاح فى عهد ولاية مدحت باشا (١٨٦٩ - ١٨٧١) حيث شمل الإصلاح نواحي متعددة كالتعليم ونظام الحجر الصحى، ومع ذلك بقى « الطابو»(٢) . أو إدارة تسجيل الأراضى، من أهم الأعمال التى تمت على يد مدحت باشا وهو نظام كان يهدف إلى استقرار القبائل فى الأراضى الزراعية (٣) هذا إلى جانب اهتمامه بربط العراق بحريا بكل من استانبول ولندن بعد أن فتحت قناة السويس للملاحة العالمية، وغير ذلك من مشروعات المواصلات لربط أجزاء العراق بعضها ببعض وربطها مع سوريا وتركيا، وإدخال الخدمة العسكرية، ولكن هذه المشروعات لم يقدر لها التنفيذ حيث نقل مدحت باشا عام ١٨٧١ إلى أدرنة.

وقد استمر الوضع غير مستقر فى العراق بسبب انقسام العراق إلى سنة وشيعة استغله سلاطين آل عثمان لبقاء نفوذهم فى العراق مع محاباة للسنة العراقيين، وانقسام العراق إلى عرب وأكراد على استعداد للثورة مستمدين التأييد من قوى خارجية، وانقسام العراق إلى حضر وبادية مع اختلاف التكوين الثقافى والاجتماعى بين سكان المدن والقبائل والعشائر العربية المتمسكة بتقاليدها البدوية الراسخة فى القدم.

حاول الولاة الأتراك اقتفاء أثر مدحت باشا ولكنهم فشلوا فى تحقيق أية برامج إصلاحية فى العراق وذلك لانشغال الدولة بأحداثها الداخلية المتمثلة في الصراع بين السلاطين وبين العثمانيين الجدد (يكى عثمانلر) وهم جماعة من الضباط الأتراك والموظفين والمثقفين الأحرار، ذلك الصراع الذى انتهى بحدوث انقلاب مايو عام ١٨٧٦ ضد السلطان عبد العزيز، وانقلاب أغسطس من نفس العالم ضد مراد الخامس وكانت نتيجته المناداة بعبد الحميد سلطانا فى ظل دستور وضعه مدحت باشا الذى اختاره السلطان وزيرا. ثم انقلاب عبد الحميد عام ١٨٧٧م ضد الدستور ونفى مدحت باشا.

١- أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث تأليف لونجرج،د. محمد أنيس : الشرق العربى ص ١٣.

٢- يعنى الطابو قيام إدارة التسجيلات ببيع أراضى الحكومة بأقساط صغيرة سهلة الدفع ومنح الحق بصفة خاصة لشيوخ القبائل بحيث تسع قطعة الأرض القبيلة التى يتولون رئاستها وقد أدى هذا النظام إلى أن أصبح الكثير من شيوخ القبائل ملاكا زراعيين وإقطاعيين كبارا.

٣- د. محمد أنيس : الشرق العربى ص ١٣١.

وترك العراق نهبا لأطماع الدول الأوروبية وصراعها، فبينما حصل الألمان على مد خط سكة حديد بين برلين إلى بغداد، وقفت انجلترا أمام هذا المشروع لأنه يهدد المصالح البريطانية فى العراق والخليج والهند، وحصلت انجلترا على احتكار التجارة مع العراق، واحتكار نقل البضائع بين العراق وانجلترا.

استمر الوضع فى العراق على هذا النحو فى ظل حكم السلطان عبد الحميد الذى حاول التأثير فى الأقطار العربية عن طريق الترويج لفكرة الجامعة الإسلامية التى تعيد له السيطرة الكاملة على تلك الأقطار لتقف ضد النفوذ الأجنبى المتزايد فى ولايات الدولة وخاصة الولايات العربية.

استمر هذا الوضع حتى ثورة ١٩٠٨ بقيادة جماعة الاتحاد والترقى أو تركيا الفتاة ضد استبداد السلطان عبد الحميد، ورغم فرح العراقيين وبقية العرب بهذه الثورة ومؤازرة العرب للقائمين بها ، إلا أن العراقيين شاركوا مع إخوانهم العرب فى تشكيل الجمعيات السرية المناهضة لسياسة التتريك التى اتبعتها حكومة الاتحاديين والمعادية للعروبة .. تلك الجمعيات التى كانت مقدمات لصدام بين العرب والأتراك فى الحرب العالمية الأولى انتهت بانحسار الحكم التركى عن العراق وغيره من أقطار الشرق العربى.

الفصل الخامس

مصر في ظل مشيخة على بك الكبير

- أحوال مصر - على بك - على بك واستقرار الأمور - على بك والدولة العثمانية - على بك والدول الأجنبية - تقييم حركة على بك - مصر بعد على بك .

أحوال مصر

انطلاقا من نظام الحكم العثمانى فى مصر استمرت الخلافات بين هيئات الحكم الثلاث ورأينا فى أوائل القرن الثامن عشر انهيار سلطة الباشا أمام سيطرة وقوة الأوجاقات العثمانية .

وكان مما زاد من قوة البكوات المماليك أن المماليك يشترون صغارى ويعتنقون الدين الإسلامى ويخضعون لتربية عسكرية قاسية ، بالإضافة إلى استمرار تدفقهم من خارج مصر. وعدم انصهارهم فى المجتمع المصرى، وكل ذلك أدى إلى أن طوائف المماليك ظلت محتفظة بنقائها وذاتيتها الخاصة.

وكان منصب شيخ البلد وهو حاكم القاهرة أعلى المناصب التى يتقلدها البكوات المماليك حيث كان يتولاه زعميهم وأكثرهم عصبية وأكبرهم قوة عسكرية يليه منصب أمير الحج، وكثيرا ما كان الخلاف يقع بين البكوات المماليك حول هذين المنصبين، فإذا تولاه أحدهم أخذ فى التنكيل بمنافسيه وخصومه من البكوات المماليك ، وأغدق الهبات والوظائف على أنصاره ومؤيديه ، فعندما «قتل حسين بك القازدغلى المعروف بالصابونجى وتعين فى الرياسة بعده على بك الكبير (عام ١١٧٢هـ الموافق ٤ سبتمبر ١٧٥٨-٢٤أغسطس ١٧٥٩) أحضر خشداشينه[١] المنفيين واستقر أمرهم [٢].

١- خشداشينه جمع خشداش أى زميل فى الرق.

٢- عبد الرحمن الجبرتى: عجائب الآثار ص٧١ .

ولقد وصف الرحالة والكتاب الأجانب الذين زاروا مصر فى القرن الثامن عشر أحوال مصر وما أصابها من اضطراب نتيجة الخلافات المملوكية فى غيبة الباشوات الأقوياء، وفى حال انحلال الأوجاقات العثمانية ، ورغم الخلافات بين البكوات المماليك إلا أنهم كانوا يتحدون ضد باشا لايرغبون وجوده فى القاهرة ، فيروى الجبرتى فى عام ١١٧٤م الموافق ١٣ أغسطس ١٧٦٠ إلى ١ أغسطس ١٧٦١م . أن الباشا كان يدعى مصطفى باشا، ويبدو أن البكوات المماليك كانوا عنه راضين ، حتى إذا عنيت الدولة آخر يدعى «أحمد باشا كامل المعروف بصبطلان ، كان ذا شهامة وقوة مراس فدقق فى الأحكام وصار يركب وينزل ويكشف على الأنبار والغلال ، فتعصب عليه الأمراء، وأصعدوا مصطفى باشا المعزول، وعرضوا فى شأنه إلى الدولة»[1].

وإذا كان الشعب المصرى الذى يقع عليه عبء هذه الخلافات يثور هنا وهناك فى أنحاء مصر فقط عندما تمس حياته بصورة يهتز لها مفهوم العدل والحكم العادل عند المصريين، فإن الحكومة العثمانية كانت تلجأ إلى عدة إجراءات عقابا للبكوات المماليك ، من أمثلتها إغلاق أسواق الرقيق فى المناطق المحيطة بالبحر الأسود، وبصفة خاصة فى البلقان حتى تحرم البكوات المماليك من مصادر قوتهم العددية، كما كانت الحكومة العثمانية تلجأ- وخاصة فى الأوقات التى لاتكون فيها مشغولة بحروب خارجية - إلى إرسال حملات تذيب إلى مصر يقابلها البكوات المماليك بالفرار إلى الصعيد ، ثم يعودون إلى القاهرة متى سحبت الحكومة العثمانية هذه الحملات .

ومن الطبيعى أن تتأثر أحوال المصريين بهذه الظروف فالزراعة مضطربة والتجارة كسدت، والنواحى الثقافية تجمدت ، فى الوقت الذى زادت فيه سلطة شيخ البلد إلى حد الطغيان ، وفى الوقت الذى زادت فيه الضرائب على المصريين لمواجهة المشروعات الكبيرة التى يعمل شيخ البلد على تنفيذها ، ولمواجهة إغلاق أسواق الرقيق أمام البكوات المماليك باستخدام جنود مرتزقة من البدو والنوبيين واليونانيين الذين استخدموا فى الحرب بالمدافع التى اشتراها شيخ البلد .

١- عبد الرحمن الجبرتى: نفس المرجع ص٧٢ .

على بك

ذكر المؤرخ الأوروبى ستافرو لانسبان Stafro Lanspan وكان معاصراً لعلى بك وعاشره وعمل له، أن على به ابن قسيس رومى أرثوذكسى من قرية أماسيا فى الأناضول اسمه القسيس داود، وأنه أى على بك ولد فى سنة ١٧٢٨م ثم خطف فى الثالثة عشرة من عمره وبيع فى القاهرة ، وكان اسمه يوسف، وأنه تزوج يونانية مسيحية أظهرت الإسلام وبقيت على دينها اسمها مريم [١].

وكان على بك مملوكا لإبراهيم كتخدا والاثنان من مماليك مصطفى كتخدا القازدغلى ولما بلغ على طور الشباب ظهرت شخصيته بكل مكوناتها من شجاعة وقوة وطموح وقسوة ، ثم تقلد الإمارة والصنجقية بعد موت أستاذه وسيده إبراهيم كتخدا عام ١١٦٨هـ (١٧٥٤-١٧٥٥م) ، ثم كان أميرا للحج وكبيرا للمماليك وشيخا للبلد فى عام ١١٧٧هـ (١٧٦٣م) .

وعرف على بك بأكثر من اسم، فقد عرف بعلى بك القازدغلى ، و«جن على» و «بلوط قبن» أو «بلوقبطان» ، ثم عرف باسم على بن الكبير بعد أن اتسعت فتوحاته خارج مصر وذاع صيته . وقد مارس منازعات وحروب قاسية بينه وبين خصومه ومنافسيه من البكوات المماليك ، وكان قوى المراس ، فمماً قال: أنا لا أتقلد الإمارة إلا بسيفى لا بمعونة أحد»[٢].

أراد على بك أن يستخلص مصر لنفسه فقتل منافسيه من «الرؤساء والأقران وباقى الأعيان، وفرق جمعهم فى القرى والبلدان، وتتبعهم خنقا وقتلا، وأبادهم فرعا وأصلا، واستأصل كبار خشداشينه وقبيلته، وأخرم القوانين الجسيمة والعوائد المرتبة، وحارب كبار العربان»[٣].

وقد استخدم فى ذلك الأعداد الكثيرة من المماليك الذين اشتراهم والجند الذين استخدمهم من جميع الأجناس ، وكان يطالع الكتب التى تحوى التاريخ والسير ويشيد بدولة المماليك فى مصر وبزعمائها مثل الظاهر بيبرس وقلاوون وغيرهم ويفخر بانتسابه لهم . «وكان عظيم

١- محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ج٢ ص٧٣ .

٢- عبد الرحمن الجبرتى: نفس المرجع ص٩٧ .

٣- الجبرتى: نفس المرجع ص٩٧ .

الهيبة ، فقد اتفق لأناس أن ماتوا فرقا من هيبته، وكان صحيح الفراسة ، شديد الحذق، ولايحتاج فى التفهيم إلى ترجمان أو من يقرأ له الصكوك والوثائق بل يقرأها بنفسه»[١].

على بك واستقرار الأمور

واجه على بك مصاعب كثيرة من قوى متعددة فى مصر تعوقه عن تحقيق مشروعاته وعن التمتع بمصر دون منافس فلم يكد على بك يعتلى كرسى مشيخة البلد بالقاهرة حتى اضطر إلى الفرار إلى الصعيد تارة وإلى الحجاز تارة أخرى وإلى الشام طورا ثالثا حتى إذا عاد إلى منصبه عام ١٧٦٧م انتقم من أعدائه وأنزل العقاب بمثيرى الفتن والاضطراب .

وكان على بك قد تخلص من عبد الرحمن كتخدا الذى كان أكبر منافس له بنفيه إلى الحجاز، وقد اشتد ساعد على بك بعد استبعاد عبد الرحمن كتخدا وأنصاره من القاهرة ، فأخذ يؤلب بعض البكوات على بعض حتى أضعف شوك الأقوياء منهم، وقد ارتجت مصر (القاهرة) فى ذلك اليوم «وخصوصا لخروج عبد الرحمن كتخدا، فإنه كان أعظم الجميع ابن سيدهم، وله الصولة والكلمة والشهرة، وكان له عزوة كبيرة ومماليك وأتباع وعساكر مغاربة وغيرهم حتى ظن الناس وقوع فتنة فى ذلك اليوم ، فلم يحصل شئ من ذلك سوى ما نزل بالناس من البهته والتعجب» [٢]. وكان ذلك عام ١١٧٨هـ (١ يوليو ١٧٦٤ إلى ١٩ يونيو ١٧٦٥م) .

كما تخلص على بك فى ١٨ ربيع الآخر ١١٨٢ هـ الموافق أول سبتمبر ١٧٦٨ م من صالح بك بقتله ، وبذلك تخلص على بك من آخر سنجق كان منافسا له فى مشيخة البلد، وقبل ذلك بشهرين كان على بك قد نفى عددا من البكوات المماليك إلى الصعيد ، وإلى الحجاز وإلى الفيوم.

وقد تابع على بك سياسته هذه بالقتل والمصادرة حتي وصفه الجبرتى بأنه هو الذى ابتدع المصادرات وسلب الأموال من مبادئ ظهوره واقتدى به من بعده [٣]. وقد استخدم على بك عددا من أتباعه أشهرهم محمد بك أبو الذهب، وأحمد الجزار الذى عرف بذلك بسبب ما

١- نفس المرجع ص٩٧ .

٢- نفس المرجع ص٥٧ .

٣- الجبرتى: نفس المرجع ص٧٦ .

أظهره من بطش وقسوة ضد بدو الدلتا الثائرين وهم الحبايبة بشرق الدلتا، والهنادى بإقليم البحيرة.

وكان سويلم بن حبيب زعيم عرب الحبايبة بالشرقية والقليوبية قد نشر نفوذه وسيطرته على بلاد إقليمى الشرقية والقليوبية وقطع الطريق بين القاهرة والوجه البحرى، فلما أرسل إليه على بك التجريدات انضم إلى عرب الهنادى بالبحيرة ، وانضم إليهم كذلك بعض أعداء على بك من البكوات المماليك واستولوا على الإقليم وقتلوا السنجق الموالى لعلى بك .

وقد أرسل على بك إلى إقليم البحيرة حملتين للقضاء على هذه الفتنة المضادة له، ونجحت حملات على بك فى القضاء على هؤلاء المناوئين ، وحتى سويلم بن حبيب «قتلوه وقطعوا رأسه ورفعوها على رمح .. واشتهر ذلك فارتفعت الحرب من بين الفريقين ، وتفرق الهنادى وعرب الجزيرة والصوالحة وغيرم وراحت كسرة على الجميع ولم يقم لهم قائم من ذلك اليوم»[١].

وبعد أن دانت بلاد الوجه البحرى لعلى بك تطلع إلى الوجه القبلى الذى كان سيده وزعيمه شيخ العرب همام بن يوسف الهوارى «وبقدر ما كانت هيبة سويلم بن حبيب فى الوجه البحرى تقوم على الرهبة من طغيانه وفجوره، كانت هيبة همام بن يوسف فى الوجه القبلى تقوم على الإعجاب بشهامته وتقرير مجموعة الصفات النادرة التى كونت شخصيته الفذة» [٢]. فلم يكن همام قاطع طريق أو طاغية بل كان مجيرا من يستجير به ويحمى من يطلب حماه ويمد بالمال والسلاح من يطلب منه المدد، «ولم يكن على بك يخشى من ازدياد نفوذ همام واتساع أملاكه ، لأن همام لم يأت أمرا يخل بالأمن، بل كان حريصا على إرسال الميرى بانتظام ، كما كان يرسل بين الحين والآخر الهدايا للباشا العثمانى وشيخ البلد بالقاهرة ، وكذلك لكشاف الأقاليم الخاضعة لسلطته ، ولكن الذى ضايق على بك هو تحول الصعيد إلى وكر تنبت فيه الفتن ومورد يمد منافسيه على مشيخة البلد بالمؤن والعتاد والسلاح»[٣].

استقر رأى على بك على ضرورة التخلص من همام، فأرسل جيشا بقيادة مملوكه محمد بك أبو الذهب ولكن همام صالح أبا الذهب على أن يكون له التزام البلاد جنوبى برديس،

١- نفس المرجع ص٨٧ .

٢- رفعت رمضان : على بك الكبير ص٤٨ .

٣- د. السيد رجب حراز : المدخل إلى تاريخ مصر الحديث ص٢٥ .

ثم عاد محمد أبو الذهب إلى القاهرة فأرسل على بك إلى همام يذكره بأن الصلح يعتبر لاغيا إذا لم يطرد أعداء على بك من البلاد التى فى حوزته ، فطلب منهم همام الخروج إلى أسيوط وتملكها ، وبالفعل ملكوا أسيوط بالقوة وتحصنوا بها وهرب من كان بها من أتباع على بك، وكان ذلك فى صفر ١١٨٣هـ يونيو ١٧٦٩م، فخرجت حملة أخرى بقيادة أبو الذهب وصلت إلى أسيوط والتحمت مع المتملكين أسيوط فى معركة ضارية انتهت بانتصار أبو الذهب وجيشه وتشتت أعدائه وانضمامهم إلى عرب الهوارة فى الجنوب، وفى الواقع «كانت معركة أسيوط من أحسم المواقع فى تاريخ على بك، وهى التى أكدت له النصر، فأصبح سيد الوجهين وصاحب النفوذ المطلق فى جميع أنحاء مصر»[١].

ولم يتوقف محمد بك أبو الذهب فى أسيوط ولكنه زحف جنوبا لملاقاة همام وعرب الهوارة واستطاع استمالة ابن عم همام ويدعى أبو عبدالله ، ومن ثم سار زحف الجيش إلى فرشوط دون مقاومة عنيدة، حتى دخلها ليجد همام قد تركها ومات كمدا قرب إسنا، ومن ثم تملك الجيش فرشوط «ونهبوها وأخذوا جميع ما كان بدوائر همام وأقاربه وأتباعه من ذخائر وأموال وغلال وزالت دولة شيخ العرب همام من بلاد الصعيد من ذلك التاريخ كأن لم تكن [٢]. وخلصت مصر بوجهيها البحرى والقبلى لعلى بك وأتباعه .

على بك والدولة العثمانية

فى الثانى من شهر جمادى الآخر (٢٦ أكتوبر ١٧٦٧م) كان على بك قد استطاع بحد السيف العودة إلى القاهرة من الصعيد الذى كان به مقيما هربا من خصومه الأقوى بالقاهرة، ثم طلع ومعه أتباعه إلى الديوان بالقلعة، «فخلع الباشا على على بك واستقر فى مشيخة البلد كما كان، وخلع على صناجقه خلع الاستمرار أيضا فى إمارتهم، كما كانوا ونزلوا إلى بيوتهم، وثبت قدم على بك فى إمارة مصر ورئاستها فى هذه المرة. وظهر بعد ذلك الظهور التام وملك الديار المصرية والأقطار الحجازية ، والبلاد الشامية ، وقتل المتمردين وقطع المعاندين، وشتت شمل المنافقين، وخرق القواعد، وخرم العوائد، وأخرب البيوت القديمة، وأبطل الطرائق التى كانت مستقيمة»[٢].

١- رفعت رمضان : نفس المرجع ص٥٢ .

٢- الجبرتى : المرجع ص٨٩ .

وما كان يتم ذلك دون نزاع مع الدولة العثمانية ودون صدام مع الباشا العثمانى بالقاهرة وإذا كانت الدولة العثمانية يهمها ألا ينفرد شخص بالأمور فى مصر وقفت أمام ازدياد سلطة البكوات المماليك، فقد كانت تعمل على إيقاد نار الفتنة بين البكوات حتى يقضوا على بعضهم البعض، وأما الباشا القائم بالولاية آنذاك (١٧٦٧م) وهو محمد راقم باشا فقد كان هو الآخر «يعضد خصوم على بك، ويساعد على إرسال حملة لمقاومته تحت رياسة حسين بك كشكش[١] ويجمع لهذه الحملة المال. كما نجده يقابل على بك بعد انتصاره على جيش حسين بيك كشكش ويخلع عليه ويقره شيخا للبلد»[٢].

وكان على بك يدرك موقف الباشا محمد راقم، وموقف الدولة العثمانية منه بعد أن دانت له الأمور فى مصر، ولذلك فإن على بك انتهز فرصة ضيق بعض أتباعه من تحركات الباشا حتى أصدر على بك أوامره لأنصاره بالتعامل مع الباشا بما يتفق مع تحركاته، المشبوهة، فأصبحوا وملكوا الأبواب، والرميلة، والمحجر وحوالى القلعة وأمره بالنزول، فنزل من باب الميدان إلى بيت أحمد بك كشك وأجلسوا عنده الحرسجية [٣]- وكان ذلك فى رجب ١١٨٢هـ الموافق ٢٧ نوفمبر ١٧٦٨م- وبعد أسبوعين تقلد على بك قائمقامية عوضا عن الباشا»[٤]. وكان ذلك فى غزة شهر شعبان ١١٨٢هـ الموافق ١١ ديسمبر ١٧٦٨م.

وأما موقف على بك من الدولة العثمانية فقد تمثل فى أنه عندما وصل إلى القاهرة فى ٢٥ نوفمبر ١٧٦٨م «أغا من الديار الرومية، وعلى يده مرسوم بطلب عسكر للسفر، فاجتمعوا بالديوان وقرأوا المرسوم »[٤] أدرك على بك مدى حاجة الدولة العثمانية لقوات إضافية تأتيها من مصر لتواجه الحرب التى شنتها روسيا ضدها وبصفة خاصة فى حوض الدانوب وشبه جزيرة البلقان ، فضرب على بك ضربته بعد وصول الرسول العثمانى بيومين بعزل الباشا وبعد أسبوعين أعلن نفسه قائمقاما على الباشوية أى قائما بعمل الباشا لخلو المنصب ممن يشغله .

١- من زعماء المماليك المعادين لعلى بك، وكان قد فر إلى غزة، ومن هناك حيث مكث ثمانية شهور أعد جيشا من فرسان المماليك والدروز ومشاة المغاربة للزحف على مصر ومنازلة على بك .

٢- حافظ عوض : فتح مصر الحديث ص٢٩ .

٣- المقصود بالأبواب أبواب القلعة ، والسيطرة على الجانب الغربى للقلعة (الرميلة) والجانب الشرقى (المحجر) ، وتعنى الحرسجية رجال الحرس.

٤- نفس المرجع ص٨٥ ، وتعبير الديار الرومية كناية عن مقر الدولة العثمانية .

وأتبع على بك ذلك بوسائل كسب المواقف فى كل زمان وهى تقديم الهدايا والأموال فجهز فى أوائل يناير ١٧٦٩م رسول الدولة العثمانية بما يلزمه من دلائل التكريم والتقدير ووصفها الجبرتى بقوله «فى تجمل زائد» لينقل إلى السلطان طلبات على بك الكبير فى أن يظل متوليا باشوية مصر فلاترسل الدولة باشا من استانبول، وأتبع ذلك أيضا فى الشهر التالى (فبراير) بإعداد هدية حافلة تتضمن أموالا وخيولا مصرية للسلطان العثمانى ورجال دولته وأشفعها بمكاتبات منه لهم ومكاتبات من علماء مصر ومشايخها وعلى رأسهم الشيخ حسن الجبرتى ، وتمثلت طلبات على بك هذه المرة فى مكاتباته المطعمة بالهدايا والتى حملها الشيخ عبد الرحمن العريشى ومحمد أفندى اليردلى، فى أن على بك يطمع أن تكون له بلاد الشام إلى جانب مصر، يزداد حتى، ملكه، وحجته فى ذلك أن عثمان العظم والى الشام يعادى على بك ويؤوى المصريين الفارين من حكم على بك ويعاونهم للعودة إلى مصر وطرد على بك .

وكان على بك قد بدأ بالفعل منذ وصول رسول الدولة، واستنادا إلى طلب الدولة العثمانية أو قل هى حجة استند إليها فى تجييش جيش يكون عدة على بك فى تحقيق مشروعاته الطموحة التى عبر عنها بضم الشام إلى مصر، وكان إعداد هذا الجيش المطلوب بداية للصدام العلنى بين على بك والدولة العثمانية ، ذلك أن على بك قد أخذ فى إعداد جيش كبير بكل همة ونشاط أثارت مخاوف رجال الدولة العثمانية من احتمال أن يستخدم على بك هذا الجيش لتحقيق أهدافه بمعاونة الروسيا- التى كانت جيوشها منتصرة على طول الخط ضد القوات العثمانية ، والتى - أى روسيا- كانت تشجع القوى المحلية فى الولايات التركية على الثورة ضد الحكم العثمانى.

وبناء على هذه الشكوك أرسلت الدولة العثمانية إلى رجالها بمصر أمرا بقتل على بك، ولم يكن على بك بغافل عن تحركات الدولة العثمانية ولا عن مدى التعارض مع أهدافه ومصالحها ، ولذلك فقد عرف بالأمر وكلف رجاله بقتل رسول الدولة العثمانية، ثم جمع على بك المماليك وأعلن أمامهم أن الأوامر العثمانية تطلب قتل جميع المماليك فإنه- أى على بك- استطاع أن يقتنص هذا الأمر وحامله [1]. وكان على بك خطيبا مؤثرا استطاع أن يستميل الزعماء المماليك إلى صفه ، فلما ضمن ذلك أعلن استقلال مصر عن الدولة العثمانية ، وطلب منها عدم تعيين باشوات وإرسالهم إلى القاهرة.

١- محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ص٢ ، ٧٠ .

ويشهد عام ١٧٦٩م خطوات على بك الاستقلالية بمصر والتى كانت دلائل متتالية على تصاعد العداء بين على والدولة العثمانية ، ذلك أن على بك أتبع إعلان رفضه لقبول باشا من استانبول : منع الأموال (الميرى) المقررة سنويا على مصر من الوصول إلى الدولة العثمانية ، وضرب النقود فى مصر باسمه وعليها تاريخ استقلال مصر ١١٨٣هـ، وأتبع ذلك بطرد كل من يظهر ميلا للدولة العثمانية من موظفى الدواوين. واستمر على بك فى خطواته لتحقيق مشروعاته التوسعية وقد سار فى طريق العداء للدولة العثمانية شوطا بعيدا، فتطلع إلى ضم الحجاز لتأمين الحج للمصريين والمغاربة والسودانيين والشوام بما يعود على على بك بالشهرة والتقدير من كل هؤلاء ، وفى نفس الوقت ليحقق مشروعاته لتحويل تجارة الشرق الأقصى إلى البحر الأحمر فالسويس بدلا من مرورها عن طريق رأس الرجاء الصالح.

وكانت فكرة روستى دافعا لكى يركز على بك فى ضم بلاد الحجاز إلى ملكه على ميناء جدة «ليجعل منها مركزا للتجارة مع الهند ولمراقبة الملاحة فى البحر الأحمر فلما فتحها عزل واليها- العثمانى- الذى نصبته تركيا، وجعل ولايتها لمملوك من أتباعه وعرف فيما بعد باسم حسن بك الجداوى»[١].

انتهز على بك فرصة الخلاف حول الشرافة فى الحجاز بين الشريف القائم بالحكم الشريف أحمد وابن عمه الشريف عبد الله الذى جاء إلى مصر واستنجد بعلى بك وقد «وافق ذلك غرضه الباطنى- كما يقول الجبرتى- وهو طمعه فى الاستيلاء على الممالك»[٢] وبعد أن أعد على بك حملة لإرسالها إلى الحجاز أنزلها فى السويس فى صفر ١١٨٤ هـ يونية ١٧٧٠م «فى تجمل زائد ، ومهيا عظيم وسارى عسكرها محمد بيك أبو الذهب ، وصحبه حسن بيك ومصطفى بك وخلافهم»[٣].

وقد نجح جيش على بك فى مهمته بالاستيلاء على الحجاز وإقصاء الشريف أحمد، الموالى لتركيا وإحلال الشريف عبدالله الموالى لمصر، «ونودى بعلى بيك فى الحرمين الشريفين: سلطان مصر، وخاقان البحرين، وذكر اسمه ولقبه هذا على منابر المساجد فى الحجاز

١- نفس المرجع : ص٧١ . ولقب الجداوى أضيف إلى صاحبه بعد أن أصبح حاكما لجدة، ولم يكن له هذا اللقب قبل ذلك .. وذلك أمر شائع عند المماليك .

٢- الجبرتى : نفس المرجع ص٩ .

٣- نفس المرجع ص٩١ .

كلها»(١). وقد استغرقت هذه الحملة حوالى خمسة شهور من يونيو ١٧٧٠م وهو تاريخ خروج الجيش من مصر إلى ٢٨ أكتوبر من نفس العام عندما عاد الجيش وعلى رأسه قائده محمد بك أبو الذهب «ودخل إلى مصر فى موكب عظيم، وأتت إليه العلماء ، والأعيان للسلام وقصدته الشعراء بالقصائد والتهانى» (٢).

وقد شجع نجاح حملة الحجاز على بك فى أن يتطلع إلى إرسال حملة إلى بلاد الشام التى كانت آنذاك تعيش حركة مماثلة لحركة على بك بقيادة الشيخ ظاهر العمر. وهنا يثور سؤال هل كان على بك يتطلع إلى ضم الشام إلى ملكه وإقامة سلطنة قلبها مصر وجناحها الشرقى الحجاز وجناحها الشمالى سوريا أم كان تقدم جيوش على بك إلى الشام لنصرة صديقه الشيخ ظاهر العمر ضد الباشوات العثمانيين؟.

وإذا كان البعض يعتقد فى الرأى الأول القائل بأن على بك كان يتطلع إلى توسيع ملكه بضم بلاد الشام، والوصول إلى بلاد الأناضول والقسطنطينية عن طريق سوريا- كما ذكر كل من المؤرخ شارل رو والجبرتى(٣) كما قيل عن نابليون بونابرت ومحمد على فيما بعد ... وإذا كان البعض الآخر يعتقد فى الرأى الثانى القائل بأن تحرك جيش على بك إلى الشام كان بهدف مساعدة صديقه الشيخ ظاهر العمر .. فإن الرأى عندنا هو أن حملة على بك على الشام كانت لتحقيق هدفين الأول تأمين مصر من ناحية الشام بالقضاء - وبالتعاون مع الشيخ ظاهر الذى كان له نفس الهدف - على خطر الباشوات العثمانيين هناك، حتى تبقى مصر فى مأمن من أى خطر عثمانى يأتى عن طريق الشام، والهدف الثانى هو مساعدة حليفه الشيخ ظاهر ضد التهديد العثمانى بالقضاء على القوات العثمانية التى تتجمع حول باشوات دمشق وحلب وطرابلس وصيدا العثمانيين وبهذا القضاء يتسع سلطان على بك ويمتد نفوذه ليصل إلى بلاد الشام.

فالوجود العثمانى المعادى فى بلاد الشام لحركة على بك الاستقلالية فى مصر وحركة الشيخ ظاهر العمر المماثلة فى جنوب سوريا هو الدافع الحقيقى لأهداف على بك من حملته على الشام التى تتركز كما رأينا حول مساعدة الشيخ ظاهر العمر من ناحية ومد نفوذ على بك وملكه إلى بلاد الشام من ناحية أخرى. وكان السبب الذى أعلنه على بك كدافع له لحملته على

١- محمود الشرقاوى : نفس المرجع ص٧١ .

٢- الجبرتى نفس المرجع ص٩١ .

٣- د. السيد حراز : المدخل إلى تاريخ مصر الحديث ص٢٧ .

بلاد الشام هو إيواء عثمان العظم والى الشام (دمشق) لخصوم على بك وأعدائه وإعدادهم للإغارة على مصر، وأن هذا الوالى يسئ الحكم فى بلاد الشام مما جعل السوريين يتذمرون من حكمه . وتبعا لذلك قام على بك بالحملة على الشام وهى أساسا «دفاعية اتخذت شكلا هجوميا لكى يقيم حول نفوذه بمصر سياج أمان دائم» [١].

ومنذ منتصف رجب عام ١١٨٤هـ الموافق ٤ نوفمبر ١٧٧٠م بدأت الاستعدادات فى مصر لإعداد قوات الحملة على الشام، فيذكر الجبرتى[٢] أنه فى هذا اليوم «زاد اهتمام على بك بالتحرك على جهة الشام»، فلما تكامل الجيش بعدته وعتاده وعدده «أقاموا بالعدلية[٣] أياما حتى قضوا لوازمهم وارتحلوا وسافروا إلى جهة الشام». وأصدر على بك أمرا بأن يكون على رأس هذه الحملة المسافرة برا إسماعيل بك. وبعد أسبوع «برزت تجريدة أخرى وعليها سليمان بيك وعمر كاشف وجملة كثيرة من العساكر، فنزلوا من طريق البحر على دمياط وفى منتصف ذى القعدة ١١٨٤هـ الموافق ٢ مارس ١٧٧١م «خرجت تجريدة أخرى وسافرت على طريق البر على النسق» وفى عام ١١٨٥هـ. «أخرج على بك تجريدة عظيمة وسر عسكرها وأميرها محمد بيك أبو الذهب وأيوب بيك ورضوان بيك وغيرهم .

استطاع محمد بك أبو الذهب قائد عام الحملة على الشام أن يحرز انتصارات عديدة، وقد لقى أبا الذهب معاونة صادقة من الشيخ ظاهر العمر، ومن ثم سقطت فى يده أو قل فى يد الجيش المشترك كلا من غزة ويافا ونابلس، واللد والرملة وصيدا، وسقطت دمشق ذاتها فى شهر أبريل ١٧٧١م، وقد «حاربهم النواب والولاة وهزموهم وقتلوهم وفروا من وجوههم واستولوا على الممالك الشامية إلى حد حلب».

عندما طلب على بك من محمد أبى الذهب الاستمرار فى الزحف بعد دمشق بدأ النزاع بين الرجلين ، وهو النزاع الذى أرجعه البعض إلى رغبة محمد أبو الذهب فى السيطرة على الملك فى مصر، وأرجعه البعض الآخر إلى إسماعيل بيك لميله إلى الدولة العثمانية وحسده لأبي الذهب فحرضه على عدم طاعته لأوامر على بيك» [٤]. وأرجعه البعض الثالث إلى استمالة الدولة العثمانية لمحمد بك أبى الذهب وإغرائه بملك مصر إذا خرج على سيده وقضى عليه.

١- د. السيد حراز : نفس المرجع ص٢٧ .

٢- الجبرتى: نفس المرجع السابق ص٩٢ .

٣- العادلية بمركز بلبيس بإقليم (محافظة) الشرقية .

٤- رفعت رمضان : على بك الكبير ص١٧٤ .

أيا كان سبب النزاع بين الطرفين ، فإن محمدا أبا الذهب وهو فى دمشق «جمع أمراءه وخشداشينه الكبار فى خلوة وعرض عليهم الأوامر- التى أصدرها على بك باستمرار الزحف- فضاقت نفوسهم وسئموا الحرب والقتال والغربة، وذلك ما فى نفس محمد بك أيضا. وأصبحوا راحلين وطالبين إلى مصر»(١).

عاد محمد أبو الذهب منسحبا بجيشه من بلاد الشام فأساء هذا التصرف الشيخ ظاهر العمر الذي كان عليه نتيجة لهذا الانسحاب أن يتلقى ضربات الباشوات العثمانيين العائدين إلى المدن التى انسحب منها الجيش المصرى. كما أساء الانسحاب وبدرجة أكبر على بك الكبير، وما لبث أن اشتد النزاع بين على بك ومملوكه محمد أبو الذهب.

كان من السهل على أبى الذهب أن يتغلب على سيده الذى غادر مصر بعد أن «حمل حموله وأمواله وذهب إلى جهة الشام، وصحبته على بيك الطنطاوى وباقى صناجقه ومماليكه وأتباعه وطوائفه» (٢). وقد لجأ على بك إلى صديقه الشيخ ظاهر العمر فى عكا. ومن هناك أخذ يفكر فى العودة إلى مصر ، وقد أبدى صديقه ظاهر استعداده لأمداده بقوة من جيشه ترافقه إلى مصر. كما وعده الكونت الكسيس أرلوف - Alexis Arlow قائد الأسطول الروسى فى البحر المتوسط بإمداده ببعض الأسلحة لاستخدامها فى الزحف إلى مصر .

أسرع على بك بالزحف صوب مصر حتى إذا وصل إلى الصالحية بالشرقية فى ١٥ صفر ١١٨٧ هـ الموافق ٢٦ أبريل ١٧٧٣م التقى مع جيش يقوده محمد أبو الذهب فى معركة كان النصر فيها حليف الأخير، وكان «لخيانة المرتزقة من مشاة المغاربة أثر أساسى فى هزيمة الصالحية، التى تعتبر أهم المواقع الثلاث الحاسمة فى تاريخ على بيك»(٣). وجرح على بك وتلقاه مملوكه أبو الذهب وحمله إلى القاهرة وأخذ يقدم له الرعاية الطبية إلا أنه ما لبث أن مات فى ٢٥ صفر ١١٨٧ هـ الموافق ٨ مايو ١٧٧٣م.

وبموت على بك خلصت مصر لمحمد بن أبو الذهب الذى رغم وصول الوزير خليل باشا واليا على مصر فى ٨ يونيو ١٧٧٣م إلا أن هذا الوالى لم يكن له فى الولاية «إلا الاسم والعلامة

١- الجبرتى : نفس المرجع ص٩٣ .

٢- نفس المرجع ص٩٦ . وكان ذلك فى ٢٥ المحرم ١١٨٦هـ الموافق ٢٨ أبريل ١٧٧٢م.

٣- رفعت رمضان : المرجع السابق ص١٩٦ ، والمعركتين الأخريين هما المعركة ضد حسين بك كشكش فى ١ يونيو ١٧٦٨م، ومعركة أسيوط فى يونيو ١٧٦٩م، ضد أنصار همام الهوارى .

على الأوراق والتصرف الكلى للأمير الكبير محمد بيك أبو الذهب والأمراء وأعيان الدولة مماليكه وأشراقاته »[١].

على بيك والدول الأجنبية

تمثلت صلات على بك الكبير بالدول الأجنبية فى علاقاته بكل من الروسيا والبندقية وانجلترا، فروسيا عدوة تقليدية للدولة العثمانية التى خلع على بك طاعتها، والبندقية بلد صديقه كارلو روستى ولها مصالح اقتصادية عبر مصر، وانجلترا مهتمة بتأمين طريقها إلى الهند عبر مصر والبحر الأحمر . إذن دفعت المصالح المتبادلة بين على بك وهذه الدول إلى توثيق العلاقات بينه وبينها ضد الدولة العثمانية.

انتهز على بك فرصة انشغال الدولة العثمانية فى معارك الحرب الروسية العثمانية منذ عام ١٧٦٨م ليوطد علاقته بالروس، وكان على بك تربطه بروسيا روابط العداء المشترك للدولة العثمانية وقد نشبت الحرب بين الأتراك والروس بسبب ما عرف بالمسألة البولندية عام ١٧٦٨م فى عهد الإمبراطورة كاترين، ومنذ بداية الحرب ظهرت علامات انتصار الروس على الأتراك فى البحر والبر خاصة فى البحر الأبيض دويا كبيرا فاتصل بالعناصر السلافية والأرثوذكسية الثائرة على الدولة العثمانية بل والعربية الثائرة فى الولايات العربية مثل على بك الكبير فى مصر والشيخ ظاهر العمر فى فلسطين»[٢].

وكانت مرابطة الأسطول الروسى فى بحر الأرخبيل بقيادة الكونت الكسيس أورلوف Alexis Arlow مشجعا لعلى بك كى يتصل بقائده ويطلب مساعدته بتأمين وصول أسلحة ومعدات روسية لقوات على بك فى مصر، خاصة بعد أن تم تدمير الأسطول التركى بمعرفة الأسطول الروسى فى موقعة جشمة الشهيرة فى ٢٥ / ٢٦ يونيو ١٧٧٠م وبعد أن أظهرت مساعدة الأسطول الروسى للثوار اليونانيين فعاليتها ، وبعد أن اتخذ الكونت أورلوف من جزيرة باروس مقرا لقيادة الأسطول.

وقد عرض على بك أن يعقد مع الروس اتفاقية تتضمن أن يقوم الروس بتزويد جيشه بالأسلحة والعسكرين المدربين وأن يكون الأسطول الروسى حاميا للشواطئ المصرية ضد أية محاولات هجومية ضد مصر عن طريق البحر المتوسط.

١- الجبرتى: نفس المرجع ص٩٩ .

٢- د. محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص١٦٧ .

وأبدى على بك مقابل ذلك أن يتعهد بخلع طاعة الدولة العثمانية وأن يرسل قواته لمهاجمة بلاد الشام والاستيلاء عليها ، وأن يعطى تسهيلات للسفن الروسية فى الموانئ المصرية حتى تتمكن هذه السفن من الحصول على المؤن ، ومحطات للإصلاح .

«وأكبر الظن أن على بك كان مستعدا ليعقد مثل هذه الاتفاقية مع أية دولة أوروبية أخرى، تمكنها سياستها إزاء الدولة العثمانية وظروفها فى البحر الأبيض المتوسط من ذلك تدعيما للخطة العامة التى سار عليها فى بعث الدولة المصرية واقتباس الوسائل الفنية الكفيلة بهذا البعث وخاصة فى الناحية العسكرية[1].

وقد رد الكونت أورلوف على عرض على بك بأنه على استعداد لإجابة طلبات على بك وحثه على الاستمرار فى موقفه من الدولة العثمانية ، وأما بخصوص عقد الاتفاقية فقد ذكر له أنه سوف يرجع إلى حكومته وإلى الإمبراطورة كاترين بشأنها ، وأنهى رده بتقديم الشكر لعلى بك عرضه بالتسهيلات فى الموانى المصرية، وأنه سوف يطلبها متى وجد نفسه فى حاجة إليها .

إلا أن عهد على بك لم يطل بسبب خروج مملوكه محمد أبو الذهب عليه ، فى الوقت الذى لم تصله فيه المساعدات الروسية التى وعد بها، ولكن عندما فر على بك إلى صديقه الشيخ ظاهر العمر أرسل إليه الكونت أورولوف وفدا برئاسة الملازم بليسييف يحمل كمية من الأسلحة والذخائر استخدمها على بك فى قتال محمد أبو الذهب، وهو القتال الذى انتهى بهزيمة على بك فى الصالحية. وخسرت روسيا بسبب تباطؤها فى نصرة على بك لاستعادة مركزه فى مصر.

إلا أن انتهاء الحرب الروسية التركية وتوقيع معاهدة الصلح المعروفة باسم كجوك قينارجى عام ١٧٧٤م قد أدى إلى توقف «مشروع التحالف الروسى المملوكى وإن لم تتخل روسيا نهائيا عن سياسة الكيد للدولة فى ولاياتها والاتصال بالأمراء والزعماء فى مصر والشام» [2].

ومما يجب الإشارة إليه أن التحالف الروسى مع على بك وظاهر العمر وسيطرة الأسطول الروسى على الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، قد أضاف عاملا جديدا بالإضافة إلى العوامل المحلية الأخرى لاضطراب التجارة الخارجية لمصر والشام وبقية أقطار المشرق العربى . رغم

١- د. أحمد عزت عبد الكريم : دراسات فى النهضة العربية الحديثة ص٢٣٥ .

٢- نفس المرجع ونفس الصفحة.

أن على بك والشيخ ظاهر العمر ، كانا يقدران أهمية هذه التجارة لرخاء بلادهما بما يجبى من رسوم عليها» (١).

وكان اتصال على بك بجمهورية البندقية عن طريق صديقه المسمى كارلوا روستى Carlo Rosetti وهو إيطالى من البندقية، وقد كلفه على بك بتنظيم التجارة الخارجية والعلاقات الدولية، وبقى روستى بعد ذلك قنصلا لألمانيا حتى قدوم الحملة الفرنسية، وكان صديقا لمراد»(٢).

وقد عول على بك على نفوذ صديقه روستى لكى تقف البندقية إلى جوار مشروعاته التوسعية فى الشام والبحر المتوسط ضد الدولة العثمانية ، حتى أنه «أرسل إلى البندقية يعرض محالفته ومساعدته لها لكى تمتلك الجزر المملوكة للدولة العثمانية فى البحر المتوسط، لتكون قاعدة حربية له ، ولكن جمهورية البندقية ردت شاكرة ومعتذرة، وقام بهذه الرسالة- من على بك للبندقية - يعقوب الأرمنى أحد معاونى على بك»(٣).

ورغم أن الدولة العثمانية كانت منشغلة بالحرب مع روسيا ، فإن جمهورية البندقية بلغت «إذ ذاك من الضعف حدا جعلها عاجزة عن أن تبذل أى نشاط عدائى ضد السلطنة العثمانية فى البحر المتوسط فلم تستطع لهذا أن تقدم أية مساعدة عملية لعلى بك»(٤).

كما أن اتصال على بك بانجلترا إنما جاء نتيجة تشابه المصالح بين الطرفين ، فعلى بك كان يطمع فى إحياء التجارة الهندية عن طريق مصر والبحر الأحمر، وهو الطريق المعروف بالطريق البرى تمييزا له عن الطريق البحرى الذى تحولت إليه التجارة الهندية إلى أوروبا بالدوران حول أفريقيا مرورا برأس الرجاء الصالح.

وأما انجلترا فكانت مهتمة كثيرا بتأمين الطريق البرى لتجارتها باعتباره أقصر من الطريق البحرى وأوفر فى النفقات مما يزيد الربح فى التجارة. ومن هنا كانت استجابة السلطات البريطانية فى الهند لما أبداه على بك من استعداد «لاستقبال سفنها فى موانيه، كما تعهد ببسطه حمايته على المسافرين والتجار الأجانب الذين ينزلون فى بلاده»(٥).

١- نفس المرجع ص٢١٤ .

٢- محمود الشرقاوى: مصر فى القرن الثامن عشر ص٧١ .

٣- رفعت رمضان: على بيك الكبير ص١٦٠ .

٤- د. أحمد عزت عبد الكريم: نفس المرجع ص٢٤٤ .

٥- نفس المرجع ونفس الصفحة .

ذلك أنه كان هناك عاملان يحكمان العلاقات الإنجليزية المصرية فى القرن الثامن عشر خاصة هما «التجارة البريطانية الهندية مع مصر ، والآخر استخدام الطريق البرى عبر مصر للمواصلات إلى الهند، وهو ما يعرف بالعامل الهندى Indian Factor [1].

وبسبب هذا العامل الهندى اهتمت انجلترا بمصر، كما أنها اهتمت بسبب موقعها الجغرافى ، ويجب أن يكون معلوما فى المقام الأول أن الإنجليز وليس الفرنسيين هم الذين تولوا زمام المبادأة فى هذا الاتجاه وفى المقام الثانى فإن الإنجليز من ناحية ثانية هم الذين أخذوا على أنفسهم مهمة المبادرة فى تقريب مصر من الاستقلال غير مبالين بالسيادة العثمانية»[2].

ومن ثم رأينا انجلترا تشجع على بك ومن جاء بعده من البكوات المماليك على الوصول إلى درجة أكثر من الاستقلال عن الدولة العثمانية ، وذلك كى يعترف هؤلاء الحكام بما أسدته لهم انجلترا من جميل فى سعيهم للحصول على مكاسب استقلالية من الباب العالى.

تقييم حركة على بك الكبير

لتقييم حركة على بك الكبير فى مصر لابد أن نتناول شخصية على بك وما أثير حولها من جدل، كما نتناول طبيعة حركته فى مصر تلك الحركة التى اختلف حول طبيعتها المؤرخون .

إن تعدد تسميات على بك دليل على شخصيته، فإذا كان المصريون قد لقبوه «بالجن على بك» فهذا يعنى عندهم الشخص النشيط الذى لايهدأ ويتغلب على خصومه ، وإذا كان الرحالة الأوروبيون قد لقبوه بعلى بك الكبير فمرجع ذلك إلى ما اتسمت به شخصيته من قوة وعزيمة حتى ذاع صيته فى مصر وبقية أقطار المشرق العربى وفى كل من فرنسا وانجلترا والبندقية والروسيا .

وإن تعدد ألقاب على التى اشتملت إلى جانب ما ذكرنا الاسم الرسمى «ميراللوا على بك» وتسمية العثمانيين له «على بك بلوت قبان» ليس سوى مظهر من مظاهر نشاطه الجم وكفاياته المتعددة، فقد كان على بك كبير النفس كبير القلب كبير المطمع، ظهر فى عصر اضطراب وفوضى. وفى وقت كانت مصر فى أمس الحاجة إلى رجل مثله، وقد أتقن على بك دوره وأخذ

١- Anis M.: The development of British interest in Egypt in the 18 th Century.

٢- Anis , M.: England and the Suez Route in the 18 th Century , p. 17 .

فى تنفيذه مضحيا بكل ما يملك من صحة ومال ... وما دام يجد منفذا إلى غرضه المزدوج أن يجمع فى يده بصفته قائمقام ما تشتت من سلطة الباشا العثمانى وأن يخلق من الفوضى نظاما يمكنه من استغلال تلك السلطة لمصلحته ومصلحة مماليكه»[١].

وكان على بك لايميل إلى الهزل والمزاح، ويجالس العلماء أهل الاحترام مثل الشيخ حسن الجبرتى والشيخ أحمد الدمنهورى وغيرهم، «وكان يطالع كتب التاريخ والأخبار، وسير ملوك مصر من المماليك، ويقول لخاصته: أن هؤلاء الملوك كانوا من جنسنا مثل السلطان بيبرس، والسلطان قلاوون، وأولادهم، وكذلك ملوك الجراكسة ، ولم يستول العثمانيون على مصر ويقهروا المماليك إلا بالقوة ونفاق أهل البلد» [٢].

ومع صفات على بك الطيبة وتحريه العدل فقد اشتهر بالقسوة التى لاتعرف الرحمة مع خصومه ومعارضيه «فلازالت عشرات الأرواح التى أمر بازهاقها ليعبد بها سبيل مجده تنعى وسائله التى تقوم على القسوة والغدر، وهذه بلاشك نقطة سوداء تشوب نقاء صحيفته البيضاء»[٣].

وإذا كان الجبرتى رغم ما أورده من شواهد على قوة على بك قد أشاد فى أكثر من موضع بأمراء المماليك وسماهم «الأمراء المصرية» إشادة عامة، إلا أنه أثنى كثيرا على حكومة على بك الذى جعل من مصر مدنها وريفها بلدا أمنا رخى العيش ، حتى كان المسافر يسير بمفرده ليلا راكبا أو ماشيا، ومعه حمل الدراهم والدنانير إلى أى جهة ويبيت فى الغيط أو البرية[٤].

وقد أشاد الجبرتى بإصلاحات على بك وإنشاءاته سواء بالنسبة لدواوين الحكومة ليضمن انتظام الأمور وتحقيق العدالة ، أو إنشاء المساجد والأسبلة والعمائر ، وقلاع الإسكندرية ودمياط وتجديد مساجد الإمام الشافعى والسيد البدوى بطنطا، وغير ذلك من شئون التعمير التى ما زالت شاهدا على اتجاهات على بك للبناء.

١- رفعت رمضان : نفس المرجع ص٢٠٢ .

٢- محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ج٣ ص٧٤ .

٣- رفعت رمضان : نفس المرجع ص٢٠٥ .

٤- الجبرتى : نفس المرجع .

وقد شارك بعض الرحالة الأوروبيون الجبرتى فى الإشادة بحكومة على بك. فالمؤرخ الفرنسى «سافارى» Savary أشاد بعدل على بك وكرمه ، واعترف كل من فولنى Volney وأوليفييه Olivier أنه سمع ثناء مستطابا عليه من التجار الفرنسيين الذين تفيئوا ظلال عدله وحكمه الرشيد»[١].

ورغم أن الرحالة الإنجليزى بروس James Bruse قد حمل بشدة على البكوات المماليك واتهمهم بأنه «ربما لايوجد فى العالم رجال أجلاف جائرون طغاة ظالمون جشعون بمثل الدرجة التى عليها أولئك الأشرار الذين يقبضون على حكومة القاهرة، فإنه أنصف حكم على بك بقوله: «واحسن الحظ عندما كنت بالقاهرة لم أصادف ذلك النوع المشوش من الحكومات بل كان على بك الشهير يحكم بنفسه أو بوساطة عماله»[٢].

ورغم ذلك فقد كان لعلى بك سلبيات أفضت فى النهاية إلى فشله فى تحقيق مشروعاته، من بينها قلة حظه من الثقافة واعتماده على التنجيم والفلك حتى صار أسير ما تشير إليه النجوم وحتى خضع للمنجمين وقربهم منه، ومنها أن حاشيته لم يكن فيها الناصح الأمين الذى يستند إلى خبرة سياسية وعلمية .

من سلبيات على بك الكبير أنه لم يشرك الشعب المصرى فى تحقيق مشروعاته وتطلعاته ، ولذلك رأينا المصريين يأخذون من حركته منذ بدئها حتى نهايتها موقفا سلبيا ولم يدافعوا عنها عندما أنهارت بمقتل على بك نفسه على يد مملوكه محمد أبو الذهب، اكتفى على بك بتحميل المصريين نفقات حروبه الخارجية ومشروعاته الداخلية .

ويأتى الشق الثانى من تقييم حركة على بك الكبير ، وهو طبيعة هذه الحركة ذلك أن بعض المؤرخين ذهبوا إلى أن على بك كان يهدف من حركته الاستقلال التام عن الدولة العثمانية وإقامة سلطنة مصرية مستقلة تخضع لسيطرته وتعود لمصر شخصيتها المستقلة التى كانت لها قبل الاحتلال العثمانى .

بينما ذهب البعض الآخر من المؤرخين إلى أن على بك إنما كان يهدف فقط إلى الانفراد بالحكم فى مصر تحت السيادة العثمانية دون أن يفكر فى خلع طاعتها، على اعتبار أنه أدرك مثل هذا الخلع لطاعة الدولة العثمانية قد لايكون مقبولا من الشعب المصرى بل ومن المؤكد أن

١- رفعت رمضان : نفس المرجع ص٣٠٨ .

٢- نفس المرجع ونفس الصفحة.

الدولة العثمانية ستقف بحزم ضد هذا الاتجاه فى الوقت الذى توجد اتجاهات عند بعض الزعامات المملوكية للانقضاض على على بك وتخليص مصر من حكمه .

وقد أستند أصحاب الرأى الأول القائل بأن على بك كان هدفه الاستقلال بمصر استقلالا تاما عن الدولة العثمانية إلى عدة أدلة منها توافق إنزال على بك للباشا محمد راقم من القلعة عام ١٧٦٨ مع اشتعال الحرب الروسية التركية مما يدفع إلى الاعتقاد بأن على بك أراد انتهاز هذه الفرصة لمصلحته الخاصة وعزز اعتقادهم هذا بأنه بعد الحجر على الباشا تولى على بك منصب قائمقامية مصر حتى أخر عهده ولم يسمح للباشوات العثمانيين بالقدوم إلى مصر ،

ويروى الرحالة الإنجليزى جيمس بروس قصة تؤيد هذا الاعتقاد ملخصها أن على بك سأل بروس فى أول مقابلة بين الرجلين فى شهر يوليو ١٧٦٩م عقب اشتعال الحرب الروسية التركية عن نهاية الحرب فلما أجابه بروس بأنه «سيعقد صلح بعد أن تسيل دماء كثيرة ولن يكسب أحد الطرفين كثيرا من هذه الحرب . فضرب البك كفا على كف وقال بالتركية لا حول ولاقوة إلا بالله، ثم التـفت إلى رزق[١] الذى كان واقفا وقال له : لاشك فى أن ذلك سيكون من قلة حظنا ، ولكن ما قدر يكون إن الله بنا لرءوف رحيم» [٢].

كما يؤيد الاعتقاد بأن حركة على بك كانت حركة استقلال بمصر عن الدولة العثمانية ما ذكره الجبرتي من أنه بعد أن خلع على بك الباشا العثماني وطلب من الدولة عدم إرسال ولاة أوقف إرسال الجزية السنوية، وكانت «أخر خزنة رأينا سافرت إلى إسلامبول فى الوضع القـــديم[٣] عام ١١٨٠ هـ حملها عثمان بك أبو سيف ومات هناك فى نفس السنة ، كما أن «قنصل فرنسا المسيو دى جونفيل M. de Jonville استشف نيات على بك فكتب يقول إن غرضه جعل مصر دولة مستقلة قوامها قوة المماليك المطلقة»[٤].

وفي مقابل هذا الاعتقاد رأينا اعتقادا آخر يدافع عنه كثير من المؤرخين مؤداه أن على بك لم يكن يسعي إلي فصل مصر عن الدولة العثمانية ، وحجتهم في ذلك أن علي بك منذ توليه مشيخة البلد عام ١٧٦٧م كان حريصا على إظهار الطاعة للسلطان العثمانى ، وقد أورد

١- هو المعلم رزق الذى اتخذه على بك وزيرا ومستشارا ولم يعد يصدر فى حركة من الحركات إلا بعد أخذ رأى المعلم رزق القبطى أو اتباعا لنصيحته نظرا لخبرته فى النواحى المالية والتنجيم .

٢- رفعت رمضان : نفس المرجع ص٥٥ .

٣- الجبرتي : نفس المرجع .

٤- رفعت رمضان : نفس المرجع ص٥٧ .

الجبرتى شواهد كثيرة على هذا الحرص منها أن على بك عام ١٧٦٨م أرسل للسلطان «هدية حافلة وخيولا مصرية ، جيادا» .

ويضيف الجبرتى إلى ذلك أن على بك كان يحرص على أن يكون تحركه بفرمان من الباشا، وأن يعلن فى حروبه ضد منافسيه أنه يحاربهم باسم السلطان ومن أجل إعلاء سلطته ، كما أن الجبرتي أورد في أحداث عام ١١٨١هـ ١٧٦٧٠-١٧٦٨م) أن محمد باشا راقم نزل إلى بيت على بك باستدعائه فتغدى عنده، وقدم له تقادم وهدايا وكان ذلك فى ١٢ ربيع الأول الموافق ٢٧ يوليو ١٧٦٨م»[١].

كما أورد الجبرتى قصة فى أول رمضان ١١٨٣هـ الموافق ٢٩ ديسمبر ١٧٦٩م جاء فيها أنه «اتفق أن على بك صلى الجمعة الأولى من رمضان بجامع الداودية ، فخطب الشيخ عبد ربه ودعا للسلطان ثم دعا لعلى بك، فلما انقضت الصلاة ، وقام على بيك يريد الانصراف أحضر الخطيب وكان رجلا من أهل العلم يغلب عليه البله والصلاح ، فقال له : من أمرك بالدعاء باسمى على المنبر ؟ أقيل لك أنى سلطان ؟ فقال نعم أنت سلطان وأنا أدعو لك ، فأظهر الغيظ وأمر بضربه فبطحوه وضربوه بالعصى ، فقام بعد ذلك متألما من الضرب، وركب حمارا وذهب إلى داره وهو يقول فى طريقه : بدأ الاسلام غريبا وسيعود كما بدأ . ثم إن على بك أرسل إليه فى ثانى يوم بدراهم وكسوة واستسمحه»[٢].

ومما ذكر الجبرتى ندرك مدى حرص على بك على استمرار الخطبة للسلطان العثمانى باعتباره سلطانا لكل الدولة بما فيها مصر، ولايعنى ما ذهب إليه البعض من أن على بك كان حريصا على إخفاء أهدافه الانفصالية ، ذلك أن هذه الحادثة وقعت بعد مرور أكثر من عام على بدء حركة على بك بإنزال الباشا من القلعة التى تمت- كما رأينا فى ١٧ رجب ١١٨٢ هـ الموافق ٢٧ نوفمبر ١٧٦٨م.

وأما عبارة «سلطان مصر وخاقان البحرين» فلم تكن هناك أدلة على أن على بك تلقب بها، وقد يكون شريف مكة عبدالله قد لقب على بك بهذه العبارة، وقد يكون دعا له على منابر الحجاز اعترافا بفضله عليه فى تقلده شرافة مكة . وأما توقف الخزنة الرسمية عن الذهاب من مصر إلى إسامبول فلاتعتبر دليلا على انفصال على بك بمصر عن الدولة العثمانية ، لأن الدعاء للسلطان العثمانى- وهو المظهر الثانى للسيادة العثمانية- على المنابر فى صلاة الجمعة بقى قائما طوال سنوات حكم على بك. بالإضافة إلى أن العملة- وهى المظهر الثالث للسيادة

١- الجبرتى : نفس المرجع ص٨٣ .

٢- نفس المرجع : ص٩٠ .

العثمانية- الفضية والذهبية التى أمر على بك بسكها منذ عام ١٧٦٧م قد نقش على أحد وجهيها اسم السلطان العثمانى مصطفى الثالث (الذى حكم من عام ١٧٥٧ إلى ١٧٧٣م) وعلى الوجه الآخر نقشت عبارة «ضرب فى مصر» ولايقلل من قيمه ذلك ودلالته ظهور عملة جديدة تحمل طابعا مميزا عن العملة المتداولة فى مصر قبل ذلك.

هذا إلى جانب أن «جميع الأوامر والفرمانات وتقاسيط الالتزام التى كانت تصدر بتوقيع باشا مصر أصبحت تصدر باسم : حضرة على بك ميرلوا قائمقام محروسة مصر «كما كانت تقاسيط الالتزام تختم بخاتمه الخاص دون أى إشارة إلى الباشا وذلك فى المدة الواقعة بين عامى ١١٨١-١١٨٦هـ الموافق ١٧٦٨-١٧٧٢م» (١).

والرأى عندى هو أن على بك فى حركته لم يكن يهدف إلى الانفصال التام بمصر عن الدولة العثمانية ، وكل ما كان يطمع إليه هو أن تكون له مقاليد الأمور فى مصر، وأن على بك لم يكن أبداً يرمى إلى إعلان العداء للدولة العثمانية أو محاربتها رغم أنه لجأ إلى ضم الحجاز إلى مصر وهو أمر حيوى لمصر وحكمها من الناحية الدينية والسياسية . ورغم أنه استعان بصديقه الشيخ ظاهر العمر وبالأسطول الروسى فى البحر المتوسط لأن هذه الاستعانة حدثت بعد أن رأى عين الغدر من الدولة العثمانية رغم محاولاتهما لإرضاء قادتها بالهدايا والأموال وترسل دليل رضاها إلى الرجلين، سرعان ما كانت تنقض هذا الرضاء وتحرض للقضاء عليهما .

مصر بعد على بك

بعد وفاة على بك وتسلم زمام الأمور فى مصر محمد بك أبو الذهب مع وجود باشا عثمانى هو خليل باشا الذى ذكر الجبرتى أنه «محجور عليه ليس له فى الولاية إلا الاسم والعلامة على الأوراق . والتصرف الكلي للأمير الكبير محمد بك أبو الذهب» (٢). حتى إذا توفى أبو الذهب عام ١٧٧٥ هـ خلفه فى مشيخة البلد خشداشه إسماعيل بك. وبعده إبراهيم بك ومراد بك مملوكا أبو الذهب .

وقد شارك أبو الذهب فى القضاء على إمارة الشيخ ظاهر العمر فى عكا بتحريض من السلطان العثمانى الذى أغرى أبى الذهب بالإمارة على الشام مع مصر، ولكن أبا الذهب توفى في نفس العام الذى قضى فيه على إمارة الشيخ ظاهر فى عكا وهو عام ١٧٧٥م.

١- د. رفعت رمضان : نفس المرجع ص٥٩ .

٢- يروى عن أبو الذهب أنه عندما تقلد إمارة الحج لأول مرة عام ١١٧٨ هـ ولبس خلعتها فى القلعة نزل يفرق نقودا ذهبية، وينشر الذهب على الفقراء حتى دخل بيته وهو يقول أنا أبو الذهب .

ولقد ساءت الأمور فى مصر فى عهود كل من إسماعيل بك وإبراهيم بك ومراد بك، وعمت الاضطرابات والقسوة والظلم كما حدثت خلافات بين إسماعيل بك من ناحية وبين إبراهيم بك ومراد بك من ناحية أخرى دعت الدولة العثمانية إلى التدخل عام ١٧٨٦م بحملة عسكرية اضطر أمامها كل من إبراهيم بك ومراد بك إلى الفرار من القاهرة إلى الصعيد حتى إذا توفى إسماعيل بك بالطاعون عام ١٧٨٨م عاد الرجلان وتقلدا مشيخة البلد وإمارة الحج بالتناوب فيما بينهما وظلا على هذا الوضع حتى فاجأتهما الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت عام١٧٩٨ م.

ولم تستفد مصر بتاتا من حكم هؤلاء البكوات بل تحمل شعبها عبء الارهاق وشظف العيش لدفع الأموال المطلوبة للصراع بين البكوات . وحتى التجار الأجانب عانوا من تعسف المماليك الذين أساءوا معاملتهم وأرهقوهم بالضرائب مما أدى إلى إغلاق البيوت التجارية الأجنبية فى كل من القاهرة والإسكندرية.

هذا على الرغم من محاولات الدول الأوربية وخاصة انجلترا وفرنسا والروسيا التى تنافست لعقد معاهدات مع إبراهيم ومراد من أجل إحياء الطريق البرى عبر مصر والمساعدة على استقلال مصر لمصلحة الأميرين المملوكين على نفس النسق الذى كانت عليه مصر فى عهد على بك الكبير.

وكان عقد معاهدة بين مراد وترجويه الفرنسى عام ١٧٨٩م دافعًا لعقد معاهدة بين القنصل الإنجليزى بالدوين Georg Baldwin وكل من إبراهيم ومراد عام ١٧٩٤م كما كانت دافعا لنشاط روسيى لعقد معاهدة مع البكوات المماليك فى مصر، وقد قيل «إن مراد عرض على روسيا أن يعطيها- - وقت الحرب مع الدولة العثمانية حق إقامة حاميات بالإسكندرية ورشيد ودمياط فى مقابل اعترافها باستقلال مصر وفى العام التالى جاء رسولان من روسيا لفحص هذه الأماكن تمهيدا لإنزال حاميات روسية بها واستقبل مراد قنصلا لروسيا بالإسكندرية»[1].

ولقد أهملت الزراعة وشئون الرى «مما أدى إلى طغيان رمال الصحراء على الترع والقنوات ، وإتلاف قسم كبير من الأرض الصالحة للزراعة، وفضلا عن ذلك فقد أهملوا فى تحصين البلاد التى تسلموا زمامها ، واضمحلت فى عهدهم الإسكندرية، وهكذا كانت مصر ضعيفة عسكريا لا قدرة لها على المقاومة ومدافعة الغزو الأجنبى وظهر هذا الضعف واضحا عندما حضرت إلى البلاد الحملة الفرنسية فى عام ١٧٩٨م» [2].

١- د. أحمد عزت عبد الكريم: المرجع السابق ذكره ص٢٤٦ .

٢- د. السيد رجب حراز : نفس المرجع السابق

الفصل السادس

العصبية المحلية فى طرابلس والغرب

- أحوال طرابلس الغرب قبل القرمانليين- أحمد القرمانلى- على القرمانلى الأول- أحمد القرمانلى الثانى- يوسف القرمانلى- على القرمانى الثانى- تقييم الحكم القرمانلى- العصر العثمانى الأخير.

أحوال طرابلس الغرب قبل القرمانليين

استولى الأسبان على طرابلس الغرب (ليبيا) عام ١٥١٠م واستمروا بها حتى عام ١٥٣٥م حينما تنازلت عنها أسبانيا لفرسان القديس يوحنا الذين كانوا يتخذون من جزيرة مالطة مقرا لهم بعد أن طردهم الأتراك العثمانيون من جزيرة رودس، والذين كانوا - كما كان الأسبان- يشنون حربا صليبية ضد الأقطار الإسلامية العربية المطلة على البحر المتوسط. وقد ظل فرسان القديس يوحنا يحتلون طرابلس حتى عام ١٥٥١م عندما قدم الأتراك العثمانيون وأخذوها منهم بناء على استنجاد بعض أهلها بهذه القوة الإسلامية الفتية وأعنى قوة الأتراك العثمانيين .

ورغم أن الأسبان ثم فرسان القديس يوحنا لم يستولوا على كل ليبيا واقتصر استيلاؤهم على مدينة طرابلس وما جاورها ، فإن هذه المدينة قد «نبعت أهميتها من اتصالها بمصر وموقعها الجغرافى على طريق الحج العظمى من المغرب إلى مكة ثم من الطرق التجارية بين أفريقيا وأوروبا، فمن طرابلس كان هنا لك طريق بحرى قصير نسبيا - ولهذا فهو أمين- إلى أوروبا مارا بجزيرة مالطة ثم صقلية إلى جانب طرق القوافل التى تربط طرابلس بالأقاليم الأفريقية عبر الصحراء الكبرى[1].

كانت هذه الظروف دافعا للأسبان ثم فرسان القديس يوحنا للاستيلاء على طرابلس والبقاء بها، كما كان من أسباب هذا الاستيلاء أيضا أن أهل طرابلس الغرب لم يكونوا أهل حرب أو قتال ومن ثم انصرفوا عن «أن يشتغلوا بالحرب حتى لم تكن لهم به خبرة»[2].

١- ريتشارد توللى : عشر سنوات فى بلاط طرابلس ص٨ .

٢- ابن غلبون : تاريخ طرابلس الغرب ص٩٢ .

وكان استيلاء العثمانيين على طرابلس الغرب يمثل إكمال الحلقة فى أملاك الدولة العثمانية بعد استيلائهم على العراق ومصر والشام فى أوائل القرن السادس عشر ، وبعد أن امتد نفوذهم بصفة فعلية على الجزائر عام ١٥١٨م ولذلك كان مجيئهم إلى طرابلس الغرب أمرا طبيعيا يتفق مع تطور الحوادث التى مرت بأقطار الوطن العربى الذى أخذت أجزاؤه تخضع للقوة العثمانية الواحدة بعد الأخرى.

كما كان استيلاء العثمانيين على طرابلس الغرب يمثل قمة الصراع البحرى بين الأسطول العثمانى وأساطيل الدول الأوروبية المنافسة المتمثلة فى الأسطول الأسبانى، وأسطول فرسان القديس يوحنا تلك الأساطيل التى مارست نشاطا صليبيا ضد الأراضى العربية الإسلامية.

استمر تسلط فرسان القديس يوحنا على طرابلس حتى وصول حملة عسكرية عثمانية بقيادة «سنان باشا» قائد الأسطول التركى إلى طرابلس فى ١٣ شعبان ٩٥٨ هـ الموافق ١٦ أغسطس ١٥٥١ م، ومن هذا التاريخ أصبحت طرابلس الغرب ولاية عثمانية كغيرها من الولايات العثمانية فى الوطن العربى الكبير.

استمر الحكم العثمانى المباشر لليبيا من ١٥٥١م حتى عام ١٧١١م فيما عرف بالعصر العثمانى الأول الذى انتهى ليبدأ حكم الأسرة القرمانلية، وقد عاشت ليبيا أثناء هذا العصر وبصفة خاصة أواخر القرن السادس عشر وطوال القرن السابع عشر تعانى من الفوضى الشاملة التى حلت بالبلاد نتيجة سوء الحكم والإدارة وقيام الثورات الشعبية فى مختلف أنحاء البلاد، والفتن بين جند الإنكشارية والقولوغلية[١] الذين انصرفوا عن مهمتهم الأصلية وهى الدفاع عن البلاد إلى مهمة أخرى سعوا من ورائها إلى الكسب والشهرة وهى عزل الولاة أو الثورة عليهم والسلب والنهب من الأهالى ، وتولية من يشاءون فى منصب الولاية حتى وجدنا ترزيا يتولى منصب الولاية «لمدة سبعة أشهر عام ١٠٩٨هـ يدعى إبراهيم الترزى[٢] ووجدنا بائعا للقهوة هو عثمان القهوجى يتولى الولاية لمدة ثلاثة أشهر وخمسة وعشرين يوما . وقد

١- القولوغلية أو القول أو غلية طبقة اجتماعية جديدة نتجت من أن درغوت باشا ثانى الولاة الأتراك أحضر معه عدة آلاف من جند الإنكشارية ، وبمرور الزمن اختلطت بالأهالى وتناسلت فتكونت طبقة القول أو غلية التى كانت قليلة العدد فى أول الأمر ثم سرعان ما تكاثرت وزاد نفوذها بما حصلوا عليه من امتيازات عسكرية ومالية.

٢- طاهر الزاوى: ولاة طرابلس ص٢٠٤ .

وصفه ابن غلبون[١] بأنه «كان يطبخ القهوة بسوق الترك» ويصفه أحمد النائب[٢] بأنه «كان فظا ذا جفاء وغلظة ، عاجزا عن القيام بأعباء الولاية، بايعه الجند فى الليلة التى خلعوا فيها سلفه محمد الإمام عام ١١١٢هـ».

وقد تولى حكم ليبيا فى أوائل القرن الثامن عشر من ١٧٠١ إلى ١٧١١م تسعة ولاة انصرف الكثير منهم- كغيرهم من الولاة الذين سبقوهم- - إلى الاشتغال بمصالحهم الشخصية دون القيام بأى عمل للقضاء على حالة الفوضى التى كانت تعم البلاد، وكانت هذه الحالة تستلزم وجود شخصية قوية تستفيد من هذه الحالة لتظهر أمام الناس كمنقذ من هذه الحالة التى تعانى منها البلاد.

ويمكن أن نلخص الظروف التى عاشتها ولاية طرابلس الغرب (ليبيا) أثناء العصر العثمانى الأول والتى أدت فى النهاية إلى ارتقاء أحمد القرمانلى للحكم فى طرابلس واليا فيما يلى:

أولاً : «موقع هذه الولاية من الممتلكات العثمانية وبعدها عن الأستانة ، وعدم تصور الحكومات العثمانية المتعاقبة لحقيقة الوضع فيها[٣] جعل هذه الولاية لاتأخذ من اهتمام الدولة العثمانية الشئ الكثير ، هذا إلى جانب أن هذه الولاية لم تكن تدر أموالا كثيرة على الدولة، ولذلك لم يكن لولاية طرابلس الغرب ولا لشعبها صوت مسموع عند الباب العالى .

ثانيا : رغبة الحكومة العثمانية فى بقاء ليبيا ولاية عثمانية أدى إلى «عدم إبقاء الوالى فى مركزه لفترة طويلة مخافة أن يستقل بالبلاد مما أدى إلى أن جميع الولاة الذين تولوا حكم البلاد لم تكن لهم سياسة واضحة ومحددة فى استغلال الأراضى الزراعية أو تشجيع الصناعات المحلية أو التجارة الداخلية والخارجية كما لم تكن لهم سياسة معينة فى نشر التعليم والعناية بالصحة، ولم تكن هذه السياسة العثمانية خاصة بولاية طرابلس الغرب فقط بل كانت سياسة عامة »[٤] خضعت لها كل الولايات العربية.

١- ابن غلبون : مرجع سبق ذكره ص٧٠ .

٢- أحمد النائب الأنصارى : المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب ، طرابلس.

٣- محمد مصطفى بازامة: بداية المأساة أو التمهيد السياسى للاحتلال الإيطالى ص٢٠ .

٤- د. رأفت الشيخ : تطور التعليم فى ليبيا فى العصور الحديثة ص٣٤ .

ثالثا : سعة رقعة البلاد وقلة عدد السكان فيها وانعدام المواصلات وبطء الحركة كل ذلك أخر سيطرة العثمانيين على كل ليبيا بل أدى إلى أن تكاد سيطرة الوالى العثمانى تقتصر على المدن الساحلية فقط، بينما البلاد الداخلية لاتخضع لهذه السيطرة، وكثيرا ما أعلنت الثورة عليها ، ولقد ظهرت ثورات كثيرة من الليبيين ضد هذه السيطرة وصعب على الولاة إخضاعها.

رابعا : التمسك باحتلال ليبيا واستمرار هذا الاحتلال كهدف استراتيجي يسهم فى تأكيد سيطرة العثمانيين على البحر المتوسط ومعظم البلاد المطلة عليه وخصوصا فى قارتى آسيا وأفريقيا ، وقد استدعى هذا أن جاء احتلالهم لطرابلس قاصرا على الساحل دون النظر كثيرا للداخل، بل أن إخضاع فزان وبرقة جاء متأخرا بعد احتلال طرابلس بسنوات كثيرة، ونتيجة لذلك «انحدرت هيبة الوالى والدولة وكثرت الفتن المتلاحقة وثورات القبائل »[١] فى الدواخل .

خامسا : كان اهتمام الدولة العثمانية بولاية طرابلس الغرب عسكريا أكثر منه مدنيا واقتصرت عناية بعض الولاة على بعض المدن الساحلية، ولذلك لم تنتعش البلاد فى أيامهم ، بل بالعكس تجمدت حيث كانت، مما جعلها مسرحا للفوضى وسوء الحكم، كما تميز هذا العصر العثمانى الأول بسياسة المحافظة على الوضع القائم كما هو دون تغيير، والحرص على استمرار بقاء البلاد تدين بالولاء للسلطان العثمانى ، وقد دفع هذا الحرص الولاة على عدم إدخال تغييرات أساسية فى نظم البلاد الداخلية ولا فى حياة أهلها .

أحمد القرمانلى

أدى ضعف الدولة العثمانية وانهيار تنظيمات الحكم العثمانية فى أوائل القرن الثامن عشر إلى استئثار الكثيرين من قادة الجند أو زعماء العصبيات المحلية بالسلطة المحلية فى بلادهم ، ومن بين هؤلاء كان أحمد القرمانلى، وهو « أحمد بن يوسف بن محمد بن مصطفى القرمانلى نسبة إلى القبيل (القبيلة) المشهور بأرمن الأنضاول ، كان أبوه عاملا وبعده ولى خليل باشا- والى طرابلس الغرب- ابنه أحمد القرمانلى عمل أبيه على ساحل المنشية» [٢].

وكان أحمد القرمانلى سليل أسرة تركية جاء مؤسسها الأول كأحد جنود القائد التركى درغوت باشا فى عام ١٥٥٣ إلى طرابلس وتزوج زوجة عربية ليبية، ثم تدرج أفراد هذه الأسرة

١- محمود الشنيطى : قضية ليبيا ص٢٤ .

٢- ابن غلبون : مرجع سبق ذكره ص١٩٠ .

فى المناصب المختلفة فى ولاية طرابلس الغرب حتى تولى أحمد عمالة المنشية- وهى ضاحية من ضواحى مدينة طرابلس تقع على الساحل- من قبل الوالى. ويذكر المؤرخون أن اسم قرمانلى يرجع إلى انتماء الأسرة إلى بلدة قرمانيا الواقعة جنوبى هضبة الأناضول بآسيا الصغرى، فهو تركى الأصل [١].

كان أحمد طموحا واسع الحيلة ولذلك وقف موقف المتفرج من الخلافات التى كانت قائمة بين الباشا والديوان وجند الإنكشارية والقول أوغلية ، وأظهر أنه لاينحاز لأى فريق، وأنه الشخصية التى يمكن لها السيطرة على الموقف، وذلك حتى يفوز برضاء الجميع، وكان موقفه حكيما إذ كفى نفسه شر الانغماس فى هذا الصراع مؤقتا حتى يضعف أطراف الصراع فيسهل أمامه طريق الوصول إلى كرسى الولاية .

وقد استطاع أحمد بهذه السياسة أن «يستقطب كثيرا من جند الإنكشارية وأعضاء الديوان بل ومعظم أعيان طرابلس، وأن يؤثر فيهم حتى أجمعوا على توليته واليا على طرابلس الغـــرب[٢] وكانت «بيعته على يد أهل البلدين الساحل والمنشية ضحوة الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخر عام ١١٢٣هـ»[٣] وقد كان أخلص المؤيدين له «طوائف القولوغلية وعرب الجبل»[٤] وكان عمره أنذاك خمس وعشرون سنة.

كان على أحمد القرمانلى لكى يحصل على فرمان سلطانى بتثبيته فى ولاية طرابلس الغرب واستقرار الأمور فيها ولذريته من بعده أن يتخلص من الأخطار والصعوبات التى واجهته منذ اليوم الأول .

كانت الصعوبات التى واجهت أحمد القرمانلى تتمثل فى الداخل والخارج، أما الصعوبات الداخلية فكانت التخلص من الضباط الإنكشارية الطامعين فى الحكم والراغبين فى بقاء أمر تولية الولاة بأيديهم، وقد استطاع أحمد القرمانلى تدبير مذبحة لهؤلاء الضباط فى منزله الريفى قرب ضريح سيدى الهانى بالمنشية بعد أن أقام حفلة كبيرة لحوالى ثلاثمائة ضابط من قادة جند الإنكشارية الذين يخشى انقلابهم عليه، وبعد الحفل ذبحهم رجاله .

١- حسن محمود: ليبيا بين الماضى والحاضر ص١٨٠ .

٢- د. رأفت الشيخ : مرجع سبق ذكره ص٣٨ .

٣- ابن غلبون : المرجع السابق ص١٦١١ .

٤- أحمد الدجانى: أحاديث عن تاريخ ليبيا فى القرنين ١٨ ، ١٩ ، ص٢٥ .

وكان أعيان طرابلس هم الذين ساهموا فى اختياره واليا عليهم فقد ظل يلاطفهم ويتودد إليهم حتى حصل على فرمان من السلطان بتثبيته فى ولاية طرابلس الغرب، وحتى تخلص من بقية الصعوبات التى واجهته ، ثم أهمل مشورتهم ونسى تأييدهم له وتصرف كحاكم مطلق لايقبل حتى شفاعتهم.

وكان على أحمد القرمانلى كذلك التخلص من الفتن والثورات الداخلية حتى تستقر له الأمور، ولذلك بدأ منذ توليته فى استئصال بذور الثورات فأخمد كل محاولة لإثارة التمرد والفتن وأعدم كل من ارتكب جرما وكل من تآمر ضده، وقد قضى بقسوة على ثورات أهالى تاجوراء وترهونة ومسلاتة وغيرهم حتى دانت له البلاد واستتب له الأمر ، «وكانت هذه الثورات كافية للقضاء على الأسرة القرمانلية ولكن من حسن حظ أحمد باشا أنها لم تقم فى وقت واحد ولا فى مكان واحد. لذلك سهل عليه القضاء عليها حتى استقرت له الأحوال وصفت له الأمور فانصرف إلى العناية بالإصلاحات»[1].

وكانت الصعوبات الخارجية التى واجهت أحمد القرمانلى قد تمثلت فى سعى أحمد لتثبيت نفسه فى الولاية ومواجهة الدول الأجنبية ، أما علاقة أحمد بالسلطان العثمانى فقد تأزمت بسبب اختيار أهل طرابلس لأحمد واليا على البلاد فى ٢٧ يوليو ١٧١١ وهو اختيار يغضب السلطان الذى شعر بأنه مفروض عليه من قوى لاتملك حق الاختيار ، وزاد العلاقة سوءا مقاومة أحمد القرمانلى للباشا المعين بفرمان سلطانى وهو خليل باشا ، وقتله فى معركة انتصر فيها أحمد عند مدينة صبراتة قرب الحدود مع تونس.

وحاول أحمد القرمانلى استرضاء السلطان فأرسل وفدا من أهال طرابلس إلى الأستانة بعد مقتل خليل باشا لشرح ما حدث والمطالبة بفرمان يثبت أحمد القرمانلى واليا على طرابلس الغرب، وحمل الوفد معه هدايا ثمينة، كما «نظم مظاهرات علنية احتفالا بانتصار السلطان ضد بطرس الأكبر»[2] قيصر روسيا فى الحرب الدائرة بين الطرفين.

وعندما أرسل السلطان أحمد الثالث مبعوثا خاصا للتحقيق فى مقتل الوالى المعين خليل باشا، استقبله أحمد القرمانلى «بمزيد من الاعتناء وبالغ فى تعظيمه وإكرامه»[3] وأنهى المبعوث

١- حسن محمود : المرجع السابق ص١٨٥ .

٢- أحمد الدجانى: المرجع السابق ص٢٦ .

٣- أحمد النائب : المرجع السابق.

مهمته دون أن يقابل أحدا من الناس أو قادة الجند فى طرابلس وعاد محملا بالهدايا لنفسه وللسلطان، وتابع أحمد القرمانلى سياسة إرسال الهدايا للسلطان حتى أصدر له فرمانا بالولاية .

وكانت علاقات أحمد القرمانلى مع الدول الأوروبية تتسم بالعداء بسبب سياسته البحرية القائمة على توجيه سفن الأسطول التى بناها لمهاجمة سفن الدول الأوروبية فى عرض البحر المتوسط، وفرض على هذه الدول دفع إتاوات تنظمها معاهدات نظير عدم تعرض سفن أسطوله لسفنهم وتجارتهم وكانت معظم الدول الأوروبية تخضع لشروطه ضمانا لسلامة سفنهم، وكانت كل من «انجلترا وهولندا»[١] من أوائل الدول الأوروبية التى سارعت إلى دفع الجزية المعتادة لقاء عدم الاعتداء على سفنها العاملة فى البحر المتوسط.

وقد اهتم أحمد القرمانلى بالأسطول فأعاد له شهرته القديمة التى كانت له أيام «سنان باشا» و«درغوت باشا» وقد أعلن الجهاد ضد السفن الأوروبية فيما عدا السفن التى تعهدت بلادها بدفع الاتاوة السنوية له ، «وقد كسب من وراء مهاجمة - والتهديد بمهاجمة- السفن الأوروبية الغنائم والأموال الكثيرة[٢]، وقد أدى تهديده للسفن الأوروبية إلى إلقاء الرعب فى قلوب الأوروبيين من القوة البحرية فى عهده ، «كما ضمن عدم مهاجمة الشواطئ الليبية بواسطة السفن الأوروبية» [٣].

ويؤثر عن أحمد القرمانلى أنه كان يتولى بنفسه قيادة الجند للقضاء على الفتن والثورات الداخلية، وقد استطاع أن يستعيد السيطرة على إقليم فزان الذى كان بعيدا عن السيطرة الكاملة للحكم التركى، وبضم إقليم فزان تحت سيطرته فتحت طرق التجارة عبر الصحراء من أفريقيا وسارت القوافل بين طرابلس والمدن الأفريقية فى جنوب وغرب القارة ، وكانت هذه القوافل ثلاث «الأولى تتجه جنوبا عبر واحة فزان إلي بحيرة تشاد ، والثانية تنعطف جنوبا غربا عبر غدامس وغات إلى تمبكتو الأسطورية ، والثالثة تسير جنوبا شرقا عبر واحة الجفرة ثم سواكن وزيلا Zila إلى وادای ودارفور الغنى بخصبه وثرواته»[٤] واستفادت الولاية كثيرا من دخل تجارة القوافل ، وانتعشت أحوال أهل البلاد الاقتصادية فضلا عن أن هذه التجارة كانت مصدرا لزيادة أموال خزينة الباشا .

١- د. زاهر رياض : شمال أفريقيا فى العصر الحديث ص١٠٥ .

٢- د. حسن محمود : المرجع السابق ص١٨٢ .

٣- د. رأفت الشيخ : المرجع السابق ص٣٩ .

٤- ريتشارد توللى : المرجع السابق ص٨ .

ونتيجة لتوفير الأموال فى خزينة الباشا أخذ يتجه للإنشاءات ولتعمير البلاد فأنشأ جامعه المشهور عام ١٧٣٧ – على منوال الولاة الأتراك الذين سبقوه- على أنقاض المسجد الذى كان عمرو بن العاص قد أسسه عند فتح مدينة طرابلس ، وألحق أحمد باشا بمسجده «مدرسة أوقف عليها الأوقاف الكثيرة وهى التى لا زالت قائمة للآن تحت اسم كلية أحمد باشا» (١). كما أنشأ القلاع والحصون وضمن تزويد مدينة طرابلس وميناءها بمورد ماء عذب دائم.

حكم أحمد باشا القرمانى ولاية طرابلس الغرب ٢٤ عاما من ١٧١١ إلى ١٧٤٥م استطاع خلالها تثبيت حكم الأسرة القرمانلية فى ليبيا، وتأكيد السيطرة القرمانلية على أنحاء البلاد بما حقق وحدتها، وبعد أن تخلص من قادة جند الانكشارية المناوئين له والفتن والثورات الداخلية اتجه لإصلاح أحوال البلاد واستعان بأعيان البلاد فى جمع الأموال اللازمة للصرف على مشروعاته الإصلاحية وفى إرسال الهدايا للسلطان العثمانى حتى يضمن بقاءه فى الولاية بل وليحصل منه على فرمان يجعل ولاية طرابلس الغرب وراثية لبنيه من بعده .

ويذكر المؤرخون أن عهد أحمد القرمانلى كان «أحسن عهود الأسرة القرمانلية بل وأحسن العهد التركى كله»(٢) وذلك استنادا إلى أعماله وصفاته فإنه مثلا قد «اتخذ جمعية علمية لحسم النوازل والمحاكمات الشرعية، وكان لين العريكة يؤثر العدل والإنصاف(٣) وأنه «هو الذى أسس قوانين الدولة وأحيا رسوما دائرة من قواعدها (٤).

محمد القرمانلى

توفى أحمد باشا القرمانلى كما تذكر أكثر المصادر منتحرا عام ١١٥٨هـ الموافق ١٧٤٥م وخلفه ابنه محمد «بفرمان عالى الشأن ولم تظهر خلال مدته منافسة داخلية بما مهد له والده»(٥) أنه كان يتمتع بسمعة طيبة فأجمع الناس عليه رغم أنه لم يكن أكبر أولاد أحمد القرمانلى وكان الابن الأكبر يدعى محمود ولكنه لم تكن له صفات محمد الشخصية ولاخبرته بأمور الحكم التى خبرها محمد فى حياة أبيه .

١- طاهر الزاوى: معجم البلدان الليبية ص٣٠٢ .

٢- طاهر الزاوى: ولاة طرابلس ص٢٢٣ .

٣- أحمد النائب : مرجع سبق ذكره ص٤٢٥ .

٤- ابن غلبون : مرجع سبق ذكره .

ورث محمد القرمانلى حكم البلاد الليبية بعد أن استقر أمرها وزادت إيراداتها وأصبحت مهابة الجانب من الدول الأوروبية ، ولكنه كان حريصا على بقاء العلاقات الطيبة بين طرابلس الغرب وكل من فرنسا وانجلترا، وإن كان قد اهتم بالأسطول وبدأ به نشاطا ضد السفن الأوروبية التى ليس بينه وبينها اتفاقات فأقلق ذلك الدول البحرية بصفة خاصة وأسرعت إلى عقد المعاهدات معه لتأمين شره فتم عقد معاهدة مع حكومة النمسا عام ١٧٤٩م، ومع الدانمرك فى شهر فبراير من نفس السنة، ومع فرنسا فى مايو ١٧٥٢م، وكانت معاهدات الدول الضعيفة مثل النمسا والدانمرك وغيرها تنص على أن تدفع هذه الدول جزية معلومة للباشا «وأما الدول القوية- كانجلترا وفرنسا- فكانت تمارس الضغط على باشا طرابلس وتقوم بتظاهرات عنيفة فى ميناء المدينة، وأما الباشا فكان يعرف كيف يفرق بين هذين النوعين من الدول فيتقبل هدايا النوع الأول بثقة ، ويقدم الترضيات للنوع الثانى»[1].

وكانت هذه المعاهدات تتم دون استئذان الباب العالى، ويصف أحمد النائب عمليات أسطول الباشا بقوله : وكان أمراء الأساطيل أصحاب شجاعة وإقدام، وكانوا يهجمون بمراكبهم على الأعداء بسواحل البحر الأبيض فيقتلون ويسلبون » ويضيف النائب معلقا على عقد الاتفاقية بين الباشا وانجلترا أن «عقد هذه المعاهدة جاء بعد ضغط من انجلترا نتيجة استمرار الغزوات التى قام بها أسطول طرابلس فى تلك الفترة» [2].

والواقع أنه «إذا كان عقد مثل هذه المعاهدات يعطينا فكرة صادقة عن مدى تطور القوة البحرية الليبية ومركزها فى البحر الأبيض المتوسط فإنه كذلك يرينا مدى ما وصلت إليه ولاية ليبيا من استقرار ومظهر للسيادة الخارجية لأن هذه المعاهدة التى عقدت بين ليبيا وانجلترا- وغيرها- تمت بدون علم السلطان[3].

وإذا كان محمد القرمانلى حريصا على احترام المعاهدات المبرمة بين الولاية وبين الدول الأوروبية وأعلن ذلك أمام قناصل الدول الأوروبية الذين توجهوا إليه للتهنئة بولايته ويقدمون له الهدايا فى أيام حكمه الأولى خوفا من نتائج الصدام بالدول الأوروبية الكبرى، إلا أن أعضاء الديوان مارسوا ضغطا لكى يستجيب لاستمرار أعمال الغزو والقرصنة ضد السفن الأوروبية

١- أحمد الدجانى: مرجع سبق ذكره ص٣٤ .

٢- أحمد النائب: مرجع سبق ذكره .

٣- مصطفى بعيو: فى تاريخ لوبيا ص١٠٠ .

بدعوى الجهاد الإسلامى ضد المسيحيين وقد استطاع الباشا «بصعوبة وبعد معارضة شديدة الحصول من الديوان على استثناء لسفن فرنسا وانجلترا» [١]. وإن كان هذا الاستثناء لم يتحقق بالكامل بسبب قيام قادة السفن الطرابلسية بمهاجمة السفن الفرنسية بما أوقع الباشا فى خلاف مع فرنسا وعندما حاول استرضاءها ثار عليه جند الانكشارية وخاصة من الألبان والأرناؤوط المغامرين .

ولم تخل فترة حكم محمد القرمانلى من ثورات وفتن شهدتها البلاد مثل فتنة أحمد بن حسن كيخيا صهر الباشا وإخوته ، ومؤامرة الألبان والأرناؤوط لخلع الباشا، وثورات درنة وغريان، وإذا كان الباشا قد نجح بالفعل فى إخماد هذه الثورات والمؤامرات إلا أنه كان من نتيجة ذلك فقدان الباشا لخيرة جنوده المخلصين مما اضطره إلى استدعاء وتجنيد بضع مئات من الجند الإنكشارية من مدينة أزمير التركية، كما كان من نتيجة ذلك اعتلال صحته بسبب جهوده فى التخلص من الثورات والمؤامرات المناوئة وبسبب «إدمانه شرب الخمر فاضطربت حياته، وتوفى يوم ٢٤ من يوليو ١٧٥٤ وله من العمر ٤٥ سنة ، ودفن إلى جانب والده بمقبرة جامع أحمد باشا» [٢].

على القرمانلى الأول

تولى على القرمانلى حكم الولاية وعمره ثلاث وعشرين سنة بعد فترة حكم أبيه التى دامت تسع سنوات والتى شهدت مظاهر الضعف بسبب تعدد الفتن والمؤامرات وقد أدرك قادة الإنكشارية حداثة الوالى الجديد فالتفوا حوله وأمسكوا بزمام السلطة الفعلية فى البلاد، ومارسوا سياسة مهاجمة سفن الدول الأوروبية مما أفسد العلاقات بين الولاية والدول الأوروبية ونتج عن ذلك تعرض مدينة طرابلس لقصف من مدافع السفن الأوروبية.

كما نتج عن الصدام بين الولاية والدول الأوروبية حدوث احتكاك بين سفن الولاية وبين سفن جمهورية البندقية المؤيدة من قبل انجلترا وفرنسا كان سببه أن «غنمت عسكر الإنكشارية سفينتين من سفن تجار جمهورية البلنسيان (البندقية) فطلب قنصلها استردادهما من على باشا ولم ييسر له لإصرار العساكر وضعف نفوذه فيهم. فاتفق أن أحد ضباط طرابلس قدم

١- رودلف ميكاكى: طرابلس الغرب تحت أسرة القرمانلى ، تعريب طه فوزى .

٢- رودلفو ميكاكى : مرجع سبق ذكره .

بأسطوله إلى أحد مراسى البلنسيان غازيا فبرز إليه أسطولها وتواقعوا فقتل الضابط وبعض الطائفة وأسر الأسطول، فلما سمعت العساكر لانوا بالانقياد وانعقد الصلح بين الحكومتين وجرت معاهدة ثانية»[١].

ومع ذلك لم تتوقف عمليات مهاجمة الأسطول الطرابلسى لسفن الدول الأوروبية بسبب انتشار المجاعة والقحط منذ عام ١٧٦٧م بصفة خاصة وبسبب عجز الحكومة عن دفع مرتبات الجند، بالإضافة إلى الثورات والفتن التى قامت هنا وهناك فى أنحاء البلاد التى ثارت بسبب الأساليب التعسفية التى لجأ إليها رجال الباشا فى جمع الأموال من القبائل .

وقد استحكم الضعف فى الولاية وساءت حالتها . وانحلت عرى الإيالة وأهمل على باشا التنسيقات العسكرية والتنظيمات السائرة . وثقل عليه إعطاء مرتبات العساكر وعجز عن القيام بمهام الأمور فتتابع فرار العساكر، وخلا الجو للأنذال ، حتى صار النهب والغصب بالسبل والأسواق علنا من غير مبالاة»[٢].

وقد وصف نائب قنصل فرنسا حال طرابلس فى أثناء حكم على باشا بقوله إن الباشا لايحكم إلا رعايا متمردين ومناطق جدباء وأكداسا من الأطلال والخرائب وأن المدينة التى يقيم فيها ليس فيها إلا الخراب والدمار ، كما أن قصره ينهار من جميع جوانبه، أما أسوار المدينة فعديمة الجدوى بسبب تهدمها فى كثير من الأجزاء ، وأما الحصون والبطاريات المعدة بمدافع قديمة وفاسدة فإنها تتداعى كلما أطلقت لتحية البوارج الحربية التى تأتى لإلقاء مراسيها فى الميناء وأن سبع سنوات من القحط ضاعفت عدد الموتى والمهاجرين . ثم تفشى الطاعون فزادت هذه الكوارث وأصبحت طرابلس صحراء مقفرة»[٣].

ويصف رودلفو ميكاكى[٤] حكم على باشا بقوله : وقد استسلم لليكجرية (الإنكشارية) فسلبوه الإرادة، وصاروا يحكمون البلد باسمه وليس له من الأمر شئ، وفى أيامه سنة ١٧٦٧ أصيبت البلاد بقحط شديد وهاجر كثير من الناس إلى تونس ومصر وفى عهده سنة ١٧٨٥م أصيبت طرابلس بطاعون انتشر فى جميع القطر ومات من سكان المدينة وحدها سبعة

١- أحمد النائب : مرجع سبق ذكره .

٢- أحمد النائب : مرجع سبق ذكره.

٣- أحمد الدجانى: مرجع سبق ذكره ص٤٣ .

٤- رودلفو ميكاكى : مرجع سبق ذكره .

وعشررون ألف شخص. وكان عهده عهد قلاقل ولم يكن لديه من القوة ما يؤهله للصمود أمامها.

كان لابد أن يتطلع أهل طرابلس الغرب إلى الآستانة لكى تنقذهم مما حل بهم فى عهد على باشا القرمانلى ، وقد انتهزت السلطنة الفرصة حين عرض مغامر يدعى «على برغل»[١] على السلطان سليم الثالث أن يحقق أمل السلطنة فى التخلص من حكم الأسرة القرمانلية وأن يكون له حكم طرابلس. وعرض أن يعد الحملة العسكرية التى سينهى بها حكم القرمانليين على نفقته الخاصة وتعهد بإقرار النظام فى الولاية وبأن يدفع للسلطنة جزية سنوية.

ولما وافق السلطان سليم الثالث على طلب على برغل منحه فرمانا بتعيينه واليا على طرابلس، وجمع على برغل مجموعة من المغامرين والمرتزقة عددهم ٤٠٠ رجل حملهم على ثمانية سفن صغيرة إلى طرابلس فوصلها فى ٢٩ يوليو ١٧٩٣م ونزل هؤلاء الرجال إلى طرابلس وقرئ الفرمان فما كان من على القرمانلى وأسرته إلا الهرب من طرابلس والالتجاء إلى تونس.

أما شخصية على برغل وسياسته فإنه كما يذكر الجبرتى أصله من مماليك محمد باشا حاكم الجزائر ، وكان أهل طرابلس مترددين فى قبوله واليا عليهم «ثم اتفق رأى العموم بتمكين البلاد لعلى باشا برغل لأن عدم قبوله عين الخروج من طاعة أمير المؤمنين ونقض لبيعته وذلك شقاق وشقاوة الدارين والعياذ بالله تعالى، مع أن دفع هذه الأساطيل - سفن على برغل- وعلى فرض محوهم وإزالتهم فلا يؤمن بأس السلطنة السنية»[٢].

وكان على برغل قاسيا متغطرسا كثير الأطماع ، وقد اتضحت صفاته هذه من أول أيامه بطرابلس ، إذ أنه «لما استولى على طرابلس أباحها لعسكره ، ففعلوا بها أقبح وأشنع من التمرلنكية (يقصد جنود تيمور لنك المغولى) - من النهب وهتك النساء والفسق والفجور . وسبى حريم متوليها وأخذهن أسرى، وفرض على أهل البلد وأخذ أموالهم[٣].

وساءت علاقة على برغل وقناصل الدول الأوروبية أيضا حتى طلب من القناصل تقبيل يده عند المثول بين يديه ولم يتخل عن طلبه هذا إلا تحت تهديد الأسطول البريطانى الذى دخل ميناء

١- يذكر البعض أن كنية «برغل» تعنى بالتركية القمح المسلوق المكسر اشتهر بها على لأنه كان يطعم البرغل بدلا من الأرز.

٢- أحمد النائب : مرجع سبق ذكره .

٣- عبد الرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار .

طرابلس مهددا . كما زادت وطأته على الناس حتى اصطدم بوالى تونس حمودة باشا الذى ساعد القرمانليين فى العودة إلى طرابلس، وفى ليلة التاسع عشر من يناير ١٧٩٥ ، بعد أن ظل واليا لمدة سنة وخمسة أشهر، ذبح ما عنده من الرهائن والأسرى [١].ثم نزل إلى المراكب بما جمعه من الأموال والذخائر ، وأخذ معه غلامين جميلين من أولاد الأعيان شبه رهائن وهرب إلى الإسكندرية وحضر إلى مصر ، ونزل ضيفا عند مراد بك وأنزله فى قصر بالجيزة»[٢].

أحمد القرمانلى الثانى

كان لعلى القرمانلى ثلاثة أبناءهم حسن وأحمد ويوسف ، وفى أواخر عهد على القرمانلى فى طرابلس اختلف الأخوة الثلاثة وثار بينهم نزاع كان محركه أصغرهم يوسف الذى اتصف بالطمع والتهور، وقد عانى الطرابلسيون من هذا النزاع وما نتج عنه ولما كان على القرمانلى يؤهل ابنه الأكبر حسن لولاية الحكم بعده فقد حقد عليه يوسف وقتله فى ٢٠ يوليو ١٧٩٠م واستمر النزاع بين يوسف وأحمد حتى جاء على برغل إلى طرابلس وهرب القرمانليون إلى تونس .

بعد هرب على برغل إلى مصر عاد القرمانليون إلى طرابلس وتنازل على القرمانلى لابنه أحمد فى رجب سنة ١٢٠٩هـ الموافق يناير ١٧٩٥ م، وكان أحمد هذا «سكيرا منهمكا فى ملذاته» [٣]، ثم فى «أواسط شعبان- من العام التالى- خرج أحمد بك لناحية تاجوراء للخلاعة وزيارة الأولياء فيها على الرسم المعتاد فانتقضت عليه الأهالى بإغراء أخيه يوسف ففر إلى مصراته ومنها إلى مالطة»[٤].

يوسف القرمانلى

نجح يوسف فى الوصول إلى كرسى الولاية أخيرا عام ١٧٩٦م بعد أن قتل أخيه الاكبر وثار على أخيه الأوسط أحمد مستغلا إهماله شئون الحكم وانغماسه فى الملذات وأخذ يتقرب إلى الأهالى مبينا لهم أنه يستطيع إنقاذ البلاد من الفوضى التى تعيشها فى ظل أحمد القرمانلى الثانى إذا مكنوه من الولاية .

١- رودلفو ميكاكى : مرجع سبق ذكره .

٢- عبد الرحمن الجبرتى: مرجع سبق ذكره .

٣- ردولفوميكاكى : مرجع سبق ذكره .

٤- أحمد : النائب : مرجع سبق ذكره .

وقد لجأ أعيان طرابلس إلى باشا تونس وقنصل فرنسا فى طرابلس للتوسط عند السلطان العثمانى حتى يصدر فرمانا بتولية يوسف ، فوافق السلطان على تولية يوسف، وله من العمر حوالى ثلاثين سنة، وقد اعترف به أبوه على وأراد إبعاد أخيه الذى هرب فعرض عليه حكم بنى غازى ودرنة ولكن أحمد رفض هذا العرض وعاد إلى تونس عن طريق مالطة.

نظرا لما اتصف به يوسف من الشدة والبطش فقد كان المتوقع أن يمارس بطشه بصورة أكبر بعد أن أصبح الحاكم الوحيد والأعلى للبلاد، إلا أن يوسف «ظهر بمظهر يخالف كل المخالفة المظهر الذى كان يبدو به، فلم تعد توجد القسوة فى أعماله، بل امتاز بصرامة عادلة كانت تشوبها كياسة لم يكن ينتظر توافرها فى أمير أفريقى» [١].

قضى يوسف سنوات حكمه الأولى فى التعامل مع ثلاث قوى القوة الأولى جند الإنكشارية والقول أوغلية، والقوة الثانية القبائل العربية فى أقاليم ليبيا الداخلية، والقوة الثالثة الدول الأوروبية بأساطيلها وقناصلها المقيمين فى طرابلس .

أما بالنسبة للقوة الأولى فقد استطاع استخدامها لتحقيق أغراضه فى التخلص من الثورات الداخلية وفى ممارسة أعمال الحرب البحرية ضد السفن الأوروبية ، وكان يوسف يعتمد على مؤازرة بعض القبائل العربية فى ليبيا له مما منحه قوة فى تعامله مع جنوده ، ولم يستطع هؤلاء الجند أن يكونوا خطرا عليه إلا بعد أن لجأ يوسف إلى الدعة والترف وأسرف فى الملذات وأهمل النشاط العسكرى .

وأما القوة الثانية وهى القبائل العربية فقد شعرت بأن عهدا جديدا قد بدأ وأحسن حالا من سابقه، ولكن لم تمض سنوات قليلة حتى ثار «أهل غريان بزعامة الشيخ عبد الوافى عام ١٨٠٣م، وثار أحمد سيف النصر فى فزان عام ١٨٠٦ وتعرض لبعض سفن الأجانب كانت بمرسى سـرت»[٢] إلى جانب ثورات غدامس ونالوت بالجبل الغربى وترهونة وسرت. «وعلى الرغم من أنه تمكن من القضاء على كل هذه الثورات بالشدة فإنها- هدت- من غير شك- كيان الدولة فى الوقت الذى كان على الباشا فيه أن ينصرف كلية إلى التغلب على مصاعبه الخارجية وقد تعددت بتعدد الدول الأوروبية[٣].

١- رودلفو ميكاكى : مرجع سبق ذكره .

٢- طاهر الزاوى : ولاة طرابلس ، ص٢٣١ .

٣- د. حسن محمود : مرجع سبق ذكره ص١٩٠ .

وقد زلزلت الثورات الداخلية أركان الحكم فى طرابلس الغرب على عهد يوسف القرمانلى «وكان الناقمون من الأسرة القرمانلية كثيرا ما يؤيدون الثوار هنا وهناك . ولما كانت الخزينة خاوية لم يكن باستطاعة يوسف باشا أن يرسل جيوشه إلى مختلف الجهات لذلك كان كثيرا ما يلجأ إلى المهادنة ويعترف بالزعيم الثائر حاكما لمنطقة الثورة»[١].

عاصر يوسف القرمانلى أحداثا أوروبية وعربية فماذا كان موقفه منها وماذا كان موقفه من الدول الأوروبية وخاصة أنه كان يحتاج إلى أموال كثيرة للصرف منها على مشروعاته وحملاته العسكرية ضد الثوار داخل ليبيا ؟

لقد حدثت الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨م بعد سنتين من بداية حكمه فى طرابلس، وتولى محمد على ولاية مصر عام ١٨٠٥م ، وغزت فرنسا الجزائر عام ١٨٣٠م، وحدث صدام حربى بين الباشا والولايات المتحدة الأمريكية إلى جانب التنافس بين انجلترا وفرنسا حول ليبيا فكيف كانت علاقات الباشا وموقفه من كل هذه الأطراف ؟

كانت علاقات يوسف باشا بفرنسا طيبة من البداية وهذا يفسر مساعدة يوسف للحملة الفرنسية على مصر، وتلبية مطالب فرنسا أثناء صراعها مع انجلترا على النفوذ فى طرابلس، فعندما احتل نابليون بونابرت مصر عام ١٧٩٨م وبعد أن تم تدمير الأسطول الفرنسى فى أبى قير أراد نابليون أن يكون هناك اتصال برى بين الحملة فى مصر وبين فرنسا «فكتب رسالة إلى القنصل الفرنسى فى طرابلس بتاريخ ٢٢ يناير ١٧٩٩م يطلب منه فيها أن يتصل بيوسف باشا ويرتب معه أمر مرور الرجال والذخائر من فرنسا بطريق ليبيا، وانتهى هذا الاتصال بعقد معاهدة بين يوسف باشا والقنصل الفرنسى عام ١٨٠١م تؤمن لنابليون ما أراد» [٢].

وقد استاءت انجلترا من هذا الاتفاق الذى يؤمن للحملة الفرنسية فى مصر سبل بقائها هناك خاصة وأن يوسف باشا سمح للفرنسيين أن يتخذوا من ميناء درنة منفذا لتلقى الإمدادات المرسلة من فرنسا إلى جنود الحملة الفرنسية فى مصر، وأنه كذلك رفض السماح للسفن الإنجليزية بالتردد على الموانئ الليبية مما دفع انجلترا إلى فرض حصار بحرى تجارى شديد.

١- د. نقولا زيادة : ليبيا من الاحتلال الإيطالى ص٤٤ .

٢- د. نقولا زيادة : مرجع سبق ذكره ص٤٩ .

وقد استاءت تركيا أيضا من موقف يوسف باشا، ذلك أن السلطان العثمانى أراد إخراج الفرنسيين من مصر بحملة عسكرية من اتجاهين أو جبهتين جبهة الشرق يتولاها حاكم دمشق وحاكم عكا الجزار لمهاجمة مصر بطريق فلسطين وسيناء وجبهة الغرب يتولاها يوشف باشا من ليبيا، ولكن يوسف حاول استرضاء السلطان ولكنه حرص على بقاء علاقاته الطيبة مع فرنسا، ومن ثم أخذ يعد جيشا بكثير من التمهل وأعلن أن الجيش لتحقيق مطلب السلطان العثمانى ، وفرض على الفرنسيين المقيمين بطرابلس الإقامة الجبرية فى منازلهم وذلك بالتفاهم مع قنصل فرنسا بطرابلس وقد أظهر يوسف للمبعوث العثمانى هذه الجهود حتى ينقلها للسلطان ، وتنفس يوسف الصعداء حين جلت الحملة الفرنسية عن مصر فى أواخر عام ١٨٠١م.

ورغم ذلك فقد ظل الصراع بين انجلترا وفرنسا حادا للتمتع بالنفوذ الأعلى فى ليبيا، ورغم أن فرنسا كانت تتمتع بصداقة يوسف باشا إلا أنه بعد أن استولى الفرنسيون على الجزائر عام ١٨٣٠م وأظهر الشعب الليبى استياءه من هذا الغزو تقدمت فرنسا بمطالب إلى يوسف باشا تدل على تشدد لايفسره سوى ضعف حكم يوسف وفساده ودعاوى المستعمرين وأباطيلهم، وهذه المطالب تتخلص فيما يلى:

١- يجب أن يقدم الباشا اعتذارا إلى القنصل الفرنسى «روسو» عن إهانة ألحقها به من قبل.

٢- يجب أن يلغى الباشا كل الاحتكارات التجارية.

٣- يجب أن يمتنع حالا عن استرقاق الأوروبيين .

٤- لايجوز للباشا أن يطلب من الدول الأوروبية أن تدفع مقررات أو هدايا .

٥- لايجوز للباشا أن يقوى أسطوله.

٦- يتوجب على الباشا أن يدفع لفرنسا تعويضات حربية تمكن الحكومة الفرنسية من التعويض على رعاياها بسبب ما خسرته فى ليبيا أو أقرضته لليبيا .

٧- أن يكون لفرنسا حقوق الدولة الأفضل رعاية (١).

١- د. نقولا زيادة: مرجع سبق ذكره.

وبسبب ضعف الباشا قبل هذه المطالب المهينة وعقد مع فرنسا معاهدة فى أغسطس ١٨٣٠م. ودفع لفرنسا مبلغ ٨٠٠ ألف فرنك فرنسى ومع ذلك فقد وقف القنصل الفرنسى عام ١٨٣٢م إلى جوار على باشا القرمانلى الثانى ابن يوسف الذى تنازل له والده عن الحكم تحت ضغط ظروف البلاد فى الوقت الذى كان القنصل الإنجليزى يقف مع الساخطين على الأسرة القرمانلية والذين يتخذون من المنشية مقرا لهم.

وفى نطاق الصراع الإنجليزى الفرنسى على النفوذ فى طرابلس تبنت انجلترا فى مؤتمرى فينا ١٨١٥م وإكس لاشابل ١٨١٩م . معارضة سياسة العدوان على السفن الأوروبية التى يقوم بها الأسطول الليبى، وقد تم اتخاذ قرار بالرد على الموقف الليبى بالقوة وأبلغ قادة الأسطولين الإنجليزى والفرنسى هذا القرار ليوسف باشا بطرابلس الذى قبل... ومع ذلك فإنه عندما أراد يوسف تقوية أسطوله وطلب من القنصل الإنجليزى المساعدة تقدمت له انجلترا بالمساعدة المطلوبة .

وأما علاقة الباشا بالولايات المتحدة الأمريكية، فترجع إلى أن السفن الليبية تعرضت للسفن الأمريكية التجارية العاملة فى البحر المتوسط، وأنذر يوسف باشا الولايات المتحدة عام ١٨٠٠م بأنها إذا لم تدفع كل سفينة جزية سنوية، وهدية سنوية من الحكومة الأمريكية فإن السفن الليبية سوف تهاجم السفن الأمريكية وتسلبها ما تحمله . ولما لم يرد الرئيس الأمريكى على إنذار يوسف باشا أخذت السفن الليبية تهاجم السفن الأمريكية مما دفع الرئيس الأمريكى إلى تكليف بعض القطع البحرية الأمريكية بمعاقبة الباشا وبالفعل حاصر هذه القطع ميناء طرابلس وأخذت تضربه بالقنابل ، ولكن حدث أن جنحت سفينة أمريكية تدعى فيلادفيا على الشاطئ الليبى فى ٣١ أكتوبر ١٨٠٣م فأسرها جنود يوسف باشا وأخذوا بحارتها البالغ عددهم ٣٠٠ أسرى. ورفض يوسف باشا إطلاق سراح السفينة الأمريكية فيلادفيا وبحارتها إلا إذا تعهدت الولايات المتحدة بدفع مطالبه السابقة ، ومن ثم اتجهت الولايات المتحدة إلى أسلوب آخر تجبر به الباشا على إطلاق سراح السفينة وبحارتها، وتولى هذه العملية القنصل الأمريكى فى تونس ويدعى إيتون ويروى دكتور نقولا زيادة[1] تفاصيل العملية بقوله:

وضع إيتون نصب عينيه ضرورة احتلال طرابلس، ولكنه أدرك أن الهجوم من البحر ليس ممكنا ، ولايمكنه الهجوم برا من الغرب لأن باى تونس لايسمح له بذلك ففكر بمهاجمة

١- د. نقولا زيادة : مرجع سبق ذكره ص٤٧ .

طرابلس من الشرق وفكر فى أن يقنع أحمد أحد القرمانليين الطامعين فى حكم ليبيا بأن يقود الحملة. وكان أحمد يومها فى مصر، وقد وضع نفسه تحت تصرف أحد أمراء المماليك، فذهب إيتون إلى مصر ، واتصل بأحمد وأقنعه بمرافقة الحملة ، وحصل له على إذن بمغادرة البلاد، وقاد الحملة التى كان رجالها من البدو والمالطيين واليونان إلى درنة التى احتلها فى ٢٦ أبريل ١٨٠٤م. والظاهر أن يوسف باشا خشى العاقبة بعد سقوط درنة فقبل بالمفاوضة ورضى بأن يطلق سراح الأسرى الأمريكيين مقابل ٦٠ ألف قرش بدل ٤٠٠ ألف قرش كان قد طلبها قبل ذلك. أما أحمد فقد أعيد إلى الإسكندرية حيث ظل إلى حين وفاته سنة ١٨١١م.

وفى الوقت الذى كان يوسف القرمانى يحكم ولاية طرابلس الغرب ظهر على مسرح الأحداث فى القطر المجاور- مصر- محمد على الوالى الذى اتبع نفس أسلوب أحمد القرمانلى مؤسس الأسرة فى طرابلس لارتقاء كرسى الولاية ، ولكن محمد على كان من الذكاء ما دفعه إلى إعداد كوادر فنية من المصريين لبناء البلاد بناء حديثا مستمرا بعكس ما فعله القرمانليون ، وفى الوقت الذى كان فيه محمد على يتجه إلى بلاد الشام لضمها إلى مصر عام ١٨٣٣ بعد أن اتسع ملكه فشمل الحجاز والسودان كان يوسف قد اضطر للتنازل عن الحكم لابنه على باشا الثانى عام ١٨٣٢م وهناك رواية[1] تذكر أن محمد على كان قد فكر فى غزو برقة واستخلاصها من حكم يوسف القرمانلى المنهار وضمها إلى مصر، ولكن هذه الرواية تحتاج إلى أدلة أكثر للتثبت من حقيقتها، وإن كان محمد على عام ١٨٢٩ قد خضع لإغراء فرنسا لكى يحتل الجزائر ولم يثنه عن ذلك سوى خوفه من الصدام مع انجلترا ، مما يوحى بأنه كان له أطماع فى برقة كما تذكر الرواية المذكورة .

هكذا كانت حياة يوسف القرمانلى حيث يجد المؤرخ المنصف فى بداية حكمه «ما يفسح المجال للأمل فى الإصلاح ، حتى إذا ما قارب النهاية من سيرته وجد من الشناعات ما يبعث الحسرة فى النفوس ويفتح باب اليأس على مصراعيه ، ويرغمه على القول بأن عهد السيطرة التركية على ليبيا قد قعد بها عن اللحاق- فى التقدم- بجارتيها مصر وتونس[2].

١- ذكرها المؤرخ الليبى مصطفى بعيو فى محاضرة له بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية أثناء انعقاد ندوة المؤرخ الجبرتى فى أبريل ١٩٧٤م بالقاهرة.

٢- طاهر الزاوى: مرجع سبق ذكره ص٣٢٣ .

ذلك أن يوسف باشا «لما انتقل من طور الشبيبة إلى طور المشيب استهان بأهل الإيالة- ولاية طرابلس الغرب- وحملهم بمقتضى ما كان له من إطلاق التصرف من مصاريف شهواته وألوان لذاته- أكثر من طاقتهم، حتى آل الأمر إلى فاقته وفاقتهم ، وباع من أسطولها الحربى، وسك مدافعها النحاس فلوسا، وأرخى عنان التصرف لأبنائه وأصهاره وقسم الإيالة بينهم، فأرسلوا العمال من طرفهم ، وساءت سيرتهم، وعظم ظلمهم واتخذوا طرقا للجباية وفق مصالحهم الذاتية، وغير ذلك مما نقم من أعماله . وأذن بزواله . انهمك فى الملذات ومعاشرة المضحكين والصفاعين وسماع الألحان»[1].

كما أن يوسف باشا اضطر إلى الاقتراض من الأجانب وإلى فرض الضرائب على الناس لكى يواجه الإنفاق المتزايد على ملذاته وعلى حملاته العسكرية ضد الثوار «ووجد قنصل الإنجليز وقنصل فرنسا سبيلا إلى الدس ضده، وتخلى عنه كثير من أنصاره ، ولم يجد سبيلا للخروج من هذا المأزق إلا التخلى عن الحكم وفى يوم ١٢ من أغسطس سنة ١٨٣٢ م الموافق ربيع الآخر سنة ١٢٤٨هـ عقدا اجتماعا حضره أولاده ووزراؤه وأعيان البلاد وعلماؤها ، وقرر تنازله عن الحكم لابنه على، وجعل ابنه إبراهيم وليا للعهد [2].

على القرمانلى الثانى

ورث على الثانى الحكم ولكنه ورث معه ثورة عنيفة واضطرابات خطيرة أدت فى النهاية إلى القضاء على الأسرة القرمانلية فى ولاية طرابلس الغرب، وقد ظل على فى الحكم من ١٨٣٢ إلى ١٨٣٥ م واجه فيها من الثورات والحروب الأهلية وعوامل القحط الشئ الكثير التى أدت إلى سقوط حكمه وأسرته معا .

وقد بذل على الثانى كل جهوده لاستتباب النظام والأمن فى البلاد ولكنه لم يوفق لأنه كان مكروها من المواطنين والجند على السواء بسبب قسوته من ناحية وبسبب المساوئ التى ورثها عن أسلافه من ناحية أخرى.

ورغم أن والده يوسف باشا تنازل له عن الحكم فى أغسطس ١٨٣٢ إلا أن «الفرمان السلطانى لم يصله إلا فى العام التالى ١٨٣٣ بعد مرور اثنى عشر شهرا (من ربيع الآخر

١- أحمد النائب : مرجع سبق ذكره .

٢- رودلفوميكاكى : مرجع سبق ذكره .

١٢٤٨ إلى ربيع الآخر ١٢٤٩هـ) ولكن الثوار من أهل البلاد أصروا على عدم الاعتراف بولايته ودامت الفتن والحروب الأهلية نحو العامين[١].

وفى أوائل شهر المحرم عام ١٢٥١هـ الموافق ٢٦ مايو ١٨٣٥ وصل إلى ميناء طرابلس أسطول عثمانى كبير يحمل نجيب باشا الوالى العثمانى الجديد الذى قرر السلطان إرساله إلى طرابلس الغرب لإنهاء حكم الأسرة القرمانلية وإعادة الولاية إلى الحكم العثمانى المباشر، وعندما رسا الأسطول فى الميناء دعى على باشا الثانى إلى سفينة القيادة فى ٢٨ مايو حيث كان ينتظره نجيب باشا الذى أخبره بفرمان السلطان بعزله وأنه يجب أن يذهب إلى الآستانة مركز السلطنة هو أسرته ومن يريد أن يصحبه معه ، ثم نزل نجيب باشا تاركا على القرمانلى على السفينة وقرئ الفرمان على الناس الذى ينص كذلك على تعيين نجيب باشا واليا .

ويعلق أحمد النائب[٢] على هذه الأحداث قوله : وقتل محمد القرمانلى نفسه، وفر أخوه أحمد إلى مالطة ، وأرسل على القرمانلى إلى الآستانة ، وانقرض بيت آل القرمانلى وتفرقوا أيدى سبأ وحصل المنى، والله يؤتى الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء ، وهذه ثمرة التصرف بالشهوات، وغض الطرف عن الغوائل والآفات ، واستعمال الشدة فى موضع المداراة».

تقييم للحكم القرمانى

حكمت الأسرة القرمانلية ولاية طرابلس الغرب حكما وراثيا مدة مائة وأربعا وعشرين سنة (١٢٤) من ١٧١١ إلى ١٨٣٥م (١٢٨ سنة هجرية من جمادى الآخر ١١٢٣ إلى المحرم ١٢٥١هـ) حكم خلالها ستة من أمراء الأسرة ومع ذلك لم يستطيعوا الاحتفاظ بالبلاد لأنه لم تكن لهم- شأنهم فى ذلك شأن الولاة الأتراك فى العصر العثمانى الأول- سياسة واضحة ومرسومة لحكم البلاد وتنميتها والمحافظة عليها والأخذ بيدها، كما حدث لمصر فى عهد محمد على الذى عاصر يوسف باشا وعلى باشا الثانى ولذلك لم تكد ولاية طرابلس الغرب تشعر بشئ من الاستقرار فى بداية حكم الأسرة القرمانلية حتى عادت إلى حالة الفوضى الشاملة التى كانت عليها البلاد فى العصر العثمانى الأول .

١- أحمد النائب : مرجع سبق ذكره .

٢- نفس المصدر.

وكانت السياسة الوحيدة التى حرص على اتباعها أمراء الأسرة القرمانلية هى الحصول على الأموال بكل وسيلة للصرف منها على حياة البذخ التى كانوا يحيونها فى قصورهم الفخمة ، وكانت سياستهم هذه ذات شقين : الشق الأول فرض الضرائب على الناس واتخاذ الأساليب التعسفية فى جمعها على يد جند الإنكشارية والقول أوغليه الذين كانوا من أدوات الأمراء القرمانلية فى حكم البلاد .

وأما الشق الثانى من سياسة الأمراء القرمانليين فى حكم ليبيا فكانت اتباع أسلوب الجهاد الإسلامى فى البحر المتوسط . حقيقة كان هذا الأسلوب سائدا فى تلك العصور فى البحر المتوسط، ولكنه لم يكن أسلوب دول بل كان أسلوب أفراد وعصابات ولجوء الأمراء القرمانليين إلى المغالاة فى هذا الأسلوب، وإن كان فى البداية قد در عليهم الأموال الطائلة وأوقع الرعب فى قلوب الأوروبيين إلا أنه أدى فى النهاية إلى التحالف بين الدول الأوروبية ضد هذا العمل ومن يقوم به .

فقد قررت الدول الأوروبية فى مؤتمراتها- كما أشرت سابقا - محاربة أعمال الجهاد البحرى ولذلك وقفت من الولاية موقف العداء، بل حاولت كل دولة أوروبية أن تفرض على الولاية- أواخر عهد الأسرة القرمانلية- الاتاوات والشروط كما كانت هى تفعل ذلك مع الدول الأوروبية . ولعل فشل يوسف باشا فى فرض سياسته البحرية على الولايات المتحدة ثم احتلال فرنسا للجزائر عام ١٨٣٠م أدى إلى ضعف ليبيا بحريا بل إلى القضاء على سيطرة الأسطول الليبى.

ونخلص من كل ذلك إلى أن ولاية طرابلس الغرب فى عصر الأسرة القرمانلية لم تستفد شيئا ذا بال نتيجة لتلك السياسة غير المرسومة ونتيجة استمرار الفوضى والثورات والحرب الأهلية التى شهدتها البلاد والتى كان أهل الولاية ضحيتها الأولى اللهم إلا ما قام به مؤسس هذه الأسرة أحمد باشا من اشتراك بعض الوطنيين فى الجيش وفى إدارة البلاد ليستجلب محبة الناس «خاصة بعد أن جعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية، وإن كانت اللغة التركية لم تختف تماما، إلا أن هذا العمل من جانبه كان سنة طيبة نسج على منوالها من جاء بعده من أبناء أسرته»[١].

١- د. حسن سليمان محمود : مرجع سبق ذكره ص١٨٥ .

العصر العثمانى الأخير

عاد الحكم العثمانى المباشر إلى ولاية طرابلس الغرب بانتهاء حكم الأسرة القرمانلية عام ١٨٣٥ م واستمر حتى عام ١٩١١م عندما احتل الإيطاليون البلد وأنهو الحكم التركى الذى حكم ليبيا ٣٦٠ سنة.

جاء هذا الحكم العثمانى المباشر «بعد أن ضاق المواطنون ذرعا بما ساد بلادهم من فتن واضطرابات حرمتهم الاستقرار المنشود لينصرفوا إلى حياتهم العادية، وجاء- كما حدث فى منتصف القرن السادس عشر- بعد أن طلب بعض المواطنين من السلطان العثمانى تخليص البلاد من الفوضى والانقسامات التى حدثت فى عهد الأسرة القرمانلية وبصفة خاصة فى أواخر حكمها [1].

وإن كان بعض المواطنين فى الولاية قد شعروا بالفرح لمجئ الحكم العثمانى الذى أنهى السيطرة القرمانلية ، فإن غالبية أهل الولاية نظروا إلى مجئ الولاة العثمانيين من استانبول نظرة شك وتردد حيث لم يقم نظراؤهم قبل عصر الأسرة القرمانلية بما يرضى أهل الولاية من أعمال مفيدة تأخذ بيدهم إلى التقدم والازدهار ، ولذلك سرعان ما ناصب أهل الولاية الدولة العثمانية العداء وأبوا الخضوع للسلطة الحاكمة، لأن الحكم العثمانى عاد للبلاد وأعاد معه النظام الفاسد السابق ولم يحاول تغيير ما أدى إلى سخط الشعب قبلا .

لقد بقى العصر العثمانى الأخير فى ولاية طرابلس الغرب ما يقرب من سبعة وسبعين عاما تولى الحكم خلالها ثلاثة وثلاثون واليا تراوحت مدة ولاية بعضهم بين سنة وعدة شهور ، وكان أول هؤلاء الولاة هو رؤوف باشا[2] الذى جاء بعد أن أنهى نجيب باشا حكم الأسرة القرمانلية واستبعدها إلى الآستانة وقد أبقى بطرابلس يوسف باشا لكبر سنه مع أفراد أسرته ، «وتوالى مجئ الولاة بعد رؤوف باشا وكان كل منهم يأتى ولا يكاد يستقر حتى يصدر فرمان بعزله وبتولية غيره فى ولاية ليبيا، ولذلك كان الوالى يسعى بمجرد وصوله إلى البلاد فى جمع أكبر مبالغ من المال ممكنة لأنه يعلم مسبقا أن بقاءه فى منصبه لوقت قصير»[3].

١- د. رأفت الشيخ : مرجع سبق ذكره ص٤٤ .

٢- تذكر بعد المصادر اسمه محمد رائف بدل روف .

٣- د. حسن محمود: مرجع سابق ص١٩٢ .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الولاية فى أثناء هذا العصر قد شهدت أحداثا لها دلالاتها منها ثورات قومية عام ١٨٨١ احتجاجا على الغزو الفرنسى لتونس وعام ١٨٨٢ ضد الاحتلال الإنجليزى لمصر، وأن أهل الولاية كان ولاؤهم عربيا لاعثمانيا ، فعلى سبيل المثال «وعلى ما روى الرحالة الأوروبيون كان غومة المحمودى يعتبر أحد الناطقين باسم القومية العربية المقاومين للاحتلال التركى»[١].

كما أن بعض الليبيين فكروا عندما قامت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا عام ١٨٥٣م رأوا أن «الفرصة سانحة لإعلان استقلال بلادهم عن السلطنة فاشترت بعض القبائل السلاح وطلب بعض الزعماء مساعدة فرنسا عن طريق قنصلها »[٢] ولئن كانت هذه الفكرة لم تأخذ طريقها إلى التنفيذ فلأن يد الليبيين لم تجتمع كلها على هذه الفكرة ثم أنه حدث فى عهد السلطان عبد الحميد «أن طلبت الحكومة من الوالى تجريد الأهالى فى ولاية طرابلس الغرب من السلاح وتفتيش الزوايا السنوسية لضبط ما عسى أن يوجد بها من أسلحة ، وكان ذلك من الأسباب التى دفعت السيد المهدى السنوسى إلى الانتقال من واحة الجغبوب إلى واحة الكفرة والإيغال فى الصحراء»[٣].

وإذا كانت الولاية قد لاقت الاهمال من جانب الدولة العثمانية وولاتها فى النواحى الاقتصادية والعمرانية ، ونواحى العدل، فإنها لاقت الاهمال فى نواحى الصحة والتعليم أيضا، وصدق من قال «أما العلوم والمعارف العصرية فلاتوجد عندهم بل لايشمون لها رائحة»[٤].

انتهت مأساة الحكم العثمانى لليبيا عام ١٩١١م لتبدأ مأساة الحكم الإيطالى للبلاد الذى جاء نتيجة حتمية لسياسة الحكم العثمانى حتى صدق القول بأنه ما من بلاد عربية كانت تحت الحكم العثمانى استطاعت أن تحكم نفسها بنفسها بعد انفصالها عنه، بل انتقلت من حكم العثمانيين إلى حكم أجنبى آخر قبل أن تصل إلى الاستقلال»[٥].

١- د. نقولا زيادة : مرجع سابق ص٥٦ .

٢- نفس المرجع : ص٥٧ .

٣- مصطفى بعيو: مرجع سابق ص١٠٧ .

٤- رحلة الحشائشى إلى ليبيا ص١٩٠ .

٥- مصطفى بعيو: مرجع سابق ص٦٥ .

الباب الثالث

اليقظة العربية الإسلامية

- الفصل السابع آل سعود ودعوة التوحيد .
- الفصل الثامن طرابلس الغرب والدعوة السنوسية.
- الفصل التاسع السودان والمهدية .
- الفصل العاشر الجامعة الإسلامية .

الفصل السابع

آل سعود ودعوة التوحيد

نجد - محمد بن عبد الوهاب - أسس الدعوة - أسلوب الدعوة- الدعوة والأتراك- الدعوة والقوى الخارجية- تقييم الدعوة.

نجـــــد

كانت نجد بشبه الجزيرة العربية هى المنطقة التى انبعث فيها دعوة محمد بن عبد الوهاب للتوحيد « ونجد هضبة تتوسط شبه الجزيرة العربية وإن غلب عليها الطابع الصحراوى الجاف إلا أنها تضم كثيرا من الوديان والواحات الخصبة أهمها وادى حنيفة ووادى الرمة وبدايته قريبة من المدينة المنورة وتبلغ مساحة هذه المنطقة أكثر من عشرة آلاف ميل » وهى تتكون من سلسلة مناطق واقعة عند أطراف جبل طويق وتمتد سلسلة من البلدان والقرى من سدير فى الشمال وتنتهى فى الجنوب إلى وادى الدواسر، ومجموعة المناطق الخصبة تحيط بها الدهناء شرقا وجنوبا، والنفود، والمنحدرات من الشمال ومنحدرات من الغرب » (١).

ويفصل إقليم نجد عن الأحساء الواقعة على الخليج العربى مرتفعات الصمان ورمال الدهناء ومع اتساع هضبة نجد فإن القسم المأهول منها « لا يتعدى سلسلة ضيقة من الواحات ممتدة على شكل هلال تحف بها الرمال من كل جانب، وتفصل ما بينها أحيانا، فهى محدودةمن الجنوب بصحراء الربع الخالى ومن الشرق بالدهناء ومن الشمال بالنفود الكبير ومن الغرب بأنفاد السرو والبطرا وقنيفذة الخ » (٢).

والمنطقة بصفة عامة صحراوية. وحيث توجد الآبار بقدر كاف من الماء ظهرت مدن وقرى تحاط بالبساتين، وهذه على أية حال كثيرا ما تكون متباعدة بحيث تبدو مجرد نقط على خريطة بلاد العرب، ودون أن تربط بعضها ببعض منطقة زراعية (٣).

١- حافظ وهبة : جزيرة العرب في القرن العشرين ص ٣.

٢- د. عزة النص : أحوال السكان فى العالم العربى ص ٦٥.

٣- الليدى أن بلنت ترجمة محمد أنعم غالب : رحلة إلى بلاد نجد ص ٢٠٧.

ومن أهم واحات نجد القصيم والسدير والحوطة والحريق ووادى الدواسر والجوف والوشم التى عاصمتها شقراء مركز التجارة بين بلاد العرب وكل من الهند وسوريا والعراق، وواحة المحمل، والعارض ومركزها مدينة الرياض. وتعتبر واحة العارض التى عرفت قديما باليمامة قلب هضبة نجد ومن بلادها إلى جانب الرياض مدينة الدرعية منبت آل سعود ومركز إمارتهم، والعمارية والعيينة والجبلة، ومن واحات نجد أيضا الخرج وجبل شمر الذى يعتبر متمما لهضبة نجد وسمى بذلك لأن قبائل شمر تسكنه وتعمل بالزراعة نظرا لتوفر المياه وخصوبة الأرض.

وإذا كانت نجد تعيش طبيعيا بهذه الصورة الصحراوية بكل ما تشتمل عليه من صحراء ووديان وواحات، فإن تأثير السكان بهذه الظروف الصحراوية واضح ويتضح أكثر بذكر مناخ هذا الإقليم . فالحرارة تشتد فى النهار والبرودة تزداد ليلا ، والجوجاف، والأمطار قليلة بصفة عامة وأكثر مناطق نجد حظا فى الأمطار مناطق جبال شمر والنفود الشمالى، بينما الصحراء الجنوبية تكاد لا تسقط بها الأمطار .

وتبعا لذلك فإن سكان نجد ينقسمون إلى قسمين رئيسيين بدو وحضر فالبدو هم القبائل الرحل الذين يتنقلون من جهة إلى أخرى فى طلب المراعى لأغنامهم وهم لا يميلون إلى الاستقرار، وكثيرا ما يلجأون إلى التقاتل من أجل حصولهم على أماكن غنية بالعشب لرعى ماشيتهم، أما الحضر فهم المستقرون فى الواحات والقرى والمدن ويشتغلون بالزراعة والتجارة ويهتمون بالعلم، وإن كانت لهم صلات تجارية واجتماعية مع البدو.

وأما بالنسبة لمركز انبعاث الدعوة الوهابية فإن هذا المركز يتمثل فى رأيى فى بلدة العيينة التى ولد بها محمد بن عبد الوهاب وبلدة الدرعية مقر إمارة آل سعود الذين ساندوا الدعوة الوهابية. أما بلدة العيينة فهى من بلاد إقليم أو واحة العارض التى قلبها وادى حنيفة وهى بلدة يشتهر أهلها بالزراعة كما يهتمون بالعلم وهى بلدة صغيرة نوعا وأما بلدة الدرعية فتقع غربى مدينة الرياض وتبعد عنها بحوالى ١٢ ميلا وهى فى الجهة الشمالية من وادى حنيفة وبها كثير من أشجار النخيل والفاكهة يرويها عدد كبير من الآبار غزيرة المياه، وأشهر ضواحيها الطريف فى الجهة المقابلة من الوادى ومريحة والعصيبة (١).

١- حافظ وهبة : نفس المرجع ص ٥٠.

ومن البديهى أن تكون هناك ظروف تعيش فيها نجد بل وشبه الجزيرة العربية تماثل ظروف العالم العربى الإسلامى تستدعى قيام حركة إصلاح كحركة محمد بن عبد الوهاب وغيرها من حركات الإصلاح أى أن توفر ظروف معينة يعتبر سببا وجيها لقيام دعاة الإصلاح لتحسين ظروف أهل البلاد إلى ما هو أحسن، وما دمنا بصدد الحديث عن الظروف التى دعت إلى ظهور محمد بن عبد الوهاب بدعوته فإننا سوف نتناول الظروف الاجتماعية والسياسية والدينية التى عاشتها نجد وبلاد العرب بصفة عامة التى دعت محمد بن عبد الوهاب إلى إعلان دعوته الإصلاحية.

الظروف الإجتماعية :

تأثرت الظروف الإجتماعية لأهالى نجد بطبيعة الأرض التى يعيشون عليها وهى أرض صحراوية تقام فى أنحاء متفرقة منها عدة مدن صغيرة حول آبار للمياه وبالقرب من الواحات. ومن ثم وجدنا السكان ينقسمون إلى بدو وحضر، فالبدو رحل يتنقلون بأغنامهم وإبلهم وراء المراعى، ومن ثم يتميزون بالخشونة فى طباعهم، والاستعداد الدائم للقتال من أجل المراعى والمياه.

وكانت مسألة توفر المراعى والمياه للأبل والأغنام لا تحدث إلا بالرحلة والضرب فى المناطق النائية، ولذلك صار كل تنظيم سياسى قائم على الاستقرار فى السكن أمرا متعذرا على البدوى، والصلة الدموية وحدها التى تعين الفلك الذى تضطرب فيه حياة البدو فهى تربط الأسر بالعشائر والعشائر بالقبائل (١).

والقسم الثانى من سكان نجد هم سكان المدن والواحات والقرى وهم أكثر استقرارا من البدو، وإن كانوا فى الأصل من البدو وتوطنوا فى مساكنهم من قديم (٢). والحضر يشتغل معظمهم بالتجارة إلا أن التجارة فى الفترة السابقة لقيام الدولة السعودية ودعوة محمد بن عبد الوهاب - فقدت أهميتها كمورد رزق لبعض سكان نجد نظرا لفقدان الأمن وعدم استقرار النظام وانتشار الفوضى (٣).

١- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص ١٧.

٢- حافظ وهبة : المرجع السابق ص ٤٦.

٣- عبد الرحيم عبد الرحمن : الدولة السعودية الأولى ص٩ .

وسكان نجد من البدو والحضر ينتظمون فى قبائل تحكمها العرف والتقاليد المتوراثة. فإذا كانت القبائل البدوية سمتها عدم الاستقرار والتقاتل والإغارة على من جاور هم أو الهجرة إلى أرض جديدة. فإن الحضر انتظموا فى مجموعة من الإمارات أو المشيخات التى تتفق مع القبائل البدوية فى الطباع الصحراوية حيث عاد السكان إلى مفاهيم الحياة البدوية الجاهلية التى كانوا عليها قبل الإسلام وعادت العصبيات القبلية تمزق المجتمع وتفتته. وعاد الغزو والسلب والنهب ليكون مصدر العيش فى الصحراء (١).

ورغم ذلك فقد بقيت عند أهل نجد عادات العرب الأصيلة مثل المروءة والشجاعة، فمن ذلك أن الحماية تمنح للمسافر الغريب طوعا وعن طيب نفس، وقد يضم أحد أفراد القبيلة رجلا غريبا إلى عشيرته ضما لا انفصام له (٢) هذا إلى جانب علاج الخلافات اليومية عن طريق المجالس اليومية، والطاعة لشيخ القبيلة والإستماع إلى من هم أكبر سنا واحترام مجلسهم، والتضحية بالروح أثناء الحرب وبالأموال أثناء السلم. وهم على العموم كما ذكر أحمد بن سعيد البغدادى فى كتابه نديم الأديب فى حديثه عن أهل نجد فى تلك الفترة : ولئن كان بقايا من عوائد العرب القديمة وسننهم فهى عندهم (٣).

وأما قبائل وعشائر نجد فإنهم كانوا موزعين على النحو التالى : أهل حايل ينتمى أكثرهم إلى شمر. وأهل القصيم يرجعون فى الغالب إلى بنى خالد وبنى تميم، وأهل الجنوب ينتمون فى أنسابهم إلى عنزة، وأهل الوسط إلى الدواسر وبنى تميم، وأهل الجنوب الغربى ينتمون إلى الدواسر وقحطان (٤).

والتنظيم القبلى كان يعطى لشيخ القبيلة السلطة الكاملة على كل أفراد قبيلته وهو فى العادة أكثر أفراد قبيلته ثروة وأكبرهم مركزا وسنا فى الغالب، ولذلك يعد المسئول عن كل ما يلحق بقبيلته من إغارات القبائل الأخرى إلى جانب مسئوليته عن تنظيم الأمور المتعلقة بأفراد قبيلته مهما سكنوا فى مناطق متفرقة أو فى قرى وواحات متباعدة، ومهما اختلفوا من حيث الثراء، أو فى درجة التحضر، فالكل أمام عرف وتقاليد القبيلة سواء.

١- أحمد عسه: معجزة فوق المال ص ١٢.

٢- كارل بروكلمان : نفس المرجع ص ١٧.

٣- عبد الكريم الخطيب : الدعوة الوهابية ص ٤٢.

٤- حافظة وهبة : نفس المرجع ص٤٧ .

الظروف السياسية :

كانت الأحوال السياسيــة لمنطقة نجــد فى فترة ظهور دعــوة محمد بن عبد الوهاب تتمثل فى وجود عدة إمارات صغيرة تتخذ كل إمارة منها مقرا لهــا فى بلدة ولها أميرها الذى هو فى نفس الوقت زعيمــا لعشيرة أو رئيســا لقبيلــة له الكلمة النافذة على أهل إمارته.

ومن الثـابت أن إقليم نجد لم يخضع للحكم العـثمـانى كما خضع أطرافه فى الحـجاز والاحساء مثلا، ومن ثم لم يشهد الاقليم ولاة عثمانيين يأتون إليه ولا حامية تركية تجوب خلال ديــاره (١)، ولقد تركت الدولة العثمانية هذا الإقليم لأهلــه يحكمونه بالطريقة القبلية المألوفة طالما لا يعلن أهلــه العداء للدولــة. كما أن الإقليــم كان فقيرا فلم يكن مغريا للعثمانيين .

وأما الإمارات القائمة فى إقليم نجد فقد سادتها علاقات الصراع من أجل البقاء وكثيرا ما كانت الحـروب تنشب بينهـا . وتكاد كل إمارة منهـا أن تكون منعزلة عن غيرهـا لا تربطهـا بها روابط سياسية معينة بحكم تجاورها، ولم تكن الروابط التى تجمعها سوى العلاقات التجارية، والجوار، ووحـدة الأصل ، وأشـهر الأسـر النجدية الحـاكمـة فى ذلك الوقت هى آل معـمـر فى العـيــينة، ودهـام بــن دواس فى الريـــاض وآل زامـــل فى الخــــرج، وآل ســعــود فى الدرعية(٢).

والأسرة السعودية تنتسب إلى قبيلة عنزة التى تعتبر من أكثر القبائل العربية عددا وفروعا وانتشـارا فى نجد والعراق وبلاد الشام، وقبل ارتباط هذه الأسرة بزعامة أميرها محـمد بن سعود بمحـمد بن عبد الوهاب لم يكن لآل سـعود شـأن كبـير فى نجد، ولم يكن لهم تأثـير يذكـر فى شـئون الجزيرة العربيـة، بل كـان شـأنهم شـأن غـيرهم من شـيـوخ المقـاطـعـات النجدية(٣).

الظروف الدينية :

كانت بيئة أهل نجد قد سيطرت عليها البدع والخرافات اللتين امتزجتا بالنفس وأصبحتا جـزاء من عقـيدة الإسـلام، والدين منها براء. ومن ثم فـإن الدين قـد غشـيتـه غشـيـة سـوداء.

١- ساطع الحصرى : الدولة العثمانية والبلاد العربية ص ٢٣٩.

٢- د. عبد الرحيم عبد الرحمن : نفس المرجع السابق ص ١٣.

٣- حافظ وهبة : المرجع السابق ص ٢١٠.

فالبست الوحدانية التى علمها صاحب الرسالة - محمد بن عبد الله - الناس سحبا من الخرافات، وكثر عدد الأدعياء الجهلاء الذين يخرجون من مكان إلى مكان يحملون فى أعناقهم التمائم والتعاويذ والسبحات. فلو عاد صاحب الرسالة إلى الأرض فى ذلك العصر ورأى ما كان يدعى الإسلام لغضب وأطلق اللعنة على من استحقها من المسلمين. كما يلعن المرتدون وعبدة الأوثان (١).

وقد انغمس الناس وأسرفوا فى تلك البدع والخرافات التى تمثلت في الحج إلى القبور للتبرك وقضاء الحاجات وتفريج الكروب، والتبرك بذكر للنخيل أو شجرة فى نجد تسمى شجرة الذيب أو غار فى أسفل الدرعية، أو زيارة الدجالين الذين يدعون القدرة على إجابة المطالب. وهذه المطالب كثيرة كالرغبة فى إنجاب البنين، أو الإنجاب للعواقر، أو الزواج للعوانس، ولطول العمر وغير ذلك من الأساطير والخرافات التى نسجت حول هذه الأشياء والأماكن والأشخاص.

ولم تكن نجد تنفرد بمثل هذه الخرافات والبدع، فقد شاركتها فيها بقية أجزاء شبه الجزيرة العربية وغيرها من الأقطار الإسلامية التى تعرضت لمثل ظروف شبه الجزيرة العربية وأعْنى الظلم والفقر والجهل. وهى ظروف ساعدت على كثرة الدجالين وأصحاب البدع ممن يجدون لبضاعتهم سوقا رائجة فى دنيا العوام وأشباه العوام، فهذه هى الفرصة السانحة لطلاب الصيد فى الماء العكر، فما للدجالين والمغامرين مرعى أخصب من هذا المرعى الذى يخيم عليه الجهل والفقر (٢).

ونتيجة لذلك فقد كان التدهور فى المجتمع الإسلامى يسير بسرعة حتى أصبحت الصفات التى أكسبها الإسلام لمجتمع شبه الجزيرة العربية قد اضمحلت واندثرت أو كادت واحتلت الضلالات والبدع والخرافات والأساطير فى نفوس العامة وغير العامة محل القيم الصحيحة للإسلام ومبادئه حتى أصبحت بعض الأشجار والكهوف والمغاور والقباب والقبور والأضرحة موضع قداسة وشفاعة أقرب إلى العبادة، وحتى أضحت تعاليم الإسلام التى تضبط المجتمع وتحكم روابطه نسيا منسيا حتى كأن الإسلام لم يظهر فى شبه الجزيرة العربية ولم يترك أثرا حضاريا لا على رمالها ولا عقول أبنائها ونفوسهم.(٣).

١- لو ثروب ستودارد ترجمة عجاج نويهض : حاضر العالم الاسلامى ج ١ ص ٢٥٩ .
٢- عبد الكريم الخطيب : المرجع السابق ص١٣-٣٢ .
٣- نفس المرجع .

كانت تلك أحوال المسلمين فى نجد قبيل قيام الإمام محمد بن عبد الوهاب بالدعوة لأفكاره ومبادئه، وهى أحوال كانت فى حاجة إلى مصلح بل إلى مصلحين، وبالفعل ظهر هؤلاء المصلحون منذ القرن العاشر الهجرى (الخامس عشر الميلادى)، وكانوا من فقهاء مذهب أحمد بن حنبل الذى كان سائدا فى اقليم نجد وليس أدل على ذلك من أنه لم تذكر ترجمة لقاضى من قضاء إمارات نجد إلا ومن بين أوصافه الحنبلى ولم يذكر عالم حنبلى فى القاهرة أو دمشق دون أن يكون من بين أساتذته أو تلاميذه أحد النجديين (١) .

وكان من معتنقى مذهب أحمد بن حنبل القاضى عبد الوهاب بن محمد بن سليمان ابن على التميمى والد محمد بن عبد الوهاب، حيث كان بيت هذه الأسرة ملتقى لطلاب العلم الراغبين فى دراسة مذهب أحمد بن حنبل. الذين استندوا فى دراسة هذا المذهب على مؤلفات العلامة ابن تيمية التى وجدت طريقها إلى نجد بصورة كبيرة والتى كان لها تاثير كبير على الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذى عكف على دراستها واعتناق آراء صاحبها منذ فترة مبكرة وقبل قيامه بالرحيل لطلب العلم خارج نجد (٢).

محمد بن عبد الوهاب

ولد محمد بن عبد الوهاب طبقا للرأى الأرجح عام ١١١٥هـ الموافق عام ١٧٠٣ ببلدة العيينة التى تقع بالقرب من مدينة الرياض، وكانت تلك البلدة تحت إمارة عبد الله بن محمد من آل معمر الذين كانوا خاضعين لنفوذ حاكم الأحساء، وكان الشيخ عبد الوهاب والد محمد يعمل وقتها قاضيا لبلدة العيينة وهو فى نفس الوقت متفقه فى مذهب أحمد بن حنبل الذى كان يقوم بتدريسه مع الحديث والتفسير لطلاب العلم الذين يمضون الوقت فى جدال فقهى أو نقاش دينى، وكان الطفل – محمد – وقد شب وأصبح صبيا، يحلو له أن يراقب مجلس أبيه عن كثب فينصت لأحاديث القوم ومجادلاتهم (٣).

وصاحب الدعوة هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن على بن محمد بن أحمد ابن راشد التميمى عربى خالص العروبة فى دمه وفى لسانه وفى عواطفه وفى بيئته، فهو ينحدر

١-د. صلاح العقاد : دعوة حركات الاصلاح السلفى المجلة التاريخية ج ٧ ص ٨٧.

٢- د. عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ص ١٢.

٣- د. عبد الحميد البطريق : الوهابية دين ودولة، بحث منشور بمجلة كلية البنات سنة ١٩٦٤ ص

من أصول عربية تنتهى به إلى مضر، وهو بطن من بطون تميم أكبر القبائل العربية وأعزها[١] وقد كان بيت والده بيت علم ودين، ولم يلحظ عليه أبوه ومعلمه فى طفولته إلا تفتحا مبكرا فى عقله ونموا مبكرا فى جسمه حتى أنه استظهر القرآن وهو فى العاشرة من عمره، وبلغ مبلغ الرجال وهو فى الثانية عشرة، فزوجه أبوه، وجعله يؤم المصلين، وأخذ يسترشد بآرائه فيما يعترضه من فتاوى ومسائل فقهية (٢). حتى كان والده يقول عن ابنه : لقد استفدت من ولدى محمد فوائد شتى فى الأحكام (٣).

ولقد تأثرت شخصية الإمام محمد بن عبد الوهاب فى مكوناتها من عدة عوامل أولها نشأته فى بيت يشتغل أهله أبا عن جد بالعلوم الدينية ومن ثم نشأ واسع الثقافة وسبق زملاءه من الصبيان بما اتصف به من سرعة الحفظ والإدراك والقدرة على الفهم. كما كان من عوامل التأثير فى مكونات شخصيته تأثره بمذهب الإمام أحمد بن حنبل وهو المذهب الذى وجد أسرته تعتنقه وتدرسه وتفتى فيه بل تقضى على أصوله، وامتلأت خزانة كتب الأسرة بمؤلفات العلامة أحمد بن تيمية وابن قيم الجوزية وغيرهما من مدرسة ابن حنبل، ومن ثم فان محمد بن عبد الوهاب انصرف عن الفقه الجدلى والفلسفى إلى تناول الدين من قريب، وفهم أصوله من كتاب الله وسنة رسوله.

ويمكن أن نحدد الأساتذة الذين سبقوا محمد بن عبد الوهاب والذين يرجع إليهم الفضل فى إقامة منهج البحث الفقهى على النظر القريب دون تأثر بالفلسفة والجدل الكلامى وهم الأساتذة الذين تأثر بهم محمد بن عبد الوهاب وعلى رأسهم : الحسن البصرى الذى كان يعرف بشيخ المتبعين الذى يمثل مذهب السنة المقابل للمعتزلة الذين نحوا نحوا فلسفيا فى النظر والتفكير فى أمور الدين . ومن هؤلاء الأساتذة كذلك أحمد بن حنبل صاحب المذهب الرابع من مذاهب أهل السنة وأكثرها تشددا، وابن تيمية، وابن قيم الجوزية وغيرهم ممن تابعوا شيخ المذهب الامام أحمد بن حنبل (٤).

١- عبد الكريم الخطيب : المرجع السابق ص ٤٥ .

٢- أحمد عسه : المرجع السابق ص ١٢ - ١٣.

٣- حسين بن غنام : تاريخ نجد ص ٧٥.

٤- د. حسن محمود : المملكة العربية السعودية ص ٥٩ .

ومن العوامل ذات الأثر على مكونات شخصية الإمام محمد بن عبد الوهاب كذلك طبيعة البيئة التى نشأ فيها. وهى بيئة صحراوية بدائية ليس فيها مجال للتعقيد ولكنها بيئة واضحة مكشوفة، والناس فيها على الفطرة ومن السهل أن ينقادوا إلى البدع والخرافات إذا لم يوجد من يأخذ بيدهم ويبصرهم بحقيقة وبساطة الدين الإسلامى ويوضح لهم بأسلوب سهل غير معقد خطأ الوقوع تحت تأثير الدجالين والاستمرار فى اتباع تيار التقاليد المتوارثة والمخالفة لجوهر الدين الإسلامى.

وكانت الرحلات التى قام بها الإمام محمد بن عبد الوهاب ذات تأثير على أفكاره وشخصيته، وإذا تذكرنا القول المأثور بأن السفر فيه خمس فوائد، فإن رحلات محمد بن عبد الوهاب كانت مدرسة نافعة له، فقد وسعت من أفقه ونبهته إلى الأخطاء الشائعة فى العالم الإسلامى، وجعلته يصمم على القيام بدعوته الإصلاحية وفق ما استفاده بها من الدراسات العلمية والأخذ عن مشاهير العلماء فى مختلف العواصم الإسلامية (١).

وكانت أولى رحلاته خارج نجد إلى الحجاز حيث أدى فريضة الحج وزار قبر الرسول عليه الصلاة والسلام بالمدينة المنورة، واجتمع هناك إلى فقهاء وعلماء من مذاهب سنية متنوعة، ورأى ما يحدث أمام قبر الرسول عليه الصلاة والسلام من بدع، ومن العلماء الذين التقى بهم العلامة عبد الله بن إبراهيم بن سيف أخذ عنه الشيخ الإمام - محمد بن عبد الوهاب - ولازمه مدة، وقد سأله تلميذه الشيخ عما يفعل حول قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم من النداءات الشركية وطلب الغوث وطلب الشفاعة - فأجابه بقوله : إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون (٢).

كما التقى فى المدينة المنورة بالعلامة أبى المواهب البعلى الدمشقى، والعلامة محمد حياة السندى المدنى، وغيرهم من مدرسة أحمد بن حنبل وعنهم أخذ الإمام محمد بن عبد الوهاب الكثير من مسائل الفقه القائم على النظر فى كتاب الله وسنة الرسول بقلب سليم وعقل واع.

وكانت رحلته الثانية إلى العراق حيث زار بغداد ومكث بالبصرة أربع سنوات حيث تعلم فيها علمى اللغة والحديث على يد عالم بصرى، وأثناء إقامته بالبصرة شاهد ما يفعله غلاة الشيعة عند قبور وأضرحة الأولياء وآل البيت من تقديس وأعمال تدل على الجهل والضلالة،

١- عبد الكريم الخطيب : المرجع السابق ص ٥٥ - ٥٦ .

٢- الشيخ عبد العزيز آل الشيخ : تعقيب على كتاب الدعوة الوهابية لعبد الكريم الخطيب ص ٤٧ .

فأخذ ينتقد هذه الأعمال حتى ضاق به أهل البصرة واستنكروا صراحته فى نقد أفعالهم المنافية لجوهر الدين الإسلامى فأخرجوه من بلدهم فحدثته نفسه بالذهاب إلى الشام ولكن ضيق ذات اليد جعله يعدل عن فكرته هذه وينتجه إلى نجد حيث بلدة حريملا التى كان والده قد انتقل إليها (١).

ورغم خروج الإمام محمد بن عبد الوهاب من البصرة مطرودا فقد درس الكثير من كتب اللغة والحديث وأفتى بما يراه صحيحا فيما عرض عليه من أمور فيذكر أن أناسا من مشركى البصرة يأتون إلى بشبهات يلقونها على فأقول وهم قعود لدى، لا تصلح العبادة كلها إلا لله. فيبهت كل منهم فلا ينطق فاه (٢).

وعاد الإمام محمد بن عبد الوهاب إلى نجد من رحلاته خارجها وقد اتسعت ثقافته وزادت تجاربه واكتمل نضجه إذ كان عمره أنذاك خمس وثلاثون سنة ليعتكف على المزيد من كتب الفقه والتفسير والحديث. ثم يخرج إلى الناس بدعوته إلى التوحيد وترك ما هم فيه من بدع وضلالة.

أسس الدعـوة

لايمكن لنا الخوض فى تفصيل أسس الدعوة ومبادئها التى أعلنها الامام محمد بن عبد الوهاب دون الحديث عن جهود العلامة أحمد بن تيمية فى مجال التوحيد مما يؤكد امتداد مبادىء العالمين وارتباطها بل ووحدتها، وأيضا تناول موضوع الدعوة وأصل تسميتها .. فلم يكن يعلم ابن تيمية ذلك المصلح العظيم الذى أيقظ العقول وبعث الفكر العربى الأصيل فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى أن الله سيهيىء لتعاليمه رجلا فى قلب الصحراء العربية اسمه محمد بن عبد الوهاب يحيى هذا التعاليم ويعمل على تحقيقها (٣).

عاش أحمد تقى الدين بن تيمية الدمشقى فى القرنين السابع والثامن الهجريين (٦٦١ – ٧٢٨ هـ) الموافق للقرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين (١٢٦٣ – ١٣٢٨ م) . أى فى الفترة التى شهدت هجمات التتار على أقطار المشرق العربى، وقد درس الفلسفة اليونانية والعربية والقرآن الكريم وأصول الشريعة الإسلامية والفقه على مذهب أحمد بن حنبل.

١– د. عبد الحميد البطريق : المرجع السابق ص ٤٢.

٢– حسين بن غنام : المرجع السابق ص ٢٨.

٣– د. محمد بديع شريف : دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة ص ١٨.

وكانت دراسته ومعايشته لما أصاب الأمة العربية الإسلامية على يد التتار سببا لكى يدرك أن ما أصاب أمة العرب ما كان ليصيبها لو ظلت وفية على تمسكها بمبادىء الإسلام الأولى ولم يتأثر المسلمون بمبادىء الباطنية والقرامطة وغيرهم من الفرق المبدعة للضلالات والخرافات التى لحقت بالعقيدة الإسلامية.

فالباطنية اتخذت ما عرف بمبدأ الإشراق الإلهى : الذى كان ركنا ركينا فى مبادئها، ومعناه أن المعرفة تشرق على أئمتهم فتسمو بهم إلى مرتبة لا ينالها غيرهم. أى أن الله يفيض عليهم نور المعرفة فتتكشف لهم الحقائق فيعرفون بواطن الأمور وظواهرها. وفرقة النصيرية أعانت التتار على محو الإسلام (١)، ونتيجة لذلك رأى ابن تيمية الجهلة من عامة الناس ينحتون فى الصخور أقداما وأكفاً يدعون أنها للنبى محمد عليه الصلاة والسلام فيقدسونها ويتبركون بها أو يصنعون أصناما يسجدون لها.

هال العلامة ابن تيمية ما آل إليه حال الأمة العربية الإسلامية فوجه هجومه إلى خصوم العقيدة الإسلامية الصافية من الحكام والفقهاء وأهل الزهد والصوفيين، ودعاهم إلى (٢) : -

١ - الرجوع إلى الكتاب والسنة واتباع السلف الصالح فى فهم الآيات والأحاديث وترك طريق الفلاسفة والمتكلمين والصوفية حيث أنها لا تتفق مع الروح السلفية القديمة .

٢ - محاربة البدع والمنكرات ولا سيما ما كانت وسيلة للشرك بالله كالتمسح بالقبور والصلاة عندها وطلب الحاجة منها، والاستعانة أو الاستغاثة بغير الله والتبرك بالأشجار والأحجار التى يعتقد فيها العامة الخير أو دفع الشر.

٣ - ترك الغلو فى تقديس الرسول صلى الله عليه وسلم والاكتفاء بالاهتداء بهديه.

٤ - فتح باب الاجتهاد على مصراعيه، وعدم التقليد الممقوت. بل إن الكتاب والسنة وآثار السلف من الصحابة هى المصدر الأساسى لكل مجتهد يستطيع عن طريقها الاهتداء إلى الرأى الصائب حتى ولو خالف رأى الأئمة الأربعة (٣).

١- د. محمد بديع شريف : نفس المرجع ص ٩.

٢- حافظ وهبة : نفس المرجع ص ٢٩٠.

٣- د. عبد الرحيم عبد الرحمن : نفس المرجع ص ٢٤.

٥ - لعن من اتخذ القبور مساجد. فقد ورد نهيه صلى الله عليه وآله وسلم عن اتخاذها مساجد، ولعن من يفعل ذلك وقد ذكره غير واحد من الصحابة والتابعين وكان العكوف على القبور والتمسح بها وتقبيلها والدعاء عندها وفيها ونحو ذلك هو أصل الشرك وعبادة الأوثان ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم : اللهم لاتجعل قبرى وثنا بعدى [(١)].

وقد أثارت دعوة ابن تيمية عليه أرباب الطرق الصوفية والفلاسفة والمتكلمين المتعصبين، وأكثرهم من ذوى المناصب والنفوذ في مصر والشام حتى استدعى إلى مصر وطبق عليه الخناق ولكن مريديه ظلوا على صلة به إلى أن عاد إلى دمشق بعد أن غاب عنها سبع سنوات، وفيها أستأنف الشيخ دعوته الإصلاحية بنشاط وعكف على نشر دعوة التوحيد ومقاومة المبتدعة والرجوع إلى الكتاب والسنة [(٢)].

وكان من الطبيعى أن يستمر الرجعيون والمضللون فى عدائهم للإمام أحمد بن تيمية، ونتيجة لدسائسهم عند رجال الحكم سجن ابن تيمية أكثر من مرة حتى توفى بالسجن فى قلعة دمشق عام ٧٢٨هـ الموافق ١٣٢٨م ، وبموته خفتت دعوته بسبب ملاحقة الحكام لتلاميذه، ولكنها أحييت على يد الإمـــام محمد بن عبد الوهـــاب بعد أربعة قرون فى نجد.

وإذا كانت مبادىء دعوة العلامة أحمد بن تيمية تستند إلى فقه الإمام أحمد بن حنبل، فقد تأثر الإمام محمد بن عبد الوهاب بآراء وعلم الرجلين، والواقع أن دراسته لآراء هذين الإمامين انتهت به إلى الإيقان من أن الإسلام فى شكله السائد فى عصره - وبخاصة بين الأتراك - مشرب بالمساوىء التى لاتمت إلى الدين الصحيح بنسب [(٣)].

وجاءت مبادىء وأسس دعوة محمد بن عبد الوهاب مستندة إلى تعاليم ومبادىء أحمد بن حنبل وأحمد بن تيمية، ويؤيد ذلك أن مؤلفات وكتابات محمد بن عبد الوهاب تحتوى على كثير من الأسانيد التى ذكرها الإمامين فى شرح الفقه أو فى تفسير آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة.

وأما أسس ومبادىء دعوة محمد بن عبد الوهاب فيمكن أن نستعرضها فيما يلى :

١- ابن تيميـــة (تقى الدين أبـــى العباس أحمد بن تيمية) كتـــاب الزيارة من مجلد الجامع الفريد ص ٤٣٧.

٢- حافظ وهبة : نفس المرجع ص ٢٩٠.

٣- كارل بروكلمان : نفس المرجع ص ٥٤٩.

أولا : مبدأ التوحيد :

ذكر الإمام محمد بن عبد الوهاب في رسالة له إلى عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف قوله: إنى لم آت بجهالة بل أقولها ولله الحمد أن ربى هدانى إلى الصراط المستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين، ولست ولله الحمد أدعو إلى مذهب صوفى أو غيره بل أدعو إلى الله وحده لا شريك له وأدعو إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم التى أوصى بها أول أمته وآخرهم(١).

وهذا المبدأ يثير تساؤلا حول أصل وحقيقة تسمية دعوة محمد بن عبد الوهاب إذ الواضح من البداية أن الدعوة ليست مذهبا جديدا كمذاهب السنة الأربعة، كما أن تسميتها بالوهابية ليس سوى من قبيل إظهارها بمظهر الحركة الفردية المرتبطة بابن عبد الوهاب وليست حركة عامة، وقد أطلق الأتراك هذه التسمية عليها فى هجومهم عليها وعلى صاحبها بل غالوا فى ذلك وأطلقوا على أتباع الدعوة الروافض والخوارج، حتى أن الوثائق الرسمية المتبادلة بين محمد على والباب العالى تنعت الأمير السعودى الذى يعمل على نشر مبادىء الدعوة السلفية باسم الخارجى (٢).

وإذا كان الأتراك وخصوم الدعوة قد نعتوها باسم الوهابية وأتباعها بالخوارج والوهابيين فإن أنصارها وصفوها باسم دعوة التوحيد وأطلقوا على أنفسهم ألقاب الحنابلة والإخوان والسلفيين، ومهما كان تطرف الخصوم فى التسمية أو إسراف الأنصار فى التعريف بالدعوة وبأنفسهم فإننا نفضل أن نطلق على الحركة اسم دعوة التوحيد، وذلك استنادا إلى ما جاء برسالة محمد بن عبد الوهاب سالفة الذكر إلى عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف من أنه يدعو إلى الله وحده لا شريك له، وإلى أنه ينبه الأذهان إلى حكمة عبارة « لا إله إلا الله ».

فماذا يعنى مبدأ التوحيد عند الإمام محمد بن عبد الوهاب إذن ؟

يمكن أن نقف على حقيقة هذا المبدأ الذى دعا إليه الإمام محمد بن عبد الوهاب من كتبه التى ألفها ورسائله التى بعث بها إلى من أنس فيهم خيرا،فإنه يذكر مثلا فى رسالة له إلى عبد الرحمن بن ربيعة : أن التوحيد الذى دعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم هو إفراد الله بالعبادة كلها ليس فيها حق لملك مقرب ولا نبى مرسل فضلا عن غيرهم فمن ذلك لا يدعى

١- حسين بن غنام : تاريخ نجد ص ٢١٥.

٢- د. عبد الرحيم عبد الرحمن : نفس المرجع ص ٢٥.

إلا إياه كما قال تعالى « وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا » فمن عبد الله ليلا ونهارا، ثم دعا نبيا أو وليا عند قبره فقد اتخذ إلهين اثنين، ولم يشهد أن لا إله إلا الله هو المدعو (١).

وذكر فى كتابه التوحيد أن الله ذكر فى قرآنه الكريم ما يؤكد عدم الشرك به كقوله. «وأعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا» وقوله . « قل هو الله أحد، الله الصمد لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد ». والرسول عليه السلام يقول : إذا سألت فاسأل الله، وفى حديث آخر قال : من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل ». وفى حديث عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : كنت رديف النبى صلى الله عليه وسلم على حمار فقال لى : يا معاذ أتدرى ماحق الله على العباد، وما حق العباد على الله ؟ قلت الله ورسوله أعلم، قال فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لايشرك به شيئا. قلت يا رسول الله أفلا أبشر الناس قال لا تبشرهم فيتكلوا »(٢).

ومن أقوال الإمام محمد بن عبد الوهاب تتضح حقيقة دعوة التوحيد بأن معنى لا إله إلا الله ترك كل معبود غير الله والتوجه إلى الله وحده، وأن العبادة إذا جعلت لغير الله صار ذلك الغير إلها مع الله وإن لم يعتقد الفاعل ذلك (٣) أى أن معنى لا إله إلا الله نفى صفة الألوهية عن كل المخلوقات وإثباتها لله وحده واعتمد الشيخ فى دعوته إلى التوحيد على الكتاب والسنة وآثار السلف (٤).

وسئل الإمام محمد بن عبد الوهاب عن معنى لا إله إلا الله فأجاب بقوله : اعلم رحمك الله تعالى أن هذه الكلمة هى الفارقة بين الكفر والإسلام وهى كلمة التقوى، وهى العروة الوثقى، وهى التى جعلها إبراهيم عليه السلام (كلمة باقية فى عقبة لعلهم يرجعون). وليس المراد قولها باللسان مع الجهل بمعناها ولكن المراد قولها مع معرفتها بالقلب، ومحبتها ومحبة أهلها وبغض من خالفها ومعاداته (٥).

١- حسين بن غنام : روضة الأفكار والافهام لمرتاد حال الامام المجلد الأول ص ٢٢٣.

٢- محمد بن عبد الوهاب : كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد ص ٢ - ٣.

٣- حافظ وهبة : نفس المرجع ص ٢٩٧.

٤- د. عبد الرحيم عبد الرحمن : ص ٢٦.

٥- محمد بن عبد الوهاب : ثلاثة عشر رسالة فى مجلد الجامع الفريد ص ٢٦٠

ولم يكن التوحيد الذى دعا إليه الإمام محمد بن عبد الوهاب مذهبا جديدا بل إحياء لمبدأ إسلامى كبير بعد أن أصبحت الأشواك تحيط به - بما تركته الفرق الإسلامية المختلفة كالباطنية والقرامطة وغيرهم من آثار امتد بها الزمن وطال حتى تمكنت من النفوس واستقرت فى قراراتها بحيث أصبحت عقائد لا يمكن تحويل الناس عنها : ورأى الأوثان والاصنام التى حطمتها عقيدة التوحيد قد عادت ثانية فصدع بقوله تعالى : إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء (١) وأن إصلاح الأحوال لا يتم إلا باتباع قول الله تعالى : إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

وتأكيدا للتوحيد، فقد دعا الإمام محمد بن عبد الوهاب المسلمين إلى معرفة تاريخ الأنبياء لأدراك تمسكهم بوحدانية الله، فقال : فاحرص يا عبد الله على معرفة هذا الحبل الذى بين الله وبين عباده، ما جرى لأبيك آدم وعدوك إبليس، وما جرى لنوح وقومه، وهود وقومه وصالح وقومه، وإبراهيم وقومه، ولوط وقومه ، وموسى وقومه، ومحمد صلى الله عليه وسلم وقومه، واعرف ماقص العلماء عن أصحابه أحوالهم وأعمالهم لعلك أن تعرف الاسلام والكفر، فإن الإسلام اليوم غريب وأكثر الناس لا يميز بينه وبين الكفر وذلك هو الهلاك الذى لا يرجى معه فلاح (٢).

ثانيا : محاربة البدع :

لا تستقيم دعوة التوحيد دون محاربة نواقضه. ولذلك حارب الإمام محمد بن عبد الوهاب البدع والضلالة بالاستغاثة بالأولياء والصالحين فقال : من الشرك الاستعاذة بغير الله أو الاستغاثة بغيره والاستشفاع بما سواه وأن الله عز وجل يقول : يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم . وفى الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قول الله تعالى : وقالوا لاتذرن آلهتكم، ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا. قال - أى ابن عباس - : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا فى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم، ففعلوا ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسى العلم عبدت. وعن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم وإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله(٣).

١- د. محمد بديع شريف : المرجع السابق ص ١٩.

٢- محمد بن عبد الوهاب : مختصر سيرة الرسول ص ٦ .

٣- محمد بن عبد الوهاب : كتاب التوحيد . ص ٤٩ - ٥٠.

ويؤكد الإمام محمد بن عبد الوهاب أن زيارة القبور والتماس البركات من أصحابها ليس كما يدعى المضللون للتقدير والاحترام، لأنه إذا جاز هذا فى حق الأحياء فلا يجوز فى حق الأموات، وأن الموتى قد انقطع ما بينهم وبين الحياة والأحياء، وليس ثمة فرق بين من يرجو البركة عند قبر ولى وبين من يعبد وثنا، كلاهما قد جعل بينه وبين الله شفيعا يرجى. وما كان كفار قريش الذين حاربوا دعوة التوحيد إلا على هذه الصورة، كانوا يعتقدون أن الله هو الخالق العظيم ولكن هناك آلهة دون الله، يتصرفون وينفعون ويضرون، إن هؤلاء الآلهة هى الطريق إلى الله ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى (١).

ويضيف الإمام محمد بن عبد الوهاب إلى ذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام أخبر أمته بأنها تأخذ مأخذ القرون قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع، وثبت فى الصحيحين وغيرهما عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. فإذا عرف هذا فمعلوم ما قد عمت به البلوى من حوادث الأمور التى أعظمها الإشراك بالله والتوجه إلى الموتى وسؤالهم النصر على الاعداء، وقضاء الحاجات، وتفريج الكربات التى لا يقدر عليها إلا رب الأرض والسموات، وكذلك التقرب إليهم بالنذور، وذبح القربان، والاستغاثة بهم فى كشف الشدائد وجلب الفوائد إلى غير ذلك من أنواع العبادة التى لا تصلح إلا لله .. وأن ما حدث من سؤال الأنبياء والأولياء من الشفاعة بعد موتهم وتعظيم قبورهم ببناء القباب عليها وإسراجها والصلاة عندها واتخاذها أعيادا، وجعل السدنة والنذور لها، فكل ذلك من حوادث الأمور التى أخبر بها النبى صلى الله وعليه وسلم أمته وحذر منها، كما فى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا تقوم الساعة حتى يلحق حى من أمتى بالمشركين وحتى تعبد فئات - طوائف - من أمتى الأوثان (٢).

ولا يعنى ما ذكره الإمام محمد بن عبد الوهاب من دعوة لمحاربة التقرب لقبور وأضرحة الأنبياء والأولياء دعوته تنكر شفاعة النبى عليه الصلاة والسلام يوم القيامة، بل أن هذه الدعوى تعترف أيضا بشفاعة سائر الأنبياء والملائكة والأولياء أيضا، ولكن محبة الأنبياء والأولياء الصالحين ليست بالتوسل بهم، ولكن فى متابعتهم فيما كانوا عليه من الهدى

١- محمد بن عبد الوهاب : كتاب كشف الشبهات . ص ٢٢٠ - ٢٢٢.

٢- محمد كرد على : القديم والحديث ص ١٥٧ - ١٥٩، رسالة للامام إلى شيخ الركب المغربى فى موسم الحج.

والدين[١] . وأن تسأل الشفاعة من « المالك لها وهو الله، واذنه فيها لمن يشاء من الموحدين ، فقال : اللّهم شفع نبينا محمدا فينا يوم القيامة، اللّهم شفع فينا عبادك الصالحين أو نحو ذلك وأما مايجرى على ألسنة الناس من قولهم : يارسول اللّه أو ياولى اللّه أسألك الشفاعة أو غيرها كأدركنى أو أغثنى أو نحو ذلك فانه من الشرك، إذ لم يرد بذلك نص من كتاب أو سنة ولا أثر من السلف الصالح (٢).

وأكد الإمام محمد بن عبد الوهاب أن الشفاعة كلها لله تعالى كما جاء فى القرآن الكريم : قل لله الشفاعة جميعا، ولا تكون إلا من بعد إذن الله كما قال تعالى : من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه « ولا يشفع فى أحد إلا بعد أن يأذن الله فيه كما قال تعالى : ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » (٣).

كما درج الناس على تقديس قبور الموتى بتقديم القرابين والسبيل لهـا، وتجصيص (٤) القبور والكتابة عليها، وكل ذلك من الأمور المبتدعة، فإن النبى صلى الله عليه وسلم : حمى جنات التوحيد أعظم حماية وسد كل طريق يؤدى إلى الشرك، فنهى أن يجصص القبر وأن يبنى عليه، كما ثبت فى صحيح مسلم عن جابر وثبت فيه أيضا أنه بعث على بن أبى طالب رضى الله عنه وأمره ألا يدع قبرا مشرفا - عاليا - إلا سواه ولا تمثالا إلا طمسه (٥). لان ذلك مخالف لما أتى به الدين الإسلامى.

وإذا كانت محاربة الإمام محمد بن عبد الوهاب لتقديس القبور منصبة على البناء عليها بالجص، وما يفعله زائروها من بدع، وإقامة أضرحة وقباب ومساجد على هذه القبور، فإنه لا ينكر زيارة القبور ولكن بشرط أن تكون هذه الزيارة للدعاء للميت واتعاظ الزائر، على أن يراعى فيها الطريقة التى سنها النبى صلى الله عليه وسلم فى الزيارة (٦)، استنادا إلى قول الرسول الكريم : من يرد واعظا فالموت يكفيه.

١- حسين بن غنام : روضة الأفكار المسمى تاريخ نجد مجلد أول ص ٢١٣.

٢- حافظ وهبه : المرجع السابق ص ٢٩٧.

٣- محمد بن عبد الوهاب : كشف الشبهات فى التوحيد في مجلد الجامع الفريد ص ٢٣١.

٤- التجصيص يعنى البناء بالجص.

٥- محمد كرد على : نفس المرجع ص ١٦٠.

٦- حافظ وهبة : نفس المرجع ص ٢٩٧.

لقد نادى الإمام محمد بن عبد الوهاب بالجهاد فى سبيل نشر دعوته، فمن اتبع دعوته أى من آمن وطبق مبدأ التوحيد، وتجنب التشفع غير المشروع، وتجنب تقديس القبور سلم من الحرب المشروعة، ومن خالف هذه الدعوة، أصبح دمه وماله حلا للمجاهدين الموحدين، حتى يعود إلى طريق التوحيد الخاص. وفى ذلك يقول : هذا ما ندعو الناس إليه ونقاتلهم عليه بعد ما نقيم عليهم الحجة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وإجماع السلف الصالح من الأئمة ممتثلين بقوله سبحانه وتعالى : وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله. فمن لم يجب الدعوة بالحجة والبيان قاتلناه بالسيف والسنان، كما قال تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ». فهذا الذى نعتقده وندين به ، إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان والحج والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - فمن عمل بذلك فهو أخونا المسلم، له ما لنا وعليه ما علينا، ونعتقد أيضا أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم، المتبعين للسنة، لا تجتمع على ضلالة، وأنه لا يزال طائفة من أمته على الحق منصورة، لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله (١).

ولقد هاله أن يرى بعض المظاهر المبتدعة كخروج النساء خلف الجنائز إلى القبور والأسراف فى الاحتفالات السنوية بموالد الأنبياء والأولياء وما يحدث فيها من الدراويش من رقص وتمايل وشطحات وأذكار وغير ذلك من الأعمال المحرمة أصلا والتى تستحق المحاربة حتى ولو كانت خارج نجد، وعلى هذا الأساس كانت غزوات الإمام وأنصاره فى شبه الجزيرة العربية والعراق وسوريا، فكانوا عندما يدخلون بلدا بالمحاربة يعتبرونها حلال لهم إن أمكنهم البقاء بها لحقوها بأملاكهم، وإن لم يمكنهم البقاء اكتفوا بما يصل إلى أيديهم من الغنيمة، وهنا يجىء الخلاف بينهم وبين معارضيهم فإن غيرهم يقول إن من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله فقد عصم ماله ودمه، أما هم فيقولون إن القول لا عبرة به مالم يدعمه العمل، فمن قال لا إله إلا الله محمد رسول الله وهو لا يزال يدعو الموتى ويستغيث بهم ويسألهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات فهو كافر مشرك، حلال الدم والمال ولا عبرة بقوله، ولهم على هذا أدلة كثيرة من الكتاب والسنة (٢).

١- محمد كرد على : نفس المرجع ص ١٦١.

٢- حافظ وهبة : المرجع السابق ص ٢٩٨ - ٢٩٩.

وتطبيقا لهذا المبدأ فقد دعا وشارك الإمام فى هدم القباب وذلك بما فيها قبور الصحابة، وقطع ذكر النخيل الذى كانوا يتبركون به. وكذلك الشجر حيث أرسل الشيخ محمد بن عبد الوهاب من أتباعه من قطع مثل هذه الأشجار وبقيت شجرة واحدة بالعيينة كانت كبيرة وتعرف بشجرة الذيب لم يجرؤ أتباع الإمام الشيخ على قطعها لكثرة زوارها وقاصديها فخرج بنفسه وقطعها (١) كما أقام الحد على امرأة من بلدة العيينة اعترفت بارتكابها الزنا بعد أن تحقق من سلامة عقلها وصحة فعلتها فأشرك معه حاكم البلدة عثمان بن معمر فى رجمها.

ثالثا : فتح باب الاجتهاد :

ويقوم مبدأ الاجتهاد على الإبداع فى التشريع وإطلاق باب الاجتهاد على مصراعيه لكل مقتدر عليه مستوف لشروطه، لأن الله وحده هو الذى يحلل ويحرم، وعلى ذلك فكلام المتكلمين فى العقائد وكلام الفقهاء فى التحليل والتحريم ليس حجة علينا، والحجة الوحيدة هى فى القرآن والسنة، منهما تستنبط الأحكام وفيها فطنة العقائد (٢) ولكن الإمام محمد بن عبد الوهاب اعتبر الأئمة الأربعة مالك وأبى حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل هم وحدهم الذين تؤخذ أحكامهم دون المذاهب الدينية الأخرى كالمتصوفين والمعتزلة والشيعة وغيرهم.

وكان مذهب أحمد بن حنبل هو نبراس الإمام محمد بن عبد الوهاب وهديه فى استنباط الأحكام واتباع ما أخذ به صاحب المذهب، ولكن الإمام محمد بن عبد الوهاب أحيانا ما كان يخالف قدوته أحمد بن حنبل فى بعض المسائل التى يجمع عليها فقهاء المذاهب الثلاثة الآخرين كما كان له بعض مسائل اجتهادية مثل جعل دية المسلم ٨ ريال بدل مائة ناقة (٣).

أسلوب الدعـــــوة

لاشك أن موضوع الدعوة سليم غاية السلامة ولا أحد يستطيع أن ينكر ذلك أو يكابر فيه، ولكن أسلوب الدعوة واجه معارضة شديدة من خصوم دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب بل واستنكارا اضطر أتباعها إلى الرد تبريرا لأسلوب التطبيق العملى لمبادىء الدعوة، فنحن إذن هنا أمام اتجاهين متعارضين. اتجاه يهاجم دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب بسبب أسلوب تطبيق مبادئها. واتجاه يناصر الدعوة ويبحث عن تبريرات لهذا الأسلوب. فما هى الحقيقة ؟

١- د. حسن محمود : نفس المرجع السابق ص ٦٢.
٢- د. محمد بديع شريف : نفس المرجع السابق ص ١٩.
٣- حافظ وهبة : المرجع السابق ص ٢٩٩.

لعل التشديد فى الدعوة وتطبيق المبادىء بصورة جديدة وحازمة هو السبب فى وصف دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب بالعنف ومواجهة أحوال الناس التى درجوا عليها دفعة واحدة دون تدرج وكان أنصار الإمام قد فسروا تطبيق الدعوة بأنه عودة للإسلام الصحيح الذى بشر به الرسول صلى الله عليه وسلم، ويستشهدون فى ذلك بكثير من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة. من بينها ما روته السيدة عائشة أم المؤمنين عن الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله. لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

ولكن الدعوة فى حد ذاتها خلاصة صافية للرسالة الإسلامية وما أخذ عليها ليس فى المضمون وإنما فى الأسلوب، أى أن الموضوع مقبول تماما ولكن الشكل هو ما استهدف النقد،، ذلك أن الدعوة فى عدم اتباعها أسلوب التدرج والموعظة الحسنة قد أوجد أمام صاحبها من البداية اعتراضات بل ومحاربة، وأرجع المحاربون وقفتهم ضد أسلوب الدعوة إلى قول الله سبحانة وتعالى : ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتى هى أحسن ». صدق الله العظيم.

ذلك أن فى الناس جذورا عميقة من موروثات وتقاليد لا يمكن أن ينفصل عنها المرء بين يوم وليلة، وفي الناس توقير وتقديس للرسول الكريم ولكل أثر من آثاره ولو كان حفنة من تراب .. فلو أخذت الدعوة الأمر مأخذا هينا ودعت أول ما دعت إلى ترك البدع الصارخة كالزار والتمائم وغير ذلك مما كان يعيش عليه كثير من المسلمين فى ذلك الحين (١)، لكان بعدا بها عن المعارضة العنيفة التى لقيتها من البداية .

فإذا أضفنا إلى ذلك طبيعة أهل نجد البدوية وما اتصفوا به من شدة وغلظة ومحاربة وتقاتل إلى جانب الجهل الذى كان مخيما على عقولهم لأدركنا أهمية اتباع أسلوب التدرج فى نشر دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب لأنه الأسلوب المناسب لأناس هذه صفاتهم ولأدركنا كذلك كيف واجهت المتاعب الإمام فأخذ يتنقل من مكان إلى آخر بحثا عن سند له فى الدعوة وعن عون له فى تطبيقها بأسلوب الشدة الذى اتخذته.

ولقد ظهرت شدة الإمام محمد بن عبد الوهاب منذ فترة مبكرة وفى أثناء طلب العلم،فقد أنكر ما رآه فى المدينة المنورة من الأفعال التى يأتيها الناس عند قبر الرسول عليه السلام.

١- عبد الكريم الخطيب : نفس المرجع السابق ص ٩٤ - ٩٥.

وفى البصرة أعلن حربه على البدع التى يرتكبها أهلها وكان قاسيا على كل من يذكر اسم أحد الأولياء الصالحين محاطا بهالة من التقديس فأخرجوه من ديارهم مطرودا (١).

وعندما عاد من البصرة إلى حريملا بنجد يبث دعوته بين أهلها واشتد فى استنكاره لما وجده من بدع درج الناس عليها، اشتدت حملته على البدع بعد وفاة والده عام ١١٥٣هـ الموافق ١٧٤٠م ، مما دفع ببعض العبيد فى حريملا إلى تدبير مؤامرة لقتله فاضطر إلى ترك حريملا باحثا عن النصير الذى يشد أزره ويحميه حتى ينشر دعوته الإصلاحية فى أنحاء نجد، وهو يعلم أن كل نظرية إصلاحية لا تنتصر بقوتها وصدقها فحسب بل لابد لها أيضا من سلطان يحميها حتى تثمر وتؤتى أكلها (٢)

ولقد وجد الإمام محمد بن عبد الوهاب هذا السلطان والنصير فى شخص عثمان بن معمر أمير بلدة العيينة مسقط رأس الإمام، وهناك اعتمد الإمام على مؤازرة الأمير فى نشر دعوته وأن يجند أتباعا وأنصارا يؤيدون الدعوة وينفذون تعاليمها بالشدة ومن ذلك هدم كثير من القباب والمساجد المقامة فوق القبور، وقطع الأشجار التى يتبرك بها الناس، وإقامة حد الرجم على امرأة زانية من بلدة العيينة حيث تأكد للإمام صحة الفعل وسلامة عقل المرأة وكل ما يوجب الرجم فأقيم عليها الحد بالرجم شارك فيه الأمير عثمان بن معمر حتى ماتت.

لقد كان أسلوب دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب المتصاعد في الشدة سببا فى إثارة المنتفعين من الفساد والبدع السائدة، حتى إذا حدثت حادثة إقامة حد الرجم على المرأة الزانية وذيوعها فى كل الأنحاء قام أهل الأحساء بصفة خاصة يصرخون ويحتجون لأنهم كانوا مستمتعين ببعض الإباحات الكاذبة التى خلفتها لهم دولة القرامطة (٣).

ونتيجة لصرخات أهل الأحساء لأميرهم سليمان آل محمد رئيس بنى خالد والأحساء أرسل سليمان لعثمان بن معمر أمير العيينة والمشمول بحماية سليمان يقول له : إن المطوع الذى عندك قد فعل ما فعل وقال ما قال . فإذا وصلك كتابى فاقتله فإن لم تقتله قطعنا خراجك الذى عندنا(٤) وهدده بالمقاطعة الإقتصادية ومنع تجار العيينة من العمل فى الأحساء وما

١- د. عبد الرحيم عبد الرحمن : نفس المرجع السابق ص ٣٠.

٢- د. حسن سليمان محمود : نفس المرجع السابق ص٦١.

٣- نفس المرجع ص ٦٣.

٤- حسين بن غنام : المرجع السابق ص ٧٩.

جاورها من بلاد تخضع لسليمان، فما كان من عثمان بن معمر إلا أن طلب من الإمام محمد بن عبد الوهاب الرحيل عن العيينة إذ لا قبل لعثمان بمعاداة سليمان.

وكان رحيل الإمام إلى الدرعية عام ١١٥٧هـ/١٧٤٣م بداية لمرحلة جديدة وحاسمة لنشر الدعوة، ذلك أن الإمام كان قد نجح في استقطاب ثنيان ومشارى أخوى أمير الدرعية محمد بن سعود حتى أصبحا من أتباعه وتلاميذه، وما حسب أعداء الإمام أن رحيله إلى الدرعية سيكون بداية لدور جديد فى تاريخ الدعوة والأسرة السعودية إذ هناك فى الدرعية وسع الإمام دائرة جهوده بعد أن وجد قوة السلاح التى تؤيده لنشر مبادئه (١).

وإذا كان انضمام الأمير عثمان بن معمر لدعوة الإمام ومساهمته في نشرها كان عاملا مهما فى ذيوعها وساعدا قويا لها، فقد كان انتقال الامام إلى الدرعية وتأييد الأسرة السعودية لها عاملا أكثر أهمية في انتشارها ليس فقط فى نجد بل فى كل أنحاء شبه الجزيرة العربية وغيرها من الأقطار العربية المجاورة ذلك أن الأمير محمد بن سعود عندما عرض عليه أخواه تأييد الإمام محمد بن عبد الوهاب فى دعوته، طلب مشورة زوجته موضى بنت أبى وطبان من آل كثير فأشارت عليه بأن يذهب للإمام ويكرمه ويقدر أنه غنيمة ساقها الله إليه.

وتنسب الأسرة السعودية إلى قبيلة عنزة إحدى قبائل ربيعة، ويعد سعود بن محمد بن مقرن مؤسس الأسرة السعودية باعتباره أول من سيطر على منطقة الدرعية وبعد وفاته عام ١١٣٧هـ تعاون أبناؤه فيما بينهم على ضبط تفردهم فى هذه المنطقة حتى وفد إليهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتعاهد مع الأمير محمد بن سعود على المبادىء الدينية الاصلاحية(٢). ومنذ هذا التعاهد قامت الدولة السعودية التى مرت بأدوار فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر. والتى اتخذت من دعوة التوحيد للإمام محمد بن عبد الوهاب مذهبا تدين به وتعمل فى ظله وتسعى لنشره وتحارب من أجله.

كان التحالف بين محمد بن عبد الوهاب والأسرة السعودية فى الدرعية بداية لنشر الدعوة فى بقية بلاد نجد وأنحاء شبه الجزيرة العربية وبداية للصدام مع الدولة العثمانية، وإذا كانت جهود الإمام محمد بن عبد الوهاب حتى ذلك الوقت تميل إلى الشدة غير المسرفة فإن تأييد

١- د. عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ص ٣٣.

٢- د. حسن سليمان محمود : نفس المرجع ص ٧٢.

الأسرة السعودية له بقوة السلاح قد حولت الشدة إلى حرب خاصة وقد زاد خصوم الدعوة واشتد هجومهم على الدعوة وصاحبها.

تحالف محمد بن عبد الوهاب والأمير محمد بن سعود علي دين الله ورسوله والجهاد فى سبيل الله وإقامة الشريعة الإسلامية والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأن يظل الإمام مقيما فى الدرعية لا يبارحها ولا يتحلل من هذا التحالف. وجاء تعهد الإمام للأمير السعودى فى عبارته المأثورة. الدم بالدم والهدم بالهدم (١).

وأنطلق الحليفان لنشر الدعوة خارج الدرعية بإعداد الجيوش التى توجه لرد المهاجمين والمناهضين للدعوة، وإرسال الرسائل إلى الحكام والأمراء للدخول فى الدعوة. وما قرب القرن الثانى عشر الهجرى من الزوال حتى أصبحت الدرعية عاصمة دينية وسياسية وحربية. وفى سنوات قليلة انتشرت الدعوة مع الحكم السعودى فى بلدان نجد كالعارض والوشم وسدير وحائل والخرج والأفلاج والحريق ووصلت طلائعها إلى الأحساء وعمان وبادية الحجاز وعسير واليمن. وسمع بها أهل البلدان العربية خارج الجزيرة (٢).

وقد شارك فى نشر الدعوة كل من الأمير محمد بن سعود وابنه عبد العزيز بن محمد وحفيده سعود بن عبد العزيز حتى حدث الصدام بين التحالف السعودى الوهابى وبين محمد على وتركيا. وجاء الصدام الأول بين الدعوة ومناهضيها متمثلا فى موقف دهام بن دواس حاكم الرياض الذى استمر يحارب الدعوة لمدة عشر سنوات حتى انتهى أمره بدخول الأمير عبد العزيز بن محمد مدينة الرياض وفرار دهام منها وكان ذلك عام ١١٨٧هـ.

استمرت فتوحات الدولة السعودية الأولى الراعية والداعية للدعوة الوهابية بفتح القصيم وبريدة والأحساء ومحاولة فتح الحجاز دون نجاح، وإذا كان محمد بن سعود قد توفى عام ١١٧٩هـ/١٧٦٥م فإن ابنه عبد العزيز واصل نشر الدعوة وضم البلاد حتى توفى قتيلا عام ١٢١٨هـ/١٨٠٣م على يد شيعى من أهل أفغانستان انتقاما لاقتحام القوات السعودية مدينة كربلاء عام ١٢١٦هـ/ هدم قبة الحسين، وكان الإمام محمد بن عبد الوهاب قد توفى عام ١٢٠٦هـ الموافق لعام ١٧٩١م.

١- كناية عن الارتباط الوثيق بينهما كل منها ولى دم الآخر يطلب به ويثأر له يهدم بيت أعدائه إذا هدموا بيته : الخطيب ص ٦٦.

٢- د. حسن سليمان محمود : نفس المرجع ص ٦٥.

بعد مقتل عبد العزيز بن محمد تولى الإمارة ورئاسة الدولة السعودية الأولى ابنه سعود بن عبد العزيز الذى امتد حكمه من عام ١٢١٨ - ١٢٢٩ هـ الموافق ١٨٠٣ - ١٨١٤ م وعرف باسم سعود الكبير، وقد واصل سياسة سلفيه فى تثبيت دعائم الملك السعودى خاصة أن جميع بلدان وقرى نجد كانت دائمة التردد بين الولاء للدولة السعودية والاستقلال عنها وإثارة الاضطرابات ضدها .. وكانت جميع البلدان فى شبه ثورة ضد النفوذ السعودى فما تكاد الجيوش السعودية تترك البلدة منها حتى تفاجأ بارتداد فى بلدة أخرى مما جعل جيوش الدرعية فى حالة حرب دائمة مع بلدان نجد (١).

وكان اتجاه آل سعود لفتح الحجاز وتطبيق الدعوة بنفس أسلوب الشدة دون التدرج سببا فى إثارة شعور الأستياء عند جمهور المسلمين وإلى مقاومة الحجازيين لآل سعود، وتدخل تركيا بحجة الدفاع عن المقدسات الإسلامية ضد الخارج عليها ودفع جيوش مصر بقيادة الباشا العثمانى محمد على للتعامل مع هؤلاء الخارجين على معتقدات المسلمين فى رأى العثمانيين.

وإذا كان فتح مكة قد تم عام ١٢١٨هـ - ١٨٠٣م فإن السعوديين أبقوا الشريف (٢) غالب أميرا عليها بشرط اتباع تعاليم الدعوة، ولكن تشديد السعوديين ضد الحجاج المصريين والشوام والأتراك بسبب ما يقترن بوفود حجهم من طبل وزمر ومحمل وغير ذلك من الأمور اعتبرها السعوديون بدعا لا يجيزها الشرع من وجهة نظر دعوتهم، هذا التشديد قد أثار الحجازيين لأنه حرمهم من دخل مالى كان الحجاج يقدمونه للحجازيين. ومن ثم أخذ شريف مكة يبعث بالوفود إلى السلطان العثمانى فى استانبول وإلى محمد على فى مصر يشكو من سياسة السعوديين ويطلب التدخل لإجلائهم عن الحجاز.

وفي عام ١٢٢٠هـ بايع أهل المدينة المنورة الأمير سعود الكبير على الدخول فى طاعته وتطبيق الدعوة الوهابية بكل مبادئها فهدمت جميع القباب المقامة على القبور، وفى عام ١٢٢١هـ حج سعود الكبير فى موكب كبير أظهره كأمير وحيد لمكة بل ولمنطقة الحجاز بكاملها

١- د. عبد الرحيم عبد الرحمن : نفس المرجع السابق ص ٥٥.

٢- نظام الشرافة قائم منذ القرن الرابع الهجرى، فكان الأشراف يتمتعون باعتبار دينى ويختار الشريف من قبل كبار أشراف الحجاز ويطلب إلى سلطان مصر الموافقة. والأشراف من البيت النبوى الشريف.

مما أثار حفيظة الحجازيين والشريف غالب بصفة خاصة. وبانضمام المدينة المنورة ومكة إلى الحكم السعودى أصبح الحرمان الشريفان فى قبضة السعوديين الأمر الذى عده معظم المسلمين فى كل جهة نكبة على الإسلام إذ صار البلدان الحرمان إلى هؤلاء « الخارجين » على الاسلام كما صورت الدعوة للناس يؤمئذ (١) . ومن ثم طالب الناس بالعمل على استخلاص الأماكن المقدسة فى الحجاز من يد هؤلاء المتهجمين على بيت الله الحرام وعلى قبر الرسول الكريم.

موقف العثمانيين من الدعوة

لم تثر انتباه الأتراك العثمانيين والحركة فى مهدها الأول سواء فى حريملا أو العيينة بنجد، ولكن لتحالف آل سعود مع آل الشيخ ونشاط هذا التحالف خارج الدرعية إلى شبه الجزيرة العربية خاصة إلى الحجاز، ثم إلى العراق قد أثار مخاوف الأتراك العثمانيين من هذه الحركة العربية الإسلامية الفتية المنتصرة فإذا أضفنا الثورة غير الواعية لجمهور المسلمين من تطبيق الدعوة الوهابية لأدركنا استغلال الأتراك الفرصة للقضاء على الدعوة.

وفى واقع الأمر فإن الأمير سعود يتحمل مسئولية الصدام مع الأتراك لأنه لو اقتصر فى الدعوة على جزيرة العرب وترك الحج حرا للأتراك والمصريين ولم يمس الناحية الحساسة فى الترك وهى السيادة على الحجاز ما أهتم الأتراك بأمره، فقد مكثت جزيرة العرب مدة طويلة ونار الفتن تاكل الأخضر واليابس، بل لقد كان الحجاج الأتراك والمصريون عرضة للنهب والقتل فى كل ناحية حلوا بها فى الحجاز، كانوا يحتملون هذا ويعدونه من الأعمال الطبيعية. وأى فرق فى نظر الأتراك بين آل سعود والأشراف ؟ الفريقان من العرب، وأفضلهم من يحتفظ بسيادة الأتراك ولو اسميا مع نشر الأمن والمحافظة على سلامة الحجاج وتوفير وسائل الراحة لهم (٢).

ولقد أزعج الدولة العثمانية انتشار الدعوة الوهابية وتوسع الدولة السعودية. وإعلان الأمير سعود إنهاء السيادة العثمانية من الحجاز والأتراك فيهم الخلافة ويحرصون على المحافظة على لقب خادم الحرمين الشريفين لسلطانهم، وأزعج الدولة العثمانية أيضا مهاجمة الدولة السعودية لولايات العراق والشام وعجز ولاة العراق والشام عن إيقاف هذا

١- عبد الكريم الخطيب : نفس المرجع السابق ص ٦٩.

٢- حافظ وهبه : نفس المرجع السابق ص ٢٢١.

الهجوم والقضاء على الدعوة. كذلك أزعج الدولة العثمانية موقف الأمير سعود من الحجاج الأتراك والمصريين والشوام وهو الموقف المتشدد بسبب مصاحبة المحمل للطبول والزمور والرايات وغيرها من العادات للحجاج، وتجلى موقف الأمير سعود المتشدد فى إنذار هؤلاء الحجاج عام ١٢٢٠هـ بمنعهم من الحج فى العام التالى إذا جاءوا مصاحبين لهذه العادات المنافية للدعوة الوهابية، وبالفعل منع الحجاج من أداء الفريضة.

وليس من شك فى أن دعوة الأمير سعود صحيحة ليتم الحج فى صورته الصافية الكريمة، لكن موقف العثمانيين هو الذى أثار عليه المسلمين، وفى ذلك يقول الجبرتى : انقطع الحج الشامى والمصرى - عام ١٢٢٣هـ - معتلين بمنع الوهابى الناس الحج وليس الأمر كذلك فإنه لم يمنع أحدا أتى إلى الحج على الطريقة المشروعة، وإنما منع من يأتى بالبدع التى لا يجيزها الشرع مثل المحمل والطبل والزمر، وقد حج طائفة من المغاربة فلم يتعرض لهم بسوء [1].

ولقد أدركت الدولة العثمانية أن الدعوة الوهابية تؤذن بقيام دولة عربية تناوىء الخلافة التركية، ومن ثم أخذت السلطنة التركية تعمل على قبرها فى مكانها قبل أن تتسع آفاقها، فوضعت الخطط وعبأت علماء الدين الذين شرعوا أقلامهم وألسنتهم يؤلفون الكتب ويخطبون الخطب على المنابر يرمون أتباعها بالزندقة والخروج على الإسلام وعلى سلطان الخليفة [2] ولما كانت الدولة حريصة فى نفس الوقت على استعادة سيادتها على الحجاز لاستعادة سمعتها فى العالم الاسلامى بتأمين الحج إلى الحرمين الشريفين فقد وجدت أنه لا مفر من الاستعانة بمحمد على والى مصر للقضاء على الدعوة والقائمين بها بعد أن فشل ولاة بغداد ودمشق فى هذه المهمة.

انتهز السلطان العثمانى فرصة الغضب الذى حل بالمسلمين عامة من إخلاص السعوديين فى تطبيق دعوة محمد بن عبد الوهاب. وثورة أهل تركيا ومصر والشام والعراق بسبب ما أشيع عن منع حجاجهم من أداء الفريضة وضيق أهل الحجاز الذين كرهوا الحكم السعودى لأنه قطع عنهم الحجاج وحال بينهم وبين ما كان يردهم من الصدقات، وقطع عنهم ما كان مرتبا لهم من الإحسانات [3] بالاضافة إلى أن الشريف غالب كان خضوعه للسعوديين عن

١- عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار في التراجم والأخبار أحداث عام ١٢٢٣هـ.

٢- د. محمد بديع شريف وآخرين : المرجع السابق ص ٢٠.

٣- نفس المرجع والصفحة .

غير اقتناع ولذلك أخذ يراسل السلطان العثمانى وواليه على مصر محمد على يستنجد بهما لتخليص الحرمين الشريفين من السيطرة السعودية..

ولقد أصدر السلطان العثمانى أمرا لباشا مصر لكى يستعيد السيادة العثمانية على الحجاز والقضاء على الدولة السعودية الخارجة على العثمانيين. وحاول إغراءه باضافة الحجاز إلى باشوية مصر، وكانت الدولة العثمانية تهدف من وراء ذلك إلى هدفين أولهما القضاء على الدولة السعودية التى أصبحت خطرا يهدد سمعتها فى العالم الإسلامى، وبالتالى إضعاف هذا الوالى - محمد على - باستنزاف موارده فى هذه الحروب، التى قد لا تحمد عقباها بالنسبة له حتى يظل خاضعا لها خضوعا تاما (١).

وإذا كان السلطان العثمانى قد كلف محمد على فى عام ١٢٢١هـ ١٨٠٦م بالتعامل مع السعوديين إلا أن محمد على أخذ يماطل فى تنفيذ أمر السلطان لمدة خمس سنوات متعللا بحجج كثيرة كانشغاله بمحاربة المماليك فى الصعيد، ومناوأة سليمان باشا والى الشام لمحمد على وتأييده للمماليك، وعدم توفر الأعتدة الحربية والسفن الكافية والجنود المعدين للقيام بهذه الحملة عبر البحر الأحمر إلى الحجاز، حتى كان عام ١١٢٦هـ/١٨١١م بدأ محمد على تنفيذ أمر السلطان بعد أن أعد عدته معتمدا على موارد مصر وبعد أن يئس من مساعدات تركيا له لأداء هذه المهمة، وبعد أن بنى السفن اللازمة لنقل قوات الحملة.

عهد محمد على لابنه طوسون قيادة الحملة إلى الحجاز، ومرت الحرب بين جيوش محمد علي وقوات السعوديين فى ثلاثة أدوار، يبدأ الدور الأول فى خريف عام ١٨١١م/١٢٢٦ هـ بنزول جيوش محمد على إلى ميناء المدينة المنورة حتى وصول محمد على بنفسه إلى ميناء جدة فى أول رمضان ١٢٢٨هـ/٢٨ أغسطس ١٨١٣م. وفى هذا الدور استولى طوسون على المدينة المنورة في نوفمبر ١٨١٢ م وتقدم فاستولى على جدة ومكة بعد أن نجح فى شراء بعض القبائل الحجازية بالإضافة إلى موالاة الشريف غالب شريف مكة لمحمد على.

ويبدأ الدور الثانى من الحرب بين محمد على والسعوديين بوصول محمد على جدة عام ١٨١٣م عندما علم بنجاح ابنه طوسون فى منطقة الحجاز، إلى عودة طوسون إلى مصر فى ٥ ذى الحجة ١٢٣٠هـ ٨ نوفمبر ١٨١٥م واختيار إبراهيم قائدا للحملة علي السعودية وفى هذا الدور شارك محمد على ابنه طوسون فى المعارك على أرض شبه الجزيرة العربية، وكانت

١- د. عبد الرحيم عبد الرحمن : نفس المرجع السابق ص ٢٨٣.

المعارك سجالا فى نجد وعسير والحجاز. وفى هذا الدور قبض محمد على على الشريف غالب وأرسله إلى الدولة العثمانية وعين شريفا آخر لمكة، ولكن محمد على اضطر إلى العودة إلى مصر فجأة فى ٢٠ مايو ١٨١٥م بسبب تأزم الموقف الأوروبى بفرار نابليون بونابرت من جزيرة ألبا وقدر - محمد على - أن هذا الحدث يمكن أن يكون له أثر دولى بالغ قد ينعكس على الحالة فى مصر نفسها فأسرع بالعودة إلى القاهرة بعد أن أسند قيادة الحملة الغازية مجددا إلى ابنه طوسون (١).

وينتهى الدور الثانى من الحرب بين جيوش محمد على والسعوديين بانسحاب طوسون من القصيم بنجد وإجراء مفاوضات صلح مع السعوديين الذين تزعمهم أنذاك الأمير عبد الله بن سعود بعد وفاة سعود الكبير عام ١٨١٤م، ولكن الصلح لم يتم بسبب تشدد محمد على فى شروطه رغم ما أبداه الأمير السعودى من رغبة أكيدة فى الصلح والإعتراف بالسيادة العثمانية، ورغم أن طوسون أخلى القصيم دون أن ينتظر ما سوف تسفر عنه مفاوضات الصلح وعودته إلى القاهرة. وقد كان كل ما استطاع السيطرة عليه من أملاك الدولة السعودية الأولى هو إقليم الحجاز فقط الذى أصبح يتبع مصر إداريا تحت السيادة العثمانية (٢).

ويبدأ الدور الثالث فى الصراع بين جيوش محمد على والسعوديين بتولية إبراهيم ابن محمد على قيادة جيوش والده فى شبه الجزيرة العربية إلى عام ١٨١٨م بالاستيلاء على الدرعية والقبض على الأمير عبد الله بن سعود وإرساله إلى الآستانة، وفى هذا الدور حدث التصدع بين الأمراء السعوديين بسبب ضعف وتردد الأمير عبد الله وفى هذا يختلف عن والده سعود الكبير، كما شهد هذا الدور قيام عبد الله بن سعود بعمليات حربية ضد المناطق التى كانت قد أعلنت مؤازرتها لجيوش محمد على لتأديب القبائل الذين انضم رجالها إلى طوسون .

وقد شهد هذا الدور نهاية الدولة السعودية الأولى وانهيارها على يد إبراهيم باشا الذى قاد جيشا معدا إعدادا كاملا نزل به إلى المدينة المنورة ثم اتجه إلى نجد حيث حاصر الدرعية طويلا حتى سقطت فى يده وقبض على أميرها وأرسله إلى مصر وبقى مع من تبقى من جيشه فى نجد حتى صيف ١٨١٩م/١٢٣٤م فسلم البلاد خربة إلى بعض قوات الجيش العثمانى

١- أحمد عسه : نفس المرجع ص ٢٨.

٢- د. عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ص ٣١٣.

التى وصلت إلى شبه الجزيرة العربية، وعاد إلى القاهرة مع قواته [١]، مما أعاد إلى البلاد حياة الإضطراب والفوضى - وبذلك استطاعت السلطنة العثمانية أن تخفت أول صوت عربى شديد بدأ محاولة إعادة السلطان إلى العرب [٢].

لم ينته الصراع بين السعوديين - حماة دعوة الاصلاح السلفى ومنفذوها - والأتراك بانهيار الدولة السعودية الأولى على يد إبراهيم بن محمد علي وإنما استمر منذ أن عاد إبراهيم إلى مصر أواخر عام ١٨١٨م، وكان آل سعود مختلفون فيما بينهم على تولى الأمارة بعد عبدالله بن سعود، كما طمع فى الإمارة زعماء آخرون من نجد، وكان على آل سعود فى وسط هذا الانقسام والمطامع القبلية أن يواجهوا الأتراك، ولقد ظهر من بين آل سعود فى الفترة الواقعة بين عام ١٨١٨م وحتى عام ١٨٤٣م وهو عام تولى فيصل بن تركى تدعيم الدولة السعودية الثانية عدة أمراء من آل سعود ومن غيرهم تنازعوا الحكم فى نجد، من بينهم مشارى، سعود، وتركى بن عبد الله آل سعود، وعبد الله والدتركى ليس هو عبد الله الذى أسره إبراهيم باشا وقتله الترك، ويعتبر تركى المذكور منشىء الدولة الثانية لآل سعود فى سنة ١٢٣٥هـ/١٨١٩م لأنه منذ هذه السنة اعتبر الزعيم الساعى لاسترداد إمارة آل سعود [٣] ، ولكنه لم يستقر له الأمر حتى توفى وخلفه ابنه فيصل.

استمر العداء قائما بين تركى بن عبد الله وبين الأتراك منذ عام ١٨١٩ وحتى عام ١٨٣٣ م وهو عام وفاته، وقد استعمل الأتراك أساليب البطش والتنكيل ضد أتباع آل سعود فى محاربتهم للإمام تركى، وليس أدل على ذلك ما قام به قائدهم حسين بك الذى أعطى الأمان لمائتين وثلاثين رجلا من أهل الدرعية ثم ما لبث أن أمر جنوده الأتراك بإطلاق النار عليهم جميعا وصادر أملاكهم كلها بعد أن قضى عليهم رميا بالرصاص [٤] وذلك عام ١٨٢٠م. فاضطر الامام تركى إلى الفرار من الرياض ولكنه ظل رافعا علم الثورة والعداء ضد الأتراك. وظل كذلك حتى اغتيل عام ١٨٣٣/١٢٥٦هـ فأعلن ابنه فيصل نفسه إماما وحاكما على نجد.

١- أحمد عسه : نفس المرجع ص ٣٢.

٢- د. محمد بديع شريف وآخرين : نفس المرجع السابق ص ٢١.

٣- حافظ وهبة : نفس المرجع السابق ص ٢٢٢ ، ٢٢٣.

٤- د. حسن سليمان محمود : نفس المرجع ص ٨٥.

وكان الأمير فيصل بن تركى ضمن من أسرهم إبراهيم باشا فى الدرعية وأرسلوا إلى مصر وبقى بها حتى فر منها قبل ارتقائه الإمامة بثمان سنوات عمل خلالها على مساعدة والده فى حروبه ضد الأتراك وضد بعض أمراء آل سعود وغيرهم من زعماء قبائل نجد الطامعين فى الأمارة. ولذلك فإن فيصل بعد اغتيال والده قام بإخضاع أكثر الإمارات فى نجد وأعاد الأمن إلى المنطقة ولم يخرج عن حوزة إمارته سوى الحجاز التى كانت خاضعة لمصر.

وإزاء روح الأمير فيصل النضالية وعمله على إعادة الدولة السعودية إلى سابق عهدها من القوة والاتساع سارع الأتراك بحث محمد على فى مصر على التدخل للقضاء على دولة فيصل فى نجد، وقد تمكن خورشيد باشا من الإيقاع بين الأمراء السعوديين أنفسهم حتى استولى على الرياض عام ١٢٥٤هـ ١٨٣٨م، وبعد معارك دامية رأى فيصل أن ليس له قدرة على مقاومة قوات محمد على فاستسلم لخورشيد الذى أرسله مع أخيه جلوى وولديه عبد الله ومحمد إلى مصر (١). وعندما وصل فيصل إلى نجد عام ١٨٤٣م تمكن من استعادة دولته التى شادها قبل انتقاله إلى مصر وبقى الحجاز خارجا عن حدود دولته.

ولقد ساعد على نجاح فيصل فى استعادة ملكه انسحاب جيش محمد على إلى مصر نتيجة لمعاهدة لندن عام ١٨٤٠م. واتجاه فيصل إلى مسالمة الأتراك بالاعتراف لهم بالسيادة على نجد والأحساء وعمان وقطر وعسير. ولم يشأ أن يسعى إلى غزو العراق والشام والحجاز حتى لايثير حفيظة الأتراك، واستمرت دولة فيصل حتى وفاته عام ١٢٨٢هـ/١٨٦٦ م ولكن أبناءه وخاصة عبد الله الذى اتصف بالشدة فى أمر الدعوة وسعود الذى كان أكثر تسامحا - ورغم أن فيصل قد أخذ البيعة لأكبر أبنائه وهو عبد الله قبل وفاته - فإن الحرب ما لبثت أن قامت بين الأخوين وكانت نتيجتها انهيار الدولة السعودية الثانية وتمكن محمد بن الرشيد أمير حائل من أن يبسط سيطرته على الرياض عاصمة آل سعود وأن يستخدم أمراء آل سعود مثل عبد الله وعبد الرحمن ابنى فيصل، ولكن عبد الرحمن لم يرض لنفسه أن يكون تحت رحمة ابن الرشيد بالرياض فثار ضده ولكن قوة ابن الرشيد أجبرته على ترك نجد هو وأسرته إلى الاحساء فالقطيف فالكويت حيث استقر بها ونزل ضيفا على أميرها من آل الصباح عام ١٣٠٩هـ/١٨٩١م (٢)

١- حافظ وهبة : نفس المرجع ص ٢٢٤.

٢- د. حسن سليمان محمود : نفس المرجع ص ٩٢.

ظل الأمير عبد الرحمن بن فيصل يعيش فى كنف أمير الكويت من آل الصباح منذ عام ١٨٩١م حتى خرج ابنه عبد العزيز عام ١٣١٩هـ ١٩٠١م من الكويت ومعه سبعة وأربعون رجلا من آل سعود وأنصارهم لمنازلة آل الرشيد فى نجد وحلفائهم الأتراك، وبالفعل استطاع بالجرأة والمفاجأة أن يستولى على الرياض وبعدها أخذ يعمل لنقض مملكة ابن الرشيد واسترداد ملك آبائه وأجداده، وقد مكث أكثر من عشرين سنة يجالد ويغالب الخصوم من النجديين والأشراف والأتراك يضربهم حينا ويلين حينما يرى السياسة واللين أنجح من الخصام والقتال.

ولقد وقف الأتراك ضد عبد العزيز بن عبد الرحمن. ولكن انكسارآل الرشيد بعد منازعاتهم الداخلية دفع الأتراك - المنهكين - إلى الانسحاب من نجد فى عام ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م. ثم اصطدم بالشريف حسين ملك الحجاز عام ١٩٠٩م ولكن لجأ معه إلى السياسة والمهادنة حتى يتفرغ له فيما بعد . أما الأتراك فإن الأمير عبد العزيز رأى أن الدولة العثمانية آخذة فى التصدع والإنهيار، ورأى المطامع تكتنفها من كل ناحية، فانتهز فرصة خروجها من حرب البلقان منهوكة القوى، فانقض على إقليم الاحساء واستخلصه من النفوذ التركى، وبذلك نفذ إلى الخليج (١).

وقد استمر العداء بين آل سعود والأتراك حتى قيام الحرب العالمية الأولى وعندئذ استمر توسع السعوديين فى شبه الجزيرة العربية بالدخول فى حروب متصلة مع قبائل نجد كآل الرشيد وغيرهم، ومع حكام عسير ثم مع الشريف حسين فى الحجاز، حتى اتسعت الإمارة السعودية لتصبح سلطنة نجد ومملكة الحجاز إلى أن أصبحت المملكة العربية السعودية عام ١٩٣٢م.

ومما يجب ملاحظته أن الدولة العثمانية اتخذت موقف العداء من آل سعود وهم فى كنف آل الصباح فى الكويت بسبب ارتباط آل الصباح بانجلترا وتحالف الطرفين مما سمح للإنجليز بادخال نفوذهم إلى الخليج، وكان موقف العثمانيين المؤيد لآل الرشيد دليلا على هذا الموقف العثمانى، ولكن الهزائم التى منى بها آل الرشيد والأتراك على يد عبد العزيز آل سعود جعل حكومة الأستانة تعاف متابعة الحرب وأن تفتش عن اتفاق مع عبد العزيز يضمن لها بعض مصالحها(٢). وهذا الموقف دليل على الضعف الذى ألم بالدولة العثمانية من ناحية كما أنه فى

١- حافظ وهبة : نفس المرجع ص ٢٣٨.

٢- أحمد عسة : نفس المرجع ص ٥٤ .

نفس الوقت دليل على قوة وشجاعة عبد العزيز آل سعود وتصميه على بناء الدولة السعودية الكبرى المتحررة من كل نفوذ أجنبى حتى ولو كان هذا النفوذ تركيا.

موقف القوى الخارجية من الدعوة

لم يكن الصراع مع الأتراك هو الوجه الوحيد لسياسة آل سعود معتنقى مذهب محمد بن عبد الوهاب الخارجية، بل كانت هناك وجوه أخرى لهذه السياسة تمثلت فى موقف انجلترا وفرنسا وإيران إلى جانب مصر من الدولة السعودية الناهضة فى نجد .. وإذا كانت مصر محمد على قد اصطدمت بآل سعود بإيعاز من الأتراك لفرض سيادتهم على نجد. فإن محمد على كان يعتزم تأكيد سيطرته على كل شبه الجزيرة العربية لتحقيق مشروعه لتكوين وحدة عربية تكون مصر قلبها .. وعلى هذا الأساس جاء تدخل محمد على فى الحجاز ونجد واليمن وساحل الخليج، وهو التدخل الذى اصطدم بالأطماع الإنجليزية خاصة فى الخليج واليمن والجنوب العربى بصفة عامة.

كان الإنجليز إذن أول قوة أجنبية تتجه بأنظارها نحو شبه الجزيرة العربية وخاصة سواحلها الشرقية المطلة على الخليج وسواحلها الجنوبية المطلة على البحر العربى والمحيط الهندى. وليس أدل على ذلك من أن القوات البحرية البريطانية قد وصلت إلى البحرين - مفتاح الخليج العربى - واحتلتها عام ١٢٣٦هـ-١٨٢٠م (١) كنتيجة لأنهيار الدولة السعودية الأولى فى نجد وانحسارها عن شواطىء الخليج.

وكان تحالف القواسم وهم قبيلة عربية استقرت فى ساحل عمان منذ النصف الأول للقرن الثامن عشر وامتد نفوذهم فشمل المنطقة من قطر إلى « خور فكان » على الخليج، وتحالف القواسم مع السعوديين منذ عام ١٢١٤هـ/١٧٩٩م عند دخول القوات السعودية إلى الأراضى العمانية وأعلن سلطان بن صقر القاسمى ترحيبه بهذه القوة الجديدة - السعوديين - وأعلن خضوعه لآل سعود واعتناق مبادىء الدعوة السلفية، وتعهد بدفع الزكاة المقررة لعمالها طالما أن هذه الحكومة لاتغير من وضعه كزعيم للقبيلة (٢)، وقد استفاد القواسم من هذا التحالف بالاستمرار فى ممارسة أعمال الجهاد البحرى ضد السفن الأجنبية فى الخليج مستندين إلى قوة الدولة السعودية.

١- أحمد عسة : نفس المرجع ص ٣٣.

٢- د. عبد الرحيم عبد الرحمن : نفس المرجع ص ٢٥٨.

ولقد كان نشاط القواسم المعتمد على قوة آل سعود سببا فى تبرم الانجليز الذين سا ءهم تعرض سفنهم لمهاجمة القواسم مما دفع انجلترا إلى إرسال حملات التأديب ضد إغارات القواسم ثم عقد معاهدات معهم دون فائدة من توقف أعمال القرصنة ضد السفن الإنجليزية، حتى كان عام ١٨٢٠م والدولة السعودية قد انهارت أمام حملة إبراهيم باشا فارسل الإنجليز حملة كبيرة ضد القواسم تمكنت بعد تدمير رأس الخيمة من فرض معاهدة تشمل جميع رؤساء المشيخات الذين أرغموا على توقيعها بعد أن فقدوا سندهم الطبيعى وهو الدولة السعودية القوية وبهذه المعاهدة وضعت انجلترا قدمها فى الخليج الذى خضع لنفوذها منذ ذلك الحين واستمر يتدعم طوال القرن التاسع عشر وأثناء النصف الأول من القرن العشرين .

وجاء اهتمام الإنجليز بالدولة السعودية منذ عام ١٧٨٧م عندما أصبح لآل سعود نفوذ على ساحل الخليج، وقد حاول الإنجليز - من مركزهم فى الهند - أن تكون علاقتهم بالسعوديين - الذين عرفوهم باسم الوهابيين - علاقات طيبة ضمانا لمصالحهم فى الخليج وفى العراق، وكان آل سعود أيضا رغم كراهيتهم لأعمال الإنجليز ضد حلفائهم القواسم، وتأييدهم لسلطان مسقط المعادى لآل سعود، كانوا حريصين على عدم الدخول فى صراع مع الإنجليز والعمل على مهادنتهم.

واستمر هذا الوضع طوال أيام الدولة السعودية الأولى، حتى إذا انهارت هذه الدولة أعربت الحكومة الإنجليزية عن سرورها بهذا الانهيـــار ولكنها أبدت مخاوفها من اتجاه المصريين إلى ساحل الخليج ولذلك سارعت بعقد معاهدات مع حكام المشيخات العربية تقيدهم بها وتضعهم تحت حمايتها حتـى توقف إبراهيم باشـــا عن التوغل إلى منطقة الخليج.

وعندما أعاد الأمير فيصل بن تركى الدولة السعودية مرة أخرى إلى الوجود أمرت الحكومة البريطانية معتمدها في الخليج العربى الكولونيل بيلى Billey أن يتصل بالإمام فيصل - وأن يزوره فى بلاده ، وأن يقدم تقريرا عن حالة الدولة السعودية الجديدة [١]، وأن يبلغ الإمام أن الحكومة الانجليزية لا تطمع فى أى جزء من شبه الجزيرة العربية وكل ما يهمها ضمان الأمن والسلام تحت حكم صالح.

وكان الصراع بين الإنجليز والفرنسيين من ناحية، والصراع بين الإنجليز والروس من ناحية أخرى حول الخليج العربى إلى جانب موقف الأتراك الداعى إلى فرض السيادة

١- أحمد عسة : نفس المرجع ص ٤٠.

العثمانية دون قوة تركية تسند هذه السيادة، كان كل ذلك هو سمة حياة شبه الجزيرة العربية طوال القرن التاسع عشر وحتى قيام الحرب العالمية الأولى وظهور الدولة السعودية القوية. وقد انتهى هذا الصراع بإخراج قوات محمد على من اليمن والخليج وطرد النفوذ الفرنسى والروسى من الخليج، ثم فرض النفوذ الإنجليزى في الجنوب العربى ، والخليج .

وكانت علاقة آل سعود بفارس غير ودية نظرا للإختلاف بين الطرفين فى المذهب، فالأولون سنيون متمسكون، والآخرون شيعيون متطرفون، وكان أهل فارس يناصرون أعداء آل سعود فى مسقط، وآل سعود يناصرون أعداء فارس وهم آل خليفة فى البحرين، ولا غرابة فى أن نجد شاه فارس الشيعى يهنىء والى مصر السنى على نجاحه في القضاء على دولة آل سعود السنية لاتفاقهما في الهدف وإن اختلفا فى المذهب (١).

وعندما أخذ عبد العزيز آل سعود يعيد بناء الدولة السعودية مرة ثالثة فى أوائل القرن العشرين لم يرد أن يفتح جبهة عداء مع الإنجليز وهو يواجه الأتراك من ناحية وقبائل نجد والشريف حسين فى الحجاز من ناحية أخرى. ولذلك نجد انجلترا تستجيب لتدخل أمير الكويت عام ١٩٠٣ وطلب عبد العزيز آل سعود عام ١٩٠٤ بأن تستخدم الحكومة الإنجليزية نفوذها لدى الأتراك كى يوقفوا مساعداتهم الحربية لابن الرشيد عدو آل سعود فى نجد.

ولما طلب الأمير عبد العزيز آل سعود عقد معاهدة مع انجلترا . نصح مكتب الحاكم العام الإنجليزى فى الهند الحكومة الإنجليزية بإجابة مطلب الأمير لأنه إذا مابنى الوهابيون ملكهم على أنقاض ملك الاتراك فإنهم فى الغالب سيهددون المصالح البريطانية في الكويت وفى باقى إمارات الشاطىء. وعليه فإنهم – حكومة الهند – يلحون بقبول صيغة الرد على كتب الأمير عبد العزيز لضمان صداقته ومعاونته قبل أن تفوت الفرصة (٢).

ولكن الحكومة البريطانية اتخذت موقفا سلبيا من طلب الأمير عبد العزيز، حتى كان عام ١٩١٣ م عندما اصطدم الأمير بالأتراك أثناء زحفه على الهفوف والقطيف والعقير فى الأحساء واضطر الأتراك إلى التقهقر إلى البحرين والتحصن فيها بموافقة انجلترا، وهنا توترت العلاقات بين آل سعود وانجلترا. ولكن الإنجليز سرعان ما دخلوا مع الأمير عبد العزيز فى

١- د. عبد الرحيم عبد الرحمن : نفس المرجع ص ٢٧٩.

٢- حافظ وهبة : نفس المرجع السابق ص ٢٣٨.

شتاء عام ١٩١٣م فى مباحثات سياسية كانت بمثابة تمهيد فعلى للإتفاق السعودى البريطانى الذى وقع فيما بعد عام ١٩١٥م وعرف باسم معاهدة العقير، والذى كان بمثابة أول معاهدة دولية أكد فيها عبد العزيز مركزه الدولى (١).

وإذا كان قد أخذ علي هذا الاتفاق نفس ما أخذ علي الاتفاقات بين الإنجليز ومشايخ الخليج من تكبيل وتقييد لحرية التحركات السياسية والإقتصادية دون موافقة الانجليز، فإن الأمير عبد العزيز ما لبث أن تخلص من هذه القيود فى معاهدة جدة عام ١٩٢٧م التى نصت على اعتراف انجلترا باستقلال سلطنة نجد وتوابعها والحجاز وحق السلطنة فى الاتصال بالدول الأخرى وعقد الاتفاقيات السياسية والإقتصادية معها دون الرجوع إلى انجلترا، وذلك حسبما تمليه مصلحة السلطنة العليا، بعد أن كانت معاهدة عام ١٩١٥م تحرم آل سعود من كل هذه الحقوق.

تقييم الدعــــوة

لقيت دعوة محمد بن عبد الوهاب منذ ظهورها فى نجد مقاومة من قوى مختلفة فانبرى معارضوها إلى رميها بالكفر والإلحاد، ودافع عنها أنصارها بتوضيح مبادئها وإظهار حقيقة دعوتها، وإذا كان معارضو الدعوة قد كتبوا الكتب وبعثوا بالمنشورات تهاجم وتستنكر، فإن كتب الإمام محمد بن عبد الوهاب وأقوال أتباعه ترد وتوضح، فإن كتبه التى بلغت أكثر من عشرة احتوت على خلاصة أفكاره، ومن أهم هذه الكتب كشف الشبهات، وكتاب الكبائر والمسائل التى خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الجاهلية، وكتاب آداب المشى إلى الصلاة، وكتاب الهدى النبوى إلى جانب كتب في تفسير القرآن الكريم، وفي السيرة النبـــوية، وفى الأحاديث النبوية، بالإضافـــة إلـــى الرســـائل والكتب المطولة والمختصرة التى كان يبعث بها الإمام محمد بن عبد الوهاب وأتباعه إلى أمراء البلاد وشيوخ القبائل.

وجاء فى رسالة عبد العزيز بن محمد بن سعود إلى من يراه من أهل المخلاف السليمانى خصوصا أولاد الشريف حمود وناصر ويحيى وسائر إخوتهم وأولاد إخوانهم، كذلك أشراف بنى النعيمى وكافة أشراف تهامة يقول : فالموجب لهذه الرسالة أن الشريف أحمد بن حسين الفلقى قدم إلينا فرأى ما نحن فيه وتحقق صحة ذلك لديه، فبعد ذلك التمس منا أن نكتب لكم ما يزول به الاشتباه فتعرفوا دين الإسلام فلا يقبل من أحد سواه، فاعلموا - رحمكم الله -

---

١- أحمد عسة : نفس المرجع السابق ص ٦٧.

أن الله سبحانه وتعالى أرسل محمد صلى الله عليه وسلم علي فترة من الرسل فهدى به إلى الدين الكامل والشرع التام، وأعظم ذلك وأكبره وزبدته وإخلاص العبادة لله لا شريك له، والنهى عن الشـــرك، وذلك هو الذى خلق الله تعالى الخلق لأجله ودل الكتاب على فضله كما قال تعالى : وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبـــدون، وقال تعالـــى وما أمـــروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين، وإخلاص الدين هو صـــرف جميع العبادة لله تعالـــى وحـــده لا شريك له وذلك ألا يدعى إلا لله ولا استـغـاث إلا بالله، ولا يذبح إلا له، ولا يخشى ولا يرجى سواه ولا يرهب ولا يرغب إلا فيما لديه، ولا يتـــوكل فـــى جميع الأمـــور إلا عليـــه، وإن كان ما هناك لله تعالى لا يصلح شيء منه لملك مقرب ولا نبى مرســـل وهذا هو بعينه توحيد الألوهية الذى أسس الإسلام عليه وانفرد به المسلم عن الكافـــر، وهو معنـــى شهـــادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله.

ويضيف الأمير فى رسالته قائلا فلما من الله علينا بمعرفة ذلك وعلمنا أنه دين الرسل اتبعناه، ودعونا الناس إليه، وإلا فنحن قبل ذلك على ما عليه غالب الناس من الشرك بالله تعالى، من عبادة أهل القبور والاستغاثة بها والاستغاثة بهم مع ما ينضم إلى ذلك من فعل الفواحش والمنكرات وارتكاب الأمور والمحرمات وترك الصلاة وترك شعائر الإسلام حتى أظهر الله الحق بعد خفائه وأحيا أثره بعد عفائه على يد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب (١).

وقال عبد الله بن الإمام محمد بن عبد الوهاب عام ١٢١٨هـ/١٨٠٣م حين دخل مكة مع الأمير سعود بن عبد العزيز : فذهبنا فى الأصول مذهب أهل السنة والجماعة، وطريقتنا طريقة السلف التى هى الطريق الأسلم والأعلم والأحكم خلافا لمن قال طريقة الخلف أعلم، وهى أننا نقرأ ايات الصفات وأحاديثها على ظاهرها ونكل علمها إلى الله مع اعتقاد حقائقها، فإن مالكا – الإمام مالك – وهو من أجل علماء السلف لما سئل عن الاستواء فى قوله تعالى : الرحمن على العرش استوى، قال الاستواء معلوم والكيف مجهول، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة (٢).

وأما أعداء الدعوة فقد رموها بالكفر والضلال وأخذوا ينشرون عنها ما يسيء إليها لتنفير الناس منها، وقد استغل هؤلاء خلاف سليمان بن عبد الوهاب شقيق صاحب الدعوة معه

١– محمد كرد على : القديم والحديث ص ١٦٥.

٢– السيد رشيد رضا : الوهابيون والحجاز ص ١١.

وانتقاده الإمام فى آرائه وفي تفسيراته، وزاد المعارضون فأسرفوا في معاداتهم للدعوة بأن ادعوا بأن الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأنصاره يضمرون الكراهية للنبى صلى الله عليه وسلم وبقية الأنبياء والأولياء والصالحين، ومنشأ هذا الادعاء أن الوهابيين استنادا إلى حديث نبوى شريف يقول : لا تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا، والمسجد الأقصى يرون أن السفر لزيارة قبور الأنبياء والصالحين بدعة لم يعملها أحد من الصحابة أو التابعين ولم يأمر بها النبى صلى الله عليه وسلم، وقد سبق ابن تيميــة وابن عبد الوهــاب طوائف كثيرة من العلماء المتقدمين بهذا الرأى (١).

وفى واقع الأمر فإن دعوة محمد بن عبد الوهاب ليست بدعة جديدة لأنها رجوع بالإسلام إلى أصوله على عهد الرسول الكريم والصحابة،. ولكن الجديد فيها هو ظهورها فى زمن بدا فيه كل شىء مخالف لما درج عليه الناس منذ سنوات وأصبح من عاداتهم يعتبر بدعة مدعاة للاستنكار، وإذا كانت الدعوة قد لقيت معارضة فإن ذلك سنة كل جديد على القوم فى كل مكان.

ونحن نعتقد أن دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب دعوة صحيحة تماما ولنا فى أقوال علماء المسلمين والمستشرقين ما يؤكد ما ذهبنا إليه هنا ، فإن المؤرخ المصرى المعاصر لظهور الدعوة عبر عن رأيه فى دعوة محمد بن عبد الوهاب بقوله فى أحداث يوم ٢٩ صفر ١٢١٨هـ الموافق ٣٠ يونية ١٨٠٣م : وحضر صحبة الحجاج - المصريين العائدين - كثير من أهل مكة هروبا من الوهابى، ولغط الناس في خبر الوهابى واختلفوا فيه، فمنهم من يجعله خارجيا وكافرا - وهم المكيون ومن تابعهم وصدق أقوالهم - ومنهم من يقول بخلاف ذلك لخلو غرضه. وأرسل إلى شيخ الركب المغربى كتابا ومعه أوراق تتضمن دعوته وعقيدته وأورد الجبرتى صورة لهذا الكتاب جاء فيه : من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له ... وقال : قال الله تعالى قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين، وقال تعالى : قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم، وقال تعالى : وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا، وقال تعالى : اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون، وقال تعالى : وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله.

١- حافظ وهبة : نفس المرجع ص ٣٠١.

وقال أيضا فى رسالته : إذا عرف هذا فمعلوم ما قد عمت به البلوى من حوادث الأمور التى أعظمها : الأشراك بالله والتوجه إلى الموتى، وسؤالهم النصر على الأعداء وقضاء الحاجات، وتفريج الكربات التى لا يقدر عليها إلا رب الأرض والسموات وكذلك التقرب إليهم بالنذور وذبح القربان والإستغاثة بهم فى كشف الشدائد وجلب الفوائد إلى غير ذلك من أنواع العبادة التى لا تصلح إلا لله وصرف شىء من أنواع العبادة لغير اللهّ كصرف جميعها لأنه سبحانه وتعالى أغنى الأغنياء عن الشرك ولا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا .

وأضاف فى رسالته : فهذا هو الذى أوجب الإختلاف بيننا وبين الناس حتى آل بهم الأمر إلى أن كفرونا وقاتلونا، واستحلوا دماءنا وأموالنا حتى نصرنا الله عليهم وظفرنا بهم ، وهو الذى ندعو الناس إليه ونقاتلهم عليه بعدما نقيم عليهم الحجة من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجماع السلف الصالح من الأمة (١).

ويبدو من تسجيل الجبرتى لأحداث الدعوة الوهابية أنها تلقى منه القبول وقد دلل على ذلك أيضا فى أحداث يوم ٢ صفر ١٢٢٢هـ/ ١١ أبريل ١٨٠٧م حين سجل ما يلى : وصل حجاج المغاربة إلى مصر من طريق البر وأخبروا أنهم حجوا وقضوا مناسكهم. وأن مسعود الوهابى - يقصد الأمير سعود بن عبد العزيز - وصل مكة بجيش كثيف، وحج مع الناس بالأمن وعدم الضرر ورخاء الأسعار، وأحضر مصطفى جاويش أمير الركب المصرى وقال له : ما هذه العويدات والطبول التى معكم؟ (يعنى بالعويدات المحمل) فقال : هو إشارة وعلامة على اجتماع الناس بسبب عاداتهم، فقال : لا تأت بذلك بعد هذا العام، وإن أتيت به أحرقته، وأنه هدم القباب، وقبة آدم، وقباب ينبع والمدينة وأبطل شرب التنباك والنارجيلة من الأسواق، وبين الصفا والمروة وكذلك البدع (٢).

بل إن الجبرتى يسجل رأيه بصورة أكثر دقة وصراحة فى تسجيله لأحداث يوم ٢٢ ذى الحجة ١٢٢٣هـ الموافق ٨ فبراير ١٨٠٩م حين يقول . انقطع الحج الشامى والمصرى معتلين بمنع الوهابى الناس عن الحج، والحال ليس كذلك فإنه لم يمنع أحدا يأتى إلى الحج على الطريقة المشروعة، وإنما يمنع من يأتى بخلاف ذلك من البدع التى لا يجيزها الشرع، مثل المحمل والطبل الزمر وحمل الأسلحة وقد وصل طائفة من حجاج المغاربة، وحجوا ورجعوا في هذا العام وما قبله، ولم يتعرض لهم أحد بشىء.

١- عبد الرحمن الجبرتى : نفس المرجع .

٢- نفس المرجع .

ويضيف الجبرتى أن أهل المدينة ومكة قد شوهوا دعوة محمد بن عبد الوهاب بأن : الوهابى استولى على ما كان بالحجرة الشريفة من الذخائر والجواهر ونقلها وأخذها فيرون أن أخذه لذلك من الكبائر العظام، وهذه الأشياء أرسلها ووضعها خساف العقول من الأغنياء والملوك والسلاطين الأعاجم وغيرهم، إما حرصا على الدنيا وكراهة أن يأخذها من يأتى بعدهم أو لنوائب الزمان، فتكون مدخرة ومحفوظة لوقت الاحتياج إليها فيستعان بها على الجهاد ودفع الأعداء. فلما تقادمت عليها الأزمنة، وتوالت عليها السنين والأعوام الكثيرة - وهى فى الزيادة - ارتصدت معنى لا حقيقة، وارتسم في الأذهان حرمة تناولها، وأنها صارت مالا للنبى صلى الله عليه وسلم فلا يجوز لأحد أخذها ولا إنفاقها، والنبى عليه الصلاة والسلام منزه عن ذلك ولم يدخر شيئا من عرض الدنيا فى حياته.

وناقش الجبرتى الإدعاءات بتكفير الوهابيين لأخذهم هذه الذخائر والجواهر واتهامهم بكراهية النبى وعدم محبته، وقال : ومحبة الرسول بتصديقه واتباع شريعته وسنته لا بمخالفة أوامره وكنز المال بحجرته وحرمان مستحقيه من الفقراء والمساكين وباقى الأصناف الثمانية(١) وكنز المال بحجرة الرسول لا ينتفع به أحد إلا مايختلسه العبيد الخصيون الذين يقال لهم أغاوات الحرم، والفقراء من أولاد الرسول وأهل العلم والمحتاجون وأبناء السبيل يموتون جوعا. وهذه الذخائر محجور عليها وممنوعون منها إلى أن حضر الوهابى واستولى على المدينة وأخذ تلك الذخائر (٢).

ولنا فى قول لو ثروب ستودارد عن دعوة محمد بن عبد الوهاب سندا آخر على صحة مادعا إليه الإمام، حيث ذكر أن الدعوة الوهابية إنما هى دعوة إصلاحية خالصة غرضها إصلاح الخرق ، ونسخ الشبهات وإبطال الأوهام ونقض التفاسير المختلفة والتعاليق المتضاربة التى وضعها أربابها فى عصور الإسلام الوسطى، ودحض البدع وعبادة الأولياء(٣).

١-يقصد بها الأصناف الثمانية من الناس المستحقين للصدقة والزكاة.

٢- الجبرتى : نفس المرجع .

٣- لو ثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى ج ١ ص ٢٦٤.

ولقد صور العالم المصرى الدكتور أحمد أمين دعوة محمد بن عبد الوهاب أبلغ تصوير حين ذكر أن هذه الدعوة حرب على كل ما ابتدع بعد الإسلام الأول من عادات وتقاليد، فلا اجتماع لقراءة مولد ولا احتفاء بزيارة قبور ولا خروج النساء وراء الجنازة ولا إقامة أذكار يغنى فيها ويرقص ولا محمل يتبرك به ويتمسح ويحتفل به هذا الاحتفال الضخم وهو ليس إلا أعواد خشبية لا تضر ولا تنفع . كل هذا مخالف للإسلام الصحيح يجب أن يزال ويجب أن نعود إلى الإسلام فى بساطته الأولى وطهارته ونقائه ووحدانيته واتصال العبد بربه من غير واسطة أو شريك فلا إله إلا الله معناها كل ذلك. إن محمد ابن عبد الوهاب لم ينظر إلى المدنية الحديثة وموقف المسلمين منها ولم يتجه فى إصلاحه إلى الحياة المادية، وإنما اتجه إلى العقيدة وحدها، فعنده أن العقيدة والروح هما الأساس وهما القلب إن صلحا صلح كل شيء وإن فسدا فسد كل شيء (١).

ويصور الدكتور طه حسين بأسلوب بليغ دعوة محمد بن عبد الوهاب التى أثارت الانتباه العالمى خلال القرن الثامن عشر الميلادى فى قوله إن مبدأ الحركة جديد وقديم معا، أنه جديد بالنسبة إلى المعاصرين. ولكنه قديم فى حقيقة الأمر لأنه ليس إلا الدعوة القوية إلى الإسلام الخالص النقى المطهر من كل شوائب الشرك والوثنية، هو الدعوة إلى الإسلام كما جاء به النبى خالصا لله وحده ملغيـــا كل واسطة بين الله وبين الناس، هو إحياء للإسلام العـــربى وتطهير له ممـــا أصابه مـــن نتائج الجهل ومن نتائج الإختـــلاط بغير العرب (٢).

ولرب قائل أن أتباع محمد بن عبد الوهاب قد اتخذوا موقفا متطرفا فى الدعوة وصل إلى تكفير المسلمين الذين لا يعتنقون مذهبهم وإلى أن تحل دماؤهم، بل إنهم تشددوا فى لبس العمامة على أنها سنةعن رسول اللهّ صلى الله عليه وسلم، وكان كثير منهم يرددون أن ما عدا قطرهم من الأقطار الإسلامية التى تنتشر فيها البدع ليست ممالك إسلامية، وأن دارهم دار حرب وجهاد. وأنهم اعتبروا التزين بالحلى وشرب الدخان ولبس الحرير بدعا يجب التشديد فى محاربتها وتعقب متخذيها.

ولئن صح هذا القول علي بعض أتباع الدعوة فإنه لا يصح على مبادىء الدعوة ودعاتها العاملين بمبادئها الصحيحة، ويجب أن ندرك أن كثيرا من أتباع الدعوة كانوا من البدو الذين

١-) د. أحمد أمين : زعماء الاصلاح ص ١٨.

٢- د. طه حسين : الحياة الأدبية فى جزيرة العرب، مجلة الهلال مارس ١٩٣٣.

أساءوا فهم مبادئها فغالوا فى تطبيقها (١) واشتدوا فى ذلك مما نفر منهم الكثير من المسلمين وأثار على الدعوة وأصحابها ثائرة العالم الإسلامى، ونحن مع القائلين بأن ما ينسب إلى الدعوة من تكفير من عدا أتباعها هو بلاشك تزوير من خصومها - وما أكثرهم كما رأينا - وأن وقعت بعض أشياء من بعض جفاة الأعراب والجهل، فليس من الإنصاف أن ينسب كل ذلك إلى أتباع الدعوة كلهم وهم أهل نجد (٢).

ولايمكن إنكار وجود مغالين فى تنفيذ مبادىء الدعوة حتى خرجوا عن جوهر المبادىء التى دعا إليها الإمام محمد بن عبد الوهاب، حتى أن هذا الغلو استمر إلى مطلع القرن العشرين وتمثل فى رفض مظاهر الحياة الحضارية الجديدة بآلاتها ومعداتها وابتكاراتها، وقد بذلت حكومة الملك عبد العزيز آل سعود جهوداً كبيرة لإقناع أولئك المغالين حتى أمكن استخدام الآلات والمخترعات الحديثة في المملكة.

ومما لاشك فيه أنه رغم هذه السلبيات التى لحقت بالدعوة فان ظهور الإمام محمد بن عبد الوهاب ودعوته الإصلاحية قد أحدثت نشوة دينية في العالم العربى والإسلامى بعد ركود طويل خيم على العقول. ولاشك أيضا فى أنها كانت دعوة رائدة في ميدانها رغم صعوبة الظروف التى تمت فيها حتى ذاعت مبادئها وانتشرت وأصبحت نموذجا لما جاء بعدها من حركات الإصلاح (٣).

كذلك لا يمكن إغفال تأثير هذه الحركة الإصلاحية علي الفكرة العربية التى كانت مغمورة تحت السيطرة التركية على الأقطار العربية، وإذا كانت دعوة محمد بن عبد الوهاب قد اهتدت بها حركة محمد بن على السنوسى الإصلاحية فى ليبيا، وثورة محمد أحمد المهدى فى السودان، وفكرة الجامعة الإسلامية في مصر طوال القرن التاسع عشر، فإن الدعوة الوهابية قد نبهت أذهان العرب بضرورة إيقاظ وعى العرب وإعادة أمجادهم ونقض السيطرة التركية، ولعل هذا الاتجاه كان دافعا لكى تلتف القلوب حول آل سعود العرب الخلص، كما كان له تأثير علـى فكرة الشريف حسين فى الحجاز لإقامة دولة عربية تشمل شبه الجزيرة العربية والعراق وكل بلاد الشام بعيدا عن السيطرة التركية ..

١- د. عبد الرحيم عبد الرحمن : نفس المرجع السابق ص ٢٩.

٢- حافظ وهبة : نفس المرجع ص ٣٠٢.

٣- د. عبد الرحيم عبد الرحمن : نفس المرجع ص ٢٠

الفصل الثامن

طرابلس الغرب والدعوة السنوسية

- برقة - محمد بن على السنوسى - أسس الدعوة السنوسية - أسلوب الدعوة - علاقة السنوسية بالدولة العثمانية - السنوسية والقوى الخارجية - تقييم الدعوة السنوسية .

برقة

ولد محمد بن على السنوسى فى الجزائر ، ثم أكمل تعليمه فى المغرب، وسافر إلى مصر مارا بليبيا فالحجاز، ثم عاد ثانية إلى مصر فليبيا قبل أن يستقر به المقام فى برقة، ومعنى هذا أنه لم يكن برقاويا، كما أن دعوته لم تبدأ ببرقة، ولكنه منذ اتخذ هذا الإقليم مقرا له ومستقرا انتسب إليه وباشر دعوته تحت إشرافه المباشر بين أهل الإقليم، ومن هنا تجئ دراستنا لبرقة كمجال كبير وواسع للدعوة السنوسية.

وبرقة أحد أقاليم ليبيا الثلاثة (برقة، طرابلس، فزان) بل أكبر هذه الأقاليم من حيث المساحة (٧٠٠ألف كم٢) وإن لم يكن أكثرها سكانا ، ويمتد هذا الإقليم من هضبة السلوم شرقا وحدود طرابلس غربا، وكان يعرف عند الرومان بإقليم «سيرينة» التى سماها العرب «قيرين» أو «قرناه» ثم أصبح يعرف منذ الفتح العربى بإقليم برقة» (١).

وسطح الإقليم متنوع بين سهل ساحلى يضيق فى الجزء الأوسط بحيث يتكون من جيوب ساحلية تنحشر بين رءوس صخرية تصل إلى الساحل، ولكن فى جناحى برقة: فى البطنان (مرمريقة) شرقا، وفى برقة البيضاء والحمراء غربا، يتسع هذا السهل الساحلى بحيث يمتد عشرات الأميال إلى أن يلتقى بالصحراء (٢)، وإلى جانب هذا السهل الساحلى يوجد الجبل الأخضر الذى يرتفع عن مستوى سطح البحر بحوالى ألف متر وتكسوه الخضرة الدائمة، ويرتفع من الساحل ارتفاعا مباشرا ولكنه ينحدر تدريجيا نحو الصحراء فى الجنوب، وبه من الأراضى الصالحة للزراعة المساحات الكبيرة التى ترويها مياه الأمطار الغزيرة.

١- أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٨ ، ص٢٨٢ .

٢- د. نقولا زيادة : ليبيا من الاحتلال إلى الاستقلال ص١ .

وإلى الجنوب من الجبل الأخضر توجد الصحراء الواسعة التى تكون معظم مساحة الإقليم وهذه الصحراء مستوية وإن وجد بها بعض الكثبان والهضبات فهى مستوية أيضا، وفى صحراء برقة توجد أودية عميقة بعضها يمتلئ بالماء فترة ما وبعضها يكون جافا طول السنة(١). كما توجد بعض الآبار والينابيع المتناثرة وسط الصحراء تحيط بها واحات فقيرة مثل الجغبوب والكفرة وجالو، وأوجلة (٢).

وسكان برقة يعيشون فى تنظيم قبلى اتضحت صورته منذ الفتح العربى الإسلامى ثم عندما زحفت قبائل بنى هلال وبنى سليم من مصر إلى المغرب منذ القرن الخامس الهجرى- الحادى عشر الميلادى- فوجدنا هذه القبائل تنقسم إلى قسمين رئيسيين: القبائل السعدية ، وقبائل المرابطين، ويذكر البعض أن السعديين هم قبائل بنى سليم، وأن المرابطين هى بقية القبائل العربية اليمنية التى جاءت مع الفتح العربى الإسلامى والتى اختلطت بالبربر وعربتهم ، وأن ثمة قبائل من المرابطين لها شرف فى النسب(٣) إلى بيت الرسول صلى الله عليه وسلم . ومن أهم القبائل السعدية العبيدات وعائلة فايد والحسا والبراعصة والدرسة والعبيد وعرفة والعواقير والمغاربة ، وأهم قبائل المرابطين : المنفة والقطعان والحوطة والفواخر والزوية.

وقبائل برقة تعيش نفس التنظيم القبلى العربى من حيث انقسامها إلى عشائر وبطون وأفخاذ ، وللقبيلة أرض تملكها وتنتقل فى أرجائها . وأفراد كل قبيلة متضامنون فى أداء ما عليهم من واجبات وفى الحصول علي ما لهم من حقوق، ولكل قبيلة رئيس أو شيخ له الرياسة العامة على أفرادها. ومنذ أيام الفتح العربى الإسلامى حتى العصر الحديث كان الحكم فى برقة يأخذ القبيلة بعين الاعتبار فى تقسيم البلاد إلى وحدات إدارية بحيث تكون القبيلة أساسا لتطبيق النظام ومساعدة الحكام (٤).

ولسنا بحاجة إلى الحديث بتفصيل عن معيشة القبائل العربية فى برقة، حيث أن القبائل البدوية فى الصحراء العربية سواء فى المشرق- - حيث رأينا فى نجد- وفى المغرب- حيث نجد فى برقة- يعيشون حياة غير مستقرة . فيما عدا الواحات، وكثيرا ما تتقاتل القبائل من أجل المراعى أو مياه الآبار.

١- د. فيليب رفة: الجغرافيا السياسية لأفريقية ص٣٢٨ .

٢- د. عزة النص : أحوال السكان فى العالم العربى ص٧٦ .

٣- د. نقولا زيادة: نفس المرجع ص١٢ .

٤- مصطفى بعيو: دراسات فى التاريخ اللوبى ص٣٢ .

وقد توفرت فى برقة ظروف اجتماعية وسياسية ودينية هيأت للسيد محمد بن على السنوسى أن يدعو لأفكاره بين أهل الإقليم الذى تميز بانقسام سكانه إلى قبائل متنافرة تأثر أفرادها بالبيئة الصحراوية فاتصفوا بالقوة والخشونة والمحافظة على العادات والتقاليد العربية، هذا إلى جانب أن الإقليم كان عدد سكانه قليل بالنسبة لمساحته الشاسعة ، كما كان هذا المجتمع البرقاوى أكثر تجانسا فى تكوينه الجنسى وخلوا من الأقليات التى تفت دائما فى عضد الحركات الإسلاحية (١).

ومنذ أن أصبحت ليبيا (طرابلس الغرب) ولاية عثمانية عام ١٥٥١م سيطر الحكم العثمانى على السواحل دون الدواخل، وعلى هذا أهملت برقة فلم تلق من عناية الدولة العثمانية أو إشرافها المباشر ما يستحق من اهتمام ، حتى إذا حكمت الولاية الأسرة القرمانلية حاول أمراؤها السيطرة على كل الولاية بما فيها برقة، ثم عاد الحكم العثمانى المباشر ليجعل من برقة ولاية قائمة بذاتها عام ١٨٣٨م.

وقد حاول الحكام العثمانيون جمع السلطة فى أيديهم ولكن أهل برقة لم يخضعوا للحكم الجديد ومن ثم حدثت ثورات فصدامات بين أهل البلاد والأتراك، حتى بات الأتراك يتوقون إلى إزالة هذا الشر المستطير ووضع حد للصدام وذلك باستمالة زعماء العرب وأصحاب النفوذ فى البلاد، فكانت هذه الرغبة من جانبهم السبب الأكبر والمباشر الذى دعا العثمانيين إلى الاعتراف بالسنوسية ليس فقط كدعوة وطريقة بل كإمارة وسياسة(٢).

وكانت أحوال أهل برقة الدينية تستدعى وجود داعية لإصلاح ما شاب عقيدتهم الدينية من شوائب ، ذلك أنه بحكم مرور السنين وإهمال المصلحين الدينيين لوظيفتهم قد جعل البرقاويين يحيدون عن أصول الإسلام الصحيح، وغير متفهمين للعقيدة وإنما مقلدين ، ومن ثم أصبحوا سادرين فى غيابات الضلال معرضين لخطر الاضمحلال السريع من الوجهتين الدينية والخلقية، إذ أسس بعض أصحاب النفوذ من شيوخ البدو فى الجبل الأخضر ضربا من الكعبة قصدوا به تقليد البيت الحرام، وقد أراد مؤسسو هذه الكعبة الزائفة أن يدخلوا فى أذهان البدو أن زيارتها تقوم مقام حج بيت الله الحرام(٣) إلى غير ذلك من أعمال تنافى الدين كوأد

١- د. محمد فؤاد شكرى: السنوسية دين ودولة ص٢٦ .

٢- نفس المرجع ص٢٦ .

٣- أحمد حسين : فى صحراء ليبيا ص٤٨ .

البنات وعدم صوم رمضان بابتداع بدعة تقوم على الذهاب قبل حلول شهر رمضان بأيام إلى وادى «زازا» المعروف بقوة رجع الصدى وسؤاله أيصومون رمضان أم لا ؟؟ فيجيب الصدى بالكلمة الأخيرة «لا» فيصبحون فى حل من الصوم ويفطرون .

محمد بن على السنوسى

هو محمد بن على بن السنوسى بن العربى بن حمو بن عبد القادر بن محمد بن يوسف بن عبدالله بن خطاب، الذى ينتهى نسبه إلى إدريس الأكبر بن عبدالله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] وهذا النسب يختصره السنوسيون ليصبح : محمد بن على السنوسى الخطابى الحسنى الإدريسى[٢].

وقد ولد فى ناحية الواسطة من بلدة مستغانم بالجزائر فى ١٢ ربيع الأول عام ١٢٠٢هـ الموافق ٢٢ ديسمبر ١٧٨٧م كما تؤكد أكثر المصادر التاريخية دقة .

وكان البيت الذى نشأ فيه صاحب الدعوة بيت علم ودين، فوالده وجده وأعمامه وأبناء أعمامه وكثير من نساء هذا البيت الكريم مثل جدة السيد- صاحب الدعوة لأبيه السيدة الزهراء وعمته فاطمة، كانوا جميعا علماء[٣] ومن ثم لاعجب أن نجد صاحب الدعوة منذ طفولته يترعرع فى جو علمى فى مسقط رأسه، ثم يستزيد من العلم بالانتقال إلى جامع القرويين فى فاس الذى كان مركزا من مراكز العلم والعلماء فى ذلك الوقت. فأقام به سبع سنوات (١٨٢٢-١٨٢٩) طالبا للعلم ثم مدرسا ، وقد اهتم بالصوفية اهتماما أساسه اعتقاده بأن سبيل الإصلاح الأول هو إيجاد التفاهم بين جميع المهتمين بالإسلام أفراداً وجماعات على تباعد الأقطار والديار، فدرس القادرية والشاذلية والناصرية والحبيبية [٤].

ومن فاس انتقل صاحب الدعوة إلى الجزائر حيث خالط أهل القوافل من السودان الغربى وعاش بينهم جنوبى الجزائر معلما وموجها، ثم واصل تنقلاته إلى تونس فطرابلس فبنى غازى فالقاهرة التى لم تطل إقامته بها أكثر من عدة أسابيع بارحها مغاضبا بسبب عدم الترحيب

١- مصطفى بعيو: المرجع السابق ص٢٠ .

٢- محمد بن على السنوسى : الدر السنية فى أخبار السلالة الإدريسية .

٣- د. محمد فؤاد شكرى: المرجع السابق ص١١ .

٤- د. نقولا زيادة: المرجع السابق ص٦٤ .

بأفكاره من قبل مشايخ وعلماء الأزهر الذين يسيطر عليهم وقتذاك والى مصر محمد على بعد أن مهدوا لولايته على مصر ، ولم يكن والى مصر ليرحب «بالسنوسى» ، ولعل موقف علماء الأزهر منه موقف موعز به (١).

ونتيجة لذلك سافر صاحب الدعوة إلى الحجاز حيث بقى هناك حوالى ثمانى سنوات يدرس الفقه الإسلامى على يد علماء مكة والمدينة المنورة، ويدرس أحوال المسلمين الذين يفدون كل سنة للحج من مختلف الشعوب والأقطار، ويقوم بنشر العلوم والمناظرة فيها ودراسة المذاهب الإسلامية ، كل ذلك فى الوقت الذى كان هناك عداء بين أشراف مكة والعثمانيين من ناحية وبين الوهابيين فى نجد من ناحية أخرى، مما جعل موقفه حرجا فى دعوته الإصلاحية فترك الحجاز عام ١٨٤٠م عائداً إلى الجزائر عن طريق مصر (واحة سيوة) فبرقة وطرابلس، ولكنه خشى الفرنسيين الذين احتلوا الجزائر منذ عام ١٨٣٠م فعاد إلى برقة حيث نزل بالجبل الأخضر ليتخذ منه مقرا لدعوته .

ومما تجدر ملاحظته أنه توفرت عوامل شكلت شخصية السيد محمد بن على السنوسى، أولى هذه العوامل نشأته الدينية فى وسط أسرة زاخرة بالعلماء فى الدين، وثانى هذه العوامل رحلاته المتعددة التى تنقل فيها بين مغرب الوطن العربى إلى مشرقه التقى خلالها بأهل البلاد ودرس أحوالهم الاجتماعية والدينية ووقف على أسباب ضعف الإسلام فى نفوس العرب المسلمين ، وضعف البلاد العربية نتيجة لشدة حرص الأتراك على حكم العالم العربى واضطهاد العرب ومحو شخصيتهم ، والاستخفاف بالحقوق الإسلامية والاحتقار للجنسية العربية وقد جعلته رحلاته يدرك أن الدولة العثمانية العظيمة في طريق الانحطاط والاضمحلال(٢).

وكان من هذه العوامل كذلك أولئك العلماء الذين احتك بهم فى رحلاته وتأثر بعلمهم أو نفر منهم ونفروا منه، فعندما كان بفاس بالمغرب التقى بعدة علماء على رأسهم الشيخ العربى بن أحمد الدرقاوى أحد مشايخ الطريقة الشاذلية ، ورغم ما لقيه من العلماء ومن طلاب العلم من تكريم فإن سلطنة مراكش شددت فى مراقبته حتى لاتنقلب أفكاره الدينية إلى أفكار سياسية تعصف بالسلطنة.

١- مصطفى بعيو: نفس المرجع ص٢٤ .

٢- د. محمد فؤاد شكرى : نفس المرجع ص١٧ .

وعندما وصل صاحب الدعوة إلى مصر اجتمع مع علماء من الأزهر كان من بينهم الشيخ حسن العطار والشيخ الأمير والشيخ الصاوى وغيرهم الذين رأوا فى آراء صاحب الدعوة خروجا عن المألوف وجرأة لم يعهدوها، فانتهزوا فرصة تصديه لإلقاء الدروس بالجامع الأزهر وانتقاده لحكومة الباشا فى القاهرة- محمد على وللحكومة العثمانية وطلبوا من طلاب العلم والمستمعين لآرائه الابتعاد عن حلقاته لأنه يبتدع فى الدين ، ويتطرف فى آرائه .

وعندما زار مكة التقى بعدد من العلماء المسلمين على رأسهم الإمام أبى العباس أحمد بن إدريس الفاسى مؤسس الطريقة الإدريسية الذى ظل صاحب الطريقة ملازما له بمكة حتى توفى ابن إدريس الفاسى فى عام ١٨٣٥م ودرس على يديه أصول الطريقة الشاذلية . ودرس التيجانية على أيدى أبى العباس التيجانى والطريقة القادرية(١) على يد الإمام العرائشى ، ولكنه وجد تعنتا من أشراف مكة ومن العثمانيين فى الحجاز، كما وجد أستاذه ابن ادريس الفاسى بمكة من قبل . وقد كان من زملاء صاحب الدعوة فى التتلمذ على يدى ابن إدريس الفاسى بمكة السيد صالح الميرغنى السودانى الأصل ، فلما توفى الأستاذ تحمل التلميذين أمانة الاستمرار فى الرسالة فوجدت الطريقتان المعروفتان الطريقة الميرغنية بالسودان، والطريقة السنوسية فى برقة.

وكان من العوامل المؤثرة فى تكوين شخصية صاحب الدعوة كذلك ظهور الأطماع الفرنسية فى بلاده الجزائر ، تلك الأطماع التى تحققت نتيجة ضعف الدولة العثمانية وعدم اتخاذها وسائل حماية الأقطار العربية والإسلامية من خطر المد الاستعمارى، ومن ثم رأى عدم الاصطدام بالسلطات الفرنسية فى الجزائر حتى لايعطيها الفرصة للقضاء على حركته الإصلاحية فى مهدها، ولكن أسس دعوته أظهرت تأثره بالعدوان الفرنسى على الجزائر .

١- تعتبر الطريقة القادرية من أوسع الطرائق الإسلامية انتشارا، أسسها الولي الشهير عبد القادر الجيلانى فى القرن الثانى عشر الميلادى- السادس الهجرى- وقبره فى بغداد . وقد دخلت الطريقة القادرية إلى بلاد المغرب فى القرن الخامس عشر على أيدى مهاجرى واحة توات فى جنوب الجزائر ، والمعروف أن الزعيم العراقى رشيد عالى الكيلانى صاحب الثورة المعروفة فى العراق من أحفاد مؤسس هذه الطريقة . مصطفى بعيو ص٢٦ .

أسس الدعوة السنوسية

يمكن أن نحدد أسس الدعوة السنوسية فى ثلاث : أساس دينى، وأساس اجتماعى، وأساس سياسى. وهذه الأسس اتضحت فى كتابات صاحب الدعوة سواء كانت كتبا مؤلفة أو رسائل إلى القبائل والمريدين والإخوان. ولقد تعددت كتب صاحب الدعوة حتى بلغت أكثر من أربعين مؤلفا بقى بعضها وفقد البعض الآخر أثناء الاحتلال الإيطالى لليبيا، ومن أشهر هذه المؤلفات : الدرر السنية فى أخبار السلالة الإدريسية، وهو كتاب تاريخى يتناول فيه ملوك الأدراسة ودولهم بالمغرب، وكتاب ريحانة الخبوب فى عمل السطوح والجيوب، وهو كتاب فى الرياضيات وكتاب فى العلوم بعنوان المنهل الروى الرائق فى أسانيد العلوم وأصول الطرائق وكتاب بعنوان «السلسبيل المعين فى الطرائق الأربعين، وهو كتاب تصوف يسرد حقائق عن أربعين طريقة صوفية ، ويؤكد أن الطرق إلى الله كثيرة ولكنها فى الحقيقة واحدة إذ مطلوب الكل واحد (١).

كما ألف صاحب الدعوة كتب ومؤلفات أخرى دينية فى موضوعها مثل: المسائل العشر وبغية المقاصد فى خلاصة المراصد وكتاب : إيقاظ الوسنان فى العمل بالحديث والقرآن ، ومقدمة لموطأ الإمام مالك، وغيرها من المؤلفات التى حوت أفكاره وأسس دعوته الإصلاحية ذات الثلاثة دعائم دينية واجتماعية وسياسية.

أولا : الأساس الدينى :

تمثل هذا الأساس فى الدعوة إلى الرجوع بالدين الإسلامى إلى ما كان عليه فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه من بعده ، ولذلك كان القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هما الأصليين اللذين يصح الاعتماد عليهما فى فهم الإسلام دون الإجماع والقياس المتأخرين(٢). وقد وضحت دعوته هذه فى كتبه ورسائله فمن ذلك ما جاء فى رسالة بعث بها إلى أهل «واجنقة» قوله : اسألكم باسم الإسلام أن تطيعوا الله ورسوله ، فقد قال سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز «يا أيها الذين أمنوا اطيعوا الله وأطيعو الرسول، ويقول كذلك من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن يطع الله ورسوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا» نسألكم أن تطيعوا أوامر الله ورسوله

١- أحد الدجانى: أحاديث عن تاريخ ليبيا فى القرنين ١٨ ، ١٩ .

٢- نقولا زيادة: نفس المرجع السابق ، ص٧٠ .

فتؤدون الصلوات الخمس كل يوم وتصومون شهر رمضان وتؤتون الزكاة وتؤدون فريضة الحج إلى بيت الله الحرام، وتجتنبون ما نهى الله عنه من قول الكذب والغيبة وابتزاز أموال الناس بغير حق ، وشرب الخمر، وتأدية شهادة الزور وغير ذلك مما أمر الله باجتنابه .فإذا فعلتم ما أمر الله به ورجعتم عما نهى عنه أسبل عليكم نعمة الإسلام ومنحكم الخير والرزق الدائمين[١].

ولم تكن هذه الدعوة الإصلاحية بالرجوع بالإسلام إلى ما كان عليه فى أيامه الأولى فقط، بل قرن صاحب الدعوة بضرورة العمل بالقرآن الكريم والسنة المحمدية الشريفة قرن ذلك بعدم الاكتفاء بالأذكار والأوراد- كما تسير الطرق الصوفية- أو الاعتماد على مجرد التلاوة والذكر دون العمل الجدى، ومراعاة أحكام الشريعة الإسلامية فى الأعمال الخاصة والعامة كما كان العهد فى أيام الرسول والخلفاء الراشدين من بعده [٢].

ويؤكد ذلك أيضا ما حمله شيوخ السنوسية إلى القبائل من وصايا صاحب الدعوة بتلاوة الذكر سرا وعلانية وأن تجعلوا اعتمادكم كله على الله تعالى وعلى كتابه الحكيم وسنة نبيه الكريم، إذ يجب أن نتوجه دائما إلى المولى عز وجل ونطلب منه تعالى العون والمؤازرة واخشوا الله دائما ولاتفعلوا إلا ما أمر به وابتعدوا عما نهى عن فعله ، وعلموا كلمة الحق سبحانه وتعالى. إن رحمة الله واسعة ، وعند الله نعيم مقيم لا أول له ولا أخر[٣].

وواضح من هذه العبارات التى تستند إليها الدعوة السنوسية كأساس دينى تطهير الإسلام من البدع والخرافات التى علقت به، وذلك يتم بالعودة إلى أصول الإسلام الأولى والبعد عن الحركات المسموح بها فى الطرق الصوفية الأخرى كالغناء والرقص وإظهار الكرامات والمعجزات أو الشطح والتمايل، وأيضا الاعتماد على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة كأصلين للدين الإسلامى، إلى جانب عدم الشرك بالله لأنه جلت قدرته الواحد الأحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحدا ويتم ذلك بعدم التضرع إلى الأولياء أو الشخوص الحجرية التى لاتنفع ولاتضر ولأن ذلك ينهى الله عنه .

وتضمن الأساس الدينى للطريقة السنوسية كذلك اعتبار باب الاجتهاد ما زال مفتوحا ومن ثم يجوز الاجتهاد فى مسائل الدين الإسلامى التى تواجه المسلمين بشرط أن يراعى المجتهد

١- محمد فؤاد شكرى: المرجع السابق ص٤٥-٤٦ .

٢- مصطفى بعيو: المرجع السابق ص٣٦ .

٣- د . محمد فؤاد شكرى: المرجع السابق ص٤٦ .

أصلى الدين الإسلامى الوحيدين وهما القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والأحكام التى نصا عليها. إلا إذا كان صاحب الطريقة قد اتفق مع ابن تيمية ومحمد بن الوهاب فى فتح باب الاجتهاد . فقد كانت دعوة لها ما يبررها خاصة وقد تحجرت الأفكار عند علماء المسلمين بسبب اتجاههم نحو التقليد لا التجديد. وفى هذا المقام فقد دافع صاحب الطريقة عن المتصوفين الخالصين ومذهب التصوف الحق فذكر أنه : قد يسرى فى وهم من ليس له رسوخ قدم فى علم القوم أن أحوال الصوفية بعضها مباين لما عليه علماء الشريعة، كما فاه فيه بعض الجهلة تغاليا أو تنقيصا ، فاعلم أن سبيل القوم رضى الله عنهم اتباع النبى صلى الله عليه وسلم فى الجليل والحقير ، وكلما أزداد أحدهم اتباعا كلما ازداد كمالا لكون الكمال الكلى عندهم فى كمال الاتباع وإلا فليس منهم أو ناقص عندهم فإن أعمالهم موزونة بميزان الشريعة فما رجح فيه قبلوه وما لايرجح نبذوه[١].

ومن هذا المنطلق منع صاحب الدعوة كل أشكال المبالغة فى الحماسة الخاصة بالذكر كما هى العادة فى معظم الطرق الأخرى وقصر الذكر فى طريقته على اسم الجلالة، وجعل لها ما يعرف «بالورد» ومنع الاستعانة بالدفوف والمواكب والحركات العنيفة التى ترمى إلى ازدياد حماسة الأشخاص فى الذكر بهز الأجسام بشكل خاص[٢] وبهذا وضع أساس صحيحا للتصوف يبعده عن الابتذال ويقربه من العبادة . وكان ذلك نجاحا للدعوة السنوسية ليس فقط فى برقة ولكن أيضا فى الحجاز حيث توجد الدعوة الوهابية فى شبه الجزيرة العربية، تلك الدعوة المعروفة بشدة موقفها من أصحاب الطرق الصوفية المختلفة.

ثانيًا : الأساس الاجتماعى

لم يكن الأساس الاجتماعى للدعوة السنوسية يبعد عن الأساس الدينى لها ذلك أن الأساس الاجتماعى يتمثل فى نشر فضائل الإسلام عن طريق الزوايا التى مارست دورا كبيرا بل الدور كله تقريبا فى نشر الدعوة السنوسية ليس فقط فى برقة وغيرها من الأقطار العربية بل وأيضا نشر الدين الإسلامى بين الشعوب غرب ووسط أفريقيا الوثنيين .

١- أحمد الدجانى : نفس المرجع ص٨٧-٧٩ .

٢- مصطفى بعيو: المرجع السابق ص٤١ .

ويتضح الأساس الاجتماعى للدعوة السنوسية من كلمات صاحبها إلى أهل واجنقة التى فيها : يا أهل واجنقة إنا نريد أن ننشر السلام بينكم وبين الأعراب الذين يغيرون على بلادكم ويستعبدون أولادكم ويبتزون أموالكم، وأنا بعملنا هذا نقوم بما أمر الله به كتابه العزيز حيث قال سبحانه وتعالى : وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما «ويقول سبحانه وتعالى : «أعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت إيمكانكم» [١].

كما أن الأساس الاجتماعى للدعوة تمثل فى عدم الاقتصاد على العبادة والتصوف بل دفع المسلمين إلى أن يكونوا عبادا عاملين منتجين فى الزوايا التى تضم إلى جانب المسجد والمدرسة والمزرعة والمتجر: يقوم فيها المسلمون بالعمل فى شتى المجالات التى تحويها الزوايا ولعل خير ما يمثل هذه الروح التى أرادها صاحب الدعوة أن تكون روح الجميع هو أن بناء الزاوية نفسه كان يقوم به أهلها، فالزاوية إذن منذ وضع حجرها الأساسى كانت رمزا للنشاط والإنتاج[٢].

وقد أمكن للدعوة السنوسية بفضل دعاتها وزواياها المنتشرة بين القبائل فى برقة أو غيرها من الأقطار العربية والأفريقية أن تؤاخى بين القبائل المتدابرة وأن تؤلف بينها وتعلمها كيف يكون الإخاء وكيف يكون الإيثار، حتى أصبحت كلمة «الاخوان» تعنى الوفاء والإخلاص وتذكرنا بالأخوة الإسلامية فى عهدها الأول[٣]. إلى جانب تحويل المناطق المقفرة ومعاقل قطاع الطرق إلى أماكن أمن يأوى إليها الناس للاهتداء إلى سواء السبيل وحفظ القرآن الكريم ومدارسة العلوم الدينية واللغوية.

وعلى هذا فإن تأثير الدعوة السنوسية على أهل برقة اتصالا بالأساس الاجتماعى أن انقطعت الخلافات بين القبائل الضاربة فى أنحاء الإقليم وارتبطت فيما بينها برباط الدعوة السنوسية والأخوة الإسلامية، وانقطعت الإغارات على المضارب وأمن المسافرين فى الصحراء من غزوات قطاع الطرق ونهبهم للأمتعة فانصرف الناس إلى الإنتاج الزراعى فى الزوايا وإلى الرعى فى المراعى المجاورة للزوايا وسارت قوافل التجارة فى أمان لخير الناس دون أن تتعرض لما كانت تتعرض له من قبل من مصاعب فى الوقت الذى تعددت فيه الزوايا بتعدد القبائل .

١- د. محمد فؤاد شكرى: المرجع السابق ص٤٦ .

٢- د. نقولا زيادة: المرجع السابق ص٧٠ .

٣- جامعة السيد محمد بن على السنوسى الإسلامية ص١٦ .

ثالثا : الأساس السياسى

يقوم هذا الأساس على مبدأ أن الدين الإسلامى لم يفرق منذ ظهوره بين الدين والدولة فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم هو الزعيم الدينى والزعيم السياسى فى نفس الوقت ، وخلفه من بعده الخلفاء الراشدين وخلفاء بنى أمية وبنى العباس، وحتى سلاطين آل عثمان فى تركيا جمعوا السلطتين الدينية والزمنية فأصبح السلطان العثمانى خليفة للمسلمين فى نفس الوقت ، وعلى هذا كانت الدعوة السنوسية تستند إلى مبدأ سياسى مع استنادها إلى المبادئ الدينية والاجتماعية، انطلاقًا من أنه طالما كان الإسلام دينا وسياسة فإنه منوط بصاحب الدعوة الذى يجمع بين الصفتين الدينية والسياسية تدبير شئون الدنيا للمسلمين إلى جانب شئون الدين.

وعلى هذا كانت الدعوة السنوسية وسيلة لإنشاء الإمارة لأنها أوجدت بفضل النظام الدقيق الذى وضعته لأتباع الطريقة نوعا من السيادة الدينية والدنيوية معا على خير ما يقيمه الإسلام من أسس لذلك ، حتى أصبحت السنوسية تسيطر على أفئدة المسلمين الذين بلغتهم هذه الدعوة [١]، عن طريق الشيوخ والإخوان الذين يختارهم صاحب الطريقة ويعدهم إعدادا دينيا وسياسيا يؤهلهم لقيادة أهل القبيلة أو القبائل التى توجد الزاوية فى أرضها ، بالإضافة إلى وضع تعليمات يسير عليها كل هؤلاء الشيوخ فى الاشراف على الزوايا، وربط الزوايا، ببعضها البعض وبالزاوية الأم فى البيضاء ثم فى الجغبوب فيما بعد برباط محكم من المراسلات حتى يستمر إشراف صاحب الطريقة ومتابعة لأعمال شيوخ الزوايا والإخوان فى أداء رسالتهم المتعددة دينية كانت أو سياسية أو تعليمية .

ومما يؤكد الأساس السياسى للدعوة السنوسية إلى جانب التنظيم المحكم للزوايا دعوة صاحب الطريقة أتباعه بالاستعداد الحربى بتعليم الرماية واستخدام السلاح وركوب الخيل وعدم الاكتفاء بتعليم أو ممارسة العبادات والشعائر الدينية لأن المؤمن القوى أفضل عند الله من المؤمن الضعيف ، ثم أن الفرد من الاخوان ما دام قادرا وغير عاجز أو مشغول أن يكون مستعدا للطوارئ متهيئا للحرب منتظرا للأمر منفذا له بكمال طاعته. ومن كان فقيرا فسلاحه وراحلته من الزوايا التابع لها أو من أغنياء الأخوان أنفسهم [٢].

١- د. محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص٤٥ .

٢- نفس المرجع ص٥٢ .

وكان تسليح الاخوان فى ليبيا دليلا على وضع الأساس المادى للإمارة السنوسية بوجود قوة عسكرية جاهزة ومستعدة للدفاع عن الطريقة والإمارة ضد أعدائها سواء كانوا من القوى المحلية أو الخارجية ، ولقد أثبت هؤلاء الإخوان وجودهم فى مواجهة الغزو الإيطالى لليبيا أوائل القرن العشرين . كما أثبتوا وجودهم أيضا فى صد التقدم الفرنسى من وسط القارة الأفريقية نحو الحدود الجنوبية لليبيا.

كما استندت دعوة الأفارقة للاستعداد الحربى كذلك إلى اقناع صاحب الدعوة بأن الاستعماريين الأوربيين لن يوقف أطماعهم سوى قوة أهل الأقطار الأفريقية واستعدادهم للدفاع عن بلادهم ضد هذه الأطماع الاستعمارية ، وإن كان لم يلجأ إلى إثارة الاضطرابات ضد القوى المسيحية فإنه ما كان يضمن نجاح الثورات ولما لم يتهيأ الناس ويستعدوا للقيام بها، ومن ثم سارت دعوته للاستعداد الحربى سواء فى ليبيا أو الأقطار الأفريقية المجاورة بهدوء وبدون أن تثير الشكوك من قبل الدول الأوروبية الاستعمارية ومن قبل تركيا ذاتها.

ولعل اعتراف الدولة العثمانية صاحبة السيادة على ليبيا بزعامة صاحب الدعوة السنوسية وإمارته ثم الاعتراف بزعامة وإمارة خلفائه دليلا على قوة الأساس السياسى للدعوة السنوسية. ولم يكن هذا الاعتراف العثمانى غريبا لأن صاحب الدعوة حرص على إقامة العلاقات الطيبة مع الدولة العثمانية وعدم إثارة شكوكها فى تحركاته وتعليماته لشيوخ زواياه والأخوان من أتباعه بما أكد قوة صاحب الدعوة ونفوذه على القبائل التى فشل الحكم العثمانى فى إخضاعها ، وما دام صاحب الدعوة يعترف بالسيادة العثمانية فلم يكن اعتراف الدولة العثمانية بالإمارة السنوسية أمرا غريبا أو منافيا لمصلحة الدولة[١].

وأخيرا فإن وصية صاحب الدعوة بإسناد رئاسة الطريقة والإمارة إلى الأكبر الأرشد من الأسرة السنوسية، بالإضافة إلى اتباع نظام البيعة الإسلامى .. كل ذلك دليل حى وعملى على تأكيد الجانب السياسى للدعوة السنوسية . ذلك أن صاحب الدعوة عمل فى حياته على تقديم ابنه الأكبر «السيد محمد المهدى» للصلاة وألبسه السيف وخلع عليه عباءة «جردا» وصافحه دليلا على المبايعة ومن ثم تقدم كل الحاضرين من أفراد الأسرة السنوسية ومن الإخوان إلى مصافحة «مبايعة» السيد محمد المهدى .. فكانت تلك المبايعة قبولا منهم فى حياة صاحب الدعوة نفسه . وبذلك جمعت السنوسية فى نظام الحكم بين مبدأ الوراثة الصلبية والعمل بمبدأ الشورى، وحققت فى هذا بعض شروط الإمامة [٢].

١- د. محمد فؤاد شكرى: نفس المرجع ص٥١ .

٢- نفس المرجع ص٥٥ .

أسلوب الدعوة

تميزت الدعوة السنوسية بأسلوب انفردت به فى نشر مبادئها الدينية والاجتماعية والسياسية، ومن ثم كانت فرص النجاح أمامها أكثر من غيرها من حركات الإصلاح السلفية الأخرى تمثل ذلك الأسلوب فى التدرج والمسالمة واللين من ناحية وابتداع أداة لتحقيق تلك المبادئ تحقيقا عمليا وأعنى بها نظام الزوايا من ناحية أخرى.

أولا : أسلوب التدرج

أما أسلوب التدرج والمسالمة واللين فيتضح من كتب صاحب الدعوة ورسائله ، فمن ذلك ما جاء فى رسالة إلى العلامة ابن الشفيع خليفته بزاوية المدينة المنورة حيث قال.. وحسنوا أخلاقكم ولينوا جانبكم للكبير والصغير ، قال تعالى «وقولوا للناس حسنا» وقال جل وعلا «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن» وقال صلى الله عليه وسلم : ارفقوا فإن الرفق ما كان فى شئ إلا زانه وأن الحمق ما كان فى شئ إلا شانه ، وارفعوا همتكم عن الخلق . وقال صلى الله عليه وسلم: ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس. عليكم بالمناصحة والمذاكرة وإرشاد عباد الله إليه والمدارسة والاجتماع والتحابب والتوادد فيما بينكم ، ولاتباغضوا ولاتدابروا ولاتقاطعوا وكونوا عباد الله إخوانا وعلى البر أعوانا(١).

وهذه الدعوة السلمية التى نأت بالسنوسية عن الدخول فى صراع مع القبائل من ناحية، ومع الدولة العثمانية صاحب السيادة على القطر الليبى من ناحية ثانية جعلها تختلف عن دعوة كل من العلامة ابن تيمية والإمام محمد بن عبد الوهاب، فبينما اشتد ابن تيمية فى طلب تحقيق أفكاره- دون أن تكون له قوة تسانده حتى حورب من القوى المختلفة، قسا الإمام محمد بن عبد الوهاب- مستندا إلى قوة آل سعود وتأييدهم له- فى تطبيق أفكاره الإصلاحية بل اصطدم بالقبائل والحكام العثمانيين . هذا فى الوقت الذى على الرغم من اشتراك السنوسية مع أفكار كل من ابن تيمية وابن عبد الوهاب فى عوامل واحدة فقد آثرت السنوسية ضمانا لنجاح دعوتها المهادنة واستخدام أسلوب الأقناع .

١- جامعة السيد محمد بن على السنوسى الإسلامية. من رسالة ١٢ ربيع الأول ١٦٢٤هـ .

ثانيا : الزاوية

(أ) فكرة الزاوية:

وأما الأداة التى استخدمها صاحب الدعوة كأسلوب سلمي وعملى فى نفس الوقت لنشر دعوته بين الناس فكان ما عرف باسم «الزاوية» ولم يكن اسم الزاوية من ابتداع صاحب الطريقة السنوسية، فلقد سبقته الطرق الصوفية الأخرى إلى استخدام هذا الاسم رمزا لمكان يختلى فيه أتباع الطريقة والقائمون عليها بأنفسهم ويتقربون إلى الله بالعبادة ليلاً ونهارًا منقطعين عن الناس وعن الحياة مكتفين بكفالة مسبب الأسباب (الله) لهم أى بما يرسله الله لهم من رزق على يد رجال القوافل الذين يضربون فى الطرق الصحراوية وينزلون بهذه الزوايا التى غالبا ما كانت مواقعها فى أماكن خلوية بعيدا عن العمران ، أو ما يوقف على الزاوية من أوقاف يحبسها مشايخ القبائل المجاورة للزاوية تقربا إلى علمائها المشرفين على طريقتها الصوفية.

ولكن الزوايا السنوسية اختلفت عن غيرها من الزوايا الصوفية الأخرى من حيث الشكل والمضمون أى من حيث مواقعها وبنائها، ومن حيث تنظيمها ورسالتها إلى جانب انتشارها خارج برقة وبدء هذا الانتشار. فكانت زاوية أبى قبيس بمكة المكرمة أولى الزوايا السنوسية على الإطلاق قد تم تأسيسها عام ١٢٥٢هـ الموافق ١٨٣٧م، وكانت الزاوية البيضاء فى برقة- أول مركز رئيسى للدعوة السنوسية فى ليبيا وأنشئت عام ١٢٥٨هـ[1] الموافق ١٨٤٣م ثم سرعان ما انتشرت الزوايا فى أنحاء العالم الإسلامى فنجد أن مؤسس الدعوة محمد بن على السنوسى قد انتقل إلى جوار ربه تاركا ٦ زوايا بالحجاز بمكة والمدينة المنورة وجدة والطائف ومنى وبدر: و٩ زوايا بمصر فى واحات صحراء مصر الغربية، و١٤ زاوية فى برقة مركزها الزاوية البيضاء بالجبل الأخضر أولا ثم زاوية الجغبوب بعد ذلك و٧ زوايا بإقليم طرابلس . و٥ زوايا بإقليم فزان ، وزاوية واحدة بتونس . وأضاف إلى هذا العدد السيد محمد المهدى ابن صاحب الدعوة خليفته زوايا أخرى منها ٧ زوايا بالحجاز ، ١١ زاوية بمصر، ٢٣ زاوية بإقليم برقة، و٥ زوايا بإقليم طرابلس وزاوية واحدة بفزان وزاوية واحدة بالجزائر ، و٥ زوايا فى تشاد، وزاوية واحدة بالسودان ، وزاوية واحدة فى نيجيريا .

١- محمد الطيب الأشهب : السنوسى الكبير ص٣٢ .

وواضح من هذا الانتشار أن الدعوة اقتصرت فى بدء عهدها على الأقطار العربية فى المشرق أو المغرب، ولكنها ما لبثت أن امتدت إلى الأقطار الأفريقية المجاورة ، كما أن ازدياد عددها بصورة واضحة فى عهد السيد محمد المهدى دليل على تقبل الناس للدعوة وإسهامهم فى بناء الزوايا فى كل مكان تصل إليه الدعوة. كما أن رئاسة هذه الزوايا وجدت حيث يوجد صاحب الدعوة فقد انتقلت الرئاسة من مكة بانتقاله إلى الزاوية البيضاء فى برقة ثم إلى زاوية الجغبوب وكان هذا الانتقال فى عهد السيد محمد بن على السنوسى ، ثم انتقلت الرئاسة إلى زاوية الكفرة فى عهد خليفته ومن جاء بعده عندما اصطدمت الدعوة بقوى الاستعمار الغربى جنوبا – مع فرنسا– وشمالا مع إيطاليا .

(ب) مواقع الزوايا :

وأما مواقع هذه الزوايا فقد تميزت بصفات سياسية وتجارية واستراتيجية . فمن الناحية السياسية نجد الزوايا تنتشر فى الدواخل أكثر من انتشارها فى السواحل ، وذلك راجع إلى السيادة العثمانية التى كانت أكثر ما تكون نفوذا فى المدن الساحلية بعكس ما كانت عليه الحال بين القبائل البدوية وسكان الواحات حيث كانوا لايعرفون للسلطة العثمانية أى وجود[١]. وعلى هذا اختار صاحب الدعوة المناطق الصحراوية الداخلية ليقيم فيها الزوايا تحاشيا لأى صدام يقع بين السنوسيين والعثمانيين، وبعيدا عن تتبع العثمانيين لنشاطه .

وفى هذا المقام حرص صاحب الدعوة على توضيح الغرض الدينى من بناء الزوايا لسلطات الحكم العثمانى فى ليبيا ، فوجدناه يذكر لمصطفى باشا حاكم فزان عند بناء زاوية هناك : أن الزاوية فى الحقيقة إنما هى بيت من بيوت الله ومسجد من مساجده ، والزاوية إذا حلت بمحل نزلت فيه الرحمة، وتعمر بها البلاد ويحصل بها النفع لأهل الحاضرة والبادية لأنها ما أسست إلا لقراءة القرآن ولنشر شريعة أفضل ود عدنان [٢]. وأوضح نفس الغرض الدينى للزاوية للمشير محمد أمين باشا والى طرابلس الغرب العثمانى فقال: وأما نحن فقد ألفنا من اعتدناه ورضيت به نفوسنا فنريد بذلك أن تكون تلك العمارة مستمرة ونفوس سكانها مستقرة، ليحصل المقصود منها ويدوم من تعلم العلم وتعليمه وإقراء القرآن وتفهيمه ، وإقامة شعائر الدين للوافدين عليها والمقيمين بها [٣].

١– مصطفى بعيو: المرجع السابق ص٥٩ .

٢– محمد الطيب الأشهب : المرجع السابق ص٢٤ .

٣– نفس المرجع ص٢٥ .

وإلى جانب الأهمية السياسية لمواقع الزوايا فقد كانت لهذه المواقع أهمية تجارية واقتصادية بصفة عامة، فقد أقيمت معظم الزوايا فى طريق تجارة القوافل، وكان هناك ثلاث طرق رئيسية فى الأراضى الليبية الطريق الأول للقوافل يتجه جنوبا من الساحل الليبى عبر واحة فزان إلى بحيرة تشاد، والطريق الثانى ينعطف جنوبا غربا عبر غدامس وغات إلى تمبكتو الأسطورية، والطريق الثالث يسير جنوبا شرقا عبر واحة الجفرة ، ثم سواكن وزيلا إلى وادای ودارفور الغنى بخصبه وثرواته [١].

والمتتبع لمواقع هذه الزوايا فى الأراضى الليبية مثلا يلاحظ ارتباطها بطرق قوافل التجارة مما جعل صاحب الدعوة يستخدم زواياه والقبائل التى توجد الزوايا فى أراضيها لاستغلال التجارة وتنشيطها مما كان له أثر كبير غير مباشر فى ازدياد ثروة البلاد الاقتصادية بما لعبته الزوايا من دور كبير فى تشجيع تجارة القوافل التى كانت تعتبر حتى بداية القرن العشرين موردا هاما فى حياة البلاد الاقتصادية[٢] زد على ذلك الاهتمام بالزراعة الذى حث إليه صاحب الدعوة أهل القبيلة أو القبائل الواقعة فى أراضيها الزاوية أو الزوايا .

ولاتقل الأهمية الاستراتيجية لمواقع الزوايا عن الأهميتين السياسية والاقتصادية فقد وجدنا معظم الزوايا تقام على مناطق مرتفعة حصينة حتى يمكن للإخوان السنوسيين الدفاع عنها ضد المغيرين من الداخل أو الأعداء من الخارج ومن ثم رأينا الكثير من الزوايا يقام على أنقاض الأطلال الإغريقية والرومانية أو على مقربة منها حتى يمكن الاستفادة من أحجارها فى عملية البناء . وبعبارة أخرى أقيمت الزوايا حيث وجد الإغريق والرومان فيما مضى والأتراك فيما بعد من الضرورى بناء محطات وقرى لتثبيت سيادتهم بصد الهجمات التى تقوم بها القبائل المتوغلة فى الصحراء وبالمثل استعان الإيطاليون فيما بعد بهذه المراكز لتثبيت حكمهم فى البلاد باتخاذهم مراكز لحركتم الاستعمارية التوطنية[٣] ولعل كل ذلك دليل على الأهمية الاستراتيجية التى أولاها صاحب الطريقة عنايته فى اختيار مواقع الزوايا .

وهذا إلى جانب أن صاحب الدعوة اتبع فى إنشاء الزوايا نظاما خاصا يدل على الأهمية الاستراتيجية للمواقع التى اختارها للزوايا، فبدأ من مواقع على شاطئ البحر المتوسط وبنى

١- ريتشارد توللى: عشر سنوات فى بلاط طرابلس ص٨ .

٢- مصطفى بعيو : المرجع السابق ص٦٠ .

٣- نفس المرجع ص٥٨ .

بهذه المواقع الحصينة زوايا تبعد كل زاوية عن التى تجاورها مسافة ست ساعات، ثم انشأ خلفها جميعا زوايا مقابلة لها تبعد كل منها عن الأخرى المسافة نفسها، حتى إذا هوجمت الزوايا الأمامية التى بالشاطئ استطاع الإخوان وأهل الزاوية أن ينتقلوا بسهولة إلى الزوايا الخلفيـة[١] وبمعنى آخر أنه أقام من الزوايا خطوط دفاع متتالية يساند الخط الثانى الخط الأول، ويساند الخط الثالث ، وهكذا .. وكل هذا تم دون أن يثير صاحب الدعوة ثائرة أو شكوك سلطات الحكم العثمانى .

(ج) بناء الزوايا :

وأما بناء الزاوية فقد كان يتم فى الغالب بناء على طلب إحدى القبائل التى ترى قيام زاوية فى أرض قبيلة مجاورة، فترسل القبيلة الراغبة فى إقامة زاوية فى أراضيها إلى صاحب الدعوة برسول يحمل رغبة أهل القبيلة ويرحب صاحب الدعوة بهذه الرغبة وأمثالها ويرسل إلى القبيلة شيخا يختاره من بين رجاله المتعلمين المحيطين به ومعه بعض الرفقاء لمساعدته فى الإشراف على عملية البناء التى يقوم بها رجال القبيلة أنفسهم فى الموقع الذى يحقق أهداف الدعوة سياسيا واقتصاديا واستراتيجيا .

ومن الطبيعى أن يستغرق البناء وقتا يطول أكثر من العام ومن ثم يهتم الشيخ ورجال القبيلة ببناء المسجد أولا ثم دارا لإقامة الشيخ وأسرته، ويتبع ذلك استكمال بقية البناء لتشمل الزاوية فى النهاية بيوتا لوكيل الزاوية ومعلم الأطفال ومساكن للضيوف والخدم ومخزنا لحفظ المؤن واصطبل وبستان ومتجر على الأقل وحجرة خاصة بالفقراء الذين لاعائل ولامأوى لهم وفرن لسد حاجة السكان بالخبز[٢] بالإضافة إلى المبانى الأخرى التى تلزم تطور الزاوية فى أداء رسالتها والمبانى التى يقيمها المقتدرون من أهل القبيلة والمهاجرون إلى الزاوية.

ومما تجب ملاحظته أن بناء الزوايا- وبصفة خاصة فى برقة- قد ازداد التنافس حوله بين القبائل البرقاوية. بل بين بطون وأفخاذ القبيلة الواحدة، ومن ثم سارع الجميع إلى المساهمة فى البناء بالتبرع بالأراضى التى يتم اختيارها موقعا لبناء الزاوية. والقيام بعملية البناء نفسها، بل وحبس الأوقاف على الزوايا للصرف على شئونها هذا إلى جانب الخضوع الكامل لتعاليمها وتنظيماتها .

١- د. محمد فؤاد شكرى: المرجع السابق ص٢٢ .

٢- محمد الطيب الأشهب : المرجع السابق ص٢٨ .

وأما تنظيم الزاوية فقد وضعه صاحب الطريقة بأسلوب عملى لكى تؤدى الزاوية رسالتها على الوجه الصحيح ولتحديد المسئوليات ، فعلى رأس كل زاوية مقدم (الشيخ) وفوق المقدم- أى بعده- وكيل ووظيفته كوظيفة الحاكم ، المدنى وكلا المقدم والوكيل ذو سلطة كبيرة على أهل الزاوية جميعا والقبيلة كافة فالأمر الذى يصدره أحدهما مقرونا باسم السيد السنوسى إنما هو أمر واجب الطاعة على الجميع [١].

وشيخ الزاوية أو مقدمها يعينه صاحب الدعوة بنفسه فى ضوء رغبة أهل القبيلة باعتباره صاحب الحل والعقد فى الزاوية فهو الذى يشرف على التعليم وهو الذى يحل الخصومات وهو الذى يحفظ النظام وهو الذى يعنى بالقوافل ، وقد يطلب منه تنظيم الدفاع عن الزاوية فى حالة الاعتداء لذلك كان مركزه هاما وكان يجب أن يتمتع باحترام الجميع ليتمكن من القيام بهذه المهام ، ويضطلع بأعباء المسئوليات الجسام[٢]. بينما يشرف الوكيل على دخل الزاوية وأوجه الصرف عليها وغير ذلك من الأمور المدنية .

وقد حددت التعليمات الصادرة من صاحب الدعوة نظام الزوايا من بدء بنائها إلى أداء رسالة كل مسئول فيها، فتذكر هذه التعليمات أن أرض الزاوية تعتبر وقفا والمساحة المتفق عليها من جهتها الأربعة ، وأن تتحمل القبائل تكاليف أبنية الزوايا، وأن يحترم أهل القبائل الحرم المتفق على تخطيطه حول الزاوية بحيث لايجوز العبث فيه أو المساس بمن يستجير به ، وأن تتحمل القبيلة نفقات كسوة شيخ الزاوية وثمن سلاحه وفرسه ونفقات زواجه، وأن ينوب شيخ الزاوية عن صاحب الدعوة فى تعيين من يحتاجه العمل فى الزاوية، وأن يحتفظ من واردات الزاوية بما يكفى للصرف على المشروعات ونشاط الزاوية ويرسل الباقى إلى الزاوية الأم حيث يوجد صاحب الدعوة، وأن تحدد الحدود بين أرض كل زاوية والزاوية المجاورة ، وأن يجتمع شيوخ الزوايا سنويا (كلهم أو بعضهم) إذا ما رأوا وجوب ذلك، وعليهم أن يتشاوروا فى تحديد موعد الاجتماع ومكانه إن لم يكن أحد شيوخ الزوايا هو الداعى لعقد الاجتماع[٣]. أو إذا لم يكن صاحب الدعوة نفسه هو الذى قرر مكان وزمان هذا الاجتماع .

١- لوثروب ستودارد: حاضر العالم الإسلامى ج١ ص٢٩٨ .

٢- د. نقولا زيادة : برقة الدولة العربية الثامنة ص٧١ .

٣- محمد الطيب الأشهب : المرجع السابق ص٢١ .

(د) وظائف الزوايا :

وأما رسالة الزاوية فهى متعددة النواحى .. ذلك أن الزاوية مارست وظيفة دينية تعليمية واجتماعية واقتصادية وعسكرية فى المجتمع الذى وجدت فيه ، في عهد مؤسس الدعوة وخلفائه من بعده، فأما الرسالة الدينية فاستحوذت على اهتمام الزاوية الأول وتمثلت فى التنفيذ العملى لأحكام الإسلام ومبادئه بالحكم الشرعى بين المواطنين والتربية الدينية والخلقية للمريدين والإخوان وإعداد الدعاة والمواطنين [١]، هذا إلى جانب الدعوة إلى التزام الفضائل وتجنب الرذائل والقدوة الحسنة التى وجدها الناس فى صاحب الدعوة وأتباعها المشرفين على الزوايا بالإضافة إلى نشر الرسالة المحمدية السامية، وحمل هذه الرسالة على وجه الخصوص إلى الشعوب الوثنية (الزنوج) فى قلب أفريقية الغربية والسودان والصحراء الكبرى حتى اهتدت هذه القبائل المتوحشة البدوية إلى الإسلام طائعة مختارة [٢].

ومما كان له أثره فى ذيوع رسالة الزاوية الدينية أن صاحب الدعوة لم تكن له تعليمات خاصة أو آراء شخصية فى الفقه أو فى تفسير القواعد الإسلامية، بل كان أكبر همه تنفيذ المسلمين للقواعد التى نص عليها الدين الإسلامى لا الإكثار من هذه القواعد، والشئ الوحيد الذى أضافه إلى العبادات الدينية دعاء وضعه وردده السنوسيون بعد ذلك وهو «حزب» على نحو الأحزاب المعروفة بين طوائف الطرق الصوفية، وليس فيه ما يناقض تعاليم أئمة الفقه السابقين أو يزيد عما نزل به القرآن [٣]. وبذلك نجد أن الزوايا خدمت الدين الإسلامى خدمة جليلة بتنقيته مما علق به على يد غلاة المتصوفين من بدع وتعاليم تبعده عن أصوله المحكمة وبساطته الأولى، كما خدمت الإسلام بنشره بين الوثنيين فى أفريقيا وهدايتهم إلى أحكام الإسلام فى صورته الحقيقية الأصلية .

ولقد أدت الزاوية دورا تعليميا كبيرا، فقد كانت - كما يذكر بريتشارد[٤] أشبه بالمراكز الثقافية التى تنتشر فى العصر الحاضر فى «أنحاء الدول. وكانت الزاوية تشمل مدرسة قرآنية لتحفيظ الأطفال القرآن الكريم ومبادئ الدين الإسلامى واللغة العربية ومن يمتاز من الأطفال

١- التعليم الدينى فى ليبيا ص١٢ .

٢- د. محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص٥٠ .

٣- أحمد حسنين : فى صحراء ليبيا ص٥٢ .

٤- E.E. Evans Prichard, The Sanusi of Cyrenaica, p. 79 .

يلتحق بالزاوية الأم سواء كانت البيضاء أو الجغبوب التى صارت مناخ العلوم ومنبع القرآن العظيم، والتى حوت مكتبتها على ثمانية آلاف مجلد من تفاسير وأحاديث وأصول وتوحيد وفقه وغير ذلك من العلوم المعقولة والعلوم الطبيعية[1].

وكانت مواد الدراسة بالزاوية تشمل جميع العلوم الإسلامية من تفسير وحديث وفقه وأصول الفقه والفرائض والتصوف والتوحيد والنحو والصرف والبلاغة والأدب وغيرها، كما كان طلاب العلم يتدربون على إتقان بعض الحرف والصناعات مثل صناعة البارود والأسلحة[2] وكانت زاوية الجغبوب بمثابة المعهد الأعلى الذى يقوم بالتدريس فيه صاحب الدعوة بنفسه وغيره من كبار العلماء، وكان صاحب الدعوة يطمع فى أن يصل بهذا المعهد إلى مستوى الجامع الأزهر بمصر وجامع الزيتونة بتونس وجامع القرويين بفاس بالمغرب الأقصى.

ولقد حافظت الزوايا على التراث الثقافى العربى الإسلامى فى ليبيا أثناء الاحتلال الإيطالى، بل قبل هذا الاحتلال عندما لم تكن هناك مدارس حكومية فى البلاد، إذ كانت الثقافة الشعبية كلها مستمدة من هذه المدارس القرآنية الملحقة بمبنى الزاوية ، وتتضح قيمة رسالتها الثقافية أيضا إذا عرفنا أنها كانت بمثابة المدارس التى تقوم الآن بفتحها الحكومات الحالية دون أن تكلف من يلتحق بها شيئا من النفقات بل كثيرا ما كان يستعين بعضهم بما تقدمه له الزاوية من معونة لمقابلة تكاليف الحياة[3].

وانطلاقا من كون الزوايا خلايا حية نشطة منتجة فقد أدت دورا اجتماعيا كبيرا بما ضمنته للقبائل من أمن وطمأنينة بعد التوفيق والمصالحة بين القبائل، وبما أشاعته بين القبائل من استقرار ، إذ بحكم استقرار هذه الزوايا اضطرت كل قبيلة أن تحافظ على صلتها الدائمة بزاويتها الخاصة بها، وقد اقتضى منها هذا الموقف عدم البعد عنها حتى يسهل لها الاتصال بها كلما دعت الضرورة إلى ذلك، وبمرور الزمن تعودت القبيلة نوعا من حياة الاستقرار والإقامة بعد أن كانت لاتعرف لذلك سبيلا[4] هذا إلى جانب تساوى الجميع فى الواجبات مع تساويهم فى الحقوق فكل طالب علم فى الزاوية عليه أن يؤدى ما أنيط به من عمل مساء يومى

١- رحلة الحشائشى إلى ليبيا ص١٥١ .

٢- التعليم الدينى فى ليبيا ص١٣ .

٣- مصطفى بعيو: المرجع السابق ص٦٠ .

٤- نفس المرجع ص٦٢ .

الخميس والاثنين – ويوم الجمعة راحة– ويستوى فى ذلك الصغير والكبير، والغنى والفقير ، إذ ليس هناك نظام الطبقات المفرق عادة بين صفوف الأمة[١] فالكل يخضع لتقسيم أيام الأسبوع بين طلب العلم والعمل والراحة.

وأما الرسالة الاقتصادية للزاوية فقد تمثلت فى تشجيع التجارة والزراعة بين القبائل فاستقرار الأمن فى البلاد ساعد على نشاط حركة التجارة، وعمرت الطرق بالقوافل المحملة بالمواد والسلع التجارية، هذا إلى ما كانت تقدمه الزوايا من مساعدات وتسهيلات لإراحة المسافرين مع التجارة مما شجع على التبادل التجارى بين منتجات الزاوية وبين ما تحمله القوافل من سلع لاتتوفر فى أرض الزاوية.

كما شجع صاحب الدعوة على الزراعة فى أرض الزوايا، من المأثور عن السيد المهدى أنه فى اهتمامه بالتعمير والغرس أنه كان يقول للإخوان المريدين الذين كانوا يطلبون إليه أن يعلمهم الكيمياء: أن هذه – أى الكيمياء– تحت سكة المحراث، وأنها هى كد اليمين وعرق الجبين ، بل كان مع العاملين في الزراعة والحرف ويقول يظن أهل الأوريقات والسبيحات (أى العابدين والقانتين) أنهم يسبقونا عند الله، لا والله ما يسبقوننا (٢).

وكانت رسالة الزاوية العسكرية واضحة منذ أن استقر نظام الزوايا فى ليبيا، حيث رأينا الزوايا تبنى فى أماكن مرتفعة، والناس فيها يتعلمون صناعة السلاح والفروسية والرماية، وذلك استعدادا للوقوف ضد المعتدين، ولقد نجحت الزوايا بالفعل فى مواجهة الغزو الفرنسى المتقدم وسط أفريقيا وفى الكفاح ضد الاحتلال الإيطالى لليبيا، ولولا استعداد الزوايا العسكرى لما صمدت برقة فى الكفاح ضد الإيطاليين أكثر من عشرين سنة.

وجدير بالذكر أنه ما كان للزوايا أن تؤدى رسالتها المتعددة الجوانب بنجاح لولا الرجال الذين تعهدوا بأداء هذه الرسالة ونشرها، وهؤلاء الرجال ينقسمون إلى قسمين : المنتسبين الذين يمثلون الأكثرية الساحقة من السنوسيين ، والإخوان أو المريدين وهم يعيشون فى الزوايا نفسها، ويأتى بعد ذلك شيوخ الزوايا وهم الذين تلقوا العلم وتبحروا فيه فعهد إليهم بعد تخرجهم من مدرسة الجغبوب الإشراف على الزوايا (٣)، وكان هناك مجلس خاص حول

١– محمد الطيب الأشهب : المرجع السابق ص٥٠ .

٢– د. محمد فؤاد شكرى: المرجع السابق ص٥٩ .

٣– د. نقولا زيادة: ليبيا ص٥٧ .

صاحب الدعوة عرف باسم «مجلس الإخوان» اعتمد عليه السيد السنوسي الكبير في حركته الإصلاحية يأخذ رأيه والتشاور مع أفراده بعد أن أحسن اختيارهم فكانوا خير مخلصين له ولدعوته [١].

أي أن هؤلاء كانوا ينقسمون إلى أربعة أقسام من حيث مكانتهم العلمية والاجتماعية، ومع ذلك فكلهم متحدون قلبا وقالبا على حسب شيخهم يرونه هو عمدتهم في الطريق الموصل إلى الله ورسوله[٢]. هذه الأقسام هي : طبقة العلماء التي يتكون منها مجلس الأخوان وطبقة العلماء التي تقوم بإلقاء الدروس في المعهد الجغبوبي ، وطبقة مشايخ الزوايا، والطبقة الاحتياطية وهي التي تتكون عادة من صغار خريجي المعهد السنوسي ومن حفظة القرآن ومن مهاجري البلاد الإسلامية، وممن يتجردون عن أعمالهم الخاصة للالتحاق بخدمة صاحب الدعوة [٣]. وجميع أفراد هذه الطبقات يطلق عليهم لفظة الأخوان وهي تعني كل إنسان أخذ الطريقة السنوسية وتمسك بوردها وتسمى هاته الطريقة بالطريقة المحمدية كما عرفها بذلك الشيخ نفسه في تأليفه المسمى «السلسبيل المعين في ذكر الطرائق الأربعين » فيقال فيما بينهم فلان من الإخوان يعني سنوسي الطريقة، هكذا في عرفهم[٤].

علاقة السنوسية بالدولة العثمانية

لعل أول صلة لصاحب الدعوة بالدولة العثمانية نشأت عندما تفتح عقله للتفكير في أحوال العالم الإسلامي الخاضع للعثمانيين ، سواء وهو في الجزائر أو عندما مر بمصر ثم في الحجاز وحتى وصل إلى برقة .. وقد أدرك أن الدولة العثمانية في طريقها إلى الانحلال والتدهور خاصة بعد أن عجزت عن مقاومة الغزو الفرنسي لبلاده الجزائر عام ١٨٣٠م وبهذا أخذ عليها تقصيرها في دفع الأذى عن أحد الأقطار الإسلامية ، وإخفاقها في الاضطلاع بالمسئولية الملقاة على عاتقها كدولة الخلافة والإمامة العظمى ، وبسبب ما جرته على نفسها من ضعف وعجز فهي مسئولة أيضا عن تمكين العناصر التركية في الغلبة على شعوبها العربية وإقامة الحكومة الاستبدادية في بلاد هذه الشعوب[٥].

١- مصطفى بعيو: المرجع السابق ص٦٤ .

٢- رحلة الحشاشي : ص١٧٥ .

٣- محمد الطيب الأشهب : عمر المختار ص٣٥ .

٤- رحلة الحشائشي : ص١٧٤ .

٥- د. محمد فؤاد شكري: المرجع السابق ص١٧ .

و رغم انتقاد صاحب الدعوة للدولة العثمانية بسبب سياستها نحو الأقطار العربية، ورغم أنه صرح أنه يجب أن تكون الخلافة الإسلامية فى يد شريف قرشى عربى من قريش ينتسب إلى بيت الرسول مثله - إلا أنه أدرك أنه من الخطأ مناصبتها العداء أو الخروج عليها، حتى لايدخل فى صراع معها تؤثر على دعوته كما حدث للحركة الوهابية فى نجد، ومن ثم رأيناه يتوغل فى الصحراء الليبية ليكون بعيدا عن المناطق الساحلية التى يحكم العثمانيون السيطرة عليها. ولم يبد من السيد السنوسى الكبير- صاحب الدعوة- من الأعمال والشعور ما يجعله عرضة للمؤاخذة، بل عمل على المحافظة على إظهار الولاء للخلافة العثمانية وسلطانها فى كل المناسبات والظروف (١).

وانطلاقا من هذا ضمن صاحب الدعوة للدولة العثمانية استقرار الأمور بين القبائل التى تنتشر بينها زواياه، بل وضمن الحكم العثمانى المتمركز فى السواحل والمدن الليبية تحصيل الضرائب والقضاء بين الناس فى الصحارى الليبية ومن ثم كانت علاقة القبائل بالسنوسية لا بالدولة العثمانية وكان ذلك فى مصلحة البلاد، فتأمين الضرائب كان يحول دون الحكومة العثمانية ومحاولة فرض سلطاتها الأمر الذى كان من الممكن أن يؤدى إلى ثورات كثيرة مسلحة واصطدام بين الحاكم والمحكوم، كانت البلاد فى غنى منه (٢)، وقد ساعد على حسن العلاقة بين السنوسية والدولة العثمانية استمرار المراسلات بين صاحب الدعوة والسلطان العثمانى، فجاءت رسل السلطان إلى محمد بن على السنوسى فى الجغبوب ، وإلى السيد المهدى فى الكفرة، ووصلت إلى استانبول رسل السنوسية .

ونتيجة للعلاقات الطيبة بين الطرفين منح السلطان عبد المجيد الأول السنوسية فى سنة ١٨٥٦م فرمانا يعفى جميع أملاكها من دفع الضرائب ويسمح لرئيسهما بجمع الأعشار الدينية من أتباعها(٣) وفى أيام السلطان عبد العزيز أخى السلطان عبد المجيد أرسل فرمان ثان إلى حاكم طرابلس الغرب- الذى كانت برقة فى إيالته- ثبتت فيه امتيازات السنوسية، وأضيف إليها أن اعتبرت الزوايا السنوسية «حمى» يمكن أن يلجأ الناس إليه(٤).

١- مصطفى بعيو: المرجع السابق ص٦٩ .

٢- د. نقولا زيادة : ليبيا ص٧٧ .

٣- مصطف بعيو: المرجع السابق ص٧١ .

٤- نقولا بعيو زيادة : المرجع السابق ص٧٦ .

وفى عهد السيد المهدى حرصت السنوسية على حسن العلاقة مع الدولة العثمانية دون الانغماس فى مشكلات الدولة العثمانية الخارجية، فبينما اشتعلت الحرب بين تركيا وروسيا عام ١٨٧٧ وطلب السلطان العثمانى من السيد المهدى إمداده بقوات لمساعدة الدولة فى حربها، لم يرفض السيد المهدى طلب السلطان ولكنه لم يشأ التدخل فى هذا النزاع المسلح ومن ثم انتهت الحرب بين الطرفين الروسى والعثمانى دون أن تصل نجدات عسكرية سنوسية.

وفى نفس الوقت كان حرص السلطان عبد الحميد الذى اعتلى العرش ١٨٧٦م على بقاء علاقات المودة مع السنوسية انطلاقا من رغبة السلطان فى احتواء الامارة السنوسية وغيرها من الإمارات فى الوطن العربى تحت شعار الجامعة الإسلامية التى كانت هدفا لسياسته نحو الأقطار العربية والشرقية فى مواجهة المد الاستعمارى المحيط بالدولة العثمانية التى نظر إليها الأوروبيون كرجل مريض يحتضر سرعان ما يفارق الحياة.

استمرت العلاقات طيبة بين السنوسية والعثمانيين حتى عام ١٨٨٨م . وكان من آثار دعم هذه الروابط بين السلطان والسيد المهدى أن وجدت الدعوة السنوسية أتباعا أقوياء لها فى الآستانة وفى بلاط السلطان بصفة خاصة، وكذلك وجدت السنوسية أتباعا لها بين كبار رجال الدولة الآخرين، كما لم يلبث أن عظم شأن شيوخها ومقدمى زواياها فى الأقطار الليبية، بل كان بعض الولاة العثمانيين من الإخوان السنوسيين . وكان من أثر ازدياد سطوة السنوسية فى برقة وطرابلس أن الإخوان فى الزوايا الساحلية صاروا معفين رسميا من الأموال الأميرية والأعشار الشرعية، بينما كانوا لايقدمون إلى الحكومة فى الزوايا الأخرى الكبيرة فى طرابلس والخمس وبنغازى إلا ما يرونه ملائما لصالحهم [1]. هذا بالإضافة إلى أن السلطة الفعلية فى برقة بصفة خاصة دينية وزمنية صارت بيد شيوخ الزوايا السنوسية .

ولكن منذ عام ١٨٨٨م بدأت الشكوك تساور السلطان عبد الحميد فى نوايا وأغراض السيد المهدى وكان السلطان فى ذلك واقعا تحت تأثير دعايات الدولة الأوروبية التى رأت فى امتداد السنوسية ما يعارض ويعطل نشاط المبشرين المسيحيين وهم فى الواقع فرق استطلاع للدول الاستعمارية الأوروبية .

١- د. محمد فؤاد شكرى: المرجع السابق ص٧٩ .

ونتيجة لوشايات الأوروبيين عند السلطان عبد الحميد أرسل الوفود إلى مركز السيد المهدى فى الجغبوب للوقوف على مدى استعداده العسكرى ونشاطه الحربى ورغم أن هذه الوفود عادت إلى السلطان تطمئنه إلا أن السيد المهدى رأى من الصواب ترك الجغبوب والانتقال إلى الكفرة فى يونيو عام ١٨٩٥م خصوصا بعد أن اتجهت إليه أنظار الدول الاستعمارية، وكثرت شكاياتها من السنوسية ونشطت فى الأستانة مساعيها ضده، كما أن السيد المهدى ساءته معاملة بعض مأمورى الترك والتنقيب عن السلاح وكبس زوايا السنوسية فى الجبل الأخضر، وشاع أن الدولة أخذت تشتبه فى أمره وتتوجس خيفة ادعائه الخلافة (١).

ولم يكن الصفاء كاملا بين العثمانيين والسنوسيين . إذ رأينا الدولة العثمانية تصدر أوامرها إلى موظفيها فى ليبيا لجمع ضرائب على ما تنتجه أرض الزوايا خلال عام ١٩٠٤م، وعام ١٩٠٨ م ولكن السنوسيين رفضوا بقوة مما جعل الدولة تعدل عن ذلك وعندما حدثت الثورة التركية التى انتهت بخلع السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩م والتى قادها «جماعة الاتحاد والترقى » لم تكن السنوسية ترضى بما كانت ترمى إليه جميعة «تركيا الفتاة» من محاولة تتريك العرب أو إمكان إلغاء الخلافة (٢).

وعندما حدث الغزو الإيطالى لليبيا وقبول تركيا لمعاهدة أوشى «لوزان» مع إيطاليا عام ١٩١٢م التى سحبت تركيا بموجبها جنودها من ليبيا، أذاع السلطان العثمانى منشورا يمنح فيه الليبيين استقلالهم وهو استقلال لايملكه السلطان العثمانى بعد أن اعترف بالوجود الإيطالى فى ليبيا، رفض السيد أحمد الشريف زعيم السنوسية أنذاك هذا الصلح وأعلن عدم قبول صلح يكون تسليم البلاد إلى العدو ثمنا له، معنى هذا إظهار الغضب من تصرف الدولة العثمانية .. وحاول العثمانيون تخفيف صدمة موقفهم المتخاذل هذا أمام الإيطاليين بإيفاد أنور باشا القائد العثمانى إلى السيد أحمد الشريف فى الجغبوب ليبلغه إسناد أمر الأمة الليبية إلى سيادته وإخباره بأن الخليفة قد منح الأمة الطرابلسية استقلالها تاركا لها الحق فى أن تقرر مصيرها وتدافع عن نفسها (٣).

١- د. محمد فؤاد شكرى: المرجع السابق ص٨ .

٢- د. نقولا زيادة: المرجع السابق ص٧٨ .

٣- د. محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص١٤ .

ولكن عندما صدرت الأوامر العثمانية إلى القائد عزيز المصرى للإنسحاب من برقة بجنوده إلى السلوم حيث تنتظرهم باخرة تنقلهم إلى تركيا، عارض السنوسيون هذا الإنسحاب واشتبكوا مع عزيز المصرى، وكاد يحدث التحام كبير لولا أن عزيز المصرى استطاع الوصول إلى السلوم وفى ١٦ يولية ١٩١٣ بلغ الإسكندرية ومنها إلى الآستانة (١).

وما تجب الإشارة إليه أن محمد أحمد المهدى صاحب الثورة المعروفة فى السودان منذ عام ١٨٨١م حاول أن يجذب إليه السيد محمد المهدى زعيم السنوسية واعداً إياه بوضعه فى مقام الخليفة الثالث (عثمان بن عفان) فى نظير أن يشترك زعيم السنوسية فى محاربة الإنجليز فى مصر والسودان، إلا أن السيد المهدى رفض التعاون مع محمد أحمد المهدى ولا مع خليفته لأنه- الزعيم السنوسى- يعنى بالدعوة إلى اصلاح الدين الحنيف سلما لا حربا بينما تنفر الملة التى يراد إحياؤها نفورا عظيما بل وتشتد ثورتها ضد الدماء التى يهدرها والجرائم التى يرتكبها فى السودان مثل هذه المتمهدى ، ولذلك فإنه لايريد ولايفكر في أن يتدخل فى شئ مما يحدث (٢).

السنوسية والقوى الأجنبية

كانت للسنوسية مواقف من القوى الأجنبية لاتتفق مع أطماع هذه القوى فى الأقطار العربية والإسلامية ، من ذلك موقفها من الفرنسيين فى الجزائر وغرب أفريقيا، وموقفها من الإيطاليين فى ليبيا ، ومن الإنجليز فى مصر ثم ليبيا.. أما موقف السنوسية من فرنسا فبدأ منذ احتلت القوات الفرنسية الجزائر أرض وبلد صاحب الدعوة نفسه- محمد بن على السنوسى- الذى شعر بالغضب عندما عاد من الحجاز ليجد الاحتلال الفرنسى قد اكتمل بالجزائر فآثر الانسحاب وعدم الاصطدام مع الاحتلال الفرنسى لأن عدم الحيطة والتعجل بإجراء حركة قبل حلولها تنسف صروح أعماله العظيمة التى بناها وأنفق عليها جهوده الجبارة وعلق عليها آماله نسفا لاتقوم لها بعده قائمة . ولذلك أجل ذلك- مقاومة الفرنسيين - إلى أن يصل العالم الإسلامى إلى درجة الانتباه التام (٣).

١- نفس المرجع ص١٥٦ .

٢- د. محمد فؤاد شكرى: مصر والسودان ص٤٠٣-٤٠٤ .

٣- د. محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ص٥٤ .

ولقد أبدى من مشاعر السخط على الدولة العثمانية الشئ الكثير بسبب ضعفها وتخاذلها فى مقاومة الغزو الفرنسى لبلاده الجزائر، ومن ثم رأيناه فى زواياه بعد أتباعه إعدادا حربيا إلى جانب الأعداد الديني حتى يكون المسلمون على استعداد لمقاومة امتداد الأطماع الفرنسية خارج الجزائر ولمقاومة أية أطماع لأية دولة أوروبية أخرى . وعندما احتلت القوات الفرنسية تونس عام ١٨٨١م وصارت تتوغل من غرب أفريقيا إلى وسطها حتى وصل نفوذها إلى «واداى» التى كان للسنوسية فيها نفوذ كبير بفضل انتشار الزوايا السنوسية والأتباع الكثيرون هناك، بات الصدام وشيكا بين السنوسيين من جهة وبين الفرنسيين من جهة أخرى.

ذلك أنه بعد أن انتصر الفرنسيون على رابح السودانى- عام ١٩٠٠م- الذى أقام له ملكا مستقلا منذ عام ١٨٩٥م حول بحيرة تشاد أدرك السنوسيون الخطر الفرنسى على نشاطهم فى واداى وغيرها من البلاد المجاورة وبسبب اقتراب الفرنسيين من الأراضى الليبية. ومن ثم دارت الحرب بين السنوسيين والفرنسيين، وقاد السنوسيون سيدى محمد البرانى والسيد عمر المختار إلا أنه ظهر منذ اللحظة الأول أن الكفاح لم يكن متكافئا ، لذا سرعان ما سقطت المراكز السنوسية فى أيدى الفرنسيين مما دفع بالسنوسيين إلى الإنسحاب نحو الشمال تاركين الجنوب غنيمة للفرنسيين (١).

وقد استمر الصراع بين السنوسيين والفرنسيين طويلا ومريرا بعد وفاة السيد المهدى وتسلم السيد أحمد الشريف إمارة السنوسية فى عام ١٩٠٢، وحتى ١٩١١م عندما انشغلت السنوسية بالغزو الإيطالى لليبيا ، وتوقف الغزو الفرنسى عند حدود برقة الجنوبية بسبب الاتفاقات بين فرنسا وانجلترا منذ عام ١٨٩٨م والتى تحدد الممتلكات الفرنسية والإنجليزية فى غرب ووسط القارة الأفريقية.

أما بالنسبة للإيطاليين فقد اشتبكت السنوسية مع قواتهم عندما نزلت إلى الأرض الليبية عام ١٩١١م وكانت مقاومة السنوسية للإيطاليين مقاومة منظمة بحكم تنظيم الزوايا السنوسية، فقد كانت لبوادر اليقظة الشعبية التى بذر السنوسى بزواياه وتعاليمها وجهود شيوخها بذرتها الأولى، فقد هب الشعب الليبى ومنذ الوهلة الأولى للدفاع عن أرض الوطن (٢)، تحت رعاية السنوسية فى برقة بصفة خاصة.

١- د. زاهر رياض : استعمار أفريقيا ص١٥٩ .

٢- محمد مصطفى بازامة : العدوان أو الحرب بين إيطاليا وتركيا فى ليبيا ص١٦١ .

وكانت إيطاليا تدرك أن انتشار الزوايا السنوسية فى عدة أنحاء من ليبيا وغيرها من الأقطار العربية والأفريقية مما سيزيد من مقاومة السنوسيين للغزو الإيطالى، وقد أوضحت تقارير عملاء وجواسيس السنيور جوليتى- رئيس الوزارة الإيطالية- فى ليبيا أن السنوسية عقيدة دينية قوية تتغلغل فى أعماق نفوس الليبيين فتطهرها لتجعل منها نفوسا سامية شامخة الهمة قوية العزيمة لاتعرف الخوف ولا التردد وتضحى بكل شئ فى سبيل الله والوطن ، وهي تتميز بالنظام والدقة فى تنظيماتها القوية المتينة التى تشبه التنظيمات العسكرية الحديثة(١).

وإذا كانت تركيا قد عقدت مع إيطاليا معاهدة صلح فى لوزان بسويسرا عام ١٩١٢م تركت بمقتضاها الليبيين لمواجهة الغزو الإيطالى الغاشم ، فإن إخواننا الطرابلسيين - يقصد الليبيين- وعلى الخصوص السنوسيين منهم قد تحالفوا على مقاومة العدو ومقاتلته إلى آخر رمق، وقد تواترت الأخبار بأنهم حشدوا زهاء العشرين ألف مقاتل مع ما يلزمهم من الزاد والذخيرة (٢). ومن ثم أراد السيد أحمد الشريف زعيم السنوسية أنذاك الحرب ضد الإيطاليين، وحتى عندما أصبح زعيم السنوسية السيد محمد إدريس عام ١٩١٨م واصل السنوسيون الجهاد المنظم ضد قوات الاحتلال الإيطالى فى برقة .

وقد بلغ من قوة وتنظيم السنوسية فى مقاومتها للاحتلال الإيطالى أن هذه المقاومة استمرت بقيادتهم فى برقة حتى عام ١٩٣١م بعد أن عهد زعيم السنوسية بأمر قيادة الجهاد للقائد عمر المختار وانتقل هو إلى مصر عام ١٩٢٢م، فى الوقت الذى توقف فيه الجهاد أوكاد فى طرابلس بعد سنوات قليلة من بدايته، إذ أن المقاومة فى طرابلس كانت تتولاها القبائل الطرابلسية الكثيرة الخلافات والمنازعات فيما بينها. وخلال مقاومة السنوسية للإيطاليين استطاعت السنوسية أن تحصل من إيطاليا على اعتراف بقيام الإمارة السنوسية فى برقة خلال المفاوضات التى أدت إلى اتفاق الرجمة فى أكتوبر ١٩٢٠ .

ورغم نقض الإيطاليين للاتفاق فإنه كان دليلا على اعتراف سلطات الاحتلال بمكانة السنوسية كقوة عسكرية وسياسية ، وقد ظلت القوات السنوسية تحارب القوات الإيطالية فى برقة حتى استشهد قائد السنوسيين عمر المخار عام ١٩٣١م وظل عداء السنوسية للإيطاليين حتى اشتعلت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩م وأصبحت ليبيا مسرحا للمعارك التى شارك

١- خليفة المنتصر : ليبيا قبل المحنة وبعدها ص٧٩ .

٢- صفحات خالدة للمجاهد الليبى سليمان البارونى ص٢١٣ .

فيها الليبيون مع قوات الحلفاء ضد القوات الإيطالية الألمانية المشتركة ، حتى جلت هذه القوات المشتركة عن الأرض الليبية عام ١٩٤٣م.

أما بالنسبة لانجلترا وموقف السنوسية منها فقد كانت تقف من السنوسية وانتشارها فى أفريقيا موقفا عدائيا وإن لم يكن عداها صريحا أو مباشراً كالعداء الفرنسى، ومن ذلك أن انجلترا سهلت لفرنسا أثناء صدامها مع رابح السودانى والسنوسيين فى واداى الانتقال فى مستعمراتها الأفريقية وقفل طريق السودان فى وجه أعداء فرنسا، هذا على الرغم من أن السيد المهدى رفض التحالف مع محمد أحمد المهدى ضد انجلترا . وعندما أثارت تركيا السيد أحمد الشريف زعيم السنوسية أثناء الحرب العالمية الأولى لتدبير حملة سنوسية ضد الإنجليز فى مصر وفشلت هذه الحملة، أدرك السيد محمد إدريس منذ عام ١٩١٦م ضرورة عقد صلح بين السنوسية وبين انجلترا حتى تتفرغ السنوسية لمواجهة الخطر الإيطالى وحده.

ومن ثم اتصل السيد محمد إدريس بانجلترا التى طلبت أن يكون هناك فى نفس الوقت تفاوض بين السنوسيين وكل من إيطاليا وانجلترا، وبالفعل تم عقد إتفاقية الرجمة مع إيطاليا، وعقد اتفاق بين السيد محمد إدريس وتالبوت الكولونيل الإنجليزى، ونص الاتفاق على أن يسلم السنوسيون جميع الرعايا البريطانيين والمصريين والتابعين لدول الحلفاء لبريطانيا، وأن يقصى جميع الأشخاص الذين من شأنهم أن يعكروا صفو الاتفاق عن أفريقيا ، وأن يخرج جميع السنوسيين المسلحين من مصر وأن تفتح طريق السلوم- الإسكندرية[١].

وكان أبرز مواقف السنوسية من انجلترا عندما اشتعلت الحرب العالمية الثانية وشاركت فيها انجلترا ضد ألمانيا وإيطاليا، وفى ميدان شمال أفريقيا ساهم السنوسيون مساهمة كبيرة إلى جانب قوات الحلفاء الذين تتزعمهم انجلترا فى محاربة قوات المحور- ألمانيا - وإيطاليا- لدرجة أشاد بها الإنجليز أنفسهم واعترفوا بأنه لولا مساعدة السنوسيين فى برقة للحلفاء لما استطاع هؤلاء الحلفاء أن يتغلبوا على قوات المحور بالصورة التى تمت بها .

هذا إلى جانب إشراف ضباط انجليز على تكوين الجيش السنوسى فى مصر منذ عام ١٩٤٠م ، الذى شارك مع القوات البريطانية فى مطاردة العدو- قوات إيطاليا وألمانيا- واحتلال المواقع فى برقة الشمالية، حتى اعترف المستر إيدن وزير الخارجية البريطانيا فى ٨ يناير ١٩٤٢م بأن الجيش السنوسى قام بمساعدات قيمة أثناء القيام بتلك العمليات الحربية

١- د. نقولا زيادة : ليبيا ص٩١ .

الموفقة فى الصحراء الغربية فى شتاء عام ١٩٤٠م وعام ١٩٤١م، وهو الآن يقوم أيضا بنصيب قيم فى الحملة العسكرية الحالية فانتهز هذه الفرصة لأعبر عن التقدير التام الذى تحمله حكومة صاحب الجلالة البريطانية للنصيب الذى قام به وما زال يقوم به السيد إدريس السنوسى وأتباعه فى المجهود البريطانى الحربى، وأننا نرحب بتعاونهم مع قوات صاحب الجلالة البريطانية فى مهمة سحق العدو المشترك، وقد وطدت حكومة صاحب الجلالة البريطانية عزمها على أنها متى انتهت الحرب لن تسمح بوقوع السنوسيين فى برقة تحت النير الإيطالى مرة أخرى بأى حال من الأحوال [1].

وبعد خروج الإيطاليين من ليبيا عام ١٩٤٣م بقيت القوات الإنجليزية فى كل من برقة وطرابلس والقوات الفرنسية فى فزان حتى حصلت ليبيا على استقلالها فى ٢٤ ديسمبر ١٩٥١م، وبهذا استمرت صلة السنوسية بانجلترا ، وهى الصلة التى ساعدت الأمير محمد إدريس على إعلان استقلال برقة فى يونيو عام ١٩٤٩م عندما تعثرت المفاوضات بين الطرابلسيين والسنوسيين حول وحدة ليبيا واستقلالها تحت زعامة الأمير محمد إدريس .. وعندما اتفقت كلمة معظم الليبيين على وحدة ليبيا وإمارة.محمد إدريس استمرت علاقة الدولة الجديدة التى يتزعمها الملك محمد إدريس السنوسى مع انجلترا علاقة طيبة ومتينة.

تقييم الدعوة السنوسية

بدأت الدعوة السنوية كما عرفنا على يد مؤسسها السيد محمد بن على السنوسى الذى وضع التنظيم الذى سارت عليه فى أيامه وفى عهد خلفائه ، وقد ظل مؤسس الدعوة يشرف عليها حتى انتهت حياته فى اليوم السابع من شهر سبتمبر عام ١٨٥٩م ودفن بزاوية الجغبوب، وخلفه ابنه السيد محمد المهدى فى زعامة السنوسية يعاونه شقيقه السيد محمد الشريف، وعندما توفى السيد المهدى عام ١٩٠٢م خلفه السيد أحمد الشريف بن السيد محمد الشريف وصيا على الزعيم الشرعى السيد محمد إدريس بن السيد المهدى لصغر سنه، وحصلت ليبيا على استقلالها وحكمت بيد السيد محمد إدريس الذى أطاحت به ثورة الفاتح من سبتمبر١٩٦٩م.

وفى تقييمنا للدعوة السنوسية يمكن أن نقول أنها كانت من أنجح الحركات الدينية الاصلاحية فى الأقطار العربية والإسلامية لأنها دعت إلى الرجوع إلى الدين الإسلامى

١- د. محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ص٢٨٧-٢٨٨ .

بأصوله دون تطرف أو شطط ، كما أنها لم تصطدم بالقوة الإسلامية المسيطرة فى العالم العربى آنذاك وأعنى الدولة العثمانية ، بالإضافة إلى أنها كانت طريقة عمل بمعنى أنها وضعت مبادئها موضع التطبيق سواء فى التعليم أو نشر الدين الإسلامى صحيحا بين القبائل العربية والأفريقية ، وإحلال الصلح والسلام محل البغضاء والحروب ومواجهة أعداء الإسلام سواء كانوا فرنسيين أو إيطاليين .

لقد استفاد محمد بن على السنوسى من رحلاته واحتكاكه بمختلف الفئات فى الأقطار التى زارها ، فنأى بنفسه وبدعوته عن الخوض فى خلافات جانبية تعوقه عن تحقيق أهداف دعوته، فلم يستطع المهديون فى السودان جر السنوسية إلى المشاركة فى ثورتهم الدموية والعدائية ضد مصر وتركيا ، وحافظت السنوسية على قوتها انتظارا للوقوف أمام العدو الطبيعى للأمة العربية والشعوب الإسلامية وهو الاستعمار الأوروبى الذى نزل بالجزائر عام ١٨٣٠م كمقدمة لزحفه إلى أجزاء أخرى من الأقطار العربية والإسلامية كما تنبأ بذلك صاحب الدعوة السنوسية نفسه .

ومبعث نجاح الدعوة السنوسية أنها نشرت دعوتها عن طريق أداتها- الزوايا- فى الحجاز- بالقرب من الدعوة الوهابية- وفى مصر وفى السودان الغربى- بالقرب من الخلوات المهدوية- دون أن تصطدم بأى طرف، اللهم سوى الاستعماريين الأوروبيين .

الفصل التاسع

السودان والمهدية

- السودان - محمد أحمد- أسس المهدية - أسلوب المهدية- المهدية والقوى الخارجية- تقييم المهدية .

السودان

ولد محمد أحمد صاحب الحركة المهدية فى جزيرة لبب إلى الجنوب من مدينة دنقلة بنحو ١٥ كيلو متر، فى ١٢ أغسطس ١٨٤٤م، ودنقلة مدينة تقع فى السودان الشمالى على نهر النيل، وهى تقع فى إقليم صحراوى نادر المطر، وتسكنه الجماعات الحامية كالنوبيين الذين اختلطوا بالعرب وتأثروا بهم، وإلى الجنوب من دنقلة نجد السودان الأوسط حيث المناخ الصحراوى يسود أيضا مع سقوط أمطار شهرى يوليو وأغسطس ويسكنه العرب الذين يحتلون دارفو وكردفان والخرطوم والنيل الأزرق والأجزاء الجنوبية من كسلا[١] ويشتغل هؤلاء العرب بالزراعة حول النيل ورعى الإبل والبقر فى كردفان ودارفور ومن أشهر القبائل الرعوية البقارة فى وسط وجنوب كردفان .

تلك ظروف السودان الذى ظهر فيه محمد أحمد وعلى أرضه أعلن ثورته، وتنقل بين أجزائه من دنقلة، إلى جزيرة أبا فى النيل الأبيض إلى جبل قدير بجنوب كردفان ، فوسط كردفان فدارفور ثم الخرطوم ومعظمها أرض صحراوية تسكنها قبائل عربية بصفتها الاجتماعية والإنتاجية ، وهذه القبائل العربية جاءت إلى السودان من طريقين: الطريق الأول هو الباب الشمالى الذى يفضى إلى مجرى النيل متابعا النهر من جنوب أسوان إلى كرسكو ثم مخترقا صحراء العطمور مباشرة إلى أبى حمد، ثم متابعا النهر مرة أخرى منتهيا إلى الجنوب[٢] والطريق الثانى هو الباب الشرق المنحدر مرة أخرى من ساحل البحر الأحمر عبرته الهجرات من جزيرة العرب فى طريقها صوب الغرب إلى السودان الأوسط[٣].

١- د. فيليب رفلة: الجغرافية السياسية لأفريقية ص٢٩٢ .

٢- د. حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقية ، ص٣٠٤ .

٣- د. محمد عوض : السودان الشمالى ص١٥٩ .

وقد انقسمت هذه القبائل العربية الوافدة إلى ثلاث مجموعات: المجموعة الأولى هى مجموعة الجعليين وهى أكثر المجموعات العربية نفوذا وعددا. فقد انتشرت فى المنطقة الممتدة من وادى حلفا حتى جنوب أم درمان . والمجموعة الثانية هى مجموعة جهينة، وهم عرب وفدوا إلى مصر أولا حتى إذا كان القرن الرابع عشر الميلادى اتجهوا جنوبا نحو السودان حيث استقروا فى شرق السودان وعلى حدود الحبشة وفى الجهات الشرقية والوسطى من كردفان ، ومن أشهر قبائل هذه المجموعة: الشكرية، البقارة والكبابيش ، والمجموعة الثالثة تعرف بالكواهلة ومنازلهم فى العطبرة والنيل الأزرق وحول النيل الأبيض وكردفان فى الغرب .

وقد شاركت هذه المجموعات القبلية فى أحداث السودان الاجتماعية والسياسية، فكونت بعض الإمارات العربية الخاضعة لنفوذ غيرها أكثر قوة أو المستقلة بأمرها ، وكان أشهر هذه الإمارات والسلطنات الإسلامية العربية سلطنتا إحداهما على النيل الأزرق أسسها الفونج فى سنار ومؤسس هذه السلطنة وعاصمتها زعيم الفونج «عمارة دو نقس » أول القرن العاشر الهجرى سنة عشر بعد التسعمائة (٩١٠هـ)[١] الموافق لعام ١٥٠٥م) والسلطنة الأخرى عرفت بسلطنة دارفور فى السودان الغربى. وقد ظل الفونج يعتمدون على مصر فى غذائهم الروحى، فدرس نخبة من أبناء هذه الدولة فى الجامع الأزهر وعادوا إلى بلادهم ينشرون بها ما تلقوه من علوم ومعارف دينية إسلامية[٢].

ومما يلفت النظر أن القبائل العربية التى دخلت السودان لم تكن وسيلتها فى نشر الإسلام بين أهل البلاد التبشير أو الدعوة إلى الدين. إنما توسلت بالوسيلة الاجتماعية والتسرب السلمى، بالاصهار إلى الشعوب المحلية، ثم إفناء هذه الشعوب فى الدماء العربية الوافدة، ثم اندماج هذه القبائل فى الحياة القبلية الجديدة[٣]. وكانت النتيجة الحتمية لهذا الاندماج اعتناق جيل المولدين دين الأمهات ودين القبيلة صاحبة النفوذ ، ثم ازدياد التيار الإسلامى عمقا بمضى الزمن[٤]. وقد ساعد على ذلك أن العرب لم يكونوا طبقة حاكمة متعالية ومنعزلة عن السكان الأصليين ، ولم يطالبوا بحكم ذاتى أو مملكة خاصة ولكن كانت لهم أحياؤهم الخاصة

١- د. مكى شبيكة: مملكة الفرنج الإسلامية ص٢٢ .

٢- د. السيد رجب حراز : المدخل إلى تاريخ مصر الحديث ص٢٤٨ .

٣- عبد العزيز عبد المجيد: التربية فى السودان والأسس النفسية والاجتماعية التى قامت عليها ص٢٥ .

فى المدن الكبيرة ولهم قراهم الخاصة . والدلائل واضحة على أنهم فى بعض المناطق خضعوا لحكام البلاد (١).

ظل السودان مجزءا حتى الفتح المصرى على يد محمد على أوائل العشرينات من القرن التاسع عشر ، ورغم محاولات سلطنة الفونج الإسلامية لتوحيد السودان تحت سيطرتها، إلا أنها فشلت أمام قوة سلطنة دارفور فى الغرب، التى لم تستطع هى الأخرى ابتلاع مملكة الفونج وتوحيد السودان تحت سيطرتها هذا بالإضافة إلى ظهور زعامات دينية صوفية متنافسه دون الاهتمام بأصول الدين وقواعده الأساسية، ومن ثم سادت حياة السودانيين الإسلامية العاطفة والخرافات ، ونسب السودانيون إلى رجال الدين المعجزات بل وقد سوهم أكثر من تقديس الأنبياء فى الوقت الذى ضعف فيه مستواهم العلمى فلم يكن باستطاعتهم التمييز بين الخرافات والعقيدة الصحيحة (٢).

لم يكن مجئ قوات محمد على إلى السودان عام ١٨٢٠م بداية الاهتمام المصرى بالسودان ، بل إن العثمانيين فى مصر احتلوا بلاد النوبة بعد احتلالهم لمصر واستقرارهم فيها، بالإضافة إلى احتلالهم لما أطلقوا عليه «إيالة الحبش» فى نفس الفترة تقريبا أى فى النصف الأول من القرن السادس عشر وألحقوها بباشوية جدة كما أن المماليك فروا من مصر بعد مذبحة القلعة عام ١٨١١م إلى السودان، وحاولوا السيطرة على دنقلة والانتقال منها تدريجيا نحو الجنوب حتى تتم لهم الزعامة الكاملة(٣).

تم فتح أهم أجزاء السودان تقريبا عام ١٨٢٥م، ومنذ ذلك التاريخ استمرت عمليات الفتح فى عهد محمد على وخلفائه حتى استكمل فى عهد الخديوى إسماعيل، وفى ظل الحكم المصرى أنشئت عاصمة للسودان هى مدينة الخرطوم عام ١٨٣٠م وغيرها من المدن ، كما استقر الأمن فى ربوع السودان مما جعل الناس ينصرفون إلى أعمالهم فى الزراعة والتجارة والرعى، كما أن الحكم المصرى شجع العلماء والمستكشفين للقيام بالرحلات العلمية لكشف منابع النيل وهي

١- د. حسن محمود : المرجع السابق ص٣٣٩ .

٢- د. مكى شبيكة : مملكة الفونج ص١٩ .

٣- Hilleson : Anglo - Egyptian Sudan p. 101 .

٤- د. حسن محمود، المرجع السابق ، ص٢٨٣ .

أمنية كانت تجول بخاطر محمد على وابنه إبراهيم وحققت أمل علماء الجغرافيا فى أوروبا، ولكن استعانة الحكم المصرى وخاصة فى عهد الخديوى إسماعيل بالأجانب فى عمليات الكشف وفى حكم أقاليم السودان كان له تأثير سئ على السودانين وعلى الحكم المصرى وبما أدى فى النهاية إلى حدوث تلك الثورة التى قادها الفقيه محمد أحمد.

ورغم الجهود التى بذلها الحكم المصرى فى السودان من أجل النهوض بالسودانيين فى مجالات التعليم والزراعة والصناعة واستخدام وسائل منظمة للنقل كخطوط السكك الحديدية ، وتوفير إصلاح إدارى ومالى يخدم السودانيين ، كل ذلك على نفس النسق الذى طبق فى مصر، إلا أن هذه الجهود كانت تسير بخطى وئيدة تدريجية فى عهد محمد على، ثم نجدها تكاد تتوقف فى عهد عباس وتعود لتنتعش فى أواخر عهد سعيد ثم تزدهر فى عهد إسماعيل الذى أسس ما عرف بالإمبراطورية المصرية فى أفريقيا بعد أن استكمل فتح بقية أقاليم السودان وضم الصومال وسواحل البحر الأحمر العثمانية إلى الحكم المصرى فى السودان.

ولكن مما قلل من الدور والمجهود المصرى فى السودان تدفق الأوروبيين إلى هذا الإقليم لأحكام السيطرة الاستعمارية عليه وليحققوا أهداف دولهم هناك، فرأينا السير «صموئيل بيكر» الإنجليزى يعينه إسماعيل مديراً لمديرية خط الاستواء لمدة خمس سنوات من ١٧٦٩-١٨٧٤م يستثمرها لمصلحته مع ضم الأراضى المجاورة للمديرية ، وحل محله الجنرال غوردون Gordon الإنجليزى أيضا الذى استولى باسم إسماعيل على منطقة حوض منابع النيل الأبيض بأسرها، وصحب معه زمرة كبيرة من المغامرين الأوروبيين كالإيطالى «رومولوجيسى» والألمانى دكتور «شنيتزر» الذى اسلم وسمى نفسه أمين، والفرنسى لينان والأمريكى «شاييه لونج» والسويسرى «منزنجر» الذى قاد التوسع المصرى في أثيوبيا ، واستولى على مناطق هرروزيلع وبربرة والدانماركى «أندروب» الذى اصطدم بقواته المصرية مع الأحباش واستولى على بعض الأقاليم الساحلية من أثيوبيا».

وعندما عهد الخديوى إسماعيل بمنصب حاكم عام السودان لجنرال «غوردون» عام ١٨٧٧م عين غوردون مكانه فى مديرية خط الاستواء أمين باشا «دكتور شنيتزر» حاكما عليها، وعين زملاءه الأوروبيين حكاما على مديريات السودان الأخرى، فأصبح الإيطالى «رومولوجيسى» حاكما على مديرية كردفان ، والنمساوى «سلاطين » Slatin حاكما على مديرية دارفور ، والإنجليزى «لبتون» حاكما لمديرية بحر الغزال، وأصبح الألمانى «جيجلر» أقرب مساعد لغوردون .

وهكذا أصبح السودان قبيل اشتعال الثورة المهدية ، والذى كان رسميا تحت سلطة الحكومة المصرية ملكا لفئة من المغامرين الدوليين الطامعين فى الكسب، ففرضوا على أهل السودان ضرائب باهظة لاتحتمل، واتبعوا سياسة عنيفة فى محاربة تجارة الرقيق بصورة ساعدت على انتشار السخط على الحكم المصرى الذى أتى بالأجانب «الكفار» إلى بلاد المسلمين فى السودان والتحكم فى رقاب أهل البلاد خاصة والسودانيين مسلمين متمسكين أشد التمسك بدينهم وكانوا بطبيعة الحال لايعترفون لغير المسلم بأى حق فى ولاية أمورهم[١]. ومن الطبيعى أن ينتج عن ذلك تجاوب السودانيين مع دعوة محمد أحمد الذى أعلن أنه جاء بصفته المهدى المنتظر ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت ظلما.

محمد أحمد

هو محمد أحمد[٢] بن عبدالله ، والده عبدالله كان نجارا يشتغل بصناعة السفن فى جزيرة «لبب» التى تبعد بنحو ١٥ كيلو مترا جنوب مدينة دنقلة [٣]، حيث ولد هناك محمد أحمد فى ١٢ أغسطس عام ١٨٤٤م، ونقل مع والده من دنقلة إلى شندى حتى حط بهم الرحال «بكررى» شمالى أم درمان بقليل حيث توفى الوالد واستمر أبناؤه فى مزاولة صناعة بناء السفن فيما عدا محمد أحمد الذى مال نحو التعليم الدينى فدخل خلوة[٤] القرية حيث تعلم القرآن الكريم، ثم تنقل من «كررى» إلى الخرطوم للاستزادة من العلم، حتى سمع عن حلقات الشيخ محمد الخير الدينية فى بربر فالتحق بها وأظهر تفوقا على أقرانه فى هذه الحلقات .

وكانت حياة محمد أحمد لاتقتصر على تلقى الدروس وانتظار ما يقدمه أهل الإحسان لطلاب العلم، بل آل على نفسه منذ البدء أن ينقى النفس والبدن معا من الأدران وما يشتبه فيه فشيخه يتناول مرتبا حكوميا من الذرة والمال، ومثل هذا الرزق لايضمن خلوه من الظلم والمحرمات فهو لايبنى خلايا جسمه بالمشتبه فيه وما عليه إلا أن يذهب فى بهيم الليل للصيد الحلال على شاطئ النهر لاصطياد السمك، ويلقى فى سبيل ذلك من النصب ما يلاقى قبل

١- د. جلال حيى : الثورة المهدية ، ص٩ .

٢- الاسم مكون من كلمتين محمد وأحمد والأب اسمه عبدالله .

٣- د. محمد فؤاد شكرى: مصر والسودان ص٢٩٠ .

٤- الخلوة تعنى المدرسة القرآنية أو الزاوية التى يحفظ بها طلاب العلم القرآن الكريم وبعض العلوم النقلية واللغوية.

أن يقع السـمك فى سنارته[1] كما أنه اشتغل بجمع الخشب وبيعه وذلك إلى جانب دراسته الدينية [2]. كل ذلك إلى جانب قضاء فترة من الليل فى التأمل والصلاة وتلاوة الأوراد ثم انضم إلى السيد محمد الشريف نور الدايم شيخ الطريقة السمانية[3] الذى سمح له بتكوين مريدين له رغم صغر سنه ، وكان ذلك مما ساعده على التمرين في الوعظ والإرشاد[4].

وانطلاقا من اتجاه محمد أحمد الانعزالى فقد آثر الابتعاد عن جو الخرطوم للاختلاء بعيدا للتأمل والتعبد فاتجه فى النيل الأبيض حتى جزيرة «أبا» عام ١٨٧١م ذات الغابات المتشابكة وكان يسكنها عدد قليل من العرب الرحل وأنفار قلائل من «الشلك» وهم سكانها الأصليون[5]، وكان هذا الجو ملائما لمحمد أحمد لكى يتعمق فى أمور الدين والدنيا ويفكر فى الكيفية التى تصلح بها أحوال المسلمين فى الاتجاهين الدينى والدنيوى ، واختيار جزيرة أبا اختيار مناسبًا لكى تنطلق منه دعوة محمد أحمد التى عرفت باسم «المهدية» فهى جزيرة بعيدة عن سلطة حكمدارية الخرطوم وأهلها يعيشون حياة قبلية وتنتشر بينهم الخرافات والبدع إلى جانب تفشى الجهل والفقر بينهم مما يساعد صاحب الدعوة على نشر دعوته ويهيئ لها مناخ النجاح ، خاصة إذا ارتبطت هذه الظروف بمكونات شخصية محمد أحمد الذى إذا صلى بكى واستبكى وأطال الوقوف والركوع والسجود وإذا وعظ أثر فى النفس، وعيشه عيش من زهدوا زخرف الدنيا واتجهوا بأنفسهم إلى الآخرة[6].

ذاع صيت محمد أحمد فى جزيرة «أبا» حتى أصبح ذكره على ألسنة كل من يتخذ من نهر النيل مجالا لعمله أو يسمع ممن زاروا «أبا» وكانت السفن النيلية المارة فى النيل الأبيض تتوقف عند الجزيرة حيث ينزل ركابها إلى «الشيخ» لنوال بركاته ولتقديم الهدايا ليصرف منها على خلوآته التى كثر عددها وعلى مريديه الذين ازداد عددهم، مما ساعد على انتشار صيت

١- د. مكى شبيكة: السودان فى قرن ص٢٥١ .

٢- د. إبراهيم العدوى: يقظة السودان ص٤٩ .

٣- إحدى الطرق الصوفية التى ظهرت فى المدينة المنورة ونقلها إلى السودان جد الشيخ محمد الشريف.

٤- د. جلال يحيى: الثورة المهدية ص٢١ .

٥- د. مكى شبيكة : المرجع السابق ص٢٥٣ .

٦- نفس المرجع والصفحة.

هذا العابد المتصوف وسرت الإشاعات عن أنه يرى الرؤيا ويسمع الأصوات ، وكان هذا كافيا فى نظر العامة من الأهالى الذين وجدوا فيه «المختار » من العناية الإلهية لخلاصهم (١).

استفاد محمد أحمد فى تعليمه الدينى من المشايخ الذين اتصل بهم وأخذ عليهم الدرس والطريقة ، وكما ذكر المثل «كل شيخ له طريقة» فقد تعلم على يد الشيخ محمد الخير ما استطاع أن ينهله من علوم النحو والتوحيد والفقه والتصوف، وأخذ عن الشيخ محمد شريف ود نور الدايم مزيدا من الدروس فى علوم الشريعة والتصوف على الطريقة السمانية واستمر محمد أحمد متصلابشيخه محمد شريف بعد انتقال الأول إلى أبا حتى حدثت جفوة بين الرجلين بسبب ازدياد شهرة التلميذ عن أستاذه ، فدخل محمد أحمد فى طريقة الشيخ القرشى ود الزين بأرض الجزيرة- بين النيلين الأبيض والأزرق- وكان الشيخ القرشى من أتباع الطريقة السمانية ولكنه كان فى نظر محمد أحمد قائم بشروط الطريقة دون شبهة.

ورغم أن شهرة محمد أحمد أنذاك لم تكن فى حاجة إلى شيخ غير أنه رأى من مستلزمات الطريقة وهو لايزال شابا دون الأربعين أن يعتمد على شيخ له قدم راسخ فى الحياة الصوفية، وأبدى بالرغم من ذيوع صيته من الخضوع والانكسار لشيخه الجديد مثلما كان يبديه لأستاذه الأول (٢). ولم تطل إقامة محمد أحمد كثيرا مع أستاذه الشيخ القرشى بسبب وفاة الأستاذ فعاد محمد أحمد إلى جزيرة أبا لكى يستكمل بناء أسس دعوته. ولاشك أن هذا الترحال ودخوله فى إحدى الطرق الصوفية ثم خروجه منها كان أحسن وسيلة للدعاية له ولفكرته وللعمل على تكوين جماعة جديدة تأتمر بأمره وتنفيذ إرشاداته (٣).

وكانت إرشادات محمد أحمد وأوامره هى ما يمكن أن نسميه أسس دعوته أو ثورته ضد الحكمدارية- أى ضد الحكم المصرى الخاضع لنفوذ الأجانب فى السودان- وتلك الأسس لم تكن بدعة ابتدعها محمد أحمد وإنما سبقه إليها أصحاب الحركات السلفية الأخرى: الوهابية والسنوسية، وأعنى دعوة دينية فى نفس الوقت أى تنقية الدين الإسلامى مما شابه من خرافات وبدع وفى نفس الوقت إشاعة نوع من الحكم العادل فى ظل إمام عادل تفرزه الدعوة أو الطريقة ، أو بعبارة أخرى تصبح الدعوة دين ودولة .

١- د. جلال يحيى: المرجع السابق ص٢٢ .

٢- د. مكى شبيكة : المرجع السابق ص٢٥٤ .

٣- د. جلال يحيى: المرجع السابق ص٣٢ .

أسس المهدية

ظل محمد حمد يلقب بالفقيه حتى ذاع صيته بجزيرة أبا حيث أعلن اختيار لقب «المهدى المنتظر» وصار يعرف به منذ ذلك الحين، وهذا اللقب استند فى رأى المهدى إلى الآية الكريمة «يهدى الله لنوره من يشاء» فهو المهدى من عند الله أى شاء الله له الهدى ، ولا جدال فى أن لقب المهدى ينطبق تمام الانطباق على الإمام محمد أحمد فى جهاده للعودة إلى بساطة الإسلام وللقيام بإصلاحات سياسية بين أهالى السودان فى تلك الفترة، ولكن اعتباره على أنه هو المهدى المنتظر كان شيئا آخر مختلفا تمام الاختلاف [١]. ذلك أنه بهذا الادعاء الذى يصور نفسه بأنه الشخصية المتواترة فى الأخبار نزولها فى آخر الزمان بعد أن تمتلئ الأرض فسقًا وظلمًا وشرًا ليملأ الأرض من جديد بالعدل والخير والرحمة والأمان ، فقد صور دعوته بصورة تبعدها عن جوهرها الأصلى وتثير ثائرة المسلمين خارج السودان وتتهمه بالكفر والخروج عن الإسلام الذى يدعى أنه إنما جاء لحمايته وإصلاح أحوال المسلمين .

وقد تمثلت أسس الدعوة المهدية فى الإصلاح الدينى، والإصلاح السياسى والإصلاح الاجتماعى للمسلمين فى السودان وخارج السودان، نسوقها فيما يلى:

أولا : الإصلاح الدينى:

تتمثل المهدية فى العودة بالتشريع إلى عهوده الزاهرة ، إلى عصر الاجتهاد الأول قبل افتراق الكلمة وظهور المذاهب الأربعة. وقال فى ذلك أن الاجتهاد هو الوسيلة الوحيدة لتقويم السنة والهجرة بالدين مما عليه من الانطباعات الزمنية [٢]. أى أنه هاجم توزع المسلمين بين أربعة مذاهب شافعية ومالكية وحنفية وحنابلة ثم تفرقهم بعد ذلك بين طرق صوفية مختلفة لم يؤد إلا إلى إضعاف الإسلام، ووجد أن الطريق إلى الله واضح جلى فى كل من القرآن والسنة وأن معرفتها كافية للمؤمن الحق [٣]. ومن ثم دعا إلى الاجتهاد فى الإسلام قائلا: وما العبد إلا الأعمال الموافقة للسنة والكتاب، من لم يجتهد على ذلك بشق الأنفس خسر الدارين[٤].

١- د. جلال يحيى : المرجع السابق ص٢٥ .

٢- نعوم شقير : تاريخ السودان ، ج٣ ص١٣٧ .

٣- د. جلال يحيى: المرجع السابق ص٢٣ .

٤- نعوم شقير: المرجع السابق ج٣ ص١٤٥ .

وأضاف المهدى إلى فتح باب الاجتهاد فى الإسلام إقامة الحدود الشرعية مثل قطع يد السارق ، ورجم الزانى، بل ينتهج طريقة المرابطين حين يعاقب على ترك الصلاة[1] وهاجم الفقهاء من رجال الدين وأحرق كل كتب الفقه والتفسير ، وحرم على أنصاره استخدام فاحش القول وشرب الخمر وتدخين الطباق والحشيش وكذلك الرقص والاستماع إلى الموسيقى وأوصى بتبسيط حفلات الزواج [2]. وبمعنى أوسع كانت المهدية تدعو إلى تطبيق الشريعة الإسلامية فى السودان وأن الكفر بالمهدية كفر حيث قال: من شك فى مهديتنا وأنكر وخالف فهو كافر ودمه هدر وماله غنيمة [3].

وقد اتفقت المهدية مع الوهابية فى ضرورة فرض الإصلاحات الدينية ولاتترك اختيارا للناس وقد تجلى ذلك فى نص البيعة التى يبايعه بها مريدوه حيث تقول كلماتها : باسم الله الرحمن الرحيم ، الحمدلله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله، أما بعد فقد بايعنا الله رسوله وبايعناك على توحيد الله، وألا تشرك به أحداً ولاتسرق ولا تزنى ، ولاتأتى ببهتان ولاتعطيل فى معروف ، بايعناك على زهد الدنيا وتركها والرضى بما عند الله رغبة بما عند الله والدار الآخرة، وعلى أن تفرض الجهاد [4].

معنى هذا أن المهدى تشبه بمحمد بن عبد الوهاب فى التشدد فى مبادئ التوحيد، وجعل التعبد لله وحده ، وتحريم التطلع للأولياء وزيارة قبورهم ، والامتناع عن شرب الدخان، وتوجيه الناس إلى الكتاب والسنة ومحاربة البدع، وغير ذلك كفرض الزكاة والعشور وتوزيع الغنيمة والفيئ توزيعا شرعيا، وتعيين القضاة للفصل فى الأمور الشرعية، وهذه كلها محاولات مخلصة للإصلاح لكنها كانت تتطلب الاستعانة بالعلم الأصيل والدراسة الفقهية العميقة، والتعمق فى فهم النصوص التى وردت فى القرآن والسنة، ومحاولة الاستنباط استنباطاً يفوق جمهرة التابعين [5].

١- عبد المجيد عابدين: الثقافة العربية فى السودان ص١٢٤ .

٢- د. جلال يحيى : المرجع السابق ص٢٤ .

٣- نعوم شقير: المرجع السابق ج٣ ص١٣٧ .

٤- نعوم شقير: نفس المرجع ج٣ ص١٣٩ .

٥- د. حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية فى أفريقية ص٤٠٨ .

ثانيا : الإصلاح السياسي:

آمن المهدى بارتباط الدين بالسياسة أى بين الظواهر الدينية والأمور السياسية إذ إنه قد اعتبر هذين الميدانين متصلين ومرتبطين أحدهما بالآخر فكان رأس الدولة هو أمير المؤمنين وإمامهم ، وكان على هذا الشعب أن يطيعه ما لم يوصه بمعصية الخالق، وكان يهدف إلى هدم الحكومة القائمة أولا ثم إقامة حكومة دينية فى مكانها تعمل على تطبيق الشريعة، ويصبح هو رئيسها الدينى والزمنى[١].

ولم يتوجه محمد أحمد إلى الحكومة القائمة بمبادئه الإصلاحية لأنه أخذ على رجال الحكم ابتعادهم عن تعاليم الإسلام ، وصار مقتنعا بأن النقمة تسود البلاد من أقصاها إلى أقصاها، فقد كان ثمة استياء من انغماس السلطات الحاكمة فى السودان فى الرشوة ، ومن توزيع الضرائب الثقيلة إلى أبعد الحدود توزيعا غير عادل وجبايتها بالقوة وبالعنف- على يد الموظفين الأوروبيين والأتراك- أضف إلى ذلك أن الحكومة المصرية كانت قد أعلنت إلغاء الرقيق تحت ضغط الحكومة البريطانية الوصية عليها، وبذلك أصيبت الحياة الاقتصادية كلها بالإضطراب[٢]. وهكذا استغل المهدى هذه الظروف لتحقيق أهدافه ، فإنه مهما تكن ادعاءات المهدى الدينية- كما ذكر لورد دوفرين السفير الإنجليزى فى القسطنطينية إلى اللورد جرانفيل وزير الخارجية البريطانية فى ١٤ ديسمبر ١٨٨٣م - فإن قوته الرئيسية إنما جاءت من بؤس ويأس السكان الوطنيين[٣].

كان على المهدى إذن أن يستغل الحماسة الدينية للأهالى المتعصبين بشجاعة للمهدية، وكراهيتهم العنيدة للحكم القائم التى نشأت بسبب سوء الإدارة لفترة طويلة[٤] وبسبب استخدام البريطانيين فى عمليات التوسع والحكم المصرى فى السودان[٥]، فى الإطاحة بهذا الحكم وإقامة الأمانة السياسية والدينية بزعامته وتحت لوائه ، ولقد أوضح تأثير النفوذ الأوروبى على الحكم بما أساء إلى المسلمين فى السودان فى كتبه التى وجهها إلى زعماء الأقطار العربية والإسلامية . فقد ذكر للخديوى توفيق ما نصه : وأمانة ما حدث من البدع

١- د. جلال يحيى: امرجع السابق ص٢٤-٢٥ .

٢- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ص٦٤١-٦٤٢ .

٣- Hamilton: The Anglo- Egyptian Sudan, p. 67 .

٤- Cromer : Modern Egypt, Chap. XIX , p. 276 .

٥- Sudan Notes & Records: Vol . XL, 1959 , p. 76 .

والضلال والإنابة إليه تعالى فى كل الأحوال وقد تأكد فى هذا الزمان الذى عم فيه الفساد سائر البلدان، فإن دسائس أهل الكفر التي أدخلوها على أهل الإسلام وضلالتهم التى مكنوها من قلوب الأنام، فقد أفضت إلى اندراس الدين، وعطلت أحكام الكتاب والسنة بيقين، فصارت شعائر الإسلام غريبة بين الأنام ، وتراكمت الظلمات ، وانتشرت البدع، وأبيحت محارم الإسلام (١).

ومعنى هذا أن المهدى يلقى باللائمة على الأوروبيين فيما حدث للدين الإسلامى وللمسلمين من أحداث بدلت أحوالهم إلى الأسوأ، وخاصة الإنجليز الذين سيطروا على الأمور حتى فى مصر ذاتها وهاجم توفيق باشا لأنه أحل للإنجليز الذين جاءوا بكبرهم وخيلائهم ، الدماء والأموال والأعراض ، وهذا ليس من صفات الحاكم العادل المسلم الحق .. وأن الإسلام يدعو إلى طرد هذا العدو، وأن يكون المسلمون يدا واحدة على إقامة الدين وإخراج أعداء الله من بلاد المسلمين لأن هؤلاء الأعداء قد ظلموا أمة محمد، وأن رد الظلم لايتم إلا بالقضاء عليه(٢).

ولم يكتف المهدى بالدعوة لطرد الأوروبيين بل طالب بطرد المصريين من السودان باعتبار ذلك الوسيلة التى يمكن عن طريقها تقرير العدالة ورفع الظلم وليملأ السودانيون المناصب التى كان الأوروبيون والمصريون يشغلونها، ومن ثم أعلن وجوب الامتناع عن دفع أية ضريبة غير العشور أو الزكاة فقط التى ينص عليها الكتاب الكريم. ثم دعا إلى شيوع الملكية فلايستأثر مؤمن بمال أو عقار دون أخيه المؤمن، بل يجرى توزيع الثروة على الجميع بالتساوى(٣).

ولاشك أن هذه الإصلاحات والمطالب تستهوى كثيرين من السودانيين وخاصة الفقراء الذين رأوا فى الدعوة المهدية تحقيقا لآمالهم وإصلاحا لشأنهم ، وإن كان الأغنياء من السودانيين قد ساءتهم دعوته لشيوع الملكية، إلا أن الخلاص من الحكم المصرى كان معناه الخلاص من سيطرة الأجانب والأتراك فى محاربة تجارة الرقيق واحتكار الاتجار فى السلع المهمة بالسودان، وخلو المناصب والوظائف ليشغلها أبناء السودانيين ، وغير ذلك من المكاسب المعنوية التى ستعود على السودانيين من إنهاء الحكم المصرى التركي وإقامة حكم يتزعمه محمد أحمد المهدى.

١- Holt: Mahdiya, p. 184 .

٢ - نعوم شقير : المرجع السابق ج٣ ص٣٧٤ .

٣- د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص٢٩١ .

وكان من الزعماء القبليين الذين استجابوا لدعوة المهدى وأقبلوا عليه بجزيرة أبا عبدالله التعايشى أخطر زعماء قبائل البقارة شأنا وأشدهم بأسا ، وهذه القبائل تسكن فى كردفان ، وهى قبائل عربية ساخطة على الحكم القائم بسبب ملاحقة الحكومة لهم بالمطاردة والمصادرة لتجارتهم فى الرقيق وهم أكبر من يملكون الرقيق ويتاجرون فيه، ومن ثم كانوا مستعدين للثورة أكثر من غيرهم ، وعندما قدم المهدى إلى كردفان والتقى بزعماء القبائل هناك وعلى رأسهم زعماء قبائل البقارة عاد مقتنعا بتأييد هذه القبائل لدعوته ولقى تأييدا قويا من عبدالله التعايشى الذى حاول أن يجعل محمد أحمد يعلنه أنه «المهدى المنتظر» على شريطة أن يستوزره»[١].

ورغم وجود ساخطين على الحكم القائم إلا أن المهدى لم يستطع أن يدفع بكل السودانيين للثورة ضد هذا الحكم «لأن من السودانيين من كان يعزو ما أصابهم من أذى وضرر إلى عمال الحكومة الأجانب والأوروبيين «الكفار» وأذنابهم والضالعين معهم من مواطنيهم أنفسهم، مما عدوا حكومة المصريين براء منه، ولايسوغ شرعا الثورة عليها، وتمسك كثيرون من كبار السودانيين بالولاء لها وكان لهؤلاء نفوذ ملحوظ على أتباعهم ، وكانت كلمتهم مسموعة»[٢].

ولكن المهدى استطاع أن يتغلب على معارضة هؤلاء لثورته بإلقاء تبعات تلك المظالم والمصائب على عاتق الحكومة المصرية لأنها استخدمت أولئك الأجانب والدخلاء وولتهم أمور العباد فحكموا سيوفهم فى رقابهم وأتوا ما أتوه من الظلم وقتل النفوس وهتك الأعراض، وهب أنها لاتسئ الظن فيهم ولاتعتقد أنهم يتطوحون مثل ذلك التطوح ويأتون كل تلك المنكرات والموبقات ، فهل لم يكن من الواجب أن تتجسس أعمالهم وتتنسم أخبارهم ، حاسبة السودان عضوا من أعضائها يؤلمها ما يؤلمه ، لاريب فى ذلك ولا مراء، ولكنها أهملت هذا الواجب ، كان إهمالها دليلا على تركها حبلها على غاربها ، وترك مقادير السودان تجرى فى أعنتها ، إذن ليس بدعا انتقاض أهل السودان عليها، بل البدع والغرابة أن لاينتقضوا ويثوروا لخلع ذلك النير القاسى، وقلب تلك الهيئة الحاكمة التى أبلغت أرواحهم حناجرهم وأحرجتهم فأخرجتهم ، ولم تعمل عملا يصلح دنياهم ويستجلب رضاهم بل وكلت أمورهم إلى أناس يعتبر السود أرقاء ولايفرقونهم عن العجماوات ، ومن العبث أن يرضى المرء بالهوان والشقاء إذا كان قادرا على إصلاح حاله وإسعاد مآله[٣].

١- د. محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص٢٩٢ .

٢- نفس المرجع ونفس الصفحة.

٣- محمود القبانى: السودان المصرى والإنجليزى ص٣٦ .

ومن الأمور الجديرة بالملاحظة أن دعوة المهدية كانت حركة عالمية تريد أن تمد يد الإصلاح إلى الأقطار الإسلامية كلها، ويظهر ذلك من كتب المهدى ثم كتب خليفته عبدالله التعايشى إلى الملوك والزعماء فى الأقطار العربية والإسلامية ، وقد اهتز لحركته المسلمون جميعا ورأوا فيها رغبة مخلصة لإصلاح أحوال المسلمين وقد جاءته الوفود من مصر والحجاز والهند وبلاد المغرب[١]. كما تظهر تلك الدعوة العالمية من فكرته بتأسيس دولة إسلامية مترامية الأطراف تكون عاصمتها مكة المكرمة .

ثالثا : الاصلاح الاجتماعى :

ينتسب محمد أحمد إلى القبائل العربية الذين اختلطوا بالدماء النوبية، ويذهب البعض إلى أن أصله مصرى، وأن موطن أسلافه فى مديرية أسوان[٢]، وعلى أية حال فإن انتماءه إلى قبائل الكنوز الذين ينتمون إلى آل البيت، ومن هنا كان انتساب المهدى إلى البيت النبوى ، وكان لنسبه هذا أثر كبير فى نجاح دعوته وتآليف القلوب حوله [٣]. والمهم فى ذلك أنه لم ينتسب لإحدى المجموعتين القبليتين العربيتين الكبيرتين فى السودان وهما الجهينية والجعليه فتجنب بذلك عداء من مجموعة لم ينتسب إليها، واتجه بدعوته إلى التنظيمات القبلية التى سارعت إلى تأييده كما رأينا بالنسبة لموقف قبائل البقارة فى كردفان.

وانطلاقا من اختلاطه بالناس على جميع المستويات أثناء ترحاله فى طلب العلم أدرك مدى ما يقاسونه من مظالم وفقر وبؤس ، ومدى ما هم فيه من ضلالة وخرافات، فشارك الدعوة السنوسية فى تبسيطها لبعض مظاهر الحياة الاجتماعية مثل خفض المهر- عند الزواج- ومنع النساء من لبس الذهب والفضة ، والنهى عن شعر العارية أى خروج النسوة مكشوفات الرأس ، وعدم الاحتفالات بالأعراس ومنع البكاء وراء الميت وإبطال السحر والتعزيم [٤]، وكل تلك مبادئ اجتماعية رأى أنها تنقى المجتمع من الخرافات وتقوى من عوده لكى يواجه الحكام الظالمين.

١- محمود القبانى: السودان المصرى والإنجليزى ص٣٦ .

٢- عبد الرحمن الرافعى: مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ص١١٥ .

٣- د. حسن محمود: المرجع السابق ص٤٠٣ .

٤- نفس المرجع ص٤٠٨ .

اعتمد محمد أحمد منذ البداية على التنظيمات القبلية لإنجاح دعوته، ومن بعده سار خليفته عبدالله العايشى على نفس السياسة ومن ثم وجدنا المهدى لكى يزيد من أنصاره يحاول استرضاء القبائل كإباحة تجارة الرقيق بعد أن كانت الحكومة تحرم هذه التجارة، لأن تجار الرقيق كانوا يمثلون فى البلاد طبقة قوية من الأعيان والتجار الذين كانوا سادة السودانيين الحقيقيين ، والذين رأوا فى الدعوة المهدية ما يحقق مصالحهم، هذا بالإضافة إلى جهل الأهالى وسرعة تصديقهم للخرافات والأوهام واعتقادهم من قبل بقرب ظهور المهدى المنتظر ، فاقبلوا على دعاوى محمد أحمد يصدقونها ويؤمنون بها دون تفكير ولاتحقيق[1].

كان هذا هو الأساس الاجتماعى للمهدية ، وهو أساس يستند إلى جهل الناس وتصديقهم لما يلقى إليهم من الفقهاء أمثال محمد أحمد، وإلى التنظيمات القبلية التى ساءها محاربة الحكومة لأرزاقها فى تجارة الرقيق واحتكار تجارة السلع الأخرى المهمة كالعاج مما زاد من سخط زعماء هذه القبائل على الحكومة ، ومن ثم يمكن انضمامها إلى دعوة محمد أحمد للثورة على الحكومة .

أسلوب المهدية

عول محمد أحمد من البداية استخدام الثورة لتحقيق مبادئه وأهدافه الدينية والسياسية والشخصية، فاعتبر الجهاد ضد الحكومة وموظفيها جهاد فى سبيل الدين، وكان محمد أحمد قد بدأ فى يوليو ١٨٨٠م دعوته بطريقة سرية بالكتابة إلى رجال الدين من مشايخ الطرق الصوفية بأسلوب غير صريح ، وإنما لمح لهم فى كتبه إلى أسس دعوته، فبعضهم أمن واستعد إلى حين صدور الأمر، وبعضهم كفر بالدعوة ولم يعرها اهتماما.

ولكنه فى العام التالى- يونيو ١٨٨١م- وجه كتبا صريحة إلى رجال الدين يدعوهم لنصرة الدين والقيام لتأييد المهدية الكبرى التى خصه الله تعالى بها وعلى نصرة الكتاب والسنة، وأخبرهم أنه أمر بإعلانها وسيمشى النصر بين يديه[2] وكتب إلى المشايخ من مريديه وأصدقائه أنه رأى النبى الكريم عليه الصلاة والسلام فى المنام، وأنه عهد إليه إحياء الإسلام ودعاهم إلى الحضور إليه فى جزيرة «أبا» [3].

١- عبد الرحمن الرافعى: المرجع السابق ص١١١ .

٢- مكى شبيكة : المرجع السابق ص٢٥٥ .

٣- عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص١١٦ .

وعندما بدأت دعوة المهدية تصل إلى المشايخ والعلماء وشى به أستاذه السابق الشيخ محمد شريف شيخ الطريقة السمانية إلى رءوف باشا حكمدار السودان الذى لم يعر الموضوع اهتماما جديا لأنه لم يتعود ولا من كانوا قبله من الحكام أن يقوم درويش فقير ضعيف القوة والعون بمناصبة الحكومة العداء بنفوذها وسيطرتها أو لعل هذا الشيخ إن صح ما نسب إليه كتب وادعى ما ادعى فى حالة جذب قد تعترى مثله من الدراويش أحيانا[١] ومع ذلك أرسل رءوف باشا رسولا يستطلع حقيقة الأمور ويستدعى هذا الفقيه لمقابلة الحكمدار ، ولكن المهدى رفض الحضور إلى الخرطوم.

أدرك محمد أحمد أن دعوته فى خطر بعد موقفه هذا من الحكومة ، وتيقن أنها لكى تنجح عليه أن يعلن الثورة ضد الحكومة ويستعد لمقاومة رجال الحكم المصريين، ومن هنا انتقلت الدعوة المهدية من المكاتبات إلى الزعماء والمشايخ إلى الثورة ضد الحكومة وتشكيل فرق الأنصار للمقاومة التى تبدأ بما عرف بموقعة أبا فى ١٢ أغسطس ١٨٨١م والتى وقعت بين مائتين من جند الحكومة وبين حوالى أربعة آلاف من أنصار المهدى الذين عرفوا بالدراويش وكانت النتيجة هلاك معظم جند الحكومة .

كانت معركة أبا أول صدام بين الطرفين، وحينما جاءت نتيجته لصالح المهدية وضد الحكومة فقد استغله المهدى فى إنجاح دعوته وزيادة أنصاره ، كما ساعد هذا الانتصار على قوات الحكومة بدون شك على أن يزداد ولاء أنصار المهدى له واعتقادهم بأنه مبعوث العناية الإلهية ، وأنه مؤيد منها فى انتصاره على الحكومة [٢]، وأن عليه مواصلة السير لتخليص السودان من الحكومة القائمة لتحل محلها حكومة المهدية بمبادئها المؤيدة من الله .

كانت موقعة أبا[٣] أول أحداث الثورة المهدية ضد الحكم المصرى هناك، وقد نبهت هذه

١- مكى شبيكة : المرجع السابق ص٢٥٥ .

٢- د. جلال يحيى: الثورة المهدية ص٢٧ .

٣- كان جند المهدى فى المعركة يحملون خمس رايات كتب على كل منها عبارة «لا إله إلا الله محمد رسول الله » وعلى إحداها أضيف «الجيلانى ولى الله » والثانية «الرفاعى ولى الله» والثالثة «إبراهيم الدسوقى ولى الله» الرابعة «أحمد البدوى ولى الله» والخامسة كتب عليها وعلى الرايات الأربع : محمد المهدى خليفة رسول الله، فكانت تلك اللحظة الفارق بين الطريقة والمهدية وما بين المسالمة والجهاد، وقد أصبح اسمه بعدها محمد المهدى، بدلا من الشيخ محمد أحمد (مكى شبيكة ص٢٥٨) .

الموقعة الحكومة المصرية فى القاهرة إلى حدوث ثورة- لم يعرفوا حقيقة قوتها[1] فى السودان وأنه يجب على حكمدار السودان القضاء عليها بسرعة لأن القاهرة مشغولة بالحركة العرابية، كما نبهت هذه الموقعة محمد أحمد بأن الحكومة لن تتركه يستقر فى جزيرة أبا، ومن ثم عول على الهجرة إلى جبال النوبة فى جنوب كردفان حيث يكون هناك بعيدا عن متناول يد الحكومة ، وإذا ما قصدته أية قوة تلاقى نصبا فى الوصول إليه، والهجرة إلى مكان يكون فيه قوام الدين ورد فى كل خطاباته سواء منها الأولى بالتلميح أو الصريحة بإعلان مهديته [2].

وقد أدى هذا الانسحاب إلى جبال النوبة- وخاصة إلى جبل قدير أوعر المناطق فى تلك الجبال- إلى زيادة نفوذ المهدى لأنه وقع بعد انتصاره على الحكومة واعتبره المهديون هجرة تشبه هجرة الرسول من مكة إلى المدينة ، وأعطى المهدى لقب «الأنصار» إلى أعوانه الذين استقبلوه عند وصوله تشبها بالرسول فى هجرته وسمى[3] من صحبه فى هجرته باسم المهاجرين . وفى مكمنه الجديد انتصر على قوة حكومية أخرى بقيادة راشد بك مدير فاشودة فى ٩ ديسمبر ١٨٨١م وقد انتشر خبر هذا الانتصار أيضا ليقضى على تردد بعض السودانيين فى الانضمام إلى المهدية المؤيدة من الله والمحققة لمعجزات انتصار هؤلاء الدراويش على جند الحكومة النظاميين ، بينما أدت هذه المعركة إلى انزعاج حكمدارية السودان المترددة.

لم تكن حكومة القاهرة على استعداد للتضحية بقوات ترسلها إلى السودان مددا فى الوقت الذى تتهدد فيه مصر نفسها أخطار غزو أجنبى، فاكتفت الحكومة المصرية بعزل رءوف باشا من الحكمدارية وتعيين عبد القادر باشا حلمى مكانه الذى وصل إلى الخرطوم فى ١١ مايو ١٨٨٢م ليجد جيجلر Gigler النمساوى يصرف أمور حكمدارية السودان بعد مغادرة رءوف باشا الخرطوم فى أوائل مارس ، ووصل عبد القادرة ليجد حملة عسكرية أخرى يقودها يوسف باشا الشلالى مدير سنار تتجه لمقاتلة المهدى فى جبل قدير، وقد لقيت هذه الحملة

١- روى رءوف باشا قصة الواقعة مختصرة فى تلغراف للحكومة المصرية جاء فيه «قصدت القوة محل إقامته - المهدى- لضبطه فوجدوا بعض أشخاص بهيئة دراويش ينفون عن المائتين نفر مجتمعين وشاهرين بوارقهم ، فمن ذلك أمرهم الريس بضربهم بالرصاص فلم يمتثلوا لأمره وقالوا له هؤلاء دراويش فقراء لايصح ضربهم ولما قربوا منهم فهموا عليهم الدراويش وتمكنوا منهم وقتلوا مائة وعشرين عسكرى وستة ضباط .

٢- مكى شبيكة : المرجع السابق ص٢٦٠ .

هزيمة كبرى فى ٢٩ مايو ١٨٨٢م وقتل يوسف باشا نفسه، وغنم المهدى أسلحة الجيش وذخائره ، فازداد بها قوة ، وذاعت سطوته فى مختلف الأرجاء ، وخاصة فى كردفان ، وتضعضعت هيبة الحكومة ، وصدق الأهلون دعوة محمد أحمد، بعد هذه الانتصارات المتوالية[١] التى أحرزها المهدى بجيوشه غير النظامية ضد جيوش الحكومة النظاميين المسلحين.

كانت انتصارات المهدى المتتالية على قوات الحكومة مثار دهشة المراقبين ، فإن الجيش المصرى هو الذى فتح النيل الأبيض وكردفان ، وبحر الغزال وخط الاستواء، ودان له السودان من أدناه إلى أقصاه مدة ستين سنة متوالية، فكيف به ينهزم أمام شراذم مجردة من السلاح والنظام، إن هذا حدثا يدعو إلى العجب، ولكن سوء إدارة الحكام وتعاقب المديرين وعدم كفايتهم وقلة إخلاصهم ، وافتقار الجيش إلى قواد أكفاء كل ذلك كان له أثره فى اختلال نظام الجند وانهزامهم أمام جموع المهدى. ثم إن شخصية المهدى كان لها بلا مراء أثر كبير فى انتصار جموعه، فقد كان ذا شخصية قوية جذابة، ولولا ذلك لما استطاع أن يجمع حوله الأنصار والأعوان، ويبعث فيهم روح الطاعة لأوامره ، والاستخفاف بالموت فى سبيل تأييد دعوته، ولقد كان لمزاياه الشخصية وما عرف عنه من الزهد والصلاة وإيمانه بدعوته وذكائه وحزمه، كل أولئك كان له أثره فى نجاحه وانتصاره على قوات الحكومة[٢].

تم تعيين عبد القادر باشا حلمى ناظرا للسودان وملحقاته وحاكم عام السودان وملحقاته فى نفس الوقت ، بمعنى توحيد الإدارة والحكم فى الأقاليم السودانية بإنشاء وحدة إدارية تخضع لها كل هذه المناطق بما فى ذلك مديريات شرق السودان ومحافظات البحر الأحمر وحكمدارية هرر وزيلع وبربرة وتاجورا [٣]. وكان عليه مواجهة الثورة المهدية فى الوقت الذى كانت أحداث الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى لمصر تشغل الحكومة المصرية عن الأمور فى السودان ، وفى الوقت الذى أصدر فيه الخديوى بعد الاحتلال أمرا عملا بنصيحة انجلترا بحل الجيش المصرى- جيش العرابيين- وبيع أسلحته أو تدميرها .

١- عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص١١٩ .

٢- عبد الرحمن الرافعى: المرجع السابق ص١٢٠ .

٣- د. جلال يحيى: المرجع السابق ص٢٩ .

وكان عبد القادر باشا له من مقدرته وكفاءته ما يجعل منه رجل الساعة فى السودان – وما كانت الوزارة لتجد رجلا أجدر بمثل تلك المهمة، وما كان كغيره من الحكمداريين السابقين.. إذ كانت ثقته فى نجاح مهمته بالقضاء على الثورة المهدية كبيرة ، فبعث إلى القاهرة يقول: ومأمول إن شاء الله الحصول على الغرض المقصود، وبعد زمن قريب منظور حضور البوستة بالأخبار المبشرة بالظفر والنجاح [١]. وبالفعل استطاع إخماد الثورة فى سنار والجزيرة كلها (الواقعة بين النيلين الأزرق والأبيض) ونكل بالثورة ، وملأ قلوبهم رعبا فانكمشوا أمام هيبته وسطوته، وضيق على المهدى المسالك ، وشعر المهدى بخطره، فكان يدعو الله هو وأصحابه عقب كل صلاة بقوله : اللهم يا قوى يا قادر اكفنا عبد القادر[٢].

ولكن عبد القادر حلمى لم يلبث أن صدر أمر خديوى باستدعائه وإلغاء نظارة السودان فغادر الخرطوم فى أواخر أبريل عام ١٨٨٣ . وسط استياء السودانيين فى الخرطوم والجزيرة والمصريين وقناصل الدول الأوروبية ورعاياها لأن الكل موقنون بأن الطريقة التى اتبعها عبد القادر باشا- بترك المهدى وأتباعه فى صحارى كردفان وحصارهم هناك حتى يتفرق شملهم - كانت هى السبب الوحيد فى نجاة الخرطوم وسنار والجزيرة كلها ، وكان من وراء أعماله ما قنط المهدى من التغلب على الخرطوم وأصدر منشورات لكل دعاته فى الجزيرة يأمرهم بكتمان الدعوة ما دام عبد القادر باشا حاكما على السودان[٣].

استمر الصراع بين المهديين وبين قوات الحكومة بعد استدعاء عبد القادر بدسيسة انجليزية عند الخديوى توفيق، وأدرك المهدى أن استمرار الثورة وتقدمها من كردفان أصبح ممكنا بعد رحيل عبد القادر ورغم انتصار قوات الحكومة على الدراويش فى المرابيع بتاريخ ٢٩ أبريل ١٨٨٣م، فإن الدراويش ما لبثوا أن سيطروا على كردفان وهزموا قوات الحكومة بقيادة جنرال هيكس Hicks الإنجليزى هزيمة منكرة فى شيكان فى ٥ نوفمبر ١١٨٨٣م . وأصبح المهدى بعد هذا الانتصار مسيطرا على كل السودان الغربى دون أى منازع ، وانقطعت مواصلات حامية الخرطوم الصغيرة مع حامية بحر الغزال التى كانت تحت قيادة «لبتون بك» الإنجليزى وحامية دارفور التى كانت تحت قيادة «سلاتين بك»[١] النمساوى. كما سيطرت المهدية على السودان الشرقى بقيادة زعيم المهديين هناك عثمان دقنة.

١- د. مكى شبيكة : المرجع السابق ص٢٦٦ .

٢- عبد الرحمن الرافعى: المرجع السابق ص١٢٤ .

٣- إبراهيم فوزى باشا : السودان بين يدى غوردون وكتشنر ج١ ص١٣١ .

٤- د. جلال يحيى: المرجع السابق ص٩٨ .

وهكذا استمر أسلوب الثورة المهدية للسيطرة على السودان حتى تم لها بسقوط الخرطوم فى ٢٦ يناير ١٨٨٥م ومقتل جنرال غوردون الانجليزى الذى كانت الحكومة البريطانية قد اختارته لتنفيذ إجلاء المصريين من السودان .. واستمرت الثورة المهدية فى حركتها العسكرية حتى بعد موت المهدى فى يونيو ١٨٨٥م وتولى عبدالله التعايشى زعامة المهدية بعده الذى قاد الجيوش لغزو مصر بدعوى تخليصها من الاحتلال الإنجليزى المسيطر على مقدرات الأمور فيها، حتى تم استرجاع السودان بقوات مصرية إنجليزية مشتركة من عام ١٨٩٦ إلى عام ١٨٩٨م حيث قضى على دولة المهدية لقيام حكم ثنائى فى السودان يصبح بمقتضاه السودان مصريا إنجليزيا باسم السودان المصرى الإنجليزى.

الثورة المهدية والقوى الخارجية

وكان علي المهدى وأنصاره التعامل مع قوى أخرى غير الشعب السوداني، تمثلت هذه القوى في المصريين والإنجليز وغيرهم من الأوروبيين أما بالنسبة للمصريين فقد انتقد المهدى بشدة موقف الحكم المصرى فى السودان بسبب استعانته بالأتراك والأوروبيين فى حكم البلاد وهؤلاء أساءوا إلى أهل البلاد ولم يراعوا أية مبادئ فى تعاملهم مع السودانيين . لأنهم كانوا خليطا من الترك والشراكة والأوروبيين إلى جانب المصريين. وإذا كان منهم من كان يرعى العدل وينصف المظلومين ، فلقد زاد فى ارتكاب المظالم أن السودان كان يعتبر منفى للحكام ، ولم تكن الحكومة ترسل إليه فى الغالب إلا الموظفين المغضوب عليهم، أضف إلى هذا أن حكام مصر فى ذلك العصر لم تكن أصولهم مصرية كما لم يكونوا فى الغالب مثال العدل والصلاح ورعاية مصالح المحكومين ، بل إن مظالمهم كانت كذلك من أسباب الثورة [1]. وعلى هذا هاجم المهدى الحكم المصرى فى السودان وانتقل هجومه إلى أنصاره الذين ساهموا فى إقامة حمامات دم للمصريين المقيمين بالسودان بغير ذنب جنوه، ونسى المهدى فى غمرة معاداته وأنصاره للمصريين الأهداف الدينية لدعوته وانجر إلى عمليات عسكرية ودموية ضد الحكم المصرى والمصريين المقيمين فى السودان .

ورغم ما أصاب المصريين الموجودين بالسودان على يد المهديين ، فقد كان المهدى يتطلع نحو مصر لتخليصها كما قال من حكم الترك والأوروبيين اليهود والنصارى، فأرسل حسين باشا خليفة مدير «بربر» السابق وصاحب النفوذ الواسع فى قبيلته العبابدة في صعيد مصر

١- عبد الرحمن الرافعي: المرجع السابق ص١٠٩ .

وصحرائها بمنشور إلى أهله وبقية أبناء الشعب المصرى يقول فيه: ولما كان موضوع أمرنا القيام بأمر الدين وجهاد أعداء الله الكافرين ، وقد انتهى أمرهم بالسودان ، وعزمنا بإرادة الله على التفرغ لغيرها من البلدان فقد اخترنا الله تعالى ووجهناك أمامنا عاملا عموميا على كافة قبائل جماعتك العبابدة الذين بالجهات البحرية (مصر) وعلى كافة من يرغب الإنضمام عليك من القبائل الأخرى[١].

كما وجه المهدى رسالة إلى الخديوى توفيق ينعى عليه تسلط الأجانب على أحوال المصريين وتسلط البدع والخرافات وتعطيل أحكام القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وأنه بعث بالمهدية الكبرى لإحياء السنة، وأن الواجب عدم موالاة اليهود والنصارى وأعداء الدين، وطالبه بالهداية والإيمان بالمهدية وإلا فأنا قادم على جهتك بجنود الله وعن قريب إن شاء الله تعالى فإن أمرالسودان قد انتهى ، فإن بادرتنى بالتسليم لأمر المهدية والإنابة إلى الله رب البرية فقد حزت السعادة الأبدية وأمنت على نفسك ومالك وعرضك أنت وكافة من يجيب دعوتنا معك وإن أبيت بعد هذا إلا الإعراض عن طريق الفلاح والرشاد فإنما عليك إثمك ومن معك ولابد من وقوعك فى قبضتنا ولو كنت فى بروج مشيدة. وهذا إنذار منى إليك وفيه الكفاية لمن أدركته العناية والسلام على من اتبع الهدى[٢].

وإذا كان المهدى لم يوجه حملة عسكرية فى حياته لغزو مصر فقد كان ذلك فى نيته، ومن ثم حرص خليفته عبدالله التعايشى على تحقيق نية المهدى، فنجده فى مارس عام ١٨٨٧م يرسل ثلاثة رسائل إلى كل من السلطان عبد الحميد والملكة فيكتوريا والخديوى توفيق، يدعوهم فيها الخليفة إلى اعتناق المهدية قبل أن تطأ جوشه بلادهم، وتنتقم منهم، وكان غرضه خصوصاً من الكتابة إلى هؤلاء الثلاثة الحصول على اعترافهم بحكومته[٣] حتى يأمن على بقاء السلطة فى يده وانتقالها إلى ذريته من بعده، ويحقق فى نفس الوقت أمل المهدية فى السيطرة على كل وادى النيل شماله وجنوبه .

وتنفيذا لتوجيهات الخليفة بغزو مصر قاد حملة الغزو عبد الرحمن النجومى من دنقلة فى ٣ مايو ١٨٨٩م واتجه بقواته شمالاً حتى بلدة بلانة شمالى وادى حلفا وهناك تبودلت الرسائل بين النجومى وقائد القوات المصرية المكلفة بالدفاع عن الحدود الجنوبية وهو سير

١- مكى شبيكة : المرجع السابق ص٣٦٤-٣٦٥ .

٢- نفس المرجع ص٣٦٥-٣٦٦ .

٣- د. محمد فؤاد شكرى: مصر والسودان ، ص٤٢٥ .

جرنفيل Grenfell فبينما طلب الأخير من النجومى الاستسلام ، طلب النجومى منه التسليم واعتناق الدين الإسلامى وإلا فمصيره سوف يكون مصير هيكس وغوردون لأن المهدية تعتزم الاستيلاء على مصر بأكملها ، ومن ثم تهيأت الأمور لوقوع معركة عند «طوشكى» فى ٣ أغسطس ١٨٨٩م التى انهزم فيها الدراويش هزيمة ساحقة وقتل فى المعركة عبد الرحمن النجومى نفسه. وبهذه الهزيمة توقفت مشروعات المهدية لغزو مصر حتى يتم استرجاع السودان بقوات مصرية انجليزية مشتركة عام ١٨٩٦م.

وفى مجال العلاقات بين المهدية ومصر لابد أن نذكر توضيحا لموضوع الصلة بين المهدى وعرابى ذلك أن حدوث الثورتين فى وقت واحد ولهدف يكاد يكون واحدا قد أوحى إلى البعض أن الثورتين من تدبير الإنجليز لأنه نتج عن الثورتين تحقيق للمطامع الإنجليزية ، ولكن انطلاقا من الحقيقة القائلة بأن الشعبين المصرى والسودانى كانا يعيشان حالة سيئة وكانوا فى البلوى سواء، تطلع أهل الشمال إلى زعيم ينقذهم مما كانوا فيه فوجدوه فى صورة زعيم عسكرى هو عرابى باشا، وتطلع أهل المنبع إلى زعيم ينقذهم مما حل بهم فوجدوه فى صورة زعيم دينى هو محمد أحمد المهدى[١] فإنه كان هناك تعاطف بين الرجلين وإن لم يتلاقيا.

كان العرابيون يفكرون فى التحالف مع المهدى ، ولم يخف عرابى وهو فى منفاه تأييده وميله إلى المهدى ، وأعلن أنه كان ينوى تعيينه حاكما عاما على السودان [٢]. وكان المهدى يعطف على عرابى ولعل قيام عرابى ضد الحكومة المصرية قد صادف هوى فى نفسه مما شجعه على تقليده، وجعله موضوع عطفه وتقديره [٣]. ويذكر البعض أن المهدى أثناء حصار الخرطوم فى يناير ١٨٨٥م أمر رجاله بالمحافظة على حياة جنرال غوردون، قائلا : إنى أريد أن أفتدى به أحمد عرابى باشا [٤].

لم تكن علاقة المهدية بالدولة العثمانية بطبيعة الحال علاقة طيبة لأن السلطان العثمانى خليفة المسلمين ساءه ظهور هذه الدعوة وثورتها على السيادة التركية ومن ثم نجد السلطان يصف المهدى بأنه نبى مزيف وأنه متمهدى وأنه شقى دنقلة.. كل هذه الصفات لأن دعوة

١- د. جلال يحيى : المرجع السابق ص٤٠ .

٢- عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص١١٤ .

٣- إبراهيم فوزى: المرجع السابق ج١ ص٤٩٨ .

٤- د. جلال يحيى : المرجع السابق ص٤١ .

المهدى فيها خروج على فكرة الخلافة العثمانية وأن ثورة السودان كانت تهدف – بمحاولتها تغيير الوضع القائم – إلى رفع كل سيادة لتركيا على السودان. ومن ثم شعر السلطان العثمانى بأنه قد أهين فى شخصه كخليفة للمسلمين ومن الطبيعى أن يهاجم الخديوى فى مصر المهدية ويصفها بالتمرد على سلطة خليفة المسلمين وصاحب السيادة الشرعية على كل من مصر والسودان.

وأما علاقة المهدية بانجلترا فقد بدأت منذ كان بعض الموظفين الخديويين الإنجليز يتولون وظائف الإدارة والحكم فى السودان منذ عهد الخديوى إسماعيل وقد كره السودانيون شطط هؤلاء الموظفين الإنجليز فى محاربة تجار الرقيق بشكل فيه قسوة وظلم صارخ ، إلى جانب الروح الاستعمارية التى عمل بها هؤلاء الموظفين فى مديرياتهم: غوردون فى خط الاستواء ثم حكمداراً للسودان باكمله، لبتون فى بحر الغزال ، ومن قبلهم صموئيل بيكر . وغيرهم الذين أساءوا إلى وجه الحكم المصرى عند السودانيين فكرههم هؤلاء وكرهوا معهم الحكم المصرى وشملت الثورة دعوة لإنهاء الحكم المصرى فى السودان الذى أتى بأجانب ليسيئوا معاملة السودانيين.

وعندما احتلت انجلترا مصر عام ١٨٨٢م كانت ثورة المهدى مشتعلة فى السودان ، فاتخذت الحكومة الإنجليزية قرارين – أصدرهما الخديوى بناء على نصيحة انجلترا – يقضيان بحل الجيش المصرى (جيش العرابيين الثائر على الخديوى) وبيع أسلحته أو تدميرها. وكان لهذين القرارين أثرهما الخطير على الموقف فى مصر والسودان فى الوقت الذى تحتاج فيه حكمدارية الخرطوم إلى قوات مسلحة لتقضى بها على الثورة المهدية . ولكن انجلترا التى سيطرت على مقدرات الأمور فى مصر والسودان كان لها رأى آخر.

اكتفت سلطات الاحتلال البريطانى فى مصر بمعرفة حقيقة ما يدور فى السودان فأرسلت بعثة برئاسة الكولونيل «ستيورات» منذ ديسمبر ١٨٨٢م ، فى الوقت الذى كان فيه عبد القادر باشا حلمى بالخرطوم ، فأرسل إلى الخديوى تقريرا فى ٣٠ ديسمبر عن تصرفات ستيوارت جاء فيه : من اختبار أحوال المومى إليه– ستيوارت– تبين لنا أنه يريد إظهار سطوتهم بهذه الجهات وبناء عليه قد نصحناه بالمحسوس بتعريفه أن الحركات الحاصلة هى تحركات دينية، وأن ذلك يفتح بابا للشقى– المهدى– لتأييد ما يوهم به على العربان ويوجههم للثبات على تصديقه وأتباعه [1]. فكلف الخديوى ياوره أحمد حمدى بالتوجه إلى الخرطوم ومعه تعليمات

١– وثائق السودان / ١تلغرافات حكمدارية السودان.

للحكمداريه «بالاتحاد مع الكولونيل استاورت- ستيورات- فى الآراء النافعة وأن يجاريه فى طلباته ولايحصل له منه ما يتظاهر منه النفور أو التقصير»[1].

وفى الوقت الذى أظهرت فيه سلطات الاحتلال الإنجليزية رغبتها فى عدم التدخل فى السودان سمحت لضباط انجلترا بالعمل فى السودان ، وكان جنرال هيكس أحد هؤلاء الضباط الذين استفاد المهديون من وجودهم على رأس القوات المصرية فى إثارة الروح الوطنية والدينية عند السودانيين وفى الوقت الذى أنغمس فيه هيكس فى خلافات مع القادة المصريين فى السودان من أجل أن ينفرد بالقيادة والسيطرة، فكان مصيره كما رأينا فى موقعة شيكان فى نوفمبر ١٨٨٣م فكان هذا الموقف الإنجليزى مبعث الكارثة التى وقعت لجنرال هيكس، كما كان كذلك مبعث الكارثة الأدهى الأخرى التى وقعت بمقتل جنرال غوردون فى يناير ١٨٨٥م[2].

وكانت كارثة هيكس سببا فى أن الحكومة البريطانية تقرر سياسة إخلاء السودان وإرسال غوردون إلى السودان لتنفيذ هذه السياسة وإجبار الحكومة المصرية على قبولها فى الوقت الذى كانت فيه الحكومة المصرية قد وصلت إلى قرار بالمحافظة على الخرطوم وإعادة فتح الطريق بين سواكن وبربر [3]، ولكن اختيار غوردون لم يكن اختيارا موفقا ذلك أن «جراهام» الذى كان يلازم غوردون أثناء وجوده بالقاهرة أوضح أن غوردون اعتقد أن المهدى مجرد رمز وأنه ليس فى استطاعته الهجوم طالما أن اتباعه لن يتقدموا بعد حدودهم القبلية وربما كان هذا أكبر عدم إدراك وتقدير للموقف الذى قاسى منه غوردون [4].

وعندما كان غوردون فى الخرطوم ويتعرض لحصار من المهديين أرسل مدير دنقلة برقية إلى المعية السنية- بلاط الخديوى- بأن المسموع عن الخرطوم أن العدو- المهديين- محاصرها وممنوع وصول المئونة إليها، وأن المهدى مؤكد على جيوشه المحاصرين بضبط غوردون باشا حيا لإجعاله أسير مقابلة أسر الإنكليز إلى عرابى، وأبلغه أن غوردون باشا قال بأنه إن لم

١- وثائق السودان / ١ مأمورية أحمد بك إلى السودان / ١ بخصوص بعثة ستيورات.

٢- Shibeika: British Policy in the Sudan, p. 79 .

٣- Cromer, Modern Egypt, p. 291 .

٤- Shibeika, Ibid, p. 168 .

تحضر إليه إمدادية من دولة الإنجليز يسلم ويستسلم للمتمهدى ، والمأمول أنه إذا إذا حضرت قوة كافية فيكون متكفل بإنقاذهم بشرط أن يكون هو قايدهم»[١].

وبعد سقوط الخرطوم فى يد المهدى ظهرت نوايا الدول الأوروبية وأطماعها فى اقتطاع أجزاء من جنوبى السودان زاعمة أن تلك الأصقاع لم تكن ملكا لأحد Res Nulius أى أرضا فضاء يستطيع أن يستحوذ عليها من يشاء (وكانت خاضعة للسيادة المصرية) كانوا فى الوقت نفسه يحاولون أن يتخذوا من حقوق مصر فى السيادة على السودان رغم إخلائه تكئة يستندون إليها فى عقد اتفاقيات مع بعض الدول الأخرى لتقسيم الممتلكات المصرية ذاتها فى السودان الشرقى وعلى طوال الساحل الصومالى [٢].

وعندما تم استرجاع السودان بقوات مصرية إنجليزية مشتركة وبقيادة جنرال كتشنر الإنجليزى أمر القائد بتدمير قبة المهدى فى أم درمان وتعقب المهديين ومصادرة أموالهم، وهو يقصد بذلك أن يثير نفوس السودانيين ضد المصريين ، رغم أن الضباط المصريين استاءوا جدا لرفع العلم الإنجليزى- على سراى الحكومة بالخرطوم إلى جانب العلم المصرى- واحتجوا على ذلك[٣] ثم لم تلبث الحكومة البريطانية أن أبلغت الحكومة المصرية أن لانجلترا حق الاشتراك فى حكم السودان بما ضحت فيه من المال والرجال.

كان على المهدية- بعد وفاة المهدى بصفة خاصة- مواجهة الأطماع الاستعمارية فدارت المعارك بين الدراويش والإيطاليين وهى معارك غير حاسمة فى الوقت الذى ظهرت فيه أطماع ليوبولد ملك بلجيكا وصاحب دولة الكنغو فى بحر الغزال ، وفرنسا فى أعالى النيل. وقد عبر الرئيس الفرنسى «كارنو» لوزير المستعمرات الفرنسية وذكر له : أننى ساكون مسرورا لإثارة المسألة المصرية، فالسودان المصرى إنما هو أرض خلاء ، وأن فرنسا فى حاجة إلى منفذ على النيل لأملاكها فى «أوبانجى» وأطلعهم على تقرير حول التقدم نحو فاشودة التى تقرب من رافد السوباط والنيل، وبواسطة هذا الموقع فإن فى استطاعة فرنسا أن تعوق البلجيكيين، وفى نفس الوقت تخيف البريطانيين خارج مصر بالتهديد بقطع مياه النيل عن مصر [٤].

١- وثائق السودان - تلغرافات ومكاتبات تتعلق بثورة المهدى ٢ / ٢ / ٤ .

٢- د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسيادة على السودان ص٦١ .

٣- أحمد شفيق بك: مذكراتى فى نصف قرن ج٢ ص٢٨٨ .

٤- Langer, Diplomacy of Imperialism . p. 129 .

وفى فاشودة يحدث الصدام بين القوات الفرنسية التى سبقت واحتلت البلدة فى ١٠ يوليو ١٨٩٨م ورفعت العلم الفرنسى عليها، والقوات المصرية بقيادة كتشنر الإنجليزى التى وصلت إلى البلدة فى ٢١ سبتمبر بعد استرجاع الخرطوم، لولا تراجع فرنسا فتأمر بسحب قواتها- خلافات بين الاستعمار لمصلحة استعمارية لا مصلحة المصريين أو السودانيين - ووجه الأهمية فى حادث فاشودة أنه كان أحد مظاهر المنافسة الشديدة وقتئذ بين إنجلترا وفرنسا على الاستعمار فى أفريقيا عموما وحوض النيل خصوصا على حساب حكومة المهديين، وهى كذلك مظهر للنزاع الفرنسى والإنجليزى حول المسألة المصرية مسألة الاحتلال الإنجليزى، وحادث فاشودة كذلك أثار مسألة حقوق السيادة للفصل فيما إذا كان الخليفة عبدالله قد أقام دولة لها كل حقوق السيادة على الأراضى الداخلة فى نطاقها ، وفيما إذا كانت نظرية الملك المباح هذه إنما تنطبق على كل السودان بما فى ذلك الأقاليم موضوع النزاع فى حوض النيل الأعلى وبحر الغزال، أو فيما إذا كان لايمكن مطلقا اعتبار السودان ملكا مباحا لأن المهدية حركة ثورية اغتصبت السلطة من الحكومة الشرعية فى البلاد، وأن كل الأثر الذى ترتب على إخلاء المصريين للسودان أن حقوقهم فى السيادة عليه صارت معطلة فقط، وفيما إذا كانت مصر قد عادت فقط تمارس حقوقا فى السيادة على السودان بسبب استرجاعها لهذه البلاد نتيجة للعمليات العسكرية التى انتهت بالفتح الجديد.

ومنذ أنهت موقعة أم درمان حكومة الخليفة عبدالله التعايشى استأثر السودان باهتمام الإنجليز كمجال لاستعمارهم ، وذلك بتنظيم حكم هذا الإقليم بصورة تتيح لهم السيطرة الكاملة على إدارته، وإبعاد تركيا عن ممارسة حقوق السيادة القديمة التى كانت لها، والسماح لمصر بالمشاركة فى الحكم على أساس أن مصر صاحبة سيادة قديمة منذ الفتح وجديدة باشتراك قواتها فى حملات الاسترجاع . ولقد توصل المسئولون الإنجليز إلى تدبير هذا النظام الذى يكفل كل الأغراض التى ذكرناها والذى عرف باسم النظام الثنائى للحكم فى السودان عام ١٨٩٩م وكان اللورد كرومر - المعتمد البريطانى فى مصر - هو المسئول الأول عن ابتكار هذا النظام[١].

ويدافع كرومر عن نظامه بقوله : إن مصر جنت فوائد ليس فى الاستطاعة تقديرها بالأرقام فقد زال خطر الغزو لمصر من الجنوب نهائيا وبذا تخلصت مصر من نفقات عسكرية باهظة .

١- د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص٥٤٤ .

وكذلك ضمنت موارد مياهها ، وكان من المحتمل أن تقام مشروعات رى كبرى فى السودان تجعل حياة مصر الزراعية فى خطر، كذلك انتعشت التجارة بين القطرين ، وبعد ذلك كله يحق لمصر أن تفخر كما لبريطانيا أيضا بأن أعادت السودان إلى حظيرة المدنية والحضارة[١]. وهو دفاع لايستند على أسس منطقية فضلا عن أنه يكشف النوايا الاستعمارية التى رأت أن الإدارة الجديدة فى السودان يجب أن تسيطر عليها أيادى بريطانية حتى لاتعود المظالم التى ارتكبت فى العهد الماضى والتى يرى أنها رمت بالبلاد فى أتون الثورة المهدية[٢].

تقييم المهدية

انطلقت دعوة محمد أحمد من البداية منطلقا دينيا شأنها شأن غيرها من الحركات السلفية ، ولكنها سارت شوطا أبعد من غيرها فى عدائها للقوى المختلفة صاحبة السلطة الشرعية ، فإذا كانت الدعوة المهدية قد فاقت الدعوة الوهابية فى أسلوب انتشارها باتباعها الأسلوب الثورى وبالحروب، فإنها اختلفت مع الدعوة السنوسية فى الأسلوب كما اختلفت مع الدعوتين الوهابية والسنوسية فى الظهور بفكرة المهدى المنتظر وتكفير كل من لم يؤمن بها، بل وإشاعة اتصال المهدى بالنبى فى المنام وتحويل الخليفة قبة المهدى إلى مكان يحج إليه السودانيون ويستعيضون به عن الحج إلى مكة المكرمة .

لقد انشغل المهدى بالعمليات العسكرية عن التفرغ للناحية الدينية فلم يتفرغ لوضعها وشرحها ولم يتواجد من أتباعه من يستطيع حمل هذه الأمانة كما أرادها المهدى، فالعلماء ظاهرت غالبيتهم المهدية خوفا على أرواحهم وأرزاقهم ، والمؤمنون بها لم يكونوا بأهل علم ومعرفة ،هذا على عكس الدعوة الوهابية التى أسسها رجل علم ودين وقدر لابن عبد الوهاب أن يتوالى علماء من المذهب يتوافرون على شرحه وتفسيره وتأليف الكتب عنه [٣]. وحتى خليفته لم يفعل ما يزيد المهدية وضوحا بل اكتفى بما تركه المهدى من تراث فى منشوراته ، ورسائله وتعاليمه . ومما يؤخذ على المهدية ما يلى:

١- مكى شبيكة : السودان فى قرن ص٤٧٥ .

٢- نفس المرجع ص٤٦٣ .

٣- مكى شبيكة : السودان فى قرن ص٢٧٠-٢٧١ .

أولا: الادعاء بفكرة المهدى المنتظر

وهو ادعاء يجد له صدى فى نفوس المسلمين الذين يتناقلون عن الأجيال السابقة قصة ظهور المهدى المنتظر فى هذه الفترة من الزمان، ورغم أن المهدى استطاع أن يلهب نفوس مواطنيه السذج بدعواه أنه إنما جاء مبعوثا من أجل تخليص البلاد من الشرور والآثام وإقامة صرح حكومة جديدة على أسس من الدين القويم، فقد كان من المستبعد أن يكون محمد أحمد هو ذلك المهدى، وكان السنوسيون أعظم الناس ريبة فى ذلك [١].

وقد استنكر السنوسيون دعوى محمد أحمد هذه ورفض السيد محمد المهدى السنوسى زعيم السنوسية الاستجابة لنداءات محمد أحمد وخليفته من بعده بالانضمام إلى الثورة السودانية لغزو مصر ، ولكن المهدى السنوسى الذى سمع عن عنف المهدية فى السودان بقتل الأنفس وسلب الأموال وهتك الأعراض عند الانتصار فى المعارك طلب إلى الشعوب الإسلامية خصوصا فى وادای وبرنو والبلاد المجاورة أن تمتنع عن تأييد مدعى المهدية محمد أحمد الذى لم يكن إلا مخادعا كاذبا[٢].

ثانيا : التشبه بمحمد عليه الصلاة والسلام

خالف المهدى كلا من محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن على السنوسى فى هذه الناحية أيضا، ذلك أنه ادعى أن النبى محمد صلى الله عليه وسلم يأتيه فى المنام، وعندما انتقل من «آبا» إلى جبال النوبا جنوب كردفان أطلق على هذا الانتقال هجرة ومن صحبه مهاجرين ، كما أطلق على أهل كردفان الذين استقبلوه فى أرضهم وسمحوا له بالبقاء فيها اسم الأنصار، ثم أنه أخذ يرسل الكتب إلى زعماء القبائل والدول الأخرى يطلب منهم اعتناق المهدية والدخول فى طاعتها حتى يفوزوا بالدارين الدنيا والأخرى. بل أكثر من هذا اتخذ له أربعة خلفاء أولهم عبدالله التعايشى- تشبها بالخلفاء الراشدين وقد اختارهم من بين صحابته وعرض على السيد محمد المهدى السنوسى أن يضعه فى مقام الخليفة الثالث- عثمان بن عفان - فى نظير أن يقوم السيد المهدى السنوسى من جهته بشن الحرب على الإنجليز فى مصر، ولكن السيد السنوسى رد على المهدى بأن مقام عثمان لايناله لا أنا ولا أنت[٣] .

١- د. محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ص٧٠-٧١ .

٢- نفس المرجع ص٧٣ .

٣- د. محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ص٧٢ .

ثالثًا : عجز المهدى عن تحقيق الدعوة الدينية

يذكر مكى شبيكة[1] أن الانتصارات الحربية للمهدى طغت علي الناحية الدينية من رسالته، وهو نفسه لم يتفرغ لوصفها وشرحها ، وكان ينوى ذلك بعد سقوط الخرطوم لولا أن عاجلته المنية قبل أن يقطع شوطا فى ذلك، وإذا كان خلفاؤه وأنصاره قاموا بأعباء الرسالة من وجهتها الحربية فإن الناحية الدينية لم تجد من يخصص جهوده ووقته لها .

فنحن وإن كنا نؤمن بأن وفاة المهدى أول نذير بإخفاق الثورة المهدية، إذ كان هو بلا مراء روحها وقوامها، وكانت الانتصارات التى نالها قد رفعت شأنه وزادت مهابته فى النفوس، فكانت شخصيته هى دعامة الدولة المهدية المترامية الأطراف التى أسسها فى السودان [2]، فإننا رأينا كثيرا من ادعاءات المهدية لم يتحقق فى حياة محمد أحمد، فلا هو غزا مصر، ولا هو فتح مكة، بل إن نفوذ المهدى كان قد بدأ يضعف فى الشهور الأخيرة من حياته لأسباب متعددة، ومنها أنه ترك حياة الزهد والتقشف الأولى لينغمس فى حياة الترف والبذخ ، ومنها أنه ترك الأمور تفلت من يده فاستأثر بالسلطة الفعلية خليفته عبدالله التعايشى ، ومنها أنه لم يفعل شيئا بعد سقوط الخرطوم والاطمئنان إلى زوال كل آثار الحكومة القديمة فى السودان ليبنى الدولة الجديدة التى كانت من واجب المهدية المبادرة بوضع أسسها من الآن، وعجز المهدى عن استبدال سياسة التعمير والإنشاء بأساليب العنف وإثارة شعور التعصب الدينى[3].

وحقيقى أن الثورة المهدية فى عهد محمد أحمد لم تكن إلا فورات دينية متتابعة وتعتمد فى انتشارها على سمعة المهدى وشهرته الشخصية كزعيم دينى قبل أى اعتبار آخر وأن زعامة المهدى كفت عندئذ لتوجيه الثورة، فعاشت هذه من غير تنظيم لأن زعامة المهدى أغنت عن التنظيم فى هذه المرحلة، ولأن النزاع كان لايزال قائما بين المهديين وبين سلطات الحكومة الشرعية [4]. فقد كان على الخليفة عبدالله التعايشى أن ينشئ نظاما حكوميا لمواجهة مشكلات الحكم والإدارة والحرب، إلا أن الخليفة لم يكن له المقام الذى كان للمهدى ولانفوذه المعنوى وكان ينقصه كثير من المزايا والصفات التى اجتذب بها المهدى قلوب أنصاره، فلا غرو

١- مكى شبيكة : السودان فى القرن ص٢٧٠ .

٢- عبد الرحمن الرافعى: مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ١٥٩-١٦٠ .

٣- د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص٤١٥ .

٤- نفس المرجع ونفس الصفحة.

أن كانت ولايته إيذانا بتداعى الدولة المهدية، ولم يكن يطمع إلا فى استبقاء نفوذه فى البلاد التى دانت للمهدى[١] .

هذا بالإضافة إلي عجز المهدية عن صد تيار الأطماع الاستعمارية الأوروبية الزاحف لاقتطاع أجزاء من السودان وملحقاته ، ففى عهد الخليفة- حكومة الخليفة عبد الله التعايشى - انتزعت أملاك مصر فى الصومال وساحل البحر الأحمر وفى السودان لتلتهمها القوى الأوربية المتسابقة والمتنافسة . فقد احتل الأحباش كلا من إقليمى بوغوص وهرر، واقتسم الإنجليز والفرنسيون والطليان بلاد الصومال فيما بينهم وأخلى الدراويش بحر الغزال ودارفور، وتوغل الإنجليز فى أوغنده، والفرنسيون والبلجيكيون فى إقليم بحر الغزال حتى وصلوا إلى حوض النيل الأعلى فى السنوات التالية، أى أن الدراويش عجزوا كل العجز عن الاحتفاظ بتلك الإمبراطورية التى أسسها المصريون خلال ستين عاما فى شرق ووسط أفريقيا[٢].

كل ذلك كان من الطبيعى أن يحقق انهيار المهدية تماما دون أن يكون هناك أمل فى قيامها مرة أخرى ، وعلى ذلك فإنه بمجرد استرجاع السودان وفرض اتفاقية الحكم الثنائى لم يدافع عن المهدية الكثيرين من السودانيين الذين عاشوا فى كنفها وتحت سلطتها ولعل سبب ذلك أن المهدية لم تجد من رجالها فلاسفة يؤصلون أفكارها ويشرحون تعاليمها ويكونون صفوفا من أنصارها يحملون رسالتها ويتناقلونها جيلا بعد جيل، كما أن المهدية بعد موت صاحبها عاشت فترة من الخلافات والانقسامات بين القبائل وبين حكومة الخليفة حتى صار السودانيون يأسفون على زوال الحكم المصرى.

وكان يمكن للثورة المهدية أن تصبح حركة وطنية ناجحة لولا ما شابها من عنف وبطش ليس فقط بالأوروبيين والأتراك والمصريين بل وبالسودانيين أيضا، ولولا ادعاء أمور لاتجد قبولا حتى من السودانيين أنفسهم الذين كان معظمهم يدخلون فى طاعة المهدية رغبة فى مغنم أو خوفا من بطش رجالها . وقد كان وقوع مصر تحت الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢م من الكوارث التى حلت بمصر والسودان، حيث عمل الإنجليز على التفرقة بين أبناء وادى النيل وشماله عن جنوبه .

١- عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص١٦٠ .

٢- د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص٤١٤ .

الفصل العاشر

الجامعة الإسلامية

مقدمة – ظروف العالم الإسلامي– فكرة الجامعة الإسلامية– دعاة الفكرة– ١– السيد محمد جمال الدين الأفغاني ٢– الشيخ محمد عبده المصري ٣– السيد محمد رشيد رضا اللبناني ٤– السلطان عبد الحميد الثاني العثماني – تقييم فكرة الجامعة الإسلامية .

مقدمة

تعتبر فكرة الجامعة الإسلامية التي روج لها الداعية الإسلامي السيد جمال الدين الأفغاني في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مظهراً آخر من مظاهر اليقظة العربية الإسلامية، حيث أنها استندت إلى ظروف العالم الإسلامي المتردية لكي تهيب بالمسلمين لمواجهة أعدائهم سواء كان التخلف الحضاري أو التوسع الاستعماري أو الفرقة بين شعوب الأمة الإسلامية على اختلاف أجناسها .

ذلك أن ظروف العالم الإسلامي خلال القرن التاسع عشر كانت قد وصلت إلى حالة من السوء بسبب تسلط الحكم العثماني بسلبياته على أجزاء من الوطن العربي ، وبسبب فقر وجهل المسلمين مما جعل إسلامهم تشويه الشوائب ، وبسبب الغزو الاستعماري الأوروبي لأجزاء من العالم الإسلامي في المشرق والمغرب.

ومن ثم جاءت فكرة الجامعة الإسلامية التي يعتبر السيد جمال الدين الأفغاني الأب الروحي لها والداعية الأكبر لتحقيقها بين حكام الأقطار الإسلامية لكي تواجه ظروف العالم الإسلامي وتتجاوزها وتنطلق بالمسلمين إلى يقظة تعيد إليهم أمجادهم التي كانوا عليها في العصور الإسلامية الأولى .

ولقد ارتبط بفكرة الجامعة الإسلامية شخصيات أدت دوراً بارزاً في الترويج لها وكانت لها مواقفها المعينة من الفكرة ومن الداعين لها فإلى جانب السيد جمال الدين الأفغاني كان الشيخ محمد عبده أكبر نصير للفكرة في مصر، وشاركه السيد محمد رشيد رضا ، أما السلطان عبد الحميد سلطان الدولة العثمانية فقد تحمس للفكرة على أنها محققة مجدا شخصيا له .

ولكن هذه الفكرة لم يقدر لها التطبيق كما دعا لها أنصارها والمؤمنون بها بسبب عدة عوامل لعل أهمها الاستعمار الأوروبى المتحفز لالتهام الأقطار الإسلامية والسلطان عبد الحميد الذى فقد الحماس للفكرة عندما وجد أنها تطالب بحكم شورى يأخذ بأسباب الحضارة. وهكذا أصبحت فكرة الجامعة الإسلامية مجرد ذكرى يسجلها التاريخ ولو تحققت كما كان يرجو المسلمون فى كل أنحاء العالم الإسلامى لكان للمسلمين فى أقطارهم شأن آخر.

ظروف العالم الإسلامى

يمكن القول أن العالم الإسلامى تعرض منذ أوائل القرن الحادى عشر الميلادى لعوامل تخلف وفوضى نتيجة الغزو الصليبى والوجود التركى فى آسيا الصغرى ، ثم جاءت الغزوة المغولية عام ١٢٥٨م / ٦٥٦هـ على الجناح الشرقى للعالم الإسلامى حتى وصلت إلى فلسطين فأوقفها سلاطين المماليك فيما عرف بموقعة عين جالوت عام ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م. كل ذلك زاد من تخلف المسلمين وضرب الحضارة العربية الإسلامية بضربة قاصمة غير تلك الضربة التى لحقت بالعرب والمسلمين بخسارتهم للأندلس لصالح الكاثوليك الأسبان .

وكان سقوط العالم العربى تحت الحكم العثمانى منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادى عاملا آخر لتدهور أحوال المسلمين بسبب ما اتصف به الحكم العثمانى من سلبيات أهمها العزلة التى فرضت على العرب، فى الوقت الذى لم تكن فيه للأتراك حضارة يفيدون بها العرب، وفى الوقت الذى أخذت فيه أوروبا تنهض وتسير فى طريق التقدم والعمران ، إلى جانب الاستبداد والظلم التركى (العثمانى) بالعرب المسلمين المحكومين الذين تخلفوا فى كل نواحى الحياة حتى فقدوا قوتهم وباتوا لاقبل لهم بملاقاة الغرب فى أى ميدان[١] .

وزاد الطين بلة أن القرن الثامن عشر الميلادى شهد تدهورا أكبر فى أحوال العرب والمسلمين بظهور العصبيات المحلية فى الولايات العربية الخاضعة للحكم العثمانى، تلك العصبيات التى كانت فى جملتها مغامرات شخصية لأفراد معظمهم من العنصر التركى أو من المماليك المغامرين ، كان هدف كل منهم ارتقاء كرسى الحكم والحصول على مغانم مادية كبيرة ، وكانت الضحية فى كل الأحوال الشعوب العربية والإسلامية فى الوقت الذى ضعفت فيه الدولة العثمانية فلم تقو على السيطرة على ممتلكاتها وخضعت لما فرض عليها مقتنعة بما يلقيه إليها هؤلاء المغامرون من فتات الأموال التى يجمعونها قسرا وبشراهة من الرعايا العرب والمسلمين .

١- محمود أبو ريه : جمال الدين الأفغانى ص٦ .

وفى نفس القرن- الثامن عشر- وفى القرن التالى (التاسع عشر) أخذ الاستعمار الأوروبى يحقق وجوده بقوة فى الأرض الإسلامية. حيث تحققت السيطرة البريطانية فى شبه القارة الهندية وفى عدن وفى مصر والسودان وأقطار الخليج العربى، بينما عبرت روسيا القوقاز وبسطت سيطرتها على أواسط آسيا ، فى الوقت الذى وجد فيه الاستعمار الفرنسى طريقه إلى أقطار شمال أفريقيا العربية الإسلامية. وقد قاسى المسلمون تحت الحكم الاستعمارى الأوروبى فى حياتهم الاقتصادية والدينية والعملية بما أثر فى قوتهم وفى حضارتهم التى كانت مزدهرة يوما ما[1] .

كما كانت علاقة بقية القوى الإسلامية بالدولة العثمانية تسير على النحو التالى:

١- خضعت كل من مصر وأقطار الشام والعراق والحجاز للسيادة العثمانية، وأغلب مواطنى هذه الأقطار من المسلمين على المذهب السنى.

٢- كانت دولة فارس الشيعية المذهب حكومة وشعبا على خلاف مع الدولة العثمانية ولاتقر لها بالزعامة على العالم الإسلامى.

٣- كانت أفغانستان على الحياد بين فارس الشيعية والدولة العثمانية السنية، وانشغلت بالأطماع الروسية فى وسط آسيا على حدودها الشمالية وبالأطماع البريطانية فى شبه القارة الهندية على حدودها الشرقية.

٤- انتشرت الدعوة السنوسية فى ليبيا ومعظم أقطار شمال وغرب أفريقيا بصورة سلمية ولم تصطدم بالحكم العثمانى فى ليبيا أو تونس بعد سقوط الجزائر فى يد فرنسا عام ١٨٣٠ كما هو معلوم .

٥- أخذت دعوة محمد أحمد تجد لها طريقا بين السودانيين حتى اصطدمت مع الحكم المصرى التركى ابتداء من عام ١٨٨١م.

٦- كان مسلمو شبه القارة الهندية يستندون إلى الخلافة الإسلامية العثمانية فى مقاومتهم للاستعمار البريطانى المسيحى الذى فرض وجوده على أرض الهند. بسيطرة شركة الهند الشرقية البريطانية منذ منتصف القرن الثامن عشر، باعتبار شبه القارة القارة الهندية (الهند

١- د. رأفت الشيخ : قضايا إسلامية معاصرة ص٨٨ .

والباكستان وبنجلاديش حاليا) مستعمرة بريطانية تخضع للتاج البريطانى منذ منتصف القرن التاسع عشر (١).

ويمكن أن نضيف إلى ذلك تصويرا لأحوال المسلمين تحت الحكم العثمانى والأوروبى ، حيث خضع المسلمون لسوء الحكم وقسوة الحكام الذين ساهموا بينما يعطون المغامرين الأوروبيين امتيازات اقتصادية ودينية وقضائية وتعليمية وسياسية فى بلاد المسلمين لا يتمتع بها المسلمون أنفسهم .

وهكذا صارت حياة المسلمين نهبا للحكام الأتراك والأجانب المحتمين بالامتيازات ، فكانت تلك الأيام وبالا على الحكام المسلمين وعلى الأهالى جميعا، وكانت سعدا وربيعا للتجار وأرباب البنوكة (المصارف) الغرباء الدخلاء الذين انتشروا بين أبناء البلاد انتشار الذئاب بين الأغنام ، فأثقلت كواهل الفلاحين وغيرهم من الوطنيين بالديون الهائلة، واضطرهم العجز لبيع أملاكهم ورهن عقاراتهم وأراضيهم أو الانسلاخ منها بالكلية وأحاط بهم الفقر وصاروا فى أسوأ حال(٢).

وكانت أحوال الشرق الإسلامى عامة تسير من سئ إلى اسوأ ، فالجهل والخرافات والأوهام والعادات والبدع انتشرت بين المسلمين ، كما انتشر بينهم داء الفرقة والخلاف فلا رابطة اجتماعية تجمعهم لتحقيق الخير لهم، فأخذهم الفقر فى كل أقطارهم على غنى بلادهم واتساعها وخصبها ، ولكنهم بجهلهم لايعملون على الانتفاع بها ، وشملهم الذل والهوان على قوتهم وكثرة عددهم ، وتركوا بلادهم نهبا مقسما بين الأوروبيين، ورضوا بأن يكونوا لهم خداماً طائعين (٣).

وكانت مصر منارة العالم الإسلامى أنذاك بوجود الجامع الأزهر بعلمائه ومؤسسات التعليم الحديث التى أوجدها محمد على وحفيده اسماعيل، تعيش هى الأخرى عصرا من الفوضى وسوء الحكم ، فلم يكن المصريون أنذاك يرون شئونهم العامة بل الخاصة ملكا لحاكمهم الأعلى ومن ينيبه عنه فى تدبير أمورهم، يتصرف فيها، بحسب إرادته ويعتقدون أن سعادتهم وشقاءهم موكلان إلى أمانته وعدله بينهم وبين الحكومة سوى أنهم محكومون مصرفون فيما

١- نصر الدين عبد الحميد: مصر وحركة الجامعة الإسلامية ص١١ .

٢- رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده ج١ ص٥٦-٥٧ .

٣- محمود أبورية : المرجع السابق ص١١ .

تكلفهم به الحكومة وتضربه عليهم، وكانوا فى غاية البعد عن معرفة ما عليه الأمم الأخرى سواء كانت إسلامية أو أوروبية [١].

وفى حياة المسلمين الدينية والاجتماعية لعب رجال الدين المستبدون وغير الأمناء دورا سيئا، حيث كثر عدد الأدعياء الجهلاء الذين يخرجون من مكان إلى مكان يحملون فى أعناقهم التمائم والتعاويذ والسبحات ويوهمون الناس بالباطل والشبات ، ويرغبونهم فى الحج إلى قبور الأولياء ويزينون للناس التماس الشفاعة من دفناء القبور، وغابت عن الناس فضائل القرآن الكريم، فصاروا يشربون الخمر، وانتشرت الرذائل، فقلت الأيدى وقعدت عن طلب الرزق، وكاد العزم يتلاشى فى نفوس المسلمين ، وبارت التجارة بوارا شديدا وأهملت الزراعة أيما إهمال[٢].

كما أصاب المسلمين رذائل الاسراف والتبذير فى الانفاق على أزواجهم وأمواتهم حتى يخسرون أموالهم وممتلكاتهم التى يأخذها الأجانب، إلى جانب داء التواكل الذى كبل عقولهم عن التفكير وأيديهم وأرجلهم عن العمل والسعى، وأسلموا أمرهم للأجنبى، وصاروا يتمسكون بأمثال مثبطة للهمم مؤدية للشلل الاجتماعى مثل قولهم: «سيبها على الله»، ولاتفكر ولها مدبر» و«اصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب» و«مراد الخالق من الخلق ما هم عليه» و «لهم- أى الأجانب- الدنيا ولنا الآخرة» و«إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور»[٣].

وخير تصوير لحال المسلمين فى القرن التاسع عشر ما ذكره الكاتب الأمريكى «لوثروب ستودارد» عند حديثه عن اليقظة الإسلامية فى القرن التاسع عشر، حيث قال: كان العالم الإسلامى فى القرن الثامن عشر الميلادى قد بلغ من التضعضع أعظم مبلغ، وانتشر فيه فساد الأخلاق والآداب، وتلاشى ما كان باقيا من آثار التهذيب العربى، واستغرقت الأمم الإسلامية فى اتباع الأهواء والشهوات، وماتت الفضيلة فى الناس، وساد الجهل وانطفأت قبسات العلم الضئيلة ، وانقلبت الحكومات الإسلامية إلى مطايا استبداد وفوضى واغتيال، فليس يرى فى

١- رشيد رضا : المرجع السابق ج١ ص٣٥ .

٢- محمود أبورية : المرجع السابق ص٨ .

٣- د. رأفت الشيخ : المرجع السابق ص٩٠ .

العالم الإسلامي- في ذلك العهد - سوى المستبدين الغاشمين ، كسلطان الدولة العثمانية وأواخر ملوك المغول في الهند يحكمون حكما واهنا[١].

كانت تلك أحوال المسلمين التي أثارت مصلحا مثل السيد جمال الدين الأفغاني وتلميذه الشيخ محمد عبده المصري للتقدم بفكرة الجامعة الإسلامية لعلاج تلك الأحوال التي كان أخطر ما فيها الاعتقاد الذي ساد بين المسلمين بوجود تعارض بين الإسلام كدين وعقيدة وبين التقدم العلمي والمادي الحديث، والنظر إلى الحضارة الأوروبية الحديثة نظرة شك وخوف مما يدفعهم إلى الابتعاد عن الأخذ بأسبابها : وساعدهم على الأخذ بأسباب التقدم الحضاري الأوروبي، وفي نفس الوقت إعطاء الأجانب امتيازات متنوعة في الأقطار الإسلامية حيث يمارسون الاستغلال والاحتكار ويكرسون في المسلمين تخلفهم الحضاري[٢].

ويمكن أن نلخص ظروف العالم الإسلامي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، التي جاءت فكرة الجامعة الإسلامية لمعالجتها، فيما يلي:

أولاً : الحكم الاستبدادي العثماني لكثير من الأقطار العربية الإسلامية البعيد عن الشورى الإسلامية وروح الديمقراطية الغربية.

ثانيا : الجهل والفقر الذي خيم على المسلمين فانصرفوا عن الفضائل إلى الرذائل ، وبعدوا عن جوهر الدين الإسلامي وحياة السلف الصالح.

ثالثا : البعد عن الأخذ بأسباب التقدم الحضاري الأوروبي إما خوفا على الدين وإما لأن الحكام العثمانيين فرضوا العزلة على المسلمين في الوقت الذي عملت فيه البعثات التبشيرية المسيحية على نشر التعليم الحديث بين المسيحيين العرب.

رابعًا : التعرض للغزو الاستعماري الأوروبي الذي اهتم بإضعاف نفوس المسلمين حتى يبعدوا عن الجهاد الإسلامي والوطني ضد المعتدين .

١- لوثروب ستو دارد (مترجم) : حاضر العالم الإسلامي ص٢٥٩ .

٢- د. رأفت الشيخ : المرجع السابق ص٩٠ .

فكرة الجامعة الإسلامية

قامت فكرة الجامعة الإسلامية التى نادى بها السيد جمال الدين الأفغانى على الأسس الآتية:

أولا : التحرر من التخلف:

ويدعو هذا الأساس إلى إبعاد شبح الجمود الذى ران فى فكر المسلمين وكسر العزلة التى فرضت عليهم لكى يصلوا إلى ما وصلت إليه الشعوب الأوروبية فى ميادين الحياة المختلفة ، والاعتماد فى ذلك على التعليم بمؤسساته التى تأخذ بأسباب العلم الحديث، وتنفض عن نفسها الجمود فى الفكر وفى الأسلوب، وإظهار مرونة الإسلامية أى أن الإسلام دين كل زمان وكل مكان، وأنه لاتعارض مع التقدم العلمى الحديث بل يؤكده (١).

وأن التحرر من التخلف يتأتى من استخدام العقل للملاءمة بين الإسلام والمسلمين من جهة، ومتطلبات العصر الحديث من جهة أخرى، الرد على من يدعى أن الشعوب الإسلامية اعتقدت أن الإسلام بالدين واللغة قويت وتخلصت من التخلف الذى فرض عليها (٢). هذا إلى جانب تخليص الإسلام من الشوائب التى علقت به وإصلاح المساوئ الدينية والاجتماعية التى تفشت بين المسلمين (٣).

ثانيا : التحرر من استبداد الحكام:

وهذا يعنى إنهاء الحكم الاستبدادى المفروض على المسلمين سواء كان من سلاطين الدولة العثمانية أو من غيره من حكام الأقطار الإسلامية الأخرى، لأن هذا الحكم الاستبدادى لايتفق مع الشورى التى دعا إليها الإسلام .

وفى هذا السبيل فقد دعا السيد جمال الدين الأفغانى إلى النظام الدستورى وحكم الشورى فى مواجهة استبداد الحكام ، وقد تحولت الشورى التى نادى بها إلى إدارة لازمة لإنقاذ البلاد مما حل بها من المصائب وسوء الأحوال (٤).

١- د. رأفت الشيخ : نفس المرجع ص٩٧ .

٢- نصر الدين عبد الحميد: المرجع السابق ص٢٨-٤١ .

٣- د. محمود صالح منسى: حركة اليقظة العربية ص٥٨ .

٤- نصر الدين عبد الحميد: المرجع السابق ص٣٢ .

ثالثا : تحقيق الوحدة الإسلامية:

كانت دعوة السيد جمال الدين الأفغانى تركز على الوحدة الإسلامية باعتبارها ضرورة تقضى بها الطبيعة والعادة ويؤيدها العقل والنقل، وتقرها شواهد التاريخ وعوامل الاجتماع والألفة بين الأمم والشعوب ، وكان يضرب لذلك الأمثال والسوابق فى تاريخ الوحدة الإسلامية فى العهد الأول، والوحدة الجرمانية فى العصر الحديث[١].

وتحقيق الوحدة الإسلامية فى رأى السيد جمال الدين الأفغانى أمر ممكن إذا انضوت جميع شعوب الأمة الإسلامية على اختلاف أوطانها وجنسياتها تحت حكم خليفة واحد تجمع فى يديه السلطتين الدينية والزمنية ، وبذلك يعود للمسلمين ما كان لهم من قوة ومنعة زمن الخلفاء الراشدين والخلفاء الأمويين والخلفاء العباسيين، ولكن بشرط أن يتبنى الخليفة الواحد حكما حديثا يأخذ بأسباب الحضارة الغربية المادية التى لاتتعارض مع الدين الإسلامى الحنيف[٢].

وفى هذا المقام ذكر الأفغانى فى جريدة العروة الوثقى ما نصه : واعتصموا بحبال الرابطة الدينية التى هى أحكم رابطة اجتمع فيها العربى بالتركى، والفارسى بالهندى ، والمصرى بالمغربى، وقامت لهم مقام الرابطة النسبية ، حتى أن الرجل منهم ليألم لما يصيب أخاه من عاديات الدهر، وإن تناءت دياره وتقاصت أقطاره ... وأن المسلم فى تبديل حكوماته لايأنف ولايستنكر ما يعرض عليه من أشكالها وانتقالها من قبيل إلى قبيل، ما دام صاحب الحكم حافظا لشأن الشريعة ذاهبا مذاهبها [٣].

وهكذا رأى السيد جمال الدين الأفغانى فى عبد الحميد الثانى سلطان الدولة العثمانية وخليفة المسلمين، الأب الأكبر لعموم المسلمين، وأن خلافته الكافلة للشريعة الحافظة للدين، هى أجدر الناس بالالتفات إلى حركة الأعداء (يقصد الغزوات الاستعمارية الأوروبية) فى البلاد الإسلامية. وأن الانضواء تحت راية الخليفة الأعظم يسانده فى شدة جذوره وإعداده العدة لإبطال مكايد أوروبا[٤].

١- نفس المرجع ص٤٠ .

٢- أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ص٦٨ .

٣- د. محمود صالح منسى: المرجع السابق ص٥٩ .

٤- نفس المرجع ص٦٠ .

رابعًا: مقاومة الاستعمار :

يقول السيد جمال الدين الأفغانى فى العروة الوثقى : لقد نظرت إلى الشرق وأهله فوجدت أقتل أدوائه انقسام أهله وتشتت آرائهم ، واختلافهم على الاتحاد واتحادهم على الاختلاف، فعملت على توحيد كلمتهم وتنبيههم للخطر الغربى المحدق بهم [١].

إذن الوحدة طريق مقاومة الاستعمار الزاحف نحو الأقطار الإسلامية والذى كون مستعمرات فى تلك الأقطار فى اسيا وأفريقيا ، خاصة أنه صاحب الغزو الاستعمارى غزو تبشيرى هدد الفكر الإسلامى. وكان المبشرون يستخدمون أدوات الحضارة الحديثة فى التعليم والطب وخلافه، وهى أشياء يجهلها المسلمون، ومن ثم وجب مقاومة الاستعمار بنفس أدواته أى نفس السلاح الحضارى المادى الذى لايتعارض مع الإسلام ومبادئه.

وكان جمال الدين الأفغانى يرى فى الخطر الأوروبى ليس فقط موجها ضد الأوطان الإسلامية ولكنه فى المقام الأول خطر يقوم على أساس دينى، بل هو حركة نصرانية موجهة ضد الإسلام [٢]. وأن هذا الخطر ليس مجرد استعمار إنجليزى أو استعمار فرنسى أو استعمار روسى بل إن أدوات الاستعمار الحضارية خطر على الإسلام والمسلمين لايمكن التصدى له إلا بتجمع إسلامى[٣].

دعاة الفكرة

ساد الاعتقاد بأن فكرة الجامعة الإسلامية كظاهرة من ظواهر اليقظة الإسلامية فى القرن التاسع عشر ارتبطت بشخصية السيد جمال الدين الأفغانى وأنها ماتت بموته، والحقيقة غير ذلك، إذا أن فكرة الإصلاح الدينى والاجتماعى والسياسى وجدت عند السيد جمال الدين وهو فى بلاده أفغانستان ، كما وجدت عند تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده فى مصر، وعند السيد محمد رشيد رضا بعد اتصاله بالشيخ محمد عبده .

كما أن السلطان عبد الحميد الثانى سلطان الدولة العثمانية وخليفة المسلمين ارتبط اسمه أيضا بفكرة الجامعة الإسلامية حين أراد استغلالها لتدعيم سلطانه وفرض نفوذه على كل المسلمين حتى على أولئك الذين لم يخضعوا من قبل لسلطان الدولة العثمانية.

١- العروة الوثقى ص١٣ .

٢- محمود صالح منسى: المرجع السابق ص٥٨ .

٣- نصر الدين عبد الحميد : ص٣٩ .

ولهذا كان علينا ونحن ندرس ظاهرة الجامعة الإسلامية أن نعرف مكونات كل شخصية من الشخصيات التى ارتبطت بها بشكل أو بآخر، الجهود التى بذلتها كل شخصية فى سبيل تحقيق فكرة الجامعة الإسلامية.

أولا : السيد جمال الدين:

ظهرت فكرة الجامعة الإسلامية على يد السيد جمال الدين الأفغانى الذى يعتبر من رواد حركة الإصلاح الدينى والاجتماعى فى العالم الإسلامى، وقد ترك أثرًا عميقا على المسلمين فى الأقطار الإسلامية فى العصر الحديث، وفى الربع الأخير من القرن التاسع عشر على وجه الخصوص[١] .. فمن هو جمال الأفغانى وما هى شخصيته ؟ هو السيد محمد جمال الدين بن السيد صفتر الحسينى الأفغانى. ولد بمدينة «أسعد أباد» من أعمال «كابل» فى عام ١٢٥٤هـ الموافق لعام ١٨٣٨ [٢]، من أسرة تنتسب إلى آل البيت حيث ينتهى نسبه إلى الحسين بن على رضى الله عنهما، وهذا هو السبب فى تسميته بالسيد، ولعشيرته منزلة عالية فى قلوب الأفغانيين يجلونها رعاية لحرمة نسبها الشريف[٣].

وبهذا نشأ السيد محمد جمال الدين فى بيت شريف وبيت علم ودين، وقد استزاد علما من مدارس «كابل» القديمة بأخذه علوم اللغة العربية والتاريخ والعلوم الدينية والفلسفة على أيديهم، إلى جانب علوم الطب والفنون الرياضية، وأضاف إلى دراسته لهذه العلوم استفادته من دراسة أحوال الشعوب الإسلامية بتنقله بين أفغانستان والهند وفارس والحجاز ومصر وتركيا، وتمرسه فى الأعمال الإدارية والسياسية بارتباطه بالأمير الأفغانى «دوست محمد خان» والأمير «محمد أعظم خان» ، والخديوى إسماعيل بمصر لمدة ثمان سنوات من عام ١٨٧١م إلى عام ١٨٧٩م وحكام الدولة العثمانية بالأستانة وعلى رأسهم السلطان عبد الحميد الثانى[٤].

١- د. محمود صالح منسى: المرجع السابق ص٥٧ .

٢- عبد المتعال الصعيدى: المجددون فى الإسلام ص٤٩٠ .

٣- محمود أبو رية: المرجع السابق ص١٥ ، ويذكر الشيخ مصطفى عبد الرازق أن والد جمال الدين اسمه «صفدر» وهى كلمة فارسية من ألقاب الإمام على بن أبى طالب مركبة من كلمة «صف» العربية ودر» من فعل «دريدان» الفارسى بمعنى افترس أو اقتحم .. العروة الوثقى ص١٧ .

٤- د. رأفت الشيخ: المرجع السابق ص٩٢ .

وكانت شخصية السيد محمد جمال الدين بما تميزت به من أسلوب عملى وإخلاص علمى منارة له فى كل قطر إسلامى ينزل فيه . ففى مكة المكرمة أنشأ جمعية أطلق عليها جمعية «أم القرى» عام ١٨٥٧م، وأصدر لها مجلة تنطق باسمها عرفت باسم «أم القرى» وتدافع عن أهداف الجمعية المتمثلة فى وحدة المسلمين لمواجهة الأخطار المحيقة بهم(١).

وعندما انتقل إلى الهند وأثناء وجوده فى بلده أفغانستان أثار السيد جمال الدين المسلمين هناك ضد الحكم البريطانى وسياسته الاستبدادية والاستغلالية، وفى استانبول استقبل هناك عام ١٨٧٠م استقبالا وديا من قبل الحكومة والأوساط العلمية، هذه الأوساط التى استطاع أن يحدث فيها تأثيرا بعيدا بما ألقى من دروس ومحاضرات فى الجامعة المنشأة حديثا(٢).

وقد عاش السيد جمال الدين ثمانى سنوات فى مصر فى ظل رعاية وترحيب من الخديوى إسماعيل الذى شجعه على المضى فى دعوته الإصلاحية ، لأن ذلك يوافق غرض إسماعيل فى التصدى للنفوذ الأجنبى الذى يحاول سلب السلطة من صاحبها الشرعى وعلى هذا قد نجح السيد جمال الدين فى تشكيل حزب من أنصاره وتلاميذه عرف بالحزب الوطنى أو الحزب الأهلى أو حزب الفلاحين (٣).

وقد ساعد السيد جمال الدين على تشكيل هذا الحزب وجود جمعيات ناشئة مثل الجمعية السرية التى ألفها على الروبى سنة ١٨٧٦ م من ضباط الجيش، وكان من بين أعضائها أحمد عرابى، وكان هدف الجمعية تخليص الجيش المصرى من العناصر التركية والشركسية التى كانت تستأثر بالمناصب دون المصريين ، وتتمتع وحدها بالترقيات والعلاوات والمناصب القيادية . هذا إلى جانب جمعية مصر الفتاة التى تشكلت بمدينة الإسكندرية عام ١٨٧٩م من المتعلمين الذين تأثروا بأفكار الأفغانى مثل أديب إسحاق وسليم النقاش . وكانت تطالب بحياة نيابية سليمة، وجمعية حلوان التى تكونت عام ١٨٧٩م أيضا من كبار ملاك الأراضى الزراعية وكان من نتيجة الاتصال بين تنظيم الجيش وجمعية حلوان أن أعلن عن قيام الحزب الوطنى السابق ذكره (٤).

١- عبد المتعال الصعيدى: المرجع السابق ص٤٩١ .

٢- كارل بروكلمان «مترجم» : تاريخ الشعوب الإسلامية ص٦١٧ .

٣- محمود أبو رية : المرجع السابق ص١٨ .

٤- نصر الدين عبد الحميد : المرجع السابق ص٣٢ .

وعندما نجحت بريطانيا فى حمل السلطان العثمانى على عزل الخديوى إسماعيل وتولية ابنه محمد توفيق مكانه عام ١٨٧٩م ، غضب واعتقد أن هذه الدعوة سوف تؤدى إلى الحكم الجمهورى ، كما أن دعوة السيد جمال الدين المنطقية هيجت عليه شيوخ الأزهر المتحفظين فرموه بالفسوق، كما أن دعوته أوغرت عليه كذلك صدر قنصل بريطانيا العام فى مصر. وانتهى الأمر بنفى السيد جمال الدين من مصر إلى الهند عام ١٨٧٩[١].

ترك السيد جمال الدين مصر بعد أن استطاع أن يبث فى نفوس الشباب المصريين الأمل فى التحرر من السيادة الأوروبية إذا ما اقتبسوا ثقافة الغرب المادية ومناهجه التعليمية ابتغاء الدفاع عن الإسلام بوصفه دينا أكثر إمعانا فى مضمار الرقى[٢]. وقد جاءت تاثيرات السيد جمال الدين الأكثر وضوحا على طلاب الجامع الأزهر أثناء إقامته بمصر فى الفترة من شهر مارس ١٨٧١م إلى شهر سبتمبر ١٨٧٩م[٣].

وقد انتقل السيد جمال الدين من الهند إلى أوروبا حيث أقام فى باريس منذ عام ١٨٨٣م، وهناك التقى بالشيخ محمد عبده حيث أصدرا جريدة «العروة الوثقى» التى نطقت بأفكارهما الداعية إلى محاربة تدخل الدول الاستعمارية الأوروبية فى شئون الأمة الإسلامية ، ومن باريس انتقل السيد جمال الدين إلى لندن عام ١٨٨٦م، ثم عاد إليها مرة أخرى فى عام ١٨٩٢م واشترك فى تأسيس مجلة شهرية سميت «أخبار الخافقين» التى كانت تصدر باللغتين العربية والإنجليزية[٤].

وعندما انتقل السيد جمال الدين من فرنسا عام ١٨٨٦م إلى لندن اتجه إلى فارس ثم زار روسيا ،وقد بقى فى فارس (إيران) حتى اضطر لمغادرتها بسبب هجومه على شركة الدخان الإنجليزية العاملة فى فارس، فسافر إلى أوروبا، حتى إذا كان عام ١٨٩٢م استدعاه السلطان عبد الحميد الثانى إلى الآستانة حيث بقى بها لمدة خمس سنوات وافته المنية بعدها فى ٩ مارس عام ١٨٩٧ م وقد ذكر أنه مات مسموما.

١- محمود أبورية : المرجع السابق ص١٨ .

٢- كارل بروكلمان : المرجع السابق ص٦١٨ .

٣- Holt. P.M : Egypt and the Fertile Crescent ; p. 212 .

٤- محمود أبو رية: المرجع السابق ص١٩ .

كان هذا هو السيد محمد جمال الدين الأفغانى الذى نذر نفسه للدفاع عن حقوق الشعوب الإسلامية فى مواجهة قوى الاستبداد المحلية وقوى الاستعمار الأوروبى، وتلك كانت صفاته التى جعلت الجميع يعرفونه بلقب «حكيم الشرق» وصارت هذه الصفة تتردد فى كتب الأدب العربى [١]، ذلك أنه كان يدعو إلى إصلاح أحوال المسلمين فى الدين والدنيا ، ويقصد به جميع المسلمين فى كل الأقطار، وقد تأثر بدعوته هذه بعض طلاب الإصلاح فى مصر وفارس والدولة العثمانية [٢]. وكان يتصور عودة الشعوب الإسلامية للعيش فى ظل حكومة إسلامية واحدة تتخلص من تأثيرات وتدخلات الأجانب السيئة . ورغم أن السيد جمال الدين من أفغانستان وأنه زار كثيرا من الأقطار الإسلامية والأوروبية إلا أنه لم يتعلق ببلد من البلاد على أنه وطن ولم تدخل فكرة الوطنية بهذا المعنى فى مذهبه الاجتماعى [٣]. على الرغم من أنه أكد على أهمية تحدث كل المسلمين اللغة العربية بالرغم من اختلاف جنسياتهم لأن اللسان العربى هو لسان الدين، وأنه كان لغير المسلمين ولم يزل من أعز الجامعات وأكبر المفاخر ، ومن ثم أخذ يردد عبارة «جامعة اللسان وأنه لا جامعة لقوم لا لسان لهم[٤].

وكان السيد جمال الدين يسعى إلى تحويل الإمبراطورية العثمانية إلى «مملكة الممالك» أى مركز لاتحاد إسلامى، بتنظيمها على أساس لا مركزى حقيقى، وأن هذا الاتحاد- إلى جانب الخوف من الاستعمار الأوروبى- سيدفع فارس وأفغانستان والإمارات الإسلامية فى الهند إلى الانضمام إلى الإمبراطورية العثمانية فى شكلها الجديد، وبذلك يصبح سيدا على دولة قوية تستطيع أن تعيد للإسلام أمجاده ، وتحمى البلاد الإسلامية من السيطرة الأجنبية ، إلا أن السلطان عبد الحميد لم يستجب لأفكار الأفغانى[٥].

واشترط السيد جمال الدين لتحقيق فكرة الدولة الاتحادية الإسلامية بزعامة السلطن عبد الحميد الثانى : أن يستعرب العثمانيون ويعدلوا فى أهل هذه الدولة وأن يسيروا سيرة المسلمين الأول حتى يصبحوا أغنى دول العالم وأعزها منعة وقوة.

١- Kedaurie, E. Afghani and Abduh. p. 1 .

٢- عبد المتعال الصعيدى: المرجع السابق ص٤٩٥ .

٣- مصطفى عبد الرازق : العروة الوثقى ص٢٨ .

٤- د. محمود صلاح منسى: المرجع السابق ص٦١ .

٥- نفس المرجع ص٦٤ .

كما اشترط تحويل الممالك الإسلامية القائمة إلى ممالك دستورية ومن ثم تصبح الدولة الاتحادية الإسلامية دولة دستورية، ويفضل العمل على زيادة الوعى الدستورى بين الشعوب الإسلامية حتى ترغم حكامها على إصدار دساتير فتبدو من صنع الشعب ، وبذلك يكون الشعب المسلم مستعد للدفاع عنها، بعكس ما إذا كانت الدساتير منحة من الحكام يستطيعون حجبها عن شعوبهم كلما شاءوا ، وضرب مثلا لذلك بقول مدحت باشا من أنه لا مانع من أن يكون الدستور منحة من السلطان ، ثم ألغاه السلطان[1].

ثانيا - الشيخ محمد عبده:

هو محمد عبده حسن خير الدين المصرى ولد بقرية «شبشير» من قرى مديرية الغربية ، ونشأ ببلدة «محلة نصر» إحدى قرى مركز شبراخيت بمديرية البحيرة سنة ١٢٢٦هـ / ١٨٤٩م حيث نشأ والده ونشأت أسرته من قبله [2]. وقد تعلم كما تعلم أبناء مصر آنذاك فى القرى حيث حفظ القرآن الكريم ثم انتقل إلى الجامع الأحمدى بطنطا فالجامع الأزهر بالقاهرة عام ١٨٦٦م، وقد تعلم على يد مشايخ الجامعين (الأحمدى والأزهرى) وعلى طريقتهم فى التعليم، وإن كان قد وقف على أحوال هؤلاء المشايخ الذين يعيشون فى عزلة عن العالم فلايشعرون بما أصاب الإسلام والمسلمين ، ولايهمهم إلا أنفسهم داخل الأزهر، وبقوا على الجمود فى العلوم القديمة [3].

وقد استفاد محمد عبده من علم وتوجه بعض المشايخ المتنورين أمثال الشيخ درويش الصوفى النزعة السلفى المذهب والذى كان يكره الجهل والبدع والشعوذة ، وأمثال الشيخ حسن الطويل من علماء التجديد ، وفى نفس الوقت ضاق ذرعا ببعض المشايخ الجامدين أمثال الشيخ «عليش» الذى كان معروفا بجموده الفكري.

ونتيجة لموقف محمد عبده من المشايخ الجامدين المتحفظين ذلك الموقف المتسم بالضيق والنقد، فقد نال شهادة العالمية من الدرجة الثانية بعد امتحان ظهر فيه أن المشايخ ينقمون عليه نزعاته الفكرية المتأثرة بمذهب أستاذه السيد جمال الدين الأفغانى [4].

١- نفس المرجع ص٦٤ .

٢- د. زكريا سليمان: التيارات السياسية والاجتماعية ص٣١ .

٣- عبد المتعال الصعيدى: المرجع السابق ص٥٣١ .

٤- مصطفى عبد الرازق : العروة الوثقى ص٣٢ .

وقد انتقد محمد عبده طريقة التعليم فى الأزهر ووصفها بأنها كانت فى أغلبها جامدة وعقيمة ومحصورة فى مختصرات لاتهم وشروح وحواش وتقارير، كما أنها لم تكن تتصل فى أغلبها بالحياة اليومية إلا فى إطار العبادات ، فضلا عن أن أغلب مشايخ الأزهر لايشعرون بما أصاب الإسلام والمسلمين من تدهور ، وانحصرت أهميتهم على أنفسهم[١].

كما استفاد محمد عبده من أفكار السيد جمال الدين الأفغانى فارتبط به وبشخصيته ليتم معه الرسالة الإصلاحية للمسلمين التى يعمل من أجلها ، ومن ثم تعاون الرجلان خلال فترة وجود الأفغانى فى مصر. وعندما رحل الأفغانى عن مصر استمر محمد عبده يدعو إلى الإصلاح حتى نفاه الخديوى توفيق إلى لبنان، ومن هناك ذهب إلى باريس والتقى بالأفغانى وأصدرا هناك مجلة العروة الوثقى الناطقة بلسان جمعية العروة الوثقى، ثم عاد إلى مصر بعد أن عفا عنه الخديوى توفيق[٢].

وكان الشيخ محمد عبده بعد حصوله على العالمية من الجامع الأزهر عام ١٨٧٧م قد شغل عدة وظائف بدأها بالتدريس فى الجامع الأزهر ، ثم نقل للتدريس بمدرسة دار العلوم فى العام التالى (١٨٧٨م) لتدريس التاريخ، ثم عمل مدرسا للغة العربية بمدرسة الألسن، إلى جانب أنه كان يكتب مقالات أدبية واجتماعية بجريدة الأهرام تؤكد ميله إلى العلوم العصرية والبحث فى الأصول الدينية[٣].

وبسبب خضوع الشيخ محمد عبده لتأثيرات أفكار الأفغانى تلك التأثيرات التى بدأت قبل أن يحصل محمد عبده على العالمية- فقد فصل من التدريس عام ١٨٧٩م وهو العام الذى نفى فيه الأفغانى من مصر، ثم عمل فى العام التالى بجريدة الوقائع المصرية، ثم صار عضوا بمجلس إدارة الأزهر، وقد اشترك فى الحزب الوطنى وأيد مطالب العرابيين، وبعد الاحتلال البريطانى نفى إلى لبنان وبعد عودته من المنفى عين عام ١٨٩٩م مفتيا للديار المصرية . وفى عام ١٩٠٠م أسس جمعية إحياء العلوم الإسلامية [٤].

١- د. زكريا سليمان : المرجع السابق ص٣٨ .

٢- د. رأفت الشيخ : المرجع السابق ص٩٤ .

٣- د. زكريا سليمان: المرجع السابق ص٣٩ .

٤- نفس المرجع .

ومن الثابت أن السيد جمال الدين الأفغانى استفاد من بلاغة وفصاحة الشيخ محمد عبده فى الترويج للأفكار الإصلاحية التى شارك الرجلان فى إظهارها ، وبذلك استحق الشيخ محمد عبده اسم «الأستاذ الإمام» الذى أطلق عليه[1].

ويرجع السبب فى تسمية الشيخ محمد عبده بالأستاذ الإمام إلى أن دعوته الإصلاحية كانت تقوم على أمور ثلاثة هى:

١- تحرير الفكر من قيد التقليد حتى لايخضع لسلطان غير سلطان البرهان، ولا يتحكم فيه زعماء الدنيا ولا زعماء الأديان .

٢- اعتبار الدين صديقا للعلم لاموضع لتصادمهما، إذ لكل منهما وظيفة يؤديها، وهما حاجتان من حاجات البشر لاتغنى إحداهما عن الأخرى.

٣- فهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى.

كما كان الشيخ محمد عبده محبوبا معظما معترفا له، مقام الإمامة الذى لايساميه مقام بين الطوائف الراقية من المصريين، وبين طوائف الأجانب فى مصر[2].

وقد اتفق الشيخ محمد عبده مع السيد جمال الدين فى أفكاره الداعية إلى تحرير العقل الإسلامى من الجمود الفكرى والسخط على حكام المسلمين المستبدين ، وبأن وحدة المسلمين تحقق نهضتهم، وأن تكون الوحدة قائمة على مبادئ دستورية مع الأخذ بالعلم الحديث الذى نهضت به شعوب أوروبا.

ورغم اتفاق الرجلين حول هذه الأمور فإنهما اختلفا فى الوسائل المحققة للإصلاح المنشود فبينما كان السيد جمال الدين يريد الإصلاح عن طريق السياسة وتحرير الشعوب الإسلامية من الاستعمار الأوروبى وجمع كلمتها تحت ظل الخلافة العثمانية ، كان الشيخ محمد عبده يؤمن برسالة العلم والموعظة الحسنة، وينادى بضرورة تثقيف المسلمين وأخذهم بأسباب الحضارة الأوروبية الحديثة، والنهوض بالأمة بالتدريج دون تهور أو اندفاع وبعيدا عن السياسة ، ولذلك كان يقول : ما دخلت السياسة شيئا إلا أفسدته [3].

١- Kedourie, E. Ibid, p. 1 .

٢ - مصطفى عبد الرازق : العروة الوثقى ص٣٦-٣٧ .

٣- نصر الدين عبد الحميد: المرجع السابق ص٤٤ .

وهذا الأسلوب السلمى جر عليه غضب العرابيين وهو لايقلل من قيمته أو جهوده ، التى قصرها على إصلاح الأزهر والأوقاف الإسلامية والمحاكم الشرعية التى تولى الإشراف عليها فى عهد الخديوى عباس حلمى الثانى، حيث كان الشيخ محمد عبده يعتقد أنه لتجنب الصدام مع الإنجليز المسيطرين بقوات احتلالهم على مقدرات الأمور فى مصر فإن إصلاح هذه النواحى يؤدى إلى نهضة دينية واجتماعية تصلح لها نفوس الناس، وإذا صلحت نفوس الناس تمسكوا بحقهم فى تحرر بلادهم من السيطرة البريطانية(١).

ورغم أن الشيخ محمد عبده حرص على الإصلاح الدينى والاجتماعى والثقافى وتجنب الخوض فى الإصلاح السياسى، إلا أنه كان شديد الحرص على تحقيق برامجه الإصلاحية فى هذه المجالات . وقد أنتج هذا الحرص حربا لا هوادة فيها من رجال الدين الجامدين الذين كان يحركهم الخديوى عباس حلمى الثانى ، حيث حاربوه ورموه بالإلحاد والكفر، واعتبروا الدعوة التى كان يدعو إليها دعوة الحادية وجدير بصاحبها أن يبوء بغضب صاحب العرش والجمهور (٢).

ونتيجة لما لاقاه الشيخ محمد عبده من عنت المشايخ الجامدين ومن تعسف الأتراك الحاكمين لاشتراكه فى الثورة العرابية حتى نفى خارج مصر، ونتيجة لما بذله من جهود كبيرة لتحقيق برنامجه الإصلاحى، فقد تأثرت صحته حتى وافته المنية عام ١٩٠٥م وله من العمر حوالى ستين سنة فقط.

وقد اتفق الشيخ محمد عبده مع أستاذه السيد جمال الدين الأفغانى فى الدعوة إلى الجامعة الإسلامية بزعامة الدولة العثمانية التى اعتبر أن المحافظة عليها ثالثة العقائد بعد الإيمان بالله ورسوله ، فإنها وحدها- فى رأيه- الحافظة لسلطان الدين الكافلة لبقاء حوزته، وليس للدين سلطان سواها(٣).

١- د. رأفت الشيخ : المرجع السابق ص٩٥ .

٢- نصر الدين عبد الحميد : المرجع السابق ص٤٢ .

٣- د. زكريا سليمان : المرجع السابق ص٨٦ .

ثالثا : السيد محمد رشيد رضا:

كون الشيخ محمد عبده مدرسة فكرية للإصلاح كان أكبر تلاميذها السيد محمد رشيد رضا صاحب جريدة المنار، والذى يعزى إليه الفضل فى الدعوة إلى الجامعة الإسلامية على صفحات جريدة المنار وبجولاته فى البلاد الإسلامية . وبهذا يمكن اعتبار السيد محمد رشيد رضا حامل أفكار كل من السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده معا [١].

والسيد محمد رشيد رضا لبنانى المولد حيث ولد بقرية قرب طرابلس الشام، تعلم فيها القرآن الكريم، والخط وقواعد الحساب، ثم دخل المدرسة الرشدية، كان التعليم فيها باللغة التركية كما دخل عدة مدارس دينية، وأخذ بشئ من التصوف فبعد عن الوظائف الحكومية[٢].

وهكذا تكونت شخصية السيد محمد رشيد رضا تكوينا عصريا دينيا معا، فإن دراسته بالمدارس الابتدائية الحديثة التى أنشأها الحكم العثمانى فى الشام على غرار المدارس الحديثة التى بدأ محمد على فى إنشائها بمصر، ثم التحاقه بالمدرسة الرشدية التى تقابل الآن المدرسة الإعدادية أو المتوسطة ، وهى مدرسة من مدارس السلم التعليمى الحديث أيضا، ثم دراسته ببعض المدارس الدينية، كل ذلك جعل شخصية السيد محمد رشيد رضا أقرب إلى الأفكار الإصلاحية وجعله يتصل بالشيخ محمد عبده ويلازمه حوالى سبع سنوات فى مصر.

وكان السيد محمد رشيد رضا يتابع الحركة الإصلاحية التى يقودها السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده ، ويقرأ كل ما يصدر عنهما خاصة فى مجلة العروة الوثقى، والتقى بالإمام الشيخ محمد عبده فى طرابلس الشام مرتين عندما كان الإمام منفيا فى لبنان.

وقد رحل السيد محمد رشيد رضا إلى مصر عام ١٨٩٨ م ولازم الأستاذ الإمام، وأصدر مجلة «المنار» التى حلت من حيث رسالتها محل مجلة العروة الوثقى. وبعد وفاة الشيخ محمد عبده استمر السيد محمد رشيد رضا فى حمله الأمانة، وإن كان قد داهن الساسة كما فعل عندما أيد الملك فؤاد ملك مصر اتخاذ لقب خليفة بعد إلغاء الخلافة العثمانية على يد مصطفى كمال أتاتورك .

ويعتبر البعض السيد محمد رشيد رضا داعيا للحركة الوهابية باعتبارها دعوة سلمية وأنه جند مجلة المنار للدفاع عن دعوة التوحيد (المعروفة بالدعوة الوهابية) ، ومع ذلك فإن السيد

١- نصر الدين عبد الحميد: المرجع السابق ص٥٨ .

٢- عبد المتعال الصعيدى: المرجع السابق ص٥٣٩ .

محمد رشيد رضا كان يخالف بعض أئمة هذه الدعوة انطلاقا من تأثره بالطرق الصوفية . وقد ظلت مجلة المنار تنطق باسم دعوة الإصلاح التى بدأها السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده ، حتى وفاة السيد محمد رشيد رضا عام ١٩٣٥م[١].

رابعا : السلطان عبد الحميد:

صادفت فكرة الجامعة الإسلامية هوى فى نفس السلطان عبد الحميد الثانى سلطان الدولة العثمانية والذى تقلد السلطنة منذ عام ١٨٧٦م، ورأى أن السلاطين الذين سبقوه فقدوا مكانتهم الدينية نتيجة لتفكك العالم الإسلامى، واستيلاء دول الاستعمار الأوروبى على مناطق تسكنها شعوب إسلامية منها مناطق كانت من ممتلكات الدولة العثمانية كمصر والسودان التى احتلتها قوات بريطانية، والجزائر وتونس التى صارت مستعمرات فرنسية هذا إلى جانب سيطرة انجلترا على الهند وسيطرة روسيا على وسط أسيا.

وكان سقوط هذه الأقطار – وخاصة العربية منها- فى يد الاستعمار الأوروبى يعنى خروج هذه الأقطار عن السيادة العثمانية المطلق، وبالتالى لم يعد للخليفة العثمانى زعيم المسلمين سلطة كاملة على هذه الأقطار ، ومن ثم حاول السلطان عبد الحميد أن يجعل للسلطان العثمانى سلطة مطلقة أكثر مما كانت متاحة للسلاطين العثمانيين السابقين، تكون مؤيدة بفكرة الخلافة الإسلامية والجامعة الإسلامية[٢].

ورغم أن فكرة الجامعة الإسلامية عند السيد جمال الدين الافغانى والشيخ محمد عبده لم تكن بالضرورة لتتحقق فى ظل الخلافة العثمانية، فإن السلطان عبد الحميد الثانى استخدم الفكرة من أجل تقوية مركزه كسلطان للإمبراطورية العثمانية يمتع بمكانة خاصة فى قلوب رعاياه المسلمين باعتباره خليفتهم وظل الله على الأرض وحامى حمى الحرمين الشريفين.

وقد أحاط السلطان عبد الحميد- تبعا لذلك- نفسه بالعلماء واستخدم الوعاظ للدعاية لشخصه ، كما أبعد عن مجالسه وقصوره كل ما لايتفق مع تعاليم الإسلام، واستخدم شريف مكة نفسه فى الدعاية له . خاصة وأنه أظهر الكرم فى الأنفاق على المؤسسات الإسلامية داخل ولايات الدولة العثمانية وخارجها، حيث اعتقد بتحسين مركز الإمبراطورية العثمانية

١- د. رأفت الشيخ: المرجع السابق ص٩٦ .

٢- Holt, P.M. op. cit, p. 172 .

بين الشعوب الإسلامية الخاضعة للحكم الإنجليزى والفرنسي والروسى، فينال هو شخصيا رئاسة كل مسلمى العالم الإسلامى [١].

وكان يمكن لفكرة الجامعة الإسلامية أن تجد قبولا وصدى أوسع وتنتشر بين الشعوب الإسلامية لو لم تتسع لتشمل إلى جانب الأتراك ، العرب والفرس والهنود، بل وغير المسلمين من أهل الولايات العثمانية ، هذا إلى جانب الدول الأوروبية التى أخذت تستغل أخطاء السلطان عبد الحميد فى ضرب أفكاره ومنعها من التطبيق بإثارة العرب ضد الأتراك، وكشف ادعاءات السلطان عبد الحميد الإصلاحية بإظهار استبداده وكبته للحريات، وإلغائه للإصلاحات الدستورية، وإبعاد الشخصيات المصلحة من على مسرح السياسة العثمانية بل والإسلامية .

وعندما قامت الثورة التركية عام ١٩٠٨م أجبر حزب تركيا الفتاة السلطان عبد الحميد الثانى على إعادة الدستور العثمانى الذى كان قد صدر بجهد مدحت باشا الصدر الأعظم فى ٢٣ ديسمبر عام ١٨٧٦م، بعد طول إيقافه- حيث أوقف السلطان عبد الحميد العمل بالدستور وعزل مدحت باشا فى ١٤ فبراير سنة ١٨٧٧م أى بعد أقل من شهرين- ولكن لم يؤد تمسكه بالخلافة الإسلامية إلى نجاحه الدائم إذ قامت ضده الحركة الانقلابية بزعامة جماعة الاتحاد والترقى التى تم خلعه على أثرها الذى تم فى أبريل عام ١٩٠٩م[٢].

تقييم فكرة الجامعة الإسلامية

لم يتهيأ لفكرة الجامعة الإسلامية أن تصبح حقيقة واقعة وظلت مجرد فكرة سجلتها صفحات التاريخ مع جهود الدعاة الذين نشطوا لكى يضعونها موضع التنفيذ ، ولكن حال دون ذلك العوامل الآتية:

أولا : حقيقة كانت الفكرة الإسلامية هى الفكرة السائدة بين الشعوب العربية والإسلامية ولم تكن الفكرة القومية أو الفكرة الوطنية تفرض وجودها، ولذلك لم يأنف المسلمون عربا أو فرسا أو هنودا من أن يحكمهم حكاما أتراك طالما كانوا مسلمين، ومع ذلك لم يتحمس المسلمون بصفة عامة للفكرة بسبب سلبيات الحكم العثمانى فى المنطقة العربية.

١- د. رأفت الشيخ: المرجع السابق ص٩٨ .

٢- نصر الدين عبد الحميد: المرجع السابق ص٦٢ .

ثانيا: عمل الاستعمار الأوروبى خاصة الإنجليزى والفرنسى والروسى على عدم تحقيق فكرة الجامعة الإسلامية، لأن الفكرة من أهدافها مواجهة الأطماع الاستعمارية الأوروبية ولأن الدول الأوروبية وخاصة منذ مؤتمر برلين عام ١٨٧٨م قد بدأت سياسة تقطيع أوصال الإمبراطورية العثمانية وتحقيق الأطماع الاستعمارية فى الأقطار العربية والإسلامية .

ثالثا : سعت بعض القطاعات في الأقطار الإسلامية إلى تأكيد الروح الوطنية وعدم التحمس لفكرة الجامعة الإسلامية، مثل حزب الأمة المصرى الذى أخذ يروج لفكرة القومية المصرية [١]، ومثل سكان جبل لبنان من الموارنة والدروز وغيرهم، هذا إلى جانب غلاة المسيحيين (الأقباط) فى مصر الذين نادوا بالقومية الفرعونية ردا على فكرة الجامعة الإسلامية. وسعوا إلى إحياء اللغة القبطية، لأنها كما قالوا لغة البلاد المصرية ولغة العبادة المسيحية ولغة المدينة القديمة والجديدة فى رأيهم[٢].

رابعا : موقف السلطان عبد الحميد الثانى الذى أراد استخدام فكرة الجامعة الإسلامية لتحقيق أغراضه هو ولم يعمل على وضعها موضع التنفيذ، فعلى سبيل المثال لم يحقق مبدأ تحرر المسلمين من استبداد الحكام، ولم يحقق مبدأ تحرر المسلمين من التخلف والبدع ، ولم يحقق مبدأ الحكم الدستورى، ولم يحقق الحكم العصرى أسوة بالمجتمعات الناهضة فى أوروبا، ومن ثم انصرف الناس عن الفكرة رغم تعلق بعض المثقفين بها أمثال زعامة الحزب الوطنى فى مصر، وكان هذا التعلق بهدف ضرب المحتلين البريطانيين استنادا إلى الوحدة الإسلامية بزعامة الخليفة العثمانى.

هذه هى الجامعة الإسلامية التى هى مظهر من مظاهر اليقظة العربية الإسلامية، أقول العربية الإسلامية حيث أن السيد جمال الدين الأفغانى حاول التوفيق بين فكرة الإسلام وفكرة العروبة، فكان يرى أن الإسلام كعقيدة إنما هو طريق للتعرب واكتساب خصائص الأمة العربية.

١- المرجع السابق ص٧٧ .

٢- المرجع السابق ص٨٤ .

ولذلك نجد السيد جمال الدين الأفغانى يقول: لو أن العثمانيين اتخذوا اللغة العربية لغة لكل الإمبراطورية فإن كل شعوبها سوف يصبحون وقد جمعتهم رابطتان بدلا من رابطة واحدة فتقوى وحدتهم. ويقول كذلك : لو تعربت الدولة العثمانية وانتفى من بين الأمتين النعرة القومية وزال داعى النفور والانقسام بين التركى والعربى وصاروا أمة عربية بكل ما فى اللسان من معنى وما فى الدين الإسلامى من عدل، وما فى سيرة أفاضل العرب من أخلاق وفى مكارمهم من عادات لكان إعادة عصر الرشيد (يقصد هارون الرسيد الخليفة العباسى) للمسلمين ميسورا[١].

١- د. محمود صالح منسى: المرجع السابق ص٦١-٦٢ .

الباب الرابع

العرب والمطامع الأوروبية

مقدمة :

مقدمة

تشير الأحداث التى شهدتها الأقطار العربية التى خضعت للحكم العثمانى طوال أربعة قرون فى معظمها، أن هذه الأقطار سقطت فريسة للأطماع الأوروبية ، وقد بلغ بالبعض إلى اتهام الدولة العثمانية بأنها مسئولة عن هذا السقوط، ويدللون على ذلك بأن ما من قطر عربى تخلص من الحكم العثمانى إلا وتسلمته منها دولة أوروبية من الدول الثلاث التى استعمرت الأقطار العربية وأعنى بها فرنسا وبريطانيا وإيطاليا.

وإذا كانت الحقائق التاريخية تشير إلى ذلك، فمن الإنصاف القول بأن مسئولية سقوط الأقطار العربية فى يد الدول الأوروبية، الاستعمارية تقع على عاتق الدول الأوروبية بمطامعها فى الأقطار العربية ، كما تقع على عاتق الأقطار العربية ذاتها، إلى جانب عاتق الدولة العثمانية.

فالدول الأوروبية بداية بالبرتغال وأسبانيا ثم فرنسا وبريطانيا ثم إيطاليا طمعت فى الأقطار العربية منذ نهاية القرن الخامس عشر امتدادا بالقرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر حتى القرن التاسع عشر والقرن العشرين، فلقد آمنت كل من البرتغال وأسبانيا خلال القرن الخامس عشر الميلادى بضرورة استعادة أراضيها من أيدى المسلمين الذين أقاموا دولتهم بالأندلس وبقية شبه جزيرة ايبريا ، بل - وكما ذكرت إيزابلا ملكة قشتالة- محاربة المسلمين فى أقطارهم بشمال أفريقيا .

ومن هنا بدأت عمليات الجهاد البحرى الإسلامى فى غرب البحر المتوسط وفى سواحل الأقطار العربية الإسلامية بشمال أفريقيا التى قادها رجال البحر من مراكش - المغرب الأقصى- ومن الجزائر (المغرب الأوسط) ، ومن تونس وطرابلس الغرب، ضد سفن البرتغال وأسبانيا ثم سفن بقية الدول الأوروبية ، كنوع من مواجهة عدوان «الإفرنج» على الأرض العربية الإسلامية، حتى انتهت هذه العمليات باحتلال فرنسا للجزائر عام ١٨٣٠م ، وفرض فرنسا الحماية على تونس عام ١٨٨٣م ، وفرض الحماية الفرنسية على مراكش عام ١٩١٢م، واحتلال إيطاليا لطرابلس الغرب بعد غزو بدأ عام ١٩١١م.

وبالمثل كان لتطلع البرتغال وفرنسا وبريطانيا لأقطار الخليج العربية واليمن وجزر البحر الأحمر بداية من القرن السادس عشر الميلادى ، أثره فى حدوث عمليات جهاد بحرى إسلامى فى الخليج والجنوب العربى ضد سفن الدول الأوروبية البرتغال ثم بريطانيا، تلك العمليات التى

لقيت دعما من بعض الأقطار العربية مثل دولة آل سعود الأولى ، أو فى مرحلتها الأولى (١٧٤٢-١٨١٨م) واليمن.

ورغم أن عمليات الجهاد البحرى الإسلامى فى الخليج نجحت فى طرد البرتغاليين من مياه الخليج العربى بانتهاء القرن السابع عشر ، وتتبعتهم إلى مياه شرق أفريقيا حتى أجلاهم العرب الخليجيون مع مسلمى شرق أفريقيا من طرد البرتغال من مدينة «ممباسا» وتقليص وجودهم فى شرق أفريقيا لينحصر فقط فيما صار يعرف باسم مستعمرة موزمبيق البرتغالية.

فإن عمليات الجهاد البحرى الإسلامى تصدت لكل السفن الأوروبية التى تبحر فى مياه الخليج العربى طوال القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر، حيث لقيت سفن بريطانيا وغيرها عمليات هجومية من سفن يقودها رجال البحر الخليجيون مثل قبائل القواسم وبنى النعيم وغيرهم، تلك العمليات التى لم تتوقف إلا بتوقيع شيوخ مشيخات الخليج للاتفاقيات المانعة أو اتفاقيات الهدنة، ثم اتفاقيات الحماية مع بريطانيا خلال سنوات القرن التاسع عشر فى توقيتات متفرقة.

كما شهدت مياه البحر الأحمر صراعا استعماريا أوروبيا كان طرفاه بريطانيا وفرنسا، خلال القرن التاسع عشر الميلادى وإذا كانت بريطانيا تعتبر البحر الأحمر مجالها الحيوى باعتباره طريقها لمستعمرتها فى الهند- درة التاج البريطانى- فإنها حرصت على إبعاد نفوذ أية قوة أوروبية أخرى منافسة، وكان اهتمام بريطانيا منصبا على المضايق: جبل طارق ، قناة السويس، باب المندب... الخ، وعلى الجزر ذات الموقع الاستراتيجى، ومن هنا كانت بريطانيا حريصة على الانفراد بالنفوذ والسيطرة على جزر البحر الأحمر، وهو ما سنعالجه فى هذا الباب .

الفصل الحادى عشر

الجهاد البحرى الإسلامى فى البحر المتوسط

خروج المسلمين من الأندلس- الجهاد البحرى الإسلامى- جهاد المراكشيين- جهاد الجزائريين- جهاد التونسيين- جهاد الطرابلسيين.

خروج المسلمين من الأندلس

جاء سقوط الأندلس فى يد الأسبان الكاثوليك أواخر القرن الخامس عشر الميلادى إيذانا ببدء حركة الجهاد البحرى الإسلامى فى الحوض الغربى للبحر المتوسط والتى امتدت حتى القرن التاسع عشر عندما اصطدمت تلك الحركة مع الغزو الاستعمارى الأوروبى لأقطار شمال أفريقيا العربية المسلمة.

وإذا كان سقوط الأندلس فى يد الأسبان الكاثوليك بعد أن بقى فى أيدى المسلمين حوالى ثمانمائة سنة قد مر بعدة مراحل وتوفرت لذلك عدة عوامل فإن سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين فى الأندلس فى أيدى الأسبان الكاثوليك عام ١٤٩٢م يمثل خاتمة مراحل الصراع على أرض شبه جزيرة أيبيريا بين المسلمين وبين الكاثوليك وبداية مرحلة الجهاد البحرى الإسلامى بين الطرفين فى الحوض الغربى للبحر المتوسط.

ولقد كانت عوامل الصراع على أرض شبه الجزيرة الأيبيرية تتمثل ليس فقط فى مقاومة أهل شبه الجزيرة للفاتحين المسلمين ، بل لقد شغل الفاتحون أنفسهم بما وقع بينهم من مخاصمات وحروب، فقد ثارت العداوات بين قبيلة وقبيلة وبين البربر والعرب، وبين القيسية واليمنية، وبين الشامية والمدنية[1].

كما كان لزواج ولاة الأندلس العرب وأمرائهم بالأسبانيات من أسباب ضعف المسلمين فى الأندلس حيث كان لذلك تأثيره على العرب المسلمين وعلى الدولة الإسلامية فى الأندلس لم تظهر نتائجه الخبيثة إلا عند ضعف الدولة، وقد أدى هذا التزاوج من الأسبانيات للتأثير فى طبيعة العرب، ولاسيما البربر فرقق من أخلاقهم وأضعف من وحدتهم[2].

١- أنخل جنثالث ترجمة د. حسين مؤنس : تاريخ الفكر الأندلسى القاهرة ١٩٥٥ ص١ .

٢- محمد لبيب البتنونى : رحلة الأندلس الطبعة الثانية- القاهرة ص٣٢ .

وكان أول من تزوج من العرب بالأسبانيات عبد العزيز بن موسي بن نصير ، فقد تزوج بالسيدة «إيلونا» أرملة لذريق ملك القوط بعد أن مات متأثرا بجروحه فى واقعة «شريش» التى تغلب عليه فيها طارق بن زياد ، وتزوج الأمير محمد بن عبدالله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط بأسبانية اسمها مارية ورزق منها بولده عبد الرحمن الناصر، وتزوج الحكم بن الناصر بالسيدة «صبح » «البشكنسية» وأعقبت له هشاما المؤيد(١)..

كما تزوج المنصور بن أبى عامر بنت «سانكو» ملك «نافاريا» وولدت له ابنه عبد الرحمن، وتزوج المأمون بن الناصر سلطان الموحدين أسبانية اسمها «حباب» وخلف منها ابنه «الرشيد» وتزوج السلطان محمد بن أبى الحسن بن الأحمر بالسيدة «ثريا» الأسبانية وولدت له ابنه عبدالله ، كما كانت أم عبد الحق بن أبى سعيد سلطان بن مرين أسبانية (٢).

ورغم محاولة عبد الرحمن بن معاوية (من ١٣٨-١٧٢هـ الموافق ٧٥٥-٧٨٨م) إنقاذ الإسلام فى الإندلس بعد أن شهدت البلاد حروبا بين العرب بعضهم مع بعض ونزاعا بين الرؤساء على الولاية حتى حازها منهم أربعة وعشرون واليا فى خمس وأربعين سنة (٣)، فإن ثورة قرطبة ضد أولاد المنصور والفتنة الكبرى التى أعقبتها قاضيتين على الخلافة ، وقد تطاحنت على دفة الأمور خلال هذه الفتنة طوائف شتى كان كل منها يحسب أنه قادر على قطع دابر الفتنة وإعادة الدولة وتسيير الأمور فقامت عقب سقوط الخلافة حكومة فى قرطبة أشبه بحكومات البلديات عام ٤٣١هـ الموافق لعام ١٠٣١م..

وقد انتهى الصراع بين الطوائف إلى تحزبها خلال أدوار الفتنة الأهلية فى طوائف ثلاث متعادية فيما بينها وهى:

١- البربر: وقد استولوا على الجزء الجنوبى من الأندلس .

٢- الصقالبة : وقد انحازوا إلى شرق الأندلس واستبدوا به.

٣- الأندلسيون: وقد أقاموا دولتهم فيما بقى للمسلمين من الجزيرة(٤).

١- نفس المرجع ص٣١ .

٢- نفس المرجع ونفس الصفحة.

٣- أنخل جنثالث بالنثيا: المرجع السابق ص٢ .

٤- نفس المرجع ص١٣ .

وفى ذكر صقر قريش (عبد الرحمن الداخل) قال الشاعر أحمد شوقى يصف ملكه وما آل إليه بعده قصيدة منها:

قـصـرك (المنيـة) من قـرطبـة فـيـه واروك ولله المصـيـر

صـدف خـط علـى جـوهـرة بيـد أن الدهر نبـاش بصـيـر

لم يـدع ظـلا لقصـر (المنيـة) وكذا عـمـر الأمـانى قـصـيـر

كنت صـقـرا قـرشـيـا علمـا مـا على الصـقـر إذا لم يرمس

إن تسـل أين قـبـور العظمـا فـعلى الأفـواه أو فى الأنفس(١)

وكان انقسام الأندلس إلى دويلات صارت لها حكومات ضعيفة ترأس كل منها ملك أحد عوامل ضعف المسلمين هناك أمام هجمات الأسبان الكاثوليك حيث أخذ ملوك الطوائف يبنون لأنفسهم فى شباب دولهم مجدا أثيلا وذكرا جميلا بما كان لهم من علم وفضل وكرم، وكان فى مقدمة بلادهم «إشبيلية» لما كان فيها من واسع العمران وناصع الحضارة وجليل الإمارة فى زمن بنى عباد الذين راجت سوق العلم والأدب فى دولتهم ولا سيما أيام المعتمد آخر ملوكهم(٢).

ونتيجة لخلافات ملوك الطوائف التى لم تتوقف أبدا عمل الملك الأسبانى «ألفونسو السادس» بعد استيلائه على «طليطلة» عام ٤٧٨هـ الموافق لعام ١٠٨٥م على زيادة شقة الخلافات بين أمراء المسلمين بالأندلس بأن يساعد بعض ملوك الطوائف على بعض، ويتدخل فى شئون مملكة بلنسية ، وعظمت قوته واشتد خطره على المسلمين حتى خافه المعتمد ودخل فى ولائه وزوجه إحدى بناته (٣).

وإذا كان المعتمد بن عباده قد وصل إلى هذه الدرجة من الهوان، وهو الذى تولى الملك بعد أبيه المعتضد عام ٤٦١هـ الموافق ١٠٦٨ م والذى وصف بأنه أكبر ملوك الأندلس فى وقته ملكا وأنفذهم رأيا وأعظمهم سلطانا حتى توفى بأسر رئيس دولة «المرابطين» يوسف بن تاشفين ببلدة «أغمات» وهى بلدة وراء مراكش بعد أن استجار بالأخير لمدافعة الأسبان

١- أحمد شوقى بك : دول العرب وعظماء الإسلام، مطبعة مصر- القاهرة ١٩٣٣ ص٧٨-٧٦ .

٢- محمد لبيب البتنونى : المرجع السابق ص٨٤ .

٣- أنخل جنثالث بالنثيا : المرجع السابق ص١٨ .

الكاثوليك [١]. فإن ذلك يعد علامة على تقلص نفوذ المسلمين بالأندلس لصالح الأسبان ..

ومنذ منتصف القرن الثانى عشر الميلادى انكمشت دولة الإسلام بالأندلس واقتصرت على مملكة غرناطة وملوكها بنو الأحمر، ونتيجة لهذا الانكماش بالأندلس هاجر علماؤها إلى مراكش وإلى بلاد المشرق الإسلامى حيث استقروا وأخذوا ينشرون علومهم [٢]. وكان ذلك من دلائل أفول نجم المسلمين بالأندلس .

وفى الوقت الذى يتقلص فيه الوجود الإسلامى بالأندلس يتسع فيه نفوذ وملك الأسبان حتى أصبحت غرناطة محاطة بممالك مسيحية معادية تتربص بها. وحيث بدأ ملك بنو الأحمر بغرناطة عام ٦٣٥هـ الموافق لعام ١٢٣٧م على يد محمد بن الأحمر ، فإن الصراعات الدموية أضرت بملك بنى الأحمر، وإن كان محمد بن يوسف الملقب بالغنى بالله عام ٧٦٠هـ الموافق ١٣٥٨م قد قويت شوكته فعمل بحسن سياسته على استرداد كثير من البلاد التى استولى عليها الأسبان مدة أسلافه وهو الذى استوزر لسان الدين ابن الخطيب ، ووفد عليه عبد الرحمن بن خلدون عام ٧٦٣هـ الموافق لعام ١٣٦١م وأقام فى خدمته ثلاث سنوات[٣].

وكان فى ذلك الوقت أن بدأ البرتغاليون فى مهاجمة الشواطئ المراكشية فيما عرف باسم حركة الكشوف الجغرافية البرتغالية، حيث استولوا على «سبتة» عام ٨١٨هـ الموافق لعام ١٤١٥م وعلى «قصر المجاز» عام ٨٦٢هـ الموافق لعام ١٤٥٧م، وعلى «طنجة» عام ٨٦٩هـ الموافق لعام ١٤٦٤م وعلى «أصيلة » عام ٨٧٦ هـ الموافق لعام ١٤٧١م. كما أن الأسبان استولوا على «جبل طارق» فى ٨٦٩هـ الموافق لعام ١٤٦٤م، وعلى مدينة «بونة» عام ٨٦٧هـ الموافق لعام ١٤٦٢ م وقد نجح الأسبان والبرتغاليون فى ذلك بسبب الشقاق فى أقطار المغرب بين المسلمين سواء بين بنى مرين وبنى حفص فى الأقطار المغربية أو بينهم وبين بنى الأحمر فى غرناطة.

وكانت نتيجة كل ذلك عزلة مسلمى الأندلس عن المساعدة التى قد تأتيهم من إخوانهم فى الأقطار المغربية، وقد أصبحت دولة غرناطة محصورة بأساطيل الأسبان الكاثوليك من جهة الجنوب والشرق وجيوشهم البرية من جهة الشمال والغرب، وما زالوا يضيقون الحصار على

١- محمد لبيب البتنونى : المرجع السابق ص٩١ .

٢- انخل جنثالث بالنثيا : المرجع السابق ص٢٤ .

٣- محمد لبيب البتنونى: المرجع السابق ص١٠٨ .

غرناطة حتى استولوا عليها عام ٨٩٧هـ الموافق لعام ١٤٩٢م وسلمها لهم السلطان أبو عبدالله بن الأحمر وتوجه إلى مراكش حيث نزل بمدينة «فاس» فى ضيافة السلطان «محمد الوطاسى» سلطان المغرب الأقصى..

وهكذا سقطت الأندلس الإسلامية فى أيدى الأسبان الكاثوليك الذين أخذوا فى إزالة كل أثر إسلامى وتحويله إلى مؤسسات مسيحية، بل إن المسلمين الذين بقوا هناك أرغموا على اعتناق النصرانية ، ومن ثم عرفوا باسم الموريسكيين، ومن أثر التمسك بالإسلام فر بدينه إلى الأقطار المغربية الإسلامية، وقد سجل التاريخ أن الأسبان كانوا يتعقبون المسلمين الفارين ويغرقونهم بأمتعتهم فى البحر، ومن هنا كانت أصوات استغاثة هؤلاء المسلمين تصل إلى مسلمى الأقطار المغربية الذين كانوا يسارعون إلى نجدة إخوانهم فيدخلون فى صراع حربى مع الأسبان كان ميدانه البحر المتوسط وخاصة الحوض الغربى منه المواجه لتلك الأقطار من ناحية والأسبان والبرتغاليين وغيرهم من ناحية أخرى.

وبعد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين بالأندلس فى أيدى الأسبان الكاثوليك يتجلى لنا شقاء الموريسكيين الاجتماعى فيما خلفوه لنا من أدب قليل فقير لايحمل من العربية إلا أحرف هجائها ، إذ أنهم جهلوا العربية ولم يعودوا يعرفون غير اللغة الأسبانية[١].

ولله در أحمد شوقى أمير الشعراء حين انفعل لسقوط مدينة «أدرنة» التركية المسلمة بمقدونيا بأيدى البلغار عام ١٩١٢م فكتب قصيدة بعنوان «الأندلس الجديدة» جاء فيها :

يا أخت أندلس عليك سلام ... هوت الخلافة عنك والإسلام
نزل الهلال عن السماء فليتها ... طويت وعم العالمين ظلام
جرحان تمضى الامتان عليهما ... هذا يسيل وذاك لايلتام
بكما أصيب المسلمون وفيكما ... دفن اليراع وغيب الصمصام
لم يطو مأتمها وهذا مأتم ... لبسوا السواد عليك فيه وقاموا
ما بين مصرعها ومصرعك انقضت ... فيما نحب وتكره الأيام[٢]

١- أنخل جنثالث بالنثيا : المرجع السابق ص٢٥ .

٢- أحمد شوقى : الشوقيات الجزء الأول. دار الكتب القاهرة ١٩٤٦ ص٢٣٦ .

وعندما خلصت الأندلس للكاثوليك اتجهوا إلى الوحدة الوطنية داخل شبه جزيرة أيبريا تلك الوحدة التى تحققت بانضمام مملكتى «أرجون» و«قشتالة» بزواج «فرديناند» و«إيزابلا» فصارت مملكة «أسبانيا» ومن الأمور الجديرة بالملاحظة أن عام ١٤٩٢م شهد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين بالأندلس فى أيدى الأسبان ، كما شهد خروج الملاح «كريستوف كولبس» من أسبانيا مبحرا فى المحيط الأطلسى باتجاه الغرب للوصول إلى الهند حيث منابع التجارة التى يحتكرها التجار المسلمون وتمر بأرض المسلمين فى طريقها إلى أوروبا.

وكانت رحلات كريستوف كولبس قد كشفت أرضا جديدة عرفت فيما بعد باسم أمريكا ، وكان لذلك أثره فى اهتمام أسبانيا بقوتها البحرية حيث اعتنت الحكومة الأسبانية ببناء الأساطيل وتعزيزها بالرجال الذين لهم دراية بالحرب، ومن ثم أخذت البحرية الأسبانية تخرج من ثغور أسبانيا الشرقية والجنوبية وتقطع الطريق على مراكب المسلمين التجارية. وفى عام ٩٢٠هـ الموافق لعام ١٥٠٨م استولى الأسبان على مدن «بجاية» و«هران» و«الجزائر» ، كما انشأوا على سواحل الأقطار المغربية حصونا ومعاقل كثيرة[١].

وكان استيلاء الأسبان على مدن فى الجزائر وتونس وطرابلس الغرب تحقيقا لوصية ملكتهم «إيزابلا» التى حثتهم ليس بالاكتفاء فقط بالعمل على إخراج المسلمين من الأندلس بل محاربتهم فى بلادهم بشمال أفريقيا، ومن ثم دارت المعارك البحرية بين رجال البحر المسلمين المنطلقين من موانئ أقطار شمال أفريقيا من جهة وبين الأسبان والبرتغاليين وغيرهم من الأقطار الأوروبية من جهة أخرى. تلك المعارك التى أطلق عليها الأوروبيون فى كتاباتهم اسم القرصنة الإسلامية ، وهى فى حقيقتها عمليات جهاد بحرى إسلامى..

الجهاد البحرى الإسلامى

أطلق المؤرخون الأوروبيون لفظة قرصنة على العمليات البحرية العربية العربية الموجهة بالدرجة الأولى ضد سفن الدول الأوروبية وغير الأوروبية التى تخالف العرب فى عقيدتهم الدينية، وقد تابع بعض المؤرخين العرب زملائهم الأوروبيين فى هذه التسمية حتى اختلط الأمر على المواطن العربى وأخذ يتساءل:

هل كل عمل بحرى حربى تقوم به سفن عربية إسلامية ضد أخرى غير إسلامية وفى البحار العربية من أعمال القرصنة ؟

١- محمد لبيب البتنونى: المرجع السابق ص١١٦ .

وما الفرق بين القرصنة والجهاد الإسلامى فى مجال الحروب البحرية التى شارك فيها المسلمون ضد أعداء الإسلام؟

وهل للقرصنة الأوروبية التى اتخذت من مياه المحيطين الأطلنطى والهندى بصفة خاصة مجالا لنشاطها ، مثيلا بين سفن العرب المسلمين ؟

وماذا يمكن أن نسمى الصدام بين سفن العرب المسلمين بعضهم البعض، هل هى قرصنة أم حرب؟

وبالتالى ما هى مواصفات القرصنة، والحرب والجهاد البحرى الإسلامى، والمغامرات البحرية؟

وأخيرا ما دور الاستعمار فى تشويه صورة النشاط البحرى العربى الإسلامى ومحاربة هذا النشاط ؟

ونحن من جانبنا سوف نحاول الإجابة على هذه التساؤلات حتى نستجلى حقائق تصحح وجه التاريخ العربى الإسلامى وتعطيه صورته الحقيقية، موضحين الفرق بين نشاط العرب المسلمين الحربى فى البحار. وقرصنة الأوروبيين سواء ضد بعضهم البعض أو ضد غيرهم ممن أوقعهم سوء حظهم فى طريق القراصنة الأوروبيين.

لتحديد معنى لفظة القرصنة بالطريقة العلمية الإجرائية يمكن القول بأن كلمة القرصنة تطلق على كل عمل يقوم به فرد أو جماعة محدودة العدد بهجوم مسلح فى البحر مستخدمين السفن المسلحة لسلب ما تحمله سفن الغير دون أن تكون هناك عداوة سابقة أو حروب معلنة بين الطرفين.

وبمعنى آخر يمكن القول أن قيام سفينة مسلحة أو أكثر باعتراض سفن تابعة لدولة أخرى أو بلد آخر أو جماعة ما فى البحر وسلب ما تحمله تلك السفن بدون وجه حق ، وبدون أن يكون هناك ادعاء سابق بأن هذا الهجوم رد لعدوان أو ثأر لعمل سابق، كل ذلك يعطى مفهوم القرصنة بالطريقة الإجرائية ، وأعنى بالطريقة الإجرائية ارتباط الصفة بالموصوف أى توصيف العمل بطريقة محددة لا زيادة فيها ولانقصان، فإذا حدث فعل تنطبق عليه تلك المواصفات أطلقت عليه نفس التسمية .. هذا هو المقصود بالطريقة الإجرائية علميا .

ولنفس التوصيف العلمى يمكن القول بأن كل عمل حربى تقوم به سفينة أو مجموعة سفن تابعة لدولة ما بهدف الإضرار بسفن تابعة لدولة أخرى أو بلد آخر معادية عند مرورها فى

المياه الإقليمية أو هجوما على سواحل البلد المعادى، صار ذلك العمل حربا بين دولتين أو بلدين بحكم وجود عداء وحالة حرب قائمة ، ولايمكن إطلاق تعبير قرصنة على مثل هذا العمل.

كذلك يمكن القول - استنادا إلى نفس التوصيف العلمى - بأنه إذا حدث صدام بين سفينة أو عدة سفن تابعة لحاكم أو قبيلة وأخرى تابعة لحاكم آخر أو قبيلة أخرى ترتبط مع القبيلة المهاجمة بروابط معينة كالجنس واللغة والدين مثلا، فإن هذا العمل الحربى لايمكن اعتباره قرصنة، ولايمكن اعتباره حربا بالمعنى الصحيح ، وإنما يمكن تسميته باسم المغامرات البحرية بحكم التنافس بين الأطراف ذات الارتباطات الاجتماعية الواحدة، كما كان يحدث بين بعض القبائل العربية فى الخليج العربى.

كما يمكن القول أيضا- استنادا إلى نفس التوصيف العلمى- بأن هجوم السفن الإسلامية ضد السفن المسيحية جهادا بحريا إسلاميا بامتداد الجهاد الإسلامى من الأرض إلى البحر. لأن المسلمين استندوا إلى مبدأ الجهاد الإسلامى فى محاربة أعداء الإسلام سواء على الأرض أو فى البحر، ورد اعتداءاتهم.

وبهذا فإننا نطلق على العمليات البحرية التى قام بها المسلمون فى مياه البحر المتوسط ضد سفن أسبانيا والبرتغال وفرسان القديس يوحنا طوال القرون الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر جهادا بحريا إسلاميا جاءت بدايته ردا على اعتداءات تلك القوى المسيحية الصليبية على المسلمين فى أسبانيا وملاحقتهم فى أثناء فرارهم من الاضطهاد إلى أقطار شمال أفريقيا العربية الإسلامية.

ويجب من البداية أن نلاحظ ملاحظة هامة أن تلك العمليات بين البحرية العربية الإسلامية والبحرية الأوروبية إنما حدثت من منطلق دفاع العرب المسلمين ضد أطماع الأوروبيين الصليبية وروحهم العدائية لكل ما هو إسلامى، تلك الأطماع التى صورها أصحابها بأنها ثأر من العرب المسلمين الذين تجرأوا يوما ما فغزوا الأرض الأوربية ، ومن ثم لانعجب أن نسمع الملكة إيزابلا ملكة أسبانيا تقول لشعبها أواخر القرن الخامس عشر: إن تحرير أسبانيا (تعنى إخراج المسلمين منها) لايتم إلا بفتح أفريقيا (أى الاستيلاء على أقطار المغرب العربية الإسلامية) وجهاد أبنائها الكافرين (أى المسلمين) فى سبيل العقيدة المسيحية.

ومن هذا المنطلق يمكن لنا استعراض بداية الصدام بين العرب المسلمين فى شمال أفريقيا والقوى الأوروبية المعادية فى البحر المتوسط، ذلك الصدام الذى أطلق على الدور العربى الإسلامى فيه من جانب المؤرخين الأوروبيين لفظة قرصنة بينما أطلق عليه العرب المسلمون

المعاصرون لتلك الأحداث تعبير الجهاد الإسلام ضد أعداء الإسلامى من الأوروبيين.

كانت أقطار المغرب العرب (المعروفة الآن وهى ليبيا، تونس، الجزائر والمغرب) تعيش عصر وحدة وقوة تحت قيادة دولة الموحدين حتى القرن الثالث عشر الميلادى، وانضم إليها فى هذه الفترة إقليم الأندلس الذى كان يعتبر من أكبر الدول الموجودة فى العالم العربى والإسلامى فى ذلك الوقت.

وعندما انهارت دولة الموحدين ظهرت ثلاث إمارات فى أقطار الشمال الأفريقى تنافست فيما بينها مما أدى إلى ضعفها ، هذه الإمارات هى سلطنة بنى مرين فى إقليم المغرب الأقصى التى تحملت أكثر من غيرها عبء الدفاع عن العروبة والإسلام ضد هجمات الأسبانيين والبرتغاليين، وإمارة بنى حفص فى إقليم تونس، وإمارة بنى عبد الواد فى الجزائر (المغرب الأوسط) واتخذت من تلمسان عاصمة لها.

وفى الوقت الذى ضعف فيه المسلمين بشمال أفريقيا نتيجة تفكك وحدتهم منذ القرن الثالث عشر الميلادى، فقد بدأت شبه الجزيرة الأيبيرية مرحلة تكوينها السياسى فأسبانيا توصلت فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر إلى وحدتها الوطنية فى عهد «فرديناند» و«إيزابلا» ملكا أسبانيا على أسس دينية كاثوليكية معادية للمسلمين فى الأندلس والمغرب، كما حققت البرتغال وحدتها الوطنية وقيام حكومة مركزية قوية فى لشبونة معادية هى الأخرى للمسلمين ، وعملت الدولتان – أسبانيا والبرتغال – على بناء السفن والاهتمام بشئون الملاحة ومن ثم قامت حركة الكشوف الجغرافية– منذ أوائل القرن الخامس عشر على أكتاف البرتغاليين ثم أعقبهم الأسبان ، تلك الكشوف التى كان من دوافع القيام بها محاربة الإسلام والمسلمين فى أفريقيا وفى البحار الهندية.

ظهر الصراع واضحا بين الأسبان والبرتغاليين من ناحية وأقطار شمال أفريقيا العربية الإسلامية من ناحية أخرى، باحتلال «هنرى الملاح» ابن ملك البرتغال مدينة «سبتة» المغربية عام ١٤١٥م، ثم احتل الأسبانيون «المرسى الكبير» عام ١٥٠٥م وتقع هذه المدينة بالجزائر الحالية وفى عام ١٥٠٨م استولوا على مدن «حجر باديس» ، و«وهران» و«بجاية» ، وفى عام ١٥١٠م احتلوا مدينة «طرابلس الغرب » ثم تنازلوا عنها عام ١٥٣٥م لفرسان القديس يوحنا المغامرين القراصنة الذين اتخذوا من جزيرة «مالطة» مركزا لهم بعد أن طردهم الأتراك العثمانيين من جزيرة «رودس» وهم فى الأصل من بقايا الصليبيين الذين طردهم المماليك من فلسطين .

لم يكن استيلاء البرتغاليين والأسبان على المدن العربية بشمال أفريقيا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر بالأمر السهل والدائم ، ذلك أنه رغم تفكك وحدة المسلمين فى هذه الأقطار المغربية إلا أنهم تذرعوا بمبدأ الجهاد الإسلامى فى مقاومة القوى المسيحية الغازية، بل وفى مهاجمة سفن الدول الأوروبية فى البحر المتوسط، واستمر هذا الهجوم حتى ظهرت قوة الدولة العثمانية باستيلائها على القسطنطينية عام ١٤٥٣م ثم استيلائها على العراق والشام ومصر عامى ١٥١٤ ، ١٥١٧ م فاستعان المغاربة (عرب شمال أفريقيا) بالدولة العثمانية «الإسلامية القوية» للوقوف أمام القوى المعادية للمسلمين.

كان دخول الدولة العثمانية إلى ميدان الصراع الدينى بين العرب المسلمين بشمال أفريقيا من ناحية وتحالف البرتغاليين والأسبان وفرسان القديس يوحنا من ناحية أخرى.

منذ عام ١٥١٨م ، حلقة أخرى فى سلسلة الجهاد الإسلامى ضد أعداء الإسلام ، كان ميدانه الأكبر الحوض الغربى للبحر المتوسط عدته وعتاده السفن المسلحة للقوى العربية الإسلامية بأقطار شمال أفريقيا وسفن الأسطول العثمانى من جهة فى مواجهة سفن القوى الأوروبية المتحالفة من جهة أخرى.

والغريب فى الأمر أنه مع تسجيل الحقائق التاريخية بأن أرض العرب المسلمين فى أقطار الشمال الأفريقى أرض محتلة من جانب القوى الأوروبية المسيحية المتحالفة إلا أن المؤرخين الأوروبيين أطلقوا على دفاع العرب المسلمين عن أرضهم وحياتهم ضد أعدائهم بأنها عمليات قرصنة، وامتلأت كتبهم بتعبيرات هجمات القراصنة العرب المسلمين من أقطار الشمال الأفريقى بينما هى فى الواقع دفاع مشروع عن الأرض والعرض، وحرب وجهاد إسلامى كما أطلق عليها مؤرخو ذلك الزمان من العرب المسلمين .

وكان ذلك الصدام البحرى بين سفن المسلمين المغاربة وسفن القوى الأوروبية المتحالفة صداما طويلا استغرق طوال القرن الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر والثامن عشر، ولم ينته إلا بوقوع أقطار الشمال الأفريقى تحت الاحتلال الفرنسى (فى الجزائر وتونس والمغرب) والاحتلال الإيطالى (فى ليبيا) .

ورغم وقوع كل من الجزائر وطرابلس الغرب ثم تونس تحت الحكم العثمانى خلال القرن السادس عشر ، فإن الصراع البحرى بين المغاربة المسلمين من ناحية والقوى الأوروبية «المتحالفة» المعادية من ناحية أخرى استمر وبقوة ، هذا على الرغم من اعتبار كل قطر من أقطار المغرب العربى ولاية عثمانية تخضع للإمبراطورية العثمانية ويتم تعيين الوالى من عاصمة الإمبراطورية «إستامبول» (أو إسلام بول) .

وانطلاقا من هذه الحقيقة فسوف نستعرض مراحل الكفاح البحرى للمسلمين المغاربة ضد المسيحيين الأوروبيين فى الحوض الغربى للبحر المتوسط، من خلال نشاط كل ولاية فى هذا المجال طوال القرون الخمسة من القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر، أى من وقت نزول البرتغاليين والأسبان على الشواطئ المغربية حتى وقوع الاحتلال الفرنسى ثم الإيطالى للأقطار المغربية بكاملها .

ومما تجب ملاحظته فى هذا المجال أن الحكام الأسبان والبرتغاليين أصروا فى معاداتهم للمسلمين فى الأندلس وشمال أفريقيا على التذرع باللون المسيحى حتى يضمنوا الحماس الشعبى، وأن هذا اللون الدينى كان يخفى وراءه صراعا على السلطة وبالتالى صراعا للسيطرة على الموارد الاقتصادية ، ومن ثم وجه هؤلاء الحكام أنظار شعوبهم نحو الخارج ، وإلى إخضاع بقايا المسلمين واليهود فى شبه جزيرة أيبيريا لمحاكم التفتيش مما اضطر أعدادا كبيرة منهم إلى الهجرة إلى المغرب الكبير فرارا بأرواحهم وأعراضهم وأموالهم.

وحينما تعقبت سفن الأسبانيين الفارين من المسلمين كان من الطبيعى أن يخرج رجال البحر المغاربة لتأمين المسلمين النازحين من الأندلس والدفاع عنهم ضد سفن المتعقبين لهم من الأسبان الذين اتخذوا أسلوبا وحشيا فى التعامل مع المسلمين الذين يقعون فى أيديهم مما أدى إلى صدام بحرى بين سفن المغاربة المسلمين والسفن الأسبانية، وقد أدى ذلك الصدام إلى ظهور قيادات بحرية إسلامية قوية عندها القدرة على منازلة الأعداء والقيام بعمليات الجهاد الإسلامى البحرى .

وكان رجال الجهاد الإسلامى البحرى يخرجون على سفنهم المسلحة لاستقبال سفن المسلمين الفارين من شبه جزيرة أيبيريا والدفاع عنها ، وكانت سفن المسلمين مجهزة بالتسليح الذى يمكنها منازلة الأعداء فى البحر ، ولكنها كانت خاضعة لسلطة القيادات التى تحكم أجزاء من ساحل المغرب الكبير، أو خاضعة لسلطة الإمارات القائمة فى الأقاليم المغربية.

لذلك فلايمكن أن نساير المؤرخين الأوروبيين المغرضين فى إطلاق لفظ قرصنة على عمليات الجهاد البحرى الإسلامى هذه، فإن سفن القراصنة كانت تخضع لبعض رؤساء البحر الذين يشبهون فى عملياتهم إلى حد بعيد عمليات قطاع الطرق ولايتراجعون عن مهاجمة أى سفينة حتى وإن كانت خاضعة لجيرانهم أو لحكومتهم، حتى يتمكنوا من أسرها أو الاستيلاء عليها وعلى حمولتها على الأقل.

ومن ثم فإننا لايمكن إلا أن طنلق على العمليات البحرية للسفن المغربية بأنها عمليات جهاد إسلامى بحرى من أجل الإسلام وضد قوى معادية متربصة بأرض المسلمين ودفاعا عن حرية موانئ المغرب العربى وأبنائه وأرزاقهم ، وقد عملت هذه الحركة - حركة الجهاد البحرى الإسلامى- على ظهور قيادات جديدة أثرت فى تاريخ المغرب الكبير.

رجال البحر المراكشيون

بعد أن سقنا فى كلامنا السابق عمليات الجهاد البحرى الإسلامى فى البحر المتوسط فى مواجهة النشاط المسيحى الصليبى فى هذا البحر ضد السفن والأراضى الإسلامية فى شمال أفريقيا نناقش فى هذا المجال دور رجال البحر فى القطر العربى المراكشى.

إن مراكش القطر العربى الإسلامى الذى يحرس الجناح العربى فى الغرب من الوطن العربى ، تسلمت زمام الحكم فيه أسرة شريفة هى الأسرة السعدية منذ أوائل القرن السادس عشر واستمرت تحكم المغرب حتى منتصف القرن السابع عشر ، ودخلت أثناء هذه الفترة فى صراع مع الأسبان والبرتغاليين من أجل طرد هذه القوى المعادية من المدن والأراضى المغربية.

ورغم حدوث بعض الخلافات بين أفراد الأسرة السعدية وبين أمراء الأسرة وحكام الجزائر، وكذلك بين أمراء الأسرة والدولة العثمانية، فإن السعديين حرصوا على مواصلة الجهاد البحرى ضد القوى الأوروبية المتحالفة المعادية، وكان استرداد المدن المغربية من تلك القوى المعادية هى بداية حركة الجهاد، حتى لم يعد للبرتغاليين فى المغرب فى منتصف القرن السادس عشر سوى مدن «طنجة» و«سبتة» و«مزغان» مما دفعهم إلى الدخول فى معركة فاصلة ضد جيش السعديين بقيادة المتوكل عرفت بمعركة وادى المخازن فى أغسطس ١٥٧٨م انتهت بهزيمة البرتغاليين هزيمة منكرة، وانتهت محاولات البرتغال للتدخل فى شئون المغرب بعد ذلك.

واتبع أحمد المنصور، الذى حكم المغرب فى الفترة من عام ١٥٧٨م إلى عام ١٦٠٣م سياسة الجهاد الإسلامى بمواجهة تقدم البرتغاليين على الشواطئ الأفريقية بنشر الإسلام بين الأفارقة ومد نفوذ دولته فى حوض نهر السنغال حتى نهر النيجر، وقد نشأت فى تلك الجهات حكومة تحتفظ بالولاء الأسمى لسلطان المغرب استمرت مدة قرنين من الزمان، كما أن استمرار الجنود المغاربة فى هذه الجهات - السودان الغربى- وتزاوجهم مع الأهالى انشأ مجموعة من المولدين ظلت مرتبطة بالمغرب وكانت تلك أولى الحقوق التاريخية التى استندت إليها حكومة المغرب الحالية للتحدث عن سيادتها على موريتانيا والصحراء الغربية وحتى السنغال والنيجر.

وقد حاول أحمد المنصور فى حركة الجهاد البحرى ضد القوى الأوروبية المعادية أن يهادن ويتحالف مع قوى أوروبية أخرى وخاصة انجلترا وهولندا وهما الدولتان المعاديتان لأسبانيا آنذاك، وإن كانت انجلترا قد حرصت على عدم التحالف مع أحمد المنصور السلطان المسلم ضد أسبانيا المسيحية ، فقد دخلت هولندا فى معاهدات مع السلطان لتنظيم الملاحة والتجارة. وإن بقيت للبرتغاليين والأسبان قواعد فى الأرض المغربية تدعمت نتيجة خلافات المغاربة فيما بينهم بين رجال الجهاد البحرى، وبين أنصار الحق الشرعى أو التاريخى وبين من يجعلون السلطة والحكم هدفا لهم، مما سيؤدى إلى انتهاء حكم الأسرة السعدية الشريفة لتحل محلها أسرة شريفة أخرى هى الأسرة العلوية التى لاتزال تحكم المغرب حتى الآن.

وفى عهد أسرة الأشراف العلويين بالمغرب الذى بدأ عام ١٦٦٦م على يد المولى الرشيد استمر الجهاد الإسلامى ضد قواعد الدول الأوروبية المعادية- أسبانيا والبرتغال - فى الأراضى المغربية- فتم استرداد مدن «المهدية» و«العرائش» و«أصيلة» أواخر القرن السابع عشر ، واسترداد ميناء «طنجة» «ومدينة مزاغان» من يد البرتغاليين وحاول المولى إسماعيل سلطان المغرب إقامة علاقات متحالفة مع الملك لويس الرابع عشر ملك فرنسا من أجل الوقوف ضد الأسبان أعداء الطرفين.

ومما تجب ملاحظته أنه حتى مع لجوء سلاطين المغرب إلى مهادنة القوى الأوروبية سواء المعادية أو غير المعادية وعقد معاهدات تجارية مع هذه القوى، فإن بعض المجاهدين المغاربة من أنصار الجهاد البحرى الإسلامى ما كانوا يلتزمون بهذه المعاهدات ومن ثم كانوا يقومون بعمليات بحرية ضد سفن القوى الأوربية دون أوامر من السلاطين وفى شكل يتضارب مع المصالح العامة للسلطنة المغربية.

وحرص المولى محمد بن عبدالله الذى استمر حكمه للمغرب من عام ١٧٥٧م إلى عام ١٧٩٣م على عقد معاهدات تجارية وصداقة مع القوى الأجنبية التى لاتجاهر بعدائها للمسلمين، ومن ثم رأيناه يتعاهد مع دول شمال أوروبا ومع الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٧٨٦م- بعد إعلان استقلالها بعشر سنوات - بل أنه توسط لدى حكام تونس وطرابلس الغرب حتى تمتنع سفنها عن مهاجمة سفن الولايات المتحدة الأمريكية، وتبادل الرسائل مع الرئيس الأمريكى جورج واشنطن مما اعتبر كأول اعتراف دولى بحكومة الولايات المتحدة الأمريكية التى لم تنس للمغرب هذه المبادرة وستكون قنصليتها فى طنجة التى أنشئت عام ١٨٢٠م أول قنصلية أجنبية فى المغرب(١).

١- د. جلال يحيى: المغرب الكبير (العصور الحديثة) ص٧٤ .

ويبدو أن حدوث الثورة الفرنسية وانشغال أوروبا بأحداثها وتأثيراته قد دفع بالمغرب- على غير المتوقع - إلى سياسة العزلة، فلم تهاجم سفن الأسبان أو البرتغاليين بل لم تهاجم سفن الدول الأوروبية الأخرى، وكان الاحتلال الفرنسى للجزائر عام ١٨٣٠م نزيرا بالتفوق الفرنسى فى الحوض الغربى للبحر المتوسط وعدم إتاحة الفرصة أمام أنصار الجهاد البحرى الإسلامى المغاربة ليمارسوا نشاطهم ضد سفن القوى الأوروبية المعادية والتى صارت فرنسا إحداها.

ورغم أن السلطان سليمان قام عام ١٨١٦م بتحرير بقية الأسرى المسيحيين الموجودين فى المغرب نتيجة لعمليات الجهاد البحرى الإسلامى، وألغى رسميا فى العام التالى عمليات الجهاد البحرى الإسلامى حتى لايثير عداء الدول الأوربية، إلا أن الأزمة المالية التى مرت بالمغرب جعلت السلطان عبد الرحمن منذ عام ١٨٢٥م يعيد التفكير فى إحياء عمليات الجهاد البحرى الإسلامى، مما جعل بلاده هدفا لاعتداءات من جانب الإنجليز والنمساويين والأسبان ثم الفرنسيين، وهى الدول التى مست سفنها عمليات الجهاد البحرى الإسلامى المغربية.

كان احتلال فرنسا للجزائر عام ١٨٣٠م دافعا لعزلة المغرب ، وإن استمرت محاولات السلطنة المغربية لإقامة علاقات تجارية ودبلوماسية مع الدول الأوروبية غير المعادية واهتمت حكومة المغرب بالأمور الداخلية، بينما كان البحارة الأوروبيون ما يزالون يخشون سواحل المغرب ومياهه الإقليمية، كما كانوا يخشون النزول فى الموانى نظرا لأن أنصار حركة الجهاد البحرى الإسلامى ما زالت لهم قواعدهم فى المغرب وعملياتهم التى تزداد حينا وتتناقص أحيانا أخرى، خاصة أن المغاربة شعروا بعد احتلال فرنسا للجزائر بارتفاع الشعور بالتضامن الإسلامى لديهم إلى مستوى واضح.

ونتيجة لاهتمام انجلترا بصفة خاصة ودول غرب أوروبا عامة بالملاحة فى البحر المتوسط كطريق يوصل عبر الإسكندرية والسويس إلى الهند فى الثلاثينيات من القرن التاسع عشر فقد حرصت تلك الدول على تأمين الملاحة فى هذا البحر ومن ثم جاء فى نصوص معاهدة عام ١٨٥٦م بين انجلترا والمغرب ما يدعوا إلى حرية الملاحة والتجارة والقضاء على عمليات الجهاد البحرى المغربى التى كانت تركز نشاطها عند سواحل الريف.

إلا أن العداء القديم بين أسبانيا والمغرب ما لبث أن أحيته روح التعصب المسيحية فى عهد الملكة إيزابلا الثانية التى انتشرت فى كل أسبانيا ضد المسلمين فى الوقت الذى كان فيه المغاربة يتطلعون إلى تحرير مدنهم من يد الأسبان وانتهى الأمر بصدام بين الطرفين استمر

١- د. جلال يحيى: المغرب الكبير (العصور الحديثة) ص٧٤ .

من أواخر عام ١٨٥٩م إلى أواخر عام ١٨٦١م، كانت نتيجته فى غير صالح المغاربة حين فرضت معاهدة على المغرب ظهرت من نصوصها روح التعصب المسيحية ضد المغرب الإسلامية. كدفع غرامة حربية كبيرة قبل أن تجلو القوات الأسبانية عن مدينة «تطوان» التى كانت مركزا للإشعاع الإسلامى ، إلى جانب إجبار المغرب على السماح لرجال بعثات التبشير الأسبانيين بالعمل فى الأراضى المغربية.

وزاد الأمر سوءا أن البحرية الأسبانية المؤيدة بسفن انجليزية وفرنسية نجحت فى القضاء على سفن حكومة المغرب وسفن رجال الجهاد البحرى الإسلامى فى وقت واحد وقامت قوات الاحتلال الأسبانى فى مدينة «تطوان» بتحويل أحد مساجدها إلى كنيسة وبطريقة تعطى للاحتلال الأسبانى المؤقت شكلا دائما . فانتهت بذلك الفكرة الموجودة فى أوروبا عن حصانة المغرب وهيبة رجال البحر المغاربة ، وبعد هزائم المغاربة أمام الفرنسيين عام ١٨٤٤م جاءت انتصارات الأسبان الذين تحدثوا عنها فى كل مكان وشرحوا كيف أنهم حملوا الأعلام الأوروبية المسيحية إلى قلب المغرب وأفريقيا.

ومنذ ذلك الوقت أى منذ أوائل الستينات من القرن التاسع عشر حتى حدوث الاحتلال الفرنسى للمغرب عام ١٩١٢ زادت المصالح الأوروبية فى المغرب وقدمت أعداد متزايدة من الأجانب يقيمون فيه يمثلون جاليات أجنبية لها قناصلها وقساوستها وأطباؤها وكل مقومات حياتها الاجتماعية ، وهذه القوى أخذت فى الضغط على المغرب الذى عجزت حكومته عن وقف هذا التيار كما عجزت عن العودة إلى حياة البلاد السابقة، واعتمد الأوروبيون على العلماء من اليهود وعلى المتمتعين بالحماية، من أجل زيادة مصالحهم ونفوذهم فى المغرب.

وفى وسط هذه الصورة الجديدة اختفت صورة الجهاد البحرى الإسلامى فى المغرب أمام القوة القاهرة للدول الأوروبية الطامعة فى استغلال إمكانيات المغرب، تلك القوة التى تسلحت بما أنتجته المصانع المتزايدة من أسلحة ومن ترسانات بحرية تفرض بها سطوتها وتهدد بها القوى الوطنية المدافعة عن حقها فى أراضيها وفى مياهها الإقليمية.

رجال البحر الجزائرون

لمعت أسماء لرجال الجهاد البحرى الإسلامى وارتبطت بالجزائر فى القرن السادس عشر مثل «بابا عروج» وأخيه خير الدين الذى عرف باسم «باربا روسا» (أى صاحب اللحية الحمراء) وغيرهم ممن دافعوا عن الإسلام فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ضد أعداء الإسلام من الأسبان والبرتغاليين وفرسان القديس يوحنا.

ومنذ عام ١٥١٠م ذاع اسم «بابا عروج» كمدافع عن المسلمين بالمغرب الكبير (تونس – الجزائر– المغرب) حتى قتل عام ١٥١٨م ، عاش خلال الثمانى سنوات هذه محاربا ضد الأسبان فى البر والبحر مستخدما سفنه السريعة فى تعقب ومهاجمة سفن أعدائه المسيحيين بمساعدة رجاله النظاميين والمتطوعين الجزائريين الراغبين فى الجهاد ضد أعداء الإسلام وقد نجح «بابا عروج» فى ضم صفوف الشعب الجزائرى وقرب بينه وبين غيره من الشعوب العربية والإسلامية فى وحدتها أمام العدو المشترك.

جاء بعد «بابا عروج» أخوه (خير الدين) الذى واصل قيادة عملية الجهاد البحرى ضد الأسبان وحلفائهم ، وطلب من الدولة العثمانية– القوة الفتية الإسلامية التى ضمت الشام والعراق ومصر إلى ممتلكاتها– مساعدته فى محاربة أعداء الإسلام واستجاب السلطان سليم لطلب خير الدين عام ١٥١٨م فمده بألفى جندى من الإنكشارية وساعده على تجميع المتطوعين من البلاد الإسلامية للدفاع عن إسلام أقطار شمال أفريقيا، ومنذ ذلك الوقت صارت الجزائر تابعة اسميًا للإمبراطورية العثمانية[١].

صرف خير الدين معظم جهوده فى مباشرة عمليات الجهاد البحرى ضد الأسبان الذين كانوا تحت قيادة ملكهم شارل الخامس يعادون بصفة مستمرة الدولة العثمانية لذلك اعتبر العثمانيون خير الدين الحارس الأمامى لإمبراطوريتهم فى الحوض الغربى للبحر المتوسط، ومن ثم منحه السلطان العثمانى لقب «بيكلر بك أفريقية» أى بك بكوات المغرب ومنحه لقب قبودان باشا أى قبطان البحر– وأعطاه القيادة العامة للأساطيل العثمانية فصار منذ ذلك الوقت– فى العشرينيات من القرن السادس عشر– أكثر من مجرد أمير للبحر بل أصبح رئيسا لدولة وإن كانت غير تامة السيادة .

وقد أثبت خير الدين بالفعل أنه المجاهد البحرى الأول فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ضد القوى المتربصة بالإسلامية والمسلمين ، ومن ثم دخل فى صراع بحرى وأرضى مع هذه القوى استطاع خلاله استعادة الأراضى المغربية من أيدى الأسبان وانشأ مدينة الجزائر عام ١٥٢٩م، واتخذها عاصمة لإمارته المجاهدة ، ثم رد على غزو الأسبان لتونس عام ١٥٣٥م بغارة مفاجئة على جزر البليار الأسبانية استولى خلالها على ستة آلاف أسير عاد بهم إلى الجزائر ، كما تعاهد مع الفرنسيين ضد أعدائه وساعد على التقريب بين العثمانيين والفرنسيين

١– د. جلال يحيى: المرجع السابق ص٢٤–٢٥ .

مستغلا العداء بين الأسبان والفرنسيين. بل أنه ساعد الفرنسيين عام ١٥٤٣م على استخلاص مدينة نيس من أيدى الأسبان .

وقد استمر كفاح رجال البحر بعد خير الدين وظلوا يسمون بلقب بكلر بك ويتولون قيادة الأسطول العثمانى فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ، واشتهر فيهم حسن باشا ابن خير الدين و«صالح ريس» و«الحاج على» وقد نجح الأخير فى تصفية القواعد الأسبانية فى تونس عام ١٥٦٩م مما أقلق العالم المسيحى ودفع البابا إلى إصدار نداء لتكوين حلف مسيحى ضد محاولات المسلمين إجلاء القواعد الأوروبية المسيحية فى أراضى المغرب، ومن ثم دارت معركة بحرية قرب سواحل جزيرة مالطة عام ١٥٧١م بين المسلمين بقيادة «الحاج على» وبين التحالف الأوروبى المسيحى كانت نتائجها انتصار التحالف المسيحى وعجز المسلمين عن الاستيلاء على جزيرة مالطة وعن تحرير القواعد التى احتلتها أسبانيا والبرتغال على سواحل المغرب الأقصى وحتى وهران بالجزائر التى بقيت فى أيدى الأسبان حتى قرب نهاية القرن الثامن عشر.

ومما تجب ملاحظته أن رجال البحر الجزائريين وجدوا معاونة أثناء صدامهم مع القوى الأوروبية المسيحية المعادية، من جانب عدد من الرؤساء وقادة البحر الموجودين فى موانئ المغرب الأقصى ، أمثال «يحيى ريس» الذين اتخذ من أحد خلجان شواطئ المغرب الشمالية قاعدة له ، وكون أسطولا سمح له بأن يفرض سيطرته على الملاحة حتى عرف باسم «سيد المضيق».

وعندما ضعف رجال البحر بالجزائر أخذت الحكومة العثمانية ترسل باشوات لحكم الجزائر منذ عام ١٥٨٧م كما هو الحال فى باشوات القاهرة ودمشق وغيرها، حتى إذا كان عام ١٦٥٩م صار أولئك الولاة يختارهم الجند وعرفوا بالأغاوات واستمروا يحكمون حتى عام ١٦٧١م ومن ثم عاد رؤساء الجناح الإسلامى القوى بشمال أفريقيا، وأسبانيا التى تمثل الجناح المسيحى المتعصب الصليبى فى أوروبا، وعرف رؤساء البحر الذين امتد حكمهم من عام ١٦٧١م حتى عام ١٨٣٠م – عام الاحتلال الفرنسى للجزائر- باسم الدايات .

ومنذ إنشاء مدينة الجزائر صارت مركزا لعمليات الجهاد البحرى ضد سفن الدول الأوروبية المعادية، وكثر فيها بالتالى عدد الأسرى المسيحيين ، وزادت فيها كمية الغنائم والأسرى أثناء العمليات البحرية فى جنوب أوروبا وفى الحوض الغربى للبحر المتوسط حيث تمون المجتمع الجزائرى بعدد من الأسرى من النساء ينتهى بأغلبهن المطاف فى حريم الرؤساء (رؤساء البحر) والقادة.

ومنذ أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر وحتى الاحتلال الفرنسي للجزائر تعرضت عملية الجهاد البحرى الإسلامى لضغوط أنهت دورها فى النهاية فقد ضغطت فرنسا أثناء الثورة وفى عهد نابليون بونابرت من أجل إيقاف تلك العمليات ضد السفن الأوروبية وشعر الجزائريون بارتياح عندما استولى نابليون على جزيرة مالطة مقر فرسان القديس يوحنا عام ١٧٩٨م وهو فى طريقه إلي مصر، ثم استيلائه على أسبانيا ذاتها عام ١٨٠٧م وحتى عام ١٨١٣م.

إلا أن مؤتمر التسوية الأوروبية فى فينا عام ١٨١٥م قد أظهر روحا صليبية عدائية ضد عمليات الجهاد البحرى الإسلامية، والادعاء بأن المسلمين يأسرون مسيحيين ويستخدمونهم فى التجديف فى السفن وفى الأعمال الدنيا، ومن ثم خرجت دعوات لتحطيم سفن رجال البحر المسلمين فى شمال أفريقيا وضرورة حراسة دولية لمياه البحر المتوسط ضد «القرصنة الإسلامية» . وغير ذلك من الدعوات ، ونظرا لتضارب مصالح الدول الأوروبية خرج المؤتمر بدعوة لتحريم القرصنة والرق، وإن كانت قد تشكلت فى انجلترا جمعيات تحت أسماء براقة تخفى عداء لعملية الجهاد البحرى الإسلامى ، فوجدت ما عرف باسم «جمعيات محاربة القراصنة» و «جمعية الفرسان محررى الرقيق الأبيض فى أفريقيا».

إلا أن بعض الدول الأجنبية لجأت إلى العدوان على الجزائر بدعوى وقف عمليات «القرصنة» ففى عام ١٨١٥م أرسلت الولايات المتحدة الأمريكية إلى الجزائر عدة سفن حربية لكى تجبر الداى على وقف المطالبة بالجزية السنوية المفروضة على سفنها فى البحر المتوسط ووقف عملية زيارة وتفتيش السفن، وقد نجحت الولايات المتحدة فى عقد معاهدة مع الجزائر حققت فيها الشروط الأمريكية بعد أن قامت السفن الحربية الأمريكية بالاعتداء على سفن الجزائر بل وعاصمة الولاية نفسها.

وفى عام ١٨١٦م حاولت بريطانيا إخضاع الداى لشروطها وهى فك الأسرى الأوروبيين واحترام قوانين الملاحة وإلغاء «القرصنة» وانضم الأسطول الهولندى إلى الأسطول البريطانى فى تهديد الجزائر لتوافق على تلك الشروط، ونتيجة لرفض الداى هذه الشروط دارت معركة انتهت لغير صالح الجزائر حيث تم إغراق معظم قطع الأسطول الجزائرى وتدمير جزء من تحصينات مدينة الجزائر فاضطر الداى تحت الضغط الحربى إلى إطلاق سراح الأسرى المسيحيين وكانوا من الأسبان والطليان وعددهم حوالى ١٢٠٠ أسير.

وبدأت المؤتمرات الأوروبية تناقش اتخاذ إجراء موحدا ضد عمليات الجهاد البحرى الإسلامى المنطلقة من الجزائر بصفة خاصة وأساسية، وأطلق عليها الأوروبيون اسم القرصنة

فتمت مناقشة الموضوع فى مؤتمر لندن عام ١٨١٦م ومؤتمر «إكس لاشابل» عام ١٨١٨م ولكن الدول الأوربيـة التى لم تتـفق على عـمل مـوحـد اكـتـفت بإنذار الجـزائر للكف عن «القـرصنة» واسترقاق الأوروبيين الأسرى مع التهديد باستخدام القوة.

ويمكن التأريخ لنهاية القوة البحرية للجزائر باشتراك سفن الأسطول الجزائرى فى موقعة نوارين البـحرية - باليونان- مع الأسطولين المصرى والعثـمـانى، ولقيت سفن الجـزائر نفس مصير الأسطولين المصرى والعثمانى وكان هذا إضعافا بحريا واضحا للجزائر ، وتقليلا من وسائل الدفاع عنها أمام المعتدين ، كما كان سببا فى أن تواصل الدول الأوروبية اتهامها للجزائر بالتعصب ضد المسيحيين وفى أن تعمل على القضاء نهائيا على خطر بحريتها فى البحر المتوسط ، متذرعة فى ذلك بضرورة القضاء على القرصنة وضرورة تأمين المواصلات والتجارة فى ذلك البحر، وانتهى أمر الجهاد البحرى باحتلال فرنسا للجزائر عام ١٨٣٠م.

رجال البحر التونسيون

وأما نشاط تونس فى عملية الجهاد البحرى الإسلامى فقد قام على أكتاف قادة الدولة العثمانية أمثال «درغوث باشا» والى ولاية طرابلس الغرب منذ عام ١٥٥٣م والذى شارك فى الدفاع عن تونس ضد الأسبان وضد فرسان القديس يوحنا واستخلص منهم مدينة قفصة عام ١٥٥٦م وبعدها بعامين استخلص مدينة القيروان ، ودخل فى صراع بحرى ضد الأسبا وفرسان القديس يوحنا انتهى باستشهاده أثناء حصاره لجزيرة مالطة.

ولكن عملية الجهاد البحرى الإسلامى الفعلية تحملها رجال البحر الجزائريون . فقد تحمل هؤلاء مسئولية طرد الأسبان من الأراضى التونسية ومهاجمة السفن المعادية المقتربة من السواحل العربية بشمال أفريقيا، حتى إذا انضمت تونس إلى الممتلكات العثمانية عام ١٥٧٤م اعتبرت بكوية تابعة لبك البكوات المقيم فى الجزائر حتى اختار التونسيون أحد رجالهم العسكريين حاكما لولايتهم باسم «الداى» منذ عام ١٥٩٠م بموافقة الحكومة العثمانية، وما لبث اللقب أن تغير ليصبح «الباى» تمييزا عن لقب حاكم الجزائر .

وقد حكمت تونس بايات من الأسرة المرادية من أواسط القرن السابع عشر تلتها الأسرة الحسينية منذ عام ١٧٠٤م والتى ظلت حتى إعلان الجمهورية التونسية المعاصرة عام ١٩٥٧م، ومما يلاحظ على هؤلاء الحكام إهمالهم لسياسة الجهاد البحرى الإسلامى، خاصة وأنهم كانوا من رجال البر لا من رجال البحر، هذا على الرغم من قيام حكام الجزائر وطرابلس الغرب بعمليات جهاد بحرى ضد سفن الدول المسيحية المعادية، بينما اتخذت الدول المسيحية موقفا

عدائيا ضد عمليات الجهاد البحرى الإسلامى وخاصة فى وقت نما فيه القانون الدولى العام مستندا إلى مجتمع الدول الأوروبية المسيحية.

ورغم أن موقع تونس الجغرافى وطبيعة سواحلها على البحر المتوسط تتيح لها مباشرة عمليات الجهاد البحرى، إلا أن نشاط التونسيين فى هذا المجال كان ضئيلا ومن ثم فقدت تونس أسطولها الذى أنشئ فى أول عهد الأسرة الحسينية، حيث بقيت سفن الأسطول راسية فى الموانئ التونسية دون حركة حتى تلفت، وما ذلك إلا نتيجة لاستجابة حكام تونس لضغط الدول الأوروبية المستمر على تونس بدعوى أن الأسطول يعمل فى «القرصنة».

وكما قامت الدول الأوروبية عام ١٨١٥م بالضغط على الجزائر لإيقاف عمليات الجهاد البحرى ضغطت نفس الدول على تونس التى كانت أكثر استجابة من الجزائر لهذا الضغط كما أن الأسطول البريطانى الذى قام بحملة تأديبية على الجزائر عام ١٨١٦م وقد وصل إلى تونس ووجه إليها نفس التهديدات التى وجهها إلى الجزائر ، مع فارق أن الجزائر لم تستسلم للإنذار البريطانى وعمليات الأسطول البريطانى العدائية ضد مدينة الجزائر واستمرت سفن الجزائر تباشر عمليات الجهاد البحرى، بينما نجد أن باى تونس كان أسرع استجابة من داى الجزائر فى الرضوخ للضغط الأوروبى، فسارع بالتعهد للدول الأوروبية بمنع سفن التونسيين من فرض الإتاوة على سفن الأوروبيين ويمنعهم من أسر المسيحيين فى عرض البحر أو حتى فى مياهه الاقليمية (١).

وكان لاستسلام باى تونس هذا نتائج سيئة على تونس وعلى علاقتها بالدولة العثمانية صاحبة السيادة الشرعية على تونس. ذلك أن قوة تونس البحرية ضعفت بل تقهقرت بسرعة حتى أنه عندما طالب السلطان العثمانى مساعدة الأسطول التونسى فى حرب اليونان مع سفن مصر والجزائر وطرابلس الغرب، لم يجد خسرو باشا قبطان الأسطول العثمانى كثيرا من السفن التونسية التى يمكنها مساعدة الدولة فى أزمتها مع اليونان.

كما أثر هذا الموقف المتخاذل لباي تونس على موقف تونس من احتلال فرنسا للجزائر عام ١٨٣٠، بل خضع الباى بسرعة للشروط التى أملتها البحرية الفرنسية عليه، وتعهد بوقف التعرض للسفن الأوروبية وإلغاء عمليات الجهاد وحماية السفن الأوروبية فى المياه الإقليمية لتونس ومنع أسر الأوروبيين واسترقاقهم ، وكان خضوعه هذا فى رأيه حماية لتونس من غزو

١- د. جلال يحيى: المرجع السابق ص٩٢ .

فرنسى مرتقب ، ومع ذلك لم يمنع هذا الخضوع من دخول القوات الفرنسية تونس عام ١٨٨١م وفرض الحماية عليها فى عام ١٨٨٣م.

رجال البحر الطرابلسيون

عاشت طرابلس الغرب قبل مجئ العثمانيين إليها عام ١٥٥١م فى جهاد بحرى ضد القوى الأوروبية المعادية، وقد شهد الحوض الغربى للبحر المتوسط فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر نشاطا بحريا لسفن الدويلات التى تعاقبت على الحكم فى طرابلس الغرب، وكان الصدام الرئيسى مع الأسبان الذين قادوا الحركة الصليبية ضد المسلمين فى شمال أفريقيا وانتهى الأمر باستيلائهم على مدينة طرابلس الغرب عام ١٥١٠م ثم أهدوها لزملائهم فى التعصب فرسان القديس يوحنا عام ١٥٣٥م، الذين بقوا بها حتى انتزعها منهم الأتراك العثمانيون عام ١٥٥١م.

تولى العثمانيون مسئولية قيادة الجهاد البحرى بعد احتلالهم طرابلس الغرب وجعلها ولاية عثمانية، ومن ثم رأينا ولاة طرابلس العثمانيين يقودون أساطيلهم ضد تحالف الأسبان وفرسان القديس يوحنا ، وقد رأينا أن «درغوت باشا» ثانى الولاة العثمانيين يستشهد أثناء حصار أسطوله الذى قاده بنفسه من طرابلس لحصار جزيرة مالطة، وكانت غزواته ضد السفن الأوروبية تأتى له بمغانم كثيرة استخدمها فى إنعاش حياة الطرابلسيين ، وفى بناء المزيد من السفن حتى صار له أسطول ضخم ، وعندما يتهيأ للولاية باشا قوى تستمر عمليات الجهاد البحرى، ذات المردود المشجع للاستمرار فى هذه العمليات . حتى إذا استولى «أحمد القرمانلى» على الحكم فى ولاية طرابلس الغرب عام ١٧١١م وجعل الحكم فيها وراثيا لمدة ١٢٤ سنة تحت السيادة العثمانية اتخذت عمليات الجهاد البحرى سياسة ثابتة عند كل أمير من أمراء الأسرة القرمانلية ، فنجد «أحمد القرمانلى» مؤسس هذا الحكم الأسرى الوراثى يهتم بالأسطول ويعيد له شهرته التى كانت له أيام «درغوت باشا» ويعلن الجهاد البحرى ضد السفن المسيحية الأوروبية وقد كسب من وراء مهاجمته لتلك السفن الأموال والغنائم الكثيرة، وقد أدى تهديده المستمر لسفن الدول الأوروبية إلى إلقاء الرعب فى قلوب الأوروبيين من القوة البحرية الإسلامية القرمانلية فى عهده كما ضمن عدم مهاجمة الشواطئ الطرابلسية من جانب السفن الأوروبية.

وكانت علاقات «أحمد القرمانلى» مع الدول الأوروبية تتسم بالعداء بسبب سياسة الجهاد البحرى القائمة على توجيه سفن الأسطول التى بناها لمهاجمة سفن الدول الأوروبية فى عرض

البحر المتوسط، وفرض على هذه الدول دفع إتاوات تنظمها معاهدات نظير عدم تعرض سفن أسطوله لسفنهم وتجارتهم، وكانت معظم الدول الأوروبية تخضع لشروطه ضمانا لسلامة سفنهم وكانت كل من انجلترا وهولندا من أوائل الدول الأوروبية التي سارعت إلى دفع الجزية المعتادة لقاء عدم مهاجمة سفنها العاملة في البحر المتوسط .

وجاء بعد أحمد باشا ابنه محمد الذى حرص على تحسين علاقاته مع كل من فرنسا وانجلترا لأنهما لم تجاهرا بالعداء للمسلمين كما فعلت كل من أسبانيا والبرتغال ، ورغم ذلك فقد استمر نشاط أسطوله ضد سفن الدول الأوروبية التى ليس بينه وبينها اتفاقات ، فأقلق ذلك الدول البحرية وأسرعت إلى عقد المعاهدات معه لتأمين مهاجمة سفنه ، فتم عقد معاهدة مع حكومة النمسا عام ١٧٤٩م ومع الدانمرك فى نفس السنة ومع انجلترا عام ١٧٥١م ومع فرنسا عام ١٧٥٢م وكانت المعاهدات بين ولاية طرابلس الغرب والدول الضعيفة بحريا مثل النمسا والدانمرك تنص على أن تدفع هذه الدول جزية معلومة للباشا، وأما الدول القوية مثل انجلترا وفرنسا فكانت تمارس الضغط على باشا طرابلس وتقوم بتظاهرات عنيفة فى ميناء المدينة، وأما الباشا فكان يعرف كيف يفرق بين هذين النوعين من الدول فيتقبل هدايا النوع الأول بثقة ويقدم الترضيات للنوع الثانى.

ويصف المؤرخ الطرابلسى المعاصر لتلك الأحداث أحمد النائب الأنصارى عمليات الجهاد البحرى التى قام بها أسطول محمد باشا القرمانلى بقوله: وكان أمراء الأساطيل- يقصد السفن- أصحاب شجاعة وإقدام، وكانوا يهجمون بمراكبهم على الأعداء بسواحل البحر الأبيض فيقتلون ويسلبون . ويعلل النائب عقد الباشا معاهدة مع انجلترا بأنه جاء بعد ضغط من انجلترا نتيجة استمرار الغزوات التى قام بها أسطول طرابلس فى تلك الفترة[1].

وكان محمد باشا القرمانلى حريصا كما ذكرت منذ ولايته على استمرار العلاقات الطيبة بين الولاية والدول الأوروبية واحترام المعاهدات المبرمة بين الطرفين فأعلن ذلك أمام قناصل الدول الأوروبية الذين توجهوا لتهنئته بالولاية حاملين الهدايا فى أيام حكمه الأولى خوفا من نتائج الصدام، إلا أن أعضاء الديوان مارسوا على الباشا ضغطا لكى يستجيب لاستمرار أعمال الجهاد البحرى ضد السفن الأوروبية انطلاقا من أن تلك الأعمال جهاد إسلامى ضد المسيحيين ، وقد استطاع الباشا بصعوبة وبعد معارضة شديدة الحصول من الديوان على

١- أحمد النائب : المنهل العذب ص٢٣١ .

استثناء لسفن فرنسا وانجلترا، وإن كان هذا الاستثناء لم يتحقق بالكامل بسبب قيام السفن الطرابلسية بمهاجمة السفن الفرنسية مما أوقع الباشا فى خلاف مع فرنسا وعندما حاول استرضاءها ثار عليه جند الإنكشارية وخاصة من الألبان والأرناءوط المغامرين .

وتولى بعد محمد باشا ابنه على باشا الأول وله من العمر ثلاث وعشرون سنة وقد أدرك قادة الإنكشارية حداثة سن الوالى الجديد فالتفوا حوله وأمسكوا بزمام السلطة الفعلية فى البلاد ومارسوا سياسة مهاجمة السفن الأوروبية مما أفسد العلاقات بين الولاية والدول الأوروبية، ونتج عن ذلك تعرض مدينة طرابلس لقصف من مدافع السفن الأوروبية.

كما نتج عن الصدام بين الولاية والدول الأوربية حدوث احتكاك بين سفن الولاية وسفن جمهورية البندقية المؤيدة من جانب انجلترا وفرنسا، كان سببه أن سفن الإنكشارية الطرابلسية استولت على سفينتين من سفن تجار البندقية فطلب قنصلها فى طرابلس استردادهما من على باشا، ولم يستطع الباشا تحقيق هذا المطلب لإصرار الجند ولضعفه بينهم، حتى إذا قدم أحد ضباط طرابلس بأسطوله إلى موانئ البندقية غازيا خرج إليه أسطولها واستولى على أسطول طرابلس بعد مقتل قائده ومجموعة من رفاقه، ومن ثم قبل قادة الإنكشارية الإفراج عن سفينتى البندقية لقاء إفراج البندقية عن سفن طرابلس. ومع ذلك لم تتوقف عمليات الجهاد البحرى التى قامت بها سفن ولاية طرابلس الغرب فى عهد على باشا الأول الذى حكم الولاية حوالى أربعين سنة، ورغم المعاهدات بين الولاية الأوروبية وذلك لأسباب كانتشار المجاعة والقحط منذ عام ١٨٦٧م أو تحت ضغط جند الإنكشارية.

الفصل الثانى عشر

الخليج واليمن والأطماع الأوربية

أولا : الجهاد البحرى الإسلامى لعرب الخليج - خبرة عرب الخليج فى الملاحة - القواسم والجهاد البحرى - عرب الخليج الآخرون والجهاد البحرى - المغامرات البحرية. ثانيا: سلطنة مسقط وعمان. ثالثا: الأطماع الأوروبية فى الجزر اليمنية

أولا : الجهاد البحرى الإسلامى لعرب الخليج

نعنى باقطار الخليج العربية الكويت والبحرين وقطر ودولة الأمارت العربية المتحدة وسلطنة عمان، التى ظهرت للوجود كدول مستقلة في عام ١٩٧١م باستثناء الكويت التى سبقت بقية أقطار الخليج العربى في الاستقلال بعشر سنوات.

وفيما عدا سلطنة عمان فقد كانت أقطار الخليج العربى قبل الإستقلال عبارة عن مشيخات قبلية تعيش على ساحل الخليج تعمل فى الصيد والغوص على اللولؤ وركوب البحر للتجارة أو لإرشاد السفن، حتى إذا ظهرت على سطح مياه الخليج سفن تحمل رايات مرسوم عليها الصليب ظهرت عمليات الجهاد البحرى الإسلامى حيث قاد رجال القبائل مراكبهم الصغيرة وكانوا يخرجون في جماعات لمهاجمة تلك السفن الأجنبية.

وكانت عمليات الجهاد البحرى الإسلامى رد فعل لقسوة البرتغاليين فى التعامل مع سكان مشيخات الخليج العربى في القرن السادس عشر ومن ثم انتقل رد الفعل العربى ضد السفن الهولندية ثم السفن البريطانية حتى حدث الصدام بين البريطانيين ومشيخة رأس الخيمة منذ عام ١٨٠٩م ذلك الصدام الذى انتهى بتدمير رأس الخيمة١٨١٩م وفرض معاهدات الهدنة على رأس الخيمة والشارقة ودبى وأبى ظبى وغيرها من المشيخات عام ١٨٢٠م وما بعده.

وقد تحولت هذه المعاهدات إلى ماعرف بالمعاهدات المانعة التى فرضتها بريطانيا على مشيخات الخيلج العربى وكانت تمنع هذه المشيخات من أربعة أشياء هى :

١ - عدم القيام بعمليات الجهاد البحرى أو أية عمليات بحرية تهدد السلم والأمن فى الخليج العربى أو تعوق حركة الملاحة والمواصلات للإمبراطورية البريطانية.

٢ - عدم الاتجار فى السلاح أو إدخاله إلى منطقة الخليج العربى.

٣ - عدم الاتجار فى الرقيق أو جلبه إلى مشيخات الخليج.

٤ - عـدم التنـازل عـن أية قطعة من الأرض من المشيخات لأيـة قوة أجنبية دون موافقة بريطانيا.

تحولت تلك المعاهدات المانعة إلى ماعرف بمعاهدات الحماية التى فرضت على مشيخات الساحل العمانى كما فرضت على سلطنة عمان وعلى قطر والبحرين والكويت، تلك المعاهدات التى ظلت سارية المفعول حتى أنهتها بريطانيا بالاعتراف باستقلال الكويت عام ١٩٦١م، ثم بإعلانها عام ١٩٦٨م بأنها تنوى الإنسحاب من منطقة الخليج العربى وتعترف باستقلال مشيخات الخليج العربى فى موعد لا يتجاوز نهاية عام ١٩٧١م، وبالفعل قامت فى خريف ذلك العالم أقطار الخليج العربى المعروفة والسابق ذكرها وانتهت الحماية البريطانية.

خبرة عرب الخليج فى الملاحة

قد يعتقد البعض أن قبائل شبه الجزيرة العربية على الاطلاق قبائل ذات صفة بدوية تمارس حياتها اليومية فى الصحراء بما تفرضه طبيعة الصحراء من أسلوب لحياة الناس، وهم فى اعتقادهم هذا لايكادون يذكرون تأثير الخليج على القبائل العربية التى تعيش على سواحله ومن ثم فنحن مع القائلين بأن حياة القبائل العربية التى تسكن شواطئ الخليج العربى تختلف إلى حد ما عن حياة القبائل العربية الضاربة فى صحراء شبه الجزيرة العربية، كما أننا مع التسمية التى أطلقت على النوع الأول من القبائل وهى « القبائل البرمائية » تمييزا عن النوع الثانى المعروف بالقبائل البدوية.

وانطلاقا من التأكيد على دور القبائل البرمائية التى عاشت وتعيش على شواطئ الخليج العربى فى بناء حياتها كان لابد أن نشير إلى خبرة هذه القبائل فى الملاحة، تلك الخبرة التى فاقت فى شهرتها حياة القبائل البدوية، بل وساعدت على الاتصال بالعالم الخارجى بينما بقيت القبائل البدوية محصورة في حياة البداوة بكل إيجابياتها وسلبياتها المعروفة بل إن القبائل البرمائية الخليجية تحملت الكثير للدفاع عن مياه الخليج ضد الغزاة ومن هنا نراها كما حملت رسالة الخير خارج نطاق الخليج بالعمل فى نقل المتاجر وقيادة السفن علي امتداد الخليج من ميناء البصرة بشمال الخليج حتى شرق أفريقيا والهند والصين، رأيناها تقف بصلابة ضد هجمات الإستعمار على مياه الخليج وأراضيه.

امتاز عرب الخليج إذن بالقدرة على ركوب البحر والطواف بسفنهم خارج نطاق الخليج وذلك قبل مجيء الاستعمار البرتغالى كأول قوة أوروبية معتدية على المياه العربية الجنوبية واشتهر من عرب الخليج ملاحون شهد لهم الأعداء قبل الأصدقاء بالمهارة في الملاحة وركوب البحر ولعل أشهر هؤلاء الملاحين الملاح العربى الخليجى « شهاب الدين أحمد بن ماجد » الذى ولد «بجلفار» على ساحل عمان والذى قاد سفن « فاسكو دى جاما » المـلاّح البرتغالـى من « مالندى » بشـرق أفريقيا إلـى الهنـد ببراعـة سجلها له « دى جاما ».

وبخبرة أهل الخليج الملاحية شاركوا فى نقل متاجر الهند فى المحيط الهندى والبحر العربى متجنبين القراصنة الهنود الذين اتخذوا من جزر هذا المحيط وذلك البحر مأوى لهم، حتى تصل المتاجر إلى البحر الأحمر فمصر فالبحر المتوسط فأوروبا أو تصل إلى الخليج العربى فالعراق فالشام فالبحر المتوسط إلى أوروبا أى أن عرب الخليج المهرة فى الملاحةوالتجارة ساهموا بدور لا يمكن إنكاره فى رخاء أوروبا وفى تزويدها بمتاجر الشرق،بل وفى بناء الحضارة الأوروبية الحديثة.

حتى إذا جاء البرتغاليون بقوتهم الصليبية ضد كل ما هو إسلامى سواء فى شمال أفريقيا، ثم فى شرق أفريقيا حيث شارك عرب الخليج مع عرب الجنوب فى بناء حضارة عـربية أفريقية ذات مدن مزدهرة مثل « مالنـدى » و « سفالة » و « كيلوة » و « ممبسة» و « دار السلام » وغيرها، وقف عرب الخليج العربى ضد التدمير والعدوان البرتغالى وشاركوا فى معركة « ديو » البحرية عام ١٥٠٩م التى لم يكتب النصر فيها للتحالف الإسلامى بسبب قوة الأسلحة النارية للبرتغاليين.

وتحمل الخليجيون منذ أوائل القرن السادس عشر حتى أوائل القرن العشرين دورهم التاريخى فى مواجهة الغزاة المعتدين على الخليج وأهله سواء كان هؤلاء الغزاة برتغاليون أو هولنديون أو بريطانيون، ورغم عدم التكافؤ بين قوة أهل الخليج الحربية وقوة الغزاة الحربية فإن الخليجيين استخدموا ما يمكن أن نسميه حرب العصابات أو عمليات الجهاد البحرى ضد هؤلاء الغزاة أو العمليات التى امتلأت كتب المؤرخين الأوروبيين وصفا لها بالقرصنة، وكأنما من يدافع عن دينه وأرضه وعرضه ضد عدوان غاشم صليبى يتهم بالقرصنة ويطلب من المجتمع الدولى العمل على محاربته.

وكان البرتغاليون بقوتهم الغاشمة قد نجحوا في الاستيلاء على جزيرة « هرمز » ١٥٠٨م ثم توالى استيلاؤهم على كل من مسقط والبحرين وبقية ساحل عمان ما عدا الاحساء،

واستخدموا الوحشية أسلوبا للتعامل مع عرب الخليج ولا عجب فى ذلك فان البرتغاليين صليبيون متعصبون ضد المسلمين أينما كانوا.

لم يسلّم الخليجيون بالغزو والأستعمار من جانب البرتغال بل قاوموا ما وسعتهم المقاومة وشهدت الفترة من عام ١٦٤٠م حتى عام ١٦٥٠م انحسارا للوجود البرتغالى فى الخليج ساهم فيه الخليجيون بدور أساسى، ومارسوا فيه عمليات الجهاد البحرى وشاركهم أيضا مغامرون أتراك مثل « بيرى بك » و« الريس مراد » و« على بك » الذين وقفوا ضد البرتغال فى الخليج والبحر العربى فى المدة من عام ١٥٥١م حتى عام ١٥٨١م. ومن الإنصاف القول بأن القضاء النهائى على الوجود البرتغالى فى الخليج العربى أسهم فيه بدور كبير الإنجليز والهولنديون عام ١٦٨٩م وإن كان ذلك من أجل مصالح انجلترا وهولندا لا من أجل مصالح عرب الخليج.

تمرس عرب الخليج إذن على عمليات الجهاد البحرى بمقدم الغزاة البرتغاليين، ومن ثم فلن يصعب عليهم بعد جلاء البرتغاليين عن أراضى ومياه الخليج أن يواجهوا القوى الأوروبية التى حاولت أن ترث تركة البرتغال فى الخليج ، ومن المؤسف حقا أن يتسبب الاستعمار فى تحويل عرب الخليج من بناة رخاء وحضارة لأوروبا والعالم بنقلهمْ المتاجر بين الشرق والغرب ونقلهم الثقافات المختلفة، إلى مجاهدين فى البر والبحر دفاعا عن دينهم وأرضهم وعرضهم وحياتهم، ومن ثم يتضاءل دورهم الحضارى العالمى، وهو أمر لا شك فى أنه مخطط من جانب الإستعماريين.

استمرت علاقة عرب الخليج بالبرتغاليين متوترة حتى بعد إجلاء الأخرين من الخليج، فقد استطاع عرب الخليج بحملة بحرية انتزاع مدينة « ممبسة » الأفريقية العربية من أيدى البرتغاليين عام ١٦٦٠ م كما استمرت عمليات الجهاد البحرى للخليجيين ضد سفن البرتغالين فى الخليج العربى والبحر العربى والمحيط الهندى من عام ١٦٩٣ حتى عام ١٧٢٢م، وشهدت مياه الخليج سواء قرب الشواطىء الشرقية الإيرانية أو فى المياه الإقليمية العربية من الخليج معارك، وكانت سفن العمانيين فى مقدمة السفن الخليجية العربية فى تلك المعارك سواء أمام ميناء « كنج » الفارسى أو مقابل « مسقط » العربية، أو عند ميناء ممبسة الأفريقية أو باتجاه مدينة « سورات » الهندية، وإذا لم يكن النصر حليف العرب فى كل تلك المعارك إلا أنهم قاموا بعمليات الجهاد الاسلامى ثأرا من اعتداءات البرتغاليين السابقة على أراضى عرب الخليج.

وعندما جاء الهولنديون إلى مياه الخليج اهتموا بالتجارة أكثر من اهتمامهم بالغزو والاستعمار ، وإن كان هذا لا ينفى أنهم اشتركوا مع الإنجليز فى طرد البرتغاليين من الخليج

العربى، ولعل هذا من أسباب عدم تطبيق عرب الخليج سياسة الجهاد البحرى ضد سفن الهولنديين، ومن ثم مارست تلك السفن نشاطها فضلا عن سفن الإنجليز وبعض المغامرين العرب الكارهين لكل ما هو أوروبى مسيحى .

وأما بالنسبة للإنجليز فقد حرصوا على توفير الأمان لسفنهم العاملة في الخليج العربى وفى البحر العربى والمحيط الهندى لضمان انتقال المتاجر دون عقبات بين انجلترا والهند عبر مياه الخليج العربى والمحيط الهندى، ثم ضمان المواصلات بين انجلترا ومستعمرتها فى الهند التى تكونت فى القرن الثامن عشر، ومن ثم دخلت انجلترا فى منافسة مع الهولنديين للاستئثار بالنفوذ والعلاقات مع عرب الخليج ولحماية التجارة والمواصلات الانجليزية.

وما دمنا قد وصلنا إلى القرن الثامن عشر وإلى بداية السيطرة البريطانية على مياه الخليج العربى فيجدر بنا أن نشير إلى أن عرب الخليج كانت لهم السيطرة على مختلف ألوان النشاط البحرى في مياههم خلال القرن الثامن عشر، حيث مارسوا صناعة بناء السفن والغوص على اللؤلؤ، كما أداروا حركة الملاحة التجارية بين موانى الخليج بعضها وبعض، وبينها وبين موانى شرق أفريقيا والهند، ومن ثم صارت لهم السيطرة على جزر الخليج وعلى أجزاء مختلفة من الشاطىء الشرقي للخليج أيضا.

كما يجدر بنا أن نفرق بين نوعين من العمليات البحرية العسكرية التى قامت بها سفن عرب الخليج، النوع الأول موجه ضد سفن الدول الأوروبية انطلاقا من كراهية العرب لكل ما هو أوروبى بسبب ما لقوه على أيدى البرتغاليين من وحشية وهذا النوع هو ما نسميه بعمليات الجهاد البحرى الإسلامى . والنوع الثانى من تلك العمليات تلك التي تقوم بها سفن عربية ضد سفن عربية أخرى فى الخليج لأسباب عدائية كالتى تحدث فى الصحراء بين القبائل بعضها وبعض أو لمطامع رئيس قبيلة أو تنفيذا لسياسة قوة أخرى أكبر. ومن عجب أن يطلق الكتاب الأوروبيون علي النوعين من العمليات البحرية اسم القرصنة.

وعلي هذا فإننا عند الحديث عن عمليات الجهاد البحرى نجد أن السفن الانجليزية العاملة بالخليج العربى لم تسلم من تلك العمليات على يد السفن العربية، خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فنقرأ قرارا أصدره مجلس مديرى شركة الهند الشرقية البريطانية المنعقد فى لندن إلى وكيل الشركة فى الخليج مانصه : إذا فشلت جميع الجهود المبذولة لقمع اتجاهات القرصنة – يقصد الجهاد البحرى لدى – الإيرانيين والسلطات الأخرى فى الخليج فى تحصيل تعويضات عن الأضرار الناتجة عن القرصنة، فإن عليكم إبلاغ ذلك إلى الرياسة لتعرض الأمر

على قائد الأسطول الملكى في جزر الهند الشرقية لمحاولة الحصول على المعونة فى الظروف والأحوال التى تقتضيها كل حالة بمفردها.

وكان ذلك نتيجة تأثر حركة التجارة الإنجليزية منذ أوائل القرن الثامن عشر بعمليات الجهاد البحرى التى قام بها عرب الخليج والإيرانيين المسلمين، وكان خط الملاحة الرئيسى فى الخليج يسير بمحازاة الساحل الشرقى، ولم تغامر سفينة أوروبية بالتوجه إلى القسم الغربى من الخليج منذ خروج البرتغاليين، وكانت تتجنب دائما هذا الجانب من الساحل لأن القليل هو ما كان يعرف عنه، وكان يعتبر منطقة غير مأمونة.

القواسم والجهاد البحرى

وفى هذا المقام سوف نناقش دور قبيلة القواسم فى العمليات البحرية ضد السفن الانجليزية ، ذلك الدور الذى بدأ عام ١٧٧٨م بهجوم قامت به ست سفن تابعة للقواسم على سفينة انجليزية تحمل رسائل رسمية وأسرها واقتيادها إلى رأس الخيمة، وقيام ثمانى سفن تابعة للقواسم أيضا بمهاجمة السفينة البريطانية « سكسس» وهى فى طريقها من البصرة إلى مسقط فى شهر يناير ١٧٧٩م، ولكن هذه السفينة البريطانية نجحت فى الفرار، كما هاجم أسطول القواسم السفينة « أسستانس » فى فبراير ١٧٧٩م التى لاذت بالفرار والتجأت إلى « بوشهر ».

استمرت عمليات أسطول القواسم ضد السفن البريطانية، فنجح فى أسر السفينة « بكلر بك » المبحرة تحت العلم البريطانى قرب « رأس مسندم » عام ١٧٩٠م، وفي عام ١٧٩٧م هاجمت سفن القواسم السفينة البريطانية « باسين » بالقرب من جزيرة « قيس » وأسروها وقادوها إلى رأس الخيمة، وفى نفس العام هاجم الأسطول القاسمى الطراد البريطانى « فايبر » بينما كان راسيا بالقرب من « بوشهر » وإن كان الطراد قد نجح فى الفرار إلا أنه خسر أكثر من ثلاثين من بحارته.

وخلال تلك العمليات زادت احتجاجات البريطانيين علي عمليات القواسم وزادت تهديداتهم ، ومع ذلك كانوا يلجئون إلى دفع التعويض والفدية المطلوبة أو قبول التبريرات التى يذكرها زعيم القواسم بأنهم مثلا كانوا فى حالة دفاع عن النفس أو أنهم أخطئوا الهدف وأنهم يقصدون سفن العمانيين وغير ذلك من التبريرات، وفي كل الأحوال لجأت السلطات البريطانية إلى حماية السفن التجارية التى ترفع العلم البريطانى بسفن حربية مسلحة.

وعندما صار القواسم حلفاء للدولة السعودية الأولى واعتنقوا عقيدة التوحيد التى دعا إليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وجدوا فى تلك العقيدة ما يوافق عملياتهم البحرية بمهاجمة السفن الأوروبية المسيحية، حيث استندوا إلى مبدأ الجهاد في الدعوة الوهابية فباشروا عمليات الجهاد البحرى فى الخليج باسم الدولة السعودية، وصارت هذه العمليات جزءا من حركة الجهاد وبالتالى فإن الأسلاب تعد غنائم حرب. كما أن هذه العمليات صارت أمرا لازما ضد منكرى تعاليم الوهابية .

ونتيجة لتأييد أمراء الدولة السعودية للقواسم، مد هؤلاء نشاطهم البحرى إلى المحيط الهندى حيث ظهرت سفنهم أمام ساحل « الملبار » شمال « بومباى » عام ١٨٠٨م، وتعرضوا للسفن الأوروبية وغيرها فى إطار الجهاد الدينى حتى وصفهم الأوروبيون بأنهم يعطون مبررات دينية لكل عمل حربى يقومون به ضد السفن المعادية، وكان القواسم يرسلون خمس الغنائم التى يحصلون عليها من عملياتهم البحرية إلى السعوديين تأكيدا لايمانهم بدعوة التوحيد ودليلا على تبعيتهم لآل سعود.

ورغم عقد معاهدة بين بريطانيا والقواسم عام ١٨٠٦م إلا أن الخليج شهد منذ عام ١٨٠٨م نشاطا بحريا للقواسم بتولية زعيمهم الجديد « حسين بن على » امتد حتى هدد سواحل الهند نفسها، بل وأخذ القواسم بقيادة زعيمهم يطوفون فى المياه العربية بأعداد من سفنهم تراوحت بين خمسة وعشرين سفينة يقود كل منها قائد مسئول أمام زعيمهم، وقد أقلقت هذه العمليات انجلترا المرة بعد المرة حتى بدأت تفكر فى اتخاذ إجراء لوقف القواسم عن مهاجمة السفن البريطانية.

فقد عززت بريطانيا حراسة مصالحها في الخليج العربى بعدة سفن حربية وطرادات تحمل مدافع متعددة، ومع ذلك تمكنت سفن القواسم من أسر عشرين سفينة تجارية هندية ترفع العلم البريطانى أواخر عام ١٨٠٨م وأوائل عام ١٨٠٩م في البحر العربى والمحيط الهندى، وقد أدى هذا النجاح إلى مزيد من الجهاد البحري قامت به سفن القواسم فى الخليج العربى والمحيط الهندى، فهاجمت ٥٥ سفينة للقواسم بالقرب من رأس مسندم سفينة تجارية ضخمة انجليزية تدعى « منيرڤا » فى مارس ١٨٠٨م حيث تم أسرها ومن عليها وضمها إلى أسطول القواسم، ثم أطلق القواسم أسر البحارة لقاء جزية.

وقد بلغت جرأة القواسم حدا جعلهم يهاجمون سفينة البحرية الملكية البريطانية الضخمة ذات الخمسين مدفعا خلال عام ١٨٠٩م. وكانت عملياتهم تقوم على محاولة الأسر بواسطة

الاقتحام، فتحاول سفنهم المناورة من أجل الاقتراب من الهدف لتلتصق به وعندها يندفع مقاتلوهم إلى سطح السفينة المعادية مرددين عبارة اللهّ أكبر، وكانت قوة القواسم قد وصلت إلى ٦٣٠ سفينة كبيرة و ٨١٠ سفينة أصغر حجما، وعدد الرجال العاملين على هذه السفن ٨٫٧٠٠ رجل، استند عليهم زعيم القواسم فى مطالبة حكومة بومباى بدفع إتاوة من أجل السماح للسفن البريطانية بالمرور في الخليج بحرية.

قررت بريطانيا التدخل ضد نشاط القواسم البحرى فجهزت ١٣ سفينة حربية محملة بالمدافع والمعدات العسكرية وعددا من الجنود والضباط يقدر بحوالى ألف وخمسمائة رجل حملتهم ٤ سفن حاملة جنود، وأعطى قائد الحملة التعليمات اللازمة من أجل تدمير القوة البحرية للقواسم وبعدها عليه عقد معاهدة مع القواسم لفرض الشروط البريطانية على أن يتجنب الصدام مع الدولة السعودية حليفة القواسم.

وفى ١٢ نوفمبر ١٨٠٩م بدأت عمليات الإنجليز ضد مدينة رأس الخيمة حيث مكث ضر ب المدينة ثم الاستيلاء عليها والجلاء عنها بعد يومين أمام مقاومة القواسم، وبعد ذلك توجه الإنجليز فاستولوا علي « لنجة » و « لافت » التابعتين للقواسم ثم عادت الحملة البريطانية إلى مسقط، وسجل قادتها ما يعتبر أحسن شهادة على بطولة القواسم وما يؤكد أن القواسم وإن خسروا معارك حربية فانهم لم يخسروا روحهم المعنوية ولن يتوقفوا عن سياسة الجهاد البحرى، حيث سلمت من التدمير معظم سفنهم التى اختبأت في الأخوار والخلجان العميقة فى الجانب الغربى من شبه جزيرة مسندم.

ومع ذلك ما كاد عام ١٨١٢م يبدأ حتى عادت السفن القاسمية إلى مهاجمة السفن الإنجليزية أو تلك التى ترفع العلم البريطانى ، حيث أصبح القواسم من جديد أقوى قوة علي طول خطوط الملاحة في الخليج العربى . كما ظهرت سفن القواسم مرة أخرى أمام شواطىء الهند أواخر عام ١٨١٣ وأوائل عام ١٨١٤م حيث تم أسر عدة سفن ترفع العلم البريطانى، وعندما احتج المقيم العام البريطانى فى « بوشهر » رد زعيم القواسم « حسن بن رحمة » فى مايو ١٨١٤م بأنهم لم يأسروا أية سفينة تحمل ترخيصا بريطانيا، وأنه فى حالة وقوع مثل ذلك فإنهم على استعداد لإعادة البضائع، وأنه قد أصدر تعليماته إلى رجال قبيلته بعدم التحرش أو الإقتراب من أية سفينة تبحر تحت العلم البريطانى.

وفى أكتوبر ١٨١٤م عقد القواسم مع المقيم العام البريطانى في الخليج معاهدة نصت علي تناسى أحداث الماضى بين الطرفين وأن يحترم القواسم العلم البريطانى فلا يهاجموا السفن

التى تحمله، وأن يسمح القواسم للرعايا البريطانيين بالنزول والتجارة فى موانيهم وأيضا للسفن البريطانية، وأن ترفع سفن القواسم أعلاما مكتوب على كل منها « لا إله الا الله محمد رسول الله » وأن يعيد القواسم ما يغتنموه من السفن الأخرى ويخص الرعايا البريطانيين إلى أصحابها.

وقد ظلت هذه الاتفاقية سارية لمدة عام حيث لم يقم القواسم بمهاجمة السفن التى تحمل العلم البريطاني، ولكن ما كاد عام ١٨١٥م ينتصف حتى عادت سفن القواسم إلى سابق نشاطها ضد السفن الأجنبية حتى ولو رفعت العلم البريطاني، كما شهد العام التالى ١٨١٦م نشاطا متزايدا ضد السفن الأجنبية وامتد نشاطهم حتى المحيط الهندى والبحر الأحمر إلى جانب الخليج العربى، وشملت السفن التى هاجمتها سفن القواسم سفن أمريكية وفرنسية فى المحيط الهندى، وثلاث سفن هندية ترفع العلم البريطانى عند مدخل البحر الأحمر في مارس ١٨١٦م.

حاول الانجليز الرد على عمليات القواسم البحرية بمظاهرة بحرية لكنهم فشلوا حيث أكد زعيم القواسم أنهم لم يهاجموا أية سفينة انجليزية ولم يستولوا إلا على ممتلكات تعود للهندوس ووثنيين آخرين من الهند، وأنهم يحترمون اتفاقهم مع الإنجليز. وقد زاد فشل المظاهرة البحرية البريطانية أمام جرأة القواسم وازدياد نشاطهم مما دفع الانجليز إلى مهاجمة مدينة رأس الخيمة في عام ١٨١٩م وعندما نجحوا في النزول إلى البر بعد تدمير المدينة فرضوا على زعماء القواسم معاهدة صارت أساسا لمعاهدات أخرى وقعها مشايخ الخليج. ثم وفد على معسكر الحملة زعماء الشارقة سلطان بن صقر، ووالد شيخ أبو ظبى المعروف طحنون بن شخبوط الفلاحي، وشيخ دبى القاصر محمد بن هزاع، وشيوخ عجمان وأم القيوين وجزيرة الحمراء. وبحث معهم قائد الحملة عقد معاهدة لأنهاء نشاط الجهاد البحرى. ومن عجب أن هذه المعاهدات التى وقعها هؤلاء الزعماء جميعا فى شهر يناير ١٨٢٠م صارت الأساس الذى ارتكزت عليه الهيمنة السياسية والإقتصادية البريطانية على أقطار الخليج العربى، وتحددت علاقات بريطانيا بهذه المعاهدات باعتبارها جزءا لا يمكن الاستغناء عنه من امبراطوريتها في الهند.

عرب الخليج الآخرون والجهاد البحرى

فإذا كان شهر فبراير ١٨٢٠م قد شهد انتهاء العمليات العسكرية البريطانية ضد القواسم وبقية موانى الساحل العمانى التى تنطلق منها سفن الجهاد البحرى، فقد اتجهت الحملة البريطانية إلى بقية موانى الخليج التى شاركت سفنها في مهاجمة السفن الإنجليزية، ولم يكن عسيرا عليها إتمام هذه المهمة، لكن رغم المعاهدات التى كبلت زعماء القبائل العربية فإن النشاط البحرى لم يتوقف تماما.

ومما تجدر ملاحظته أن البريطانيين حين اصطدموا بالقواسم ادعوا أن ذلك من أجل القضاء على عملياتهم البحرية (القرصنة) ضد الملاحة في الخليج العربى، ولكن الدافع الحقيقى للموقف البريطانى يظهر من خلال شكاوى ممثلى شركة الهند الشرقية البريطانية في الخليج التى أنصبت على استيائهم من منافسة التجار العرب لهم، ومن ثم استندت السلطة البريطانية على الادعاءات المتمثلة في محاربة القرصنة ومحاربة تجارة الرقيق وهى تهدف فى الأصل إلى القضاء على التجارة والملاحة العربية لأن معاهدات سنة ١٨٢٠م بين بريطانيا ومشايخ ساحل عمان كانت تمنع اشتباك سفن العرب بالسفن البريطانية أو تلك التى تحمل أعلاما بريطانية، وأن هذه المعاهدات لم تقصد منع الاشتباكات بين سفن المشيخات العربية المختلفة فيما بينها.

ورغم معاهدات ١٨٢٠م بين بريطانيا من ناحية ومشيخات الساحل العمانى من جهة أخرى فقد حدثت عمليات جهاد بحرى قامت بها سفن عربية ضد السفن الإنجليزية كتلك التى حدثت للسفينة البريطانية المسماه « سنبرى » فى ميناء الشارقة عام ١٨٢٩م استولى العرب على حمولة هذه السفينة وإن كان شيخ الإمارة قد اقتص من المشاركين فى هذه العملية بحرق أحد قواربهم المشترك فى الحادثة وجلد صاحبه.

كما حدثت عملية جهاد بحرى أخرى فى أبريل ١٨٣٥م بين ست سفن تابعة لعرب « بنى ياس » وسفينة حربية بريطانية تدعى « الفينسون ». لم يكن النصر النهائى فيها للسفن العربية مما أجبرهم على قبول الشروط البريطانية المجحفة والتى تمثلت في التعهد بتسليم ١٥ سفينة كانوا قد استولوا عليها وما بقى من حمولتها، أن يدفعوا مبلغ ١٠ آلاف دولار كتعويض نقدى والتعهد بدفع مبلغ إضافى قدره ١٦٠٠ دولار، وإطلاق سراح جميع الأسرى الذين كانوا قد أسروهم، وتسليم رجلين من رجال القبيلة تزعما العملية البحرية.

أخذت السلطات البريطانية تستعرض قوتها البحرية فى الخليج بظهور السفن الحربية فى دوريات مستمرة وزيارة موانى الخليج . وفرض ما عرف بنظام الهدنة البحرية والتى تحظر على سائر مشايخ الساحل العمانى ورعاياهم القيام بعمليات جهاد بحرى أو مغامرات بحرية وتعاقب من يقوم بها وقد اقتصرت تلك المعاهدات فى أول الأمر على موسم الغوص علي اللؤلؤ ثم زادت لتظل سارية لمدة سنة تتجدد، وأخيرا وفى عام ١٨٤٣تجددت لمدة عشر سنوات مرة واحدة.

ورغم أن نظام الهدنة أصبح سارى المفعول منذ عام ١٨٣٥م إلا أنه لم يشمل كل سواحل الخليج، ومن ثم وجدنا عمليات الجهاد البحرى تستمر في المشيخات التى لم تدخل فى ذلك النظام مما دفع أسطول البحرية البريطانى إلى ضرب مدن الدوحة والوكرة والعديد عام ١٨٣٦م بسبب قيام سفن عربية من تلك الموانى بعمليات جهاد بحرى ضد السفن البريطانية والهندية التى ترفع العلم البريطانى. وتجددت اعتداءات البحرية الإنجليزية ضد الدوحة عام ١٨٤١م.

وعندما صار نظام الهدنة البحرية دائما بمعاهدة جديدة وقعها مشايخ الساحل العمانى وضمنتها السلطات البريطانية قلت إلى حد كبير عمليات الجهاد البحرى ولم نسمع عن عمليات كبيرة كالتى كانت تحدث قبلا. بل وجدنا فى الوثائق البريطانية تعبير الاضطرابات البحرية بدل تعبير « القرصنة » ومع ذلك حدثت عمليات فردية معظمها ضد السفن الهندية كتلك التى حدثت أمام ساحل الاحساء أواخر عام ١٨٥٤م كانت نتيجتها تدمير السفن العربية المشتركة فى هذه العملية، وتلك التى حدثت عام ١٨٥٥م فى الشارقة ضد سفينة من بومباى وأيضا فى عام ١٨٥٦م وعام ١٨٦٠م فى أبو ظبى. وفى كل تلك الحالات حصلت السلطات البريطانية على تعويض لمستحقى السفن التى هوجمت كما تم توقيع العقاب على العرب المشاركين فى تلك العمليات.

ومنذ معاهدات عام ١٨٢٠م بين السلطات البريطانية ومشايخ الساحل العمانى، جعلت تلك السلطات من نفسها رجل بوليس فى الخليج يستخدم القوة لحماية مصالحه هو ويدعى أنه فى خدمة أهل الخليج والملاحة بل والمثل الإنسانية عامة. فنجد هذا الوصف للسلطات البريطانية يتجلى بوضوح فى مشروع « الكولونيل بيلى » المقيم السياسى البريطانى فى الخليج الذى قدمه لحكومة بومباى البريطانية عام ١٨٦٣م بهدف تثبيت النفوذ البريطانى وانفراده في الخليج العربى.

وجاء في هذا المشروع أن هدف التواجد البريطاني – من خلال مقيمية سياسية – فى الخليج هو مكافحة « القرصنة » ومحاربة تجارة الرقيق، وتنمية التجارة « البريطانية بالقطع » وأن عملية « القرصنة » قد تم كبح جماحها إلى حد كبير وإن كان الأمر يتطلب استمرار المراقبة من جانب الأسطول البريطاني. أما تجارة الرقيق فمازالت قائمة. ومن ثم فهو يطلب جعل مقر المقيمية البريطانية فى « رأس مسندم » بدل « بوشهر ». حتى يمكن السيطرة على مدخل الخليج فيمكن منع السفن المحملة بالرقيق من دخول الخليج، وكذلك السيطرة على عمليات الجهاد البحرى للعرب الخليجيين، وبالتالى مد النفوذ البريطانى فى شبه جزيرة العرب من ناحية وفى إيران من ناحية أخرى .

وثمة عمليات جهاد بحرى قامت رغم مظاهر القوة البريطانية فى الخليج من أمثال تلك العمليات هجوم سفن عربية على سفينة البريد التجارية البريطانية المسماة «كشمير» أثناء إلقاء مراسيها فى البصرة عام ١٨٧٢م وسلب ماعليها وقتل بعض رجالها وإن كانت السلطات البريطانية قد تمكنت من استعادة أغلب ما سلب على يد المهاجمين وكانوا من عربستان وإعدام سبعة من هؤلاء المهاجمين.

كما شهدت مياه إقليم الإحساء عمليات جهاد بحرى خلال أعوام ١٨٧٨م إلى ١٨٧٩م، ولم تستطع السفن البريطانية العمل فى تلك المياه لأن هذا الإقليم كان بصفة رسمية خاضعا للسيادة العثمانية وإن كانت سفينة بريطانية قد استطاعت أسر سفينة عربية خارج مياه القطيف عام ١٨٧٩م . كما شهدت مياه شط العرب عام ١٨٨٠م عملية ضد البريطانيين كان من ضحاياها المشرف على محطة البرق البريطانية فى « الفاو » . وقد تمكنت السلطات البريطانية من تحصيل التعويضات اللازمة وحملت شيخ المحمرة – على الساحل الإيرانى – على توقيع عقوبات شديدة ضد بعض أهله المسئولين عن مثل تلك العمليات.

وحينما استمرت عمليات الجهاد البحرى في مياه الأحساء أصدرت السلطات البريطانية أمرا عام ١٨٨١م لقائد بحريتها فى الخليج بدخول تلك المياه وتعقب السفن العربية وعدم التقيد بمسألة السيادة العثمانية ومن ثم ظلت هذه المنطقة هادئة حتى عام ١٨٩٩م حينما حدثت عملية بحرية عربية كبيرة قادها أحد أعضاء الأسرة الحاكمة فى البحرين والذى أفلت من المطاردة البريطانية، واستمرت تلك العمليات بدرجات متفاوتة حتى عام ١٩٠٥م سواء أمام ساحل الأحساء أو على سواحل قطر.

وفى عام ١٩٠٠م شهد شط العرب نشاطا بحريا كبيرا كان موجها بالدرجة الأولى ضد

السفن الإنجليزية والهندية ، إلى جانب إغارات متفرقة ضد سفن إيران والبحرين ولما كان شط العرب تحت سيطرة كل من إيران وتركيا - كل على جانب - فقد حاولت السلطات البريطانية مع هاتين الدولتين لكى تضمن تعاونهما ضد من يقوم بتلك العمليات البحرية كما قامت السفن البريطانية نفسها بعمليات حربية ضد السفن العربية فى تلك المياه وحصلت السلطات البريطانية من شيخ المحمرة على وعد بإيقاف القائمين بتلك العمليات من بين عشيرته.

وشهدت سواحل قطر عمليات جهاد بحرى استاءت لها السلطات البريطانية وحاولت أكثر من مرة ضرب مدن قطر. كما هددت بالضرب وقامت بمظاهرات بحرية لإرغام الشيخ جاسم بن محمد آل ثانى ومنذ عام ١٩٠٠م على التعاون معها للقضاء على القائمين بتلك العمليات البحرية من السواحل القطرية، ومع ذلك لم تستطع السلطات البريطانية السيطرعلى الساحل إلا بعد فرض الحماية على قطر عام ١٩١٦م، وذلك بسبب عدم تعاون شيوخ قطر تعاونا كاملا مع السلطات البريطانية فى فرض السيطرة على القبائل التى تعيش على الأرض القطرية.

المغامرات البحرية

إن موضوعنا يستلزم الإشارة إلى تلك العمليات التى قامت بها سفن عربية ضد سفن عربية أخرى، تلك العمليات التى أطلقنا عليها اسم الحروب البحرية بين القبائل العربية أو المغامرات البحرية للعرب.

ذلك أنه حدثت بين القبائل العربية الخليجية حروب شهدتها مياه الخليج كما شهدتها صحاريه، أى أن هذه الحروب امتدت من الداخل إلى الساحل ومن الأرض إلى البحر فهى إذن حروب لها أسبابها التى أهمها الصراع حول الامتلاك سواء للأرض أو للمياه خاصة لأماكن الغوص على اللؤلؤ. ومن هنا لا يمكن أن نطلق على تلك العمليات اسم « قرصنة » لأن « للقرصنة » مفهوم آخر وليس لها من أسباب سوى الرغبة فى السلب والنهب وتتجه فى الغالب نحو السفن الأجنبية كما رأينا.

ولعل قائل يقول بأن السفن العربية التى كانت تغير على بعضها البعض كانت تخرج من هذه الإغارات بمغانم وأسلاب، فهى لا تفترق عن عملية القرصنة إذن . ولكننا نرد عليه بالقول أن الحروب المعلنة تعطى للمنتصر حق الحصول على مغانم من العدو بل وأسرى، وهى حروب رسمية بين طرفين يختار أحدهما أو كليهما مكانها ويحدد زمانها. بينما عمليات القرصنة غير مشروعة لأنها عدوان لا مبرر له وهى سرقة فى الظلام.

وفى هذا المجال سوف نسوق عدة أمثلة على صحة ما ذهبنا إليه، وهو أن العمليات البحرية التى قامت بها سفن عربية فى الخليج ضد أخرى عربية أيضا كانت حربا أو مغامرات فى أقل القليل منها ولم تكن أبدا قرصنة لندرك ما رمى إليه المغرضون حين ساووا فى الوصف بين تلك العمليات وبين العمليات الموجهة ضد السفن الأجنبية المعادية.

يمكن التأريخ لتلك الحروب البحرية بين السفن العربية بعضها وبعض بدخول القواسم فى دائرة النفوذ السعودى واعتناقهم لمبدأ التوحيد الذى دعا إليه الإمام محمد بن عبد الوهاب، ذلك أن القواسم اعترفوا بسيادة الدولة السعودية على ساحل عمان أواخر القرن الثامن عشر، وصاروا أتباعا لتلك الدولة يطبقون مبادئها، ومن ثم اعتبر القواسم عملياتهم البحرية ضد السفن العربية الخارجة على الوهابية جزءا من حركة الجهاد وبالتالى فإن الأسلاب تعد غنائم حرب وعليها تأدية خمسها إلى الحاكم الشرعى أى رئيس الدولة السعودية. وقد كانت معظم تلك العمليات موجهة ضد سفن سلطنة مسقط وعمان منذ أوائل القرن التاسع عشر.

كما حدثت تلك العمليات بين القواسم وبنى ياس منذ عام ١٨١٢م ، وعندما استطاع الإنجليز القضاء على قوة القواسم البحرية وفرضوا عليهم معاهدة عام ١٨٢٠م انضم مشايخ الساحل العمانى للمعاهدة التى فرضت عليهم عدم القيام بعمليات بحرية ضد أية سفينة بالخليج وأن تسوى القبائل المتعاهدة الخلافات الداخلية فيما بينها، وأن تخضع السفن العربية لتفتيش السفن البريطانية، وأن تتعاون القبائل فى محاربة القبيلة التى تخرج على هذه الشروط.

كما نصت اتفاقات الهدنة التى صارت دائمة منذ عام ١٨٥٣م على أن يتعهد مشايخ القبائل العربية الخليجية باحترام أمن الملاحة فى الخليج ويقدم هذا التعهد للمقيم العام البريطانى في الخليج وأن يقبل الرؤساء العرب بمقتضى هذا النظام الأحكام التى تصدرها بريطانيا في حالة نقض الهدنة. ثم صارت بريطانيا حكما مستديما تفرض الغرامات على القبائل العربية التى تهاجم سفنها سفنا أخرى ومع أن هذا لا يعطى لبريطانيا حق التدخل إلا فى الاشتبكات البحرية فإنها كانت تتجاوز اختصاصها فى كثير من الأحيان وتفرض وساطتها فى مشكلات تتعلق بالمناطق الداخلية.

ولقد نشطت عمليات الحرب البحرية بين سفن البحر الحربية العربية بعضها وبعض خاصة فى منطقة الأحساء والبحرين وباتجاه سواحل قطر، لأن تلك المياه لم تشملها اتفاقات الهدنة ، وقادت قبائل بنى هاجر والعجمان وبنى مرة والمناصير وغيرهم تلك العمليات، ونجد فى كتاب

دليل الخليج شكاوى من بعض الملاحين المسلمين مقدمة للمقيم السياسى البريطانى بالخليج ضد سفن قبائل عربية خليجية لأنها هاجمت سفنهم واستولت على ما فيها، وقد كثرت هذه الشكاوى خلال أعوام ١٨٦٥ - ١٨٧٠م بصفة خاصة.

كما انتقلت الحرب البرية بين قطر والبحرين وبين قطر وأبو ظبى إلى الميدان البحرى وصارت عملية مهاجمة سفن أى من الطرفين لسفن الطرف الآخر أمرا عاديا بحكم الحرب والعداء بين هذه الأطراف، وشهدت السنوات الباقية من القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الأولى عمليات حربية فى البحر بين سفن عربية تابعة لمشيخة أو قبيلة وسفن عربية أخرى تابعة لمشيخة أو قبيلة أخرى.

ومما شجع على استمرار هذه العمليات وانتقالها من البر إلى البحر ضعف الحكم التركى فى الأحساء وقطر، وقيام النزاعات القبلية ودخول القبائل فى عمليات ثأرية، كالنزاع بين « بنى على » وقبيلة « العمامرة »، وكانت نتائج تلك العمليات الأخلال بالأمن وإشاعة الفزع فى مغاصى اللؤلؤ مما كان له أكبر الأثر على حركة التجارة العربية فى الخليج وقد فرضت انجلترا نفوذها بالقوة فى الخليج لم تعد فى وسع السفن الشراعية العربية منافسة السفن الأوروبية، ومن ثم صارت مشيخات الخليج فى حاجة دائمة للمساعدات الخارجية، وقد ضمنت انجلترا هذه الحاجة لكى تحكم قبضتها على مشيخات الخليج .

ومما هو جدير بالذكر أن القبائل الخليجية لم تكرس كل نشاطها للعمليات الحربية البرية والبحرية، بل أنها ساهمت بدور فعال سواء كانت قبائل الساحل العمانى أو قبائل قطر والبحرين والكويت، وعرب سلطنة مسقط وعمان، فى أعمال الغوص على اللؤلؤ وفى نقل التجارة بين الهند والخليج وشرق أفريقيا.

ولا يمكن استكمال الموضوع دون ذكر بعض الحقائق عن نشاط غير العرب أوروبيين وهنود - فى عملية القرصنة فى المياه الهندية والعربية والأفريقية لتتضح لنا الصورة كاملة بين ما يدعيه المؤرخون المغرضون عن « القرصنة » العربية وبين حقيقة القرصنة الأوروبية التى اتخذت لها نشاطا فى مياه المحيط الأطلنطى.، نسوق الآن فصلا من عملياتها فى المياه الهندية والعربية.

يروى لوريمر فى كتابه دليل الخليج عن حدوث نزاع بين الانجليز والمغول فى الهند نتيجة أعمال القراصنة الأوروبيين وغيرهم خلال الأعوام من ١٦٩١ - ١٧٠٥م فيذكر أنه في عام ١٦٩١م قامت سفينة انجليزية بعملية قرصنة ضد السفن الهندية مما دفع بسلطان المغول إلى

فرض حظر على كل السفن الأوروبية في « سورات » وأنه وجد قرصانا دانيمركيا يعمل فى المياه الهندية.

وتعددت عمليات القرصنة الأوروبية سواء في المياه الهندية أو فى مياه الخليج العربى، ومن عجب أن نجد معظم القائمين بها انجليز يستخدمون سفنا تحمل العلم الإنجليزى حتى اتفقت الدول الأوروبية فيما بينها عام ١٦٩٨م على أن تضمن انجلترا تطهير المياه الهندية من القراصنة، وتتحمل مسئولية حماية الملاحة فى الخليج العربى من القراصنة، كما تقوم هولندا بمتابعة القراصنة فى البحر الأحمر.

ولم تذكر المصادر أن الأوروبيين أبرياء من هذا العمليات، بل أن المصادر الأوروبية تذكر أن المغامرين الأوروبيين هم الذين شجعوا بعض المغامرين العرب من مسقط وبعض الهنود على القيام بتلك العمليات، بل إن المصادر نفسها تذكر أن سفنا تحمل العلم البريطانى تهاجم سفنا تحمل هى الأخرى العلم البريطانى حتى صار الإنجليز مكروهين فى تلك المياه كراهية البرتغاليين فى الهند.

ورغم محاولات الحكومة الانجليزية المساهمة فى القضاء على القراصنة في المياه الهندية والعربية، كما حدث عام ١٧٠٠م حين أعدمت تسعة من القراصنة الإنجليز ورئيسهم، فإن التجارة قد تأثرت بتلك العمليات حتى أن تقارير المسئولين الانجليز فى الخليج ذكرت أن ظهور قرصان انجليزى واحد فى مياه الخليج قد أضر بالتجارة الانجليزية إضرارا بالغا.

ثانيا : سلطنة مسقط وعمان

مقدمة

تعتبر سلطنة عمان من أقدم الكيانات السياسية فى منطقة الخليج، ومن ثم كانت لها شخصيتها العربية المنبثقة من هويتها الإسلامية القوية، كما كانت لها علاقاتها الدولية مما أعطاها مكانة دولية، وقد نشط أهلها في مجال ركوب البحر بخبراتهم الملاحية سواء للتجارة مع الهند وجنوب آسيا، وللتجارة مع شرق أفريقيا، وسواء لإرشاد السفن التى تمخر عباب المحيط الهندى مركز تجارة التوابل وأوروبا عبر الخليج وعبر البحر الأحمر..

وحتى نفهم الدور الحضارى لسلطنة مسقط وعمان فى مراحل تاريخها الإسلامى والحديث لابد أن نتحدث عن جغرافية عمان وعرض سريع لتاريخها.

جغرافية عمان :

تقع عمان فى أقصى الجنوب الشرقى لشبه الجزيرة العربية وتبلغ مساحتها حوالى ثلاثمائة ألف كيلو متر مربع، وسطحها يتميز بوجود سلاسل جبلية تمتد من رأس مسندم في الشمال وتتخللها أودية وبقاع خضراء إلى جانب سهل الباطنة الساحلى الخصب، وتكسو الخضرة أيضا الجبل الأخضر الذى تكثر به الأشجار المثمرة، وتمتد الجبال من رأس الحد فى الشمال الشرقى لتلتقى مع السلاسل الجبلية الممتدة من رأس مسندم.

ويحتل موقع عمان أهمية استراتيجية حيث تسيطر على مدخل الخليج العربى عند رأس مسندم، هذا المدخل الذى يعرف بمضيق هرمز الذى يتحكم فى مدخل الخليج العربى وارتباطه بالمحيط الهندى وتشارك إيران فى التحكم فى هذا المدخل، وبذلك تكون إيران قريبة جدا فى موقعها من عمان، إلى جانب قرب عمان من الهند التى تشارك عمان فى الإشراف على المحيط الهندى ..

ولعمان شاطىء طويل يبلغ عبر خليج عمان حوالى ألف ميل، وتكثر فيه الموانى مثل صحار وبركاء والسيب وخابرة ومسقط وقريات وصور ودقم، كما تمتلك عمان عدة جزر أهمها جزيرة مصيرة وجزر كوريا موريا الواقعة فى بحر العرب وتقع فى مواجهة برحكمان بالقرب من جعلان وقد لعبت الموانى والجزر دورا فى علاقة عمان بأقطار الخليج العربية وغير العربية وبشبه القارة الهندية عبر التاريخ ..

وتنقسم عمان إلى خمس مقاطعات هى : الباطنة ومركزها صحار، والشرقية ومركزها سمد، والظاهرة ومركزها غبىّ قرب عبرى، وسير ومركزها نزوى، والجوف ومركزها البريمى ..

ويعيش سكان عمان فى تنظيم قبلى يرجع أصله إلى قبائل قحطان اليمنية التى سكنت جنوب الجزيرة العربية والتى يمثلها بنى هينا أو الجانب الهناوى، وإلى قبائل نزار العدنانية أو القيسية التي هاجرت من شمال غرب الجزيرة العربية والتى تمثلهاقبائل بنى غافر أو الجانب الغافرى، وتنقسم القبائل فى شمال عمان إلى بدو وحضر، وهو التقسيم التقليدى فى المجتمعات العربية، وإلى جانب هينا وبنى غافر توجد قبائل بنو رواحة التى تسكن فى وادى سمايل التى ينتمى شيوخها إلى عائلة الخليجى، وبنى خروص التى تسيطر على واد رئيسى فى المرتفعات الوسطى، كما تتحكم فى المدخل الشمالى للجبل الأخضر، وقبيلة المعاويل فى الوادى الخصب المسمى باسمها (وادى المعاويل)، قبيلة الهوازنة التى تسيطر على واديها (وادى الهوازنة) الذى يشكل معبرا يمكن من خلاله اجتياز الجبال من الشمال إلى الجنوب،

وقبيلة الحرث التى تسكن منطقة الشرقية الواقعة جنوب وادى سمايل، هذا إلى جانب قبيلة العوامر التى تبنى وتصون شبكة الأقنية المسماة بالأفلاج، وبنى بوحسن وبنى بوعلى، وبنى خالد بالشرقية أيضا، وقبيلة بنى كعب ومركزها مدينة « مهاضة » في منطقة الظاهرة، وقبيلة دورو التى تقطن المنطقة الواقعة جنوب وشرق عبرى وقبيلة حاتم، وقبيلة بنى بطاش التى تسكن في المنطقة الواقعة جنوب مسقط، وقبيلة بنى جابر وموطنها وادى سمايل وعلي طول ساحل الباطنة وقبائل وهيب والهراسيس والجنايا إلى الجنوب من الشرقية، وقبيلة البوسعيد ومقرها مدينة أدم على طرف الصحراء وفى ظفار تسكن قبائل المهرة والكثير والقراس وشيحو..

وينقسم سكان عمان إلى خمسة أقسام من حيث النشاط الأقتصادى الأجتماعى هى سكان المدن الساحلية مثل مسقط ومطرح وصحار وصور وغيرها من المدن التى يعيش سكانها على التجارة وصيد الأسماك والأسفار البحرية، والسكان الذين يعتمدون على الزراعة وسقايتها من الآبار وهم سكان الساحل فى منطقة الباطنة، وسكان المدن الذين يعرفون بأسم الحضر وهم أهالى نزوى والرستاق وسكان القرى الرئيسية فى داخل البلاد الذين يعتمدون على الزراعة وفلاحة الأرض وعلى نظام السقاية المعروف بالأفلاج، والبدو الذين يسكنون السهول الواقعة جنوب البلاد وغربها، وسكان الجبال الذين يعرفون باسم الشحوح وهم يعيشون فى شبه جزيرة مسندم وسكان ظفار.

ولوقوع عمان على مدخل الخليج العربى من الجنوب، فقد لعبت القبائل العمانية دورا مهما فى سياسة الخليج والمحيط الهندى، وقد خرجت من عمان الأسر المالكة لسيراف وقيس وهرمز، وبقى العمانيون حتى مجىء الأوروبيين يشكلون القوة المحركة الكبرى في تجارة الخليج، وظلت العلاقات مستمرة وطيدة بن الشاطئين الشمالى (الفارسى) والجنوبى (العربى) للخليج طوال عصور التاريخ، وبذلك بقى النفوذ العربى العمانى قويا فى جنوب فارس، والنفوذ الفارسى قويا على الشواطىء العربية المجاورة (١).

تاريخ عمان :

يرجع تاريخ عمان إلى العصور القديمة حيث شهدت حضارات كانت لها صلة بحضارة بلاد ما بين النهرين شمالا وحضارة جنوب الجزيرة العربية التى أساسها مملكة سبأ

١- دونالد هولى : عمان ص٧٩ .

والحمريين ويبدأ تاريخها المكتوب باستيطان عرب عمان وهم اليمنيون الوافدون من جنوب غرب الجزيرة العربية وقبيلة نزار التى جاءت من نجد، وعند إنهيار سد مأرب عام ١٢٠م ازدادت الهجرات العربية إلى عمان وكان أولاها قبيلة الأزد بقيادة مالك بن فهم الأزدى، وكانت عمان من أوائل البلاد التى اعتنقت الإسلام فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم الذى بعث عمرو بن العاص إلى الملك جيفربن الجلندى بن المتكبر ملك عمان آنذاك يدعوه إلى الإسلام.

وفى العصر الإسلامى شاركت عمان فى بناء صرح الحضارة العربية الإسلامية ليس فى جنوب شرق الجزيرة العربية فقط بل وفى نشر الإسلام وحضارته فى الهند والصين وشرق أفريقيا وحتى حوض نهر الكنغو بغرب أفريقيا، وكان للإسلام وحضارته الفضل فى توحيد القبائل العمانية وجعلها ذات نظام سياسى واجتماعى واقتصادى ونشطت من خلاله فى ارتياد مياه المحيط الهندى والخليج العربى من القرن السابع وحتى القرن الخامس عشر الميلادى عندما قدم البرتغاليون إلى المنطقة واحتكروا الملاحة والتجارة وسيطروا على المنطقة ..

وفي التاريخ الحديث كان لسيطرة البرتغاليين على مياه المحيط الهندى والخليج وسواحل شرق أفريقيا والهند ومملكة هرمز عند مدخل الخليج وسواحل الخليج ذاتها تأثير كبير علي الوضع فى عمان، خاصة أن البرتغاليين فرضوا سيطرتهم على السواحل العمانية حوالى قرن ونصف قرن من عام ١٥٠٧م حتى عام ١٦٤٩م ..

كانت السيطرة البرتغالية تحديا واجهه العمانيون بتحقيق وحدتهم الوطنية بقيادة الإمام ناصر بن مرشد اليعربى وخليفته سلطان بن سيف، ومن خلال القوة العمانية تم طرد البرتغاليين عام ١٦٦٢م من هرمز وإن بقوا بمدينة مسقط حتى لحقت بهم هزيمة ساحقة وأخرجوا من عمان نهائيا فى عام ١٦٤٩م، ثم ملاحقاتهم بطردهم من شرق أفريقيا فى عام ١٦٨٩ ..

ومع أوائل سنوات القرن السابع عشر استعادت عمان قوتها وازدهارها الحضارى وعادت لتسيطر على الملاحة فى المنطقة الممتدة من سواحل الهند حتى سواحل شرق أفريقيا والخليج العربى، ومن خلال هذا النشاط الملاحى اتسعت ممتلكات عمان لتشمل أجزاء من سواحل شرق أفريقيا تطل على المحيط الهندى فى عهد اليعاربة فى الفترة من عام ١٦٢٤ إلى ١٧٤١م..

ولكن الخلافات ما لبثت أن وقعت فى عمان بين اليعاربة أدت إلى فقدانهم السيطرة على البلاد مما أدى إلى تعرض البلاد لأخطار الغزو الخارجي، وكان هذا دافعا لظهور الإمام أحمد

بن سعيد والى صحار الذى قاد البلاد لتخليصها من الخطر المحدق بها وكانت نتيجة مواقفه الوطنية هذه أن تم اختيار أحمد بن سعيد إماما على عمان عام ١١٣٧هـ الموافق لعام ١٧٢٤م..

وبالإمام أحمد بن سعيد بدأ حكم أسرة البوسعيد التى مازالت تحكم عمان حتى اليوم والتى إشتهر من رجالها السيد سعيد بن سلطان في النصف الأول من القرن التاسع عشر (١٨٠٤ - ١٨٥٦م) الموافق للمدة من (١٢١٩ - ١٢٧٣هـ). وإذا كان التاريخ سجل للإمام أحمد بن سعيد دوره فى بناء الدولة الحديثة على أسس قوية بإنشاء جيش قوى وبتدعيم الأسطول العمانى وتطويره، وإحراز انتصارات ضد المنشقين فى الداخل، وضد المعتدين من خارج عمان مثل الفرس ..

فإن التاريخ سجل لخلفائه دورهم فى استمرار البناء، ففى عهد حفيده حمد بن سعيد نقلت العاصمة من مدينة الرستاق فى داخل عمان إلى مسقط على الساحل، وكان الإمام أحمد بن سعيد قد خلف أولادا منهم سعيد بن أحمد وسلطان بن أحمد وقيس بن أحمد ومحمد بن أحمد وطالب بن أحمد [١]. وقد توفى الإمام أحمد بن سعيد عام ١١٨٨ هـ الموافق لعام ١٧٧٥م فى الرستاق حيث بويع ابنه سعيد بالإمامة ..

وبسبب سياسة الإمام سعيد السلبية اتجهت الأنظار نحو تعيين ابنه حمد بن سعيد الذى أصبح فيما بعد الحاكم الفعلى لعمان وأقام بمسقط بينما ظل أبوه فى الرستاق، وبذلك بدأ الفصام الحديث بين السلطنة والأمامة، وهوالفصام الذى جر اثاراً سيئة على السياسة الداخلية فى عمان، وكان حمد أول رجل فى أسرته يطلق عليه رسميا لقب سلطان، وقد شهدت البلاد في عهده ازدهارا امتد إلى شرق أفريقيا. ولكنه مات فى عام ١٢٠٦هـ الموافق لعام ١٧٩٢م وكان والده الإمام سعيد على قيد الحياة مقيما فى الرستاق مهملا شئون الحكم مما أدى إلى المناداة بأخيه سلطان أحد أبناء الإمام أحمد بن سعيد حاكما لعمان الذى لم يلبث أن جمع فى يديه السيطرة الفعلية على مسقط ومعظم مناطق عمان [٢].

١- نور الدين السالمى: تحفة الأعيان بسيرة أهما عمان- جزأن طبعة خامسة ١٩٧٤ الجزء الثانى ص١٧٢ .

٢- دونالد هولى : المرجع السابق ص٤٥ .

وعندما قتل سلطان أثناء صراع مع القواسم عام ١٨٠٤م (١٢١٩هـ) فى مياه الخليج حدث انقسام عائلى حول من يخلفه، ولكن الحكم انتقل فى رأى مؤرخى عمان إلى سالم وسعيد بن سلطان حتى توفى سالم مصابا بالشلل عام ١٢٣٦هـ/ أبريل ١٨٢١م فانفرد سعيد بن سلطان بالحكم، وأن كان الحكم الفعلى بقى فى يد السيد سعيد منذ وفاة والده سلطان عام ١٨٠٤م بعد حكم دام اثنتين وخمسين سنة قضاها فى بناء دولة كبرى فى عمان وشرق أفريقيا..

وكان السيد سعيد حاكما عظيما ، بل هو أعظم من حكم عمان فى تلك الفترة من التاريخ فلقد نجح فى دعم أركان الدولة وتوسيع رقعتها وتأكيد الإستقرار ونشر الرخاء فى البلاد وتكوين أسطول قوى وجيش مجهز بكامل المعدات والأسلحة وأصبحت له علاقات بكثير من القوى العربية والأسيوية والأفريقية بل والأوروبية والأمريكية حتى غدت عمان في عهده توصف بأنها دولة بحرية أسيوية من الدرجة الأولى ..

وبوفاة السيد سعيد بن سلطان عام ١٨٥٦م انقسمت السلطنة بين ولديه حيث حكم ماجد زنجبار والأقاليم الأفريقية، وحكم ثوينى مسقط، وقد تم الاعتراف الدولى بتأسيس السلطنتين فى إعلان رسمى صدر فى باريس عام ١٨٦٢م (١٢٧٩هـ) وأقرته كل من بريطانيا وفرنسا..

وبوفاة توينى مقتولا عام ١٨٦٦م (١٢٨٦هـ) خلفه سليم ثم عزان ثم تركى ظل يحكم رغم المؤامرات الداخلية وتوفى عام ١٨٨٨م (١٣٠٦هـ) فخلفه ابنه فيصل الذى توفى عام ١٩١٣م فخلفه ابنه تيمور الذى واجه مشكلات داخلية واقتصادية فتنازل عن العرش لابنه سعيد بن تيمور فى عام ١٣٥١هـ/١٩٣٢م الذى ظل يحكم حكما مطلقا ومغلقا حتى تولى قابوس بن سعيد الحكم فى ٣٠ يوليو ١٩٧٠ وانتقل السيد سعيد إلى لندن حيث توفى هناك ١٩٧٢م (١٣٩٢هـ).

تلك كانت صفحات من تاريخ عمان، وهى صفحات تؤكد أن الأنسان العمانى لم يكن أبدا بالخامل أو المستسلم وإنما كان يسعى دائما فى طموح كبير إلى التغيير لما هو أفضل وأحسن، وأن صفحات التاريخ أثبتت أن عمان كأقدم كيان سياسى فى منطقة الخليج كانت لها علاقات خارجية متعددة.

عمان والعالم :

واجهت عمان عدة صعوبات من بعض جيرانها إلى جانب الصعوبات الداخلية ولذلك فإن كل تلك الصعوبات تطلبت من السيد سعيد بن سلطان البحث عن حلفاء للمساعدة فى التخلص منها، ومن ثم اتجهت أنظاره نحو أقطار أخرى عربية مثل مصر وأقطار أجنبية مثل الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا العظمى وفرنسا.

وعن علاقة السيد سعيد بن سلطان بمصر وحاكمها محمد على فقداتصفت العلاقة بين الرجلين بالتقدير المشترك غير المندفع، ورغم أن الرجلين كانا معاديان للنشاط السعودى فى الجزيرة العربية إلا أن الرسائل المتبادلة بين السيد سعيد بن سلطان ومحمد على كانت قليلة، وإن كانت قد عبرت عن إعجاب السيد سعيد بالبناء الحديث للدولة التى أقامها محمد على في مصر، كما عبرت عن وجود رغبة لدى السيد سعيد فى إقامة علاقات أوثق مع باشا مصر (١)

وتمشيا مع العلاقة الودية بين السيد سعيد بن سلطان ومحمد علي وانطلاقا من تقدير محمد على للدور الذى قام به السيد سعيد بن سلطان فى مقاومة النفوذ السعودى فى عمان في الفترة الممتدة من عام ١٨٠٦م إلى عام ١٨١٨م، فقد أحسن محمد على وشريف مكة يحيى بن سرور استقبال السيد سعيد بن سلطان عندما ذهب للحج عام ١٨٢٤م، إذ أرسل محمد على مجموعة من كبار ضباطه لاستقباله وتحيته، وأطلقت المدفعية فى جدة حينما اقتربت السفينة العمانية « ليفربول » المقلة للسيد سعيد من الميناء وعند عودته من الحج إلى مسقط حمل معه هدايا كثيرة من محمد علي ومن شريف مكة ..

واستمرت الصلات بين مصر وسلطنة عمان ودية رغم موقف بريطانيا المعادى للنشاط المصرى فى الجزيرة العربية وفى الخليج العربى بصفة خاصة، ذلك الموقف الذى لم يكن باستطاعة السيد سعيد بن سلطان تجاهله نظرا للعلاقة الخاصة التى ربطت بينه وبين البريطانيين الذين ساعدوه ضد أعدائه والخارجين عليه، ومع ذلك لم يأخذ السيد سعيد من محمد على موقفا عدائيا، بل إن الوثائق المصرية تشير إلى أن السيد سعيد بعث برسالة إلى محمد على فى عام ١٢٥٥هـ الموافق لعام ١٨٤٠م يطلب فيها بإلحاح سرعة إرسال أحد جنود المدفعية المصريين للخدمة فى مدفعية السيد سعيد ..

١- نفس المرجع ص١٣٩ .

وبالنسبة لعلاقة سلطنة عمان بالقوى الأجنبية، فسوف نستعرض العلاقة بين السلطنة والولايات المتحدة الأمريكية حيث تتضح فى هذا الاستعراض شخصية السيد سعيد المتميزة ومكانة السلطنة الدولية فى عهده، ذلك أنه إذا كانت المغرب تعتبر أول دولة عربية تقيم علاقات ودية وتجارية مع الولايات المتحدة الأمريكية فإن سلطنة عمان كانت الدولة الثانية التى أقامت علاقات مع الولايات المتحدة ..

وقد تشابهت نظرة كل من دولة المغرب وسلطنة عمان إلى الولايات المتحدة من حيث أنها دولة حديثة الاستقلال عن بريطانيا ذات التاريخ الإستعمارى فى العالم، وباعتبارها تسعى لتحقيق مصالح اقتصاديةوليست لها نوايا استعمارية واضحة، هذا بالاضافة إلى أنه لم تكن للعرب معها خبرة استعمارية مؤلمة تجعلهم يتشككون أويتخوفون من إقامة علاقات معها، ومن ثم سعت المغرب إلى تكوين علاقات وثيقة مع الولايات المتحدة فى مواجهة التآمر الاستعمارى الأوروبى على المغرب، كما سعت سلطنة عمان إلى إقامة علاقات وثيقة مع الولايات المتحدة تحقيقا للتوازن مع القوى الأجنبية الأخرى الطامعة فى مد نفوذها على منطقة الخليج والمحيط الهندى وشرق أفريقيا ..

ومن هنا فأن عقد اتفاقية بين سلطنة عمان والولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٣٣م جاء متمشيا مع سياسة الولايات المتحدة فى المنطقة العربية بمعنى أن قيام سلطنة عمان بتوقيع مثل هذه الاتفاقية لا يمكن النظر إليه على أنه عمل منفرد قامت به السلطنة دون غيرها من الأقطار العربية ..

تمتعت سلطنة عمان فى عهد السيد سعيد بن سلطان بقدر كبير من الاستقلال تمتاز به عن غيرها من أقطار الخليج العربى، كما تميزت بامتدادها حتى شرق أفريقيا حيث صار للسلطنة جناح أفريقى فى زنجبار او (زنزبار) إلى جانب القلب الذى مقره مسقط فى مدخل الخليج العربى ورغم أن زنجبار ظلت خاضعة لحكم سلطنة عمان منذ منتصف القرن السابع عشر الميلادى إلا أنها لم تلق العناية الكافية للتنمية والتطور حتى اتجه إليها السيد سعيد بن سلطان فى العشرينيات من القرن التاسع عشر، حيث أدخل زراعة القرنفل فى زنجبار واعتباره محصولا تجاريا، وحيث أنشأ عدة مزارع على الأرض الأفريقية ودفع بالتجار العمانيين للتوغل فى القارة الأفريقية للمتاجرة مع الأفارقة. كما قدم مساعدات ذات أثر كبير فى نجاح رحلات المستكشفين الأوروبيين داخل أفريقيا الذين مارسوا عمليات الكشف فى النصف الأول من القرن التاسع عشر.

كان تطوير الشق الأفريقى من سلطنة عمان فى عهد السيد سعيد عامل جذب للقوى الأجنبية لكى تسعى إلى تقوية علاقاتها بالسلطنة ككل ولكى تحصل على متاجر مسقط وزنجبار بصفة خاصة، وكانت الولايات المتحدة الأمريكية أول القوى الأجنبية فى التطلع إلى فتح أسواق زنجبار أمام التجار الأمريكان لبيع المنتجات والسلع الأمريكية من ناحية ولشراء المنتجات والسلع المنتجة فى الشق الأفريقى من سلطنة عمان من ناحية أخرى ..

وقد بدأت مقدمات العلاقات التجارية بين سلطنة عمان والولايات المتحدة الأمريكية حينما زار التاجر الأمريكى الكابتن (إدموند روبرتس) Edmond Robertes الذى ينتمى إلى نيوها مبشير فى عام ١٨٢٧م زنجبار متطلعا إلى تحقيق كسب مادى كبير هناك ولكنه لم يجد التسهيلات التى يلقاها البريطانيون هناك حلفاء السيد سعيد بن سلطان ومن ثم عاد إلى الولايات المتحدة يحمل فكرة عقد معاهدة مع السلطنة لكى تروج التجارة الأمريكية فى ممتلكات السلطنة (١) ..

تم توقيع الاتفاقية التجاريةبين السلطنة والولايات المتحدة فى ٢١ سبتمبر ١٨٣٣م وكانت أول اتفاقية يعقدها السيد سعيد بن سلطان مع دولة كبرى وقد صارت تلك الأتفاقية المثل الذى سارت على منواله معاهدات السلطنة مع بريطانيا عام ١٨٣٩ ومع فرنسا عام ١٨٤٤م وقد ظلت الا تفاقية الأمريكية العمانية سارية المفعول حتى عام ١٩٥٨م حين أبطل مفعولها واستبدلت بمعاهدة جديدة للصداقة والعلاقات الإقتصادية والحقوق القنصلية بين الطرفين..

وبموجب هذه الأتفاقية تمتع الأمريكيون فى ممتلكات السلطان العربية (مسقط) والأفريقية (زنجبار) بامتيازات اقتصادية وقضائية، حيث صار التجار الأمريكيون يتاجرون فى أراضى السلطنة وينزلون فى موانيها يدفعون ٥ ٪ فقط رسوما على البضائع التى يجلبونها إلى موانى السلطنة وأن يعفوا من دفع أية ضرائب أخرى على الصادرات والواردات وأن يعفوا كذلك من رسوم الإرشاد الملاحى فى موانى السلطنة. كما صار من حق القنصل الأمريكى فى السلطنة فض المنازعات التى تنشأ بين رعايا دولته، ونصت المعاهدة كذلك على حق قنصل السلطنة فى الفصل فى القضايا بين رعايا دولته فى الولايات المتحدة (٢) ..

١- ريتشارد ستيفنس : استعراض لبداية العلاقة الأمريكية التجارية والقنصلية مع سلطنة عمان ومسقط (١٨٣٣ - ١٨٥٦) مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ص ١٢٢.

٢- نفس المصدر ص ١٢٥.

وفى تقييمنا للاتفاقية التجارية الأمريكية العمانية نلاحظ أن الأتفاقية جعلت السيد سعيد بن سلطان يشعر بأهميته وبقدرته على الدخول فى اتفاقية مع دولة كبرى،، مما جعله يميل إلى كسب المزيد من رضا الأمريكيين فيعرض عليهم امتيازات تجارية خاصة فى شرق أفريقيا على أن يقفوا بجواره ويساعدوه بالسلاح لإخضاع « مومباسا » لسيادته، ولم يغضبه عدم استجابة الأمريكيين لطلبه ..

كما أن إدراك السيد سعيد بن سلطان بأنه قادر على عقد اتفاقية مع دولة كبرى أشعره بالندية ويستند إليها فى مواجهة القوى الكبرى الأخرى - خاصة انجلترا وفرنسا - فى تحقيق نفع له ولسلطنته تكسبه مكانة دولية وتكسب السلطنة اعترافا دوليا تسعى إليه الأقطار الحديثة ذات الحكومات الناشئة فى كل من أفريقيا وآسيا بل وأمريكا اللاتينية..

وعلى الجانب الأمريكى فقد استقبل الرئيس الأمريكى أندروجاكسون رسالة السلطان التى حملها إدموند روبرتس مع نص الإتفاقية عند عودته إلى الولايات المتحدة بكل تقدير حيث أكدت الرسالة على تمنيات السيد سعيد الطيبة للرئيس الأمريكى وشكره على الرسالة التى حملها إليه روبرتس التى حملت المودة والتقدير من الرئيس الأمريكى للسيد سعيد ..

ونتيجة لما جاء في الرسالة وما احتوته الأتفاقية من نصوص فى صالح الولايات المتحدة دون أن تحملها تبعات أو تضع عليها من قيود، فقد كان وقع الاتفاقية فى الولايات المتحدة طيبا، وتمت مصادقة كل من الرئيس جاكسون والكونجرس دون إبطاء كيف لا والا تفاقية لم تحمل الولايات المتحدة أية التزامات نحو سلطنة عمان كما أن الولايات المتحدة قد أصبحت مرتبطة بصداقة إحدى القوى الأسيوية الأفريقية التى تفخر بامتلاكها أكبر اسطول بحرى إلى جانب ثروتها من السلع مثل لب جوز الهند المجفف والتوابل (٢) ..

ونتيجة لازدياد النشاط التجارى الأمريكى فى ممتلكات سلطنة عمان بشرق أفريقيا فقد أختارت الحكومة الأمريكية أحد رعاياها ويدعى المستر ريتشارد ووترز Richard Waters عام ١٨٣٦م ليكون أول قنصل أمريكى فى مسقط ذاتها فى عام ١٨٣٨م ..

وقد ظلت العلاقة بين سلطنة عمان والولايات المتحدة الأمريكية ودية حتى منتصف القرن

١- دونالد هولى: عمان ونهضتها الحديثة ص١٨٧ .

التاسع عشر أى على مدى ما يقرب من عشرين سنة منذ عقدت الاتفاقية التجارية بين الطرفين عام ١٨٣٣م ولكن حدث أن اضطربت تلك العلاقة نتيجة عدة عوامل منها :

أولا : رغبة السيد سعيد فى تعديل المادة الثانية من معاهدة الصداقة والتجارة والمعقودة بين الطرفين عام ١٨٣٣م والتى تنص على أن من حق التجار الأمريكيين دخول كل الموانى الخاضعة للسلطان وأصر السيد سعيد على أن المادة الثانية تشير في رأيه - إلى أن هذا الحق كان يقتصر على ميناء رئيسى واحد هو ميناء زنجبار ولم ترغب الحكومة الأمريكية في الاستجابة لطلب السلطان فتحرم تجارها بصفة رسمية من التجارة فى بقية موانى السلطنه خشية أن تفتح هذه الموانى أمام تجار دول أخرى ..

ثانيا : الخلاف بين السيد سعيد والأمريكيين حول مدى سلطة المحكمة القنصلية الأمريكية فى السلطنة على الرعايا الأمريكيين وقد فجر هذا الخلاف ارتكاب بحار أمريكى جريمة قتل فى حق مواطن عربى، كما فجره الخلاف الذى كثيرا ماكان ينشب بين الرعايا الأمريكيين فى السلطنة وبين التجار الهنود المعروفين باسم « البونايان » الهندوس من غير ذوى الكتاب - والمشمولين بالحماية البريطانية (١) ..

وقد لعب القنصل الأمريكى فى زنجبار « شارلس وارد » Charles Ward الذى تسلم مهمام وظيفته فى الجزء الأفريقى من السلطنة بتاريخ ٢٤ يناير ١٨٤٦م، دورا فى سوء العلاقة بين السيد سعيد والولايات المتحدة مما أدى إلى قطع العلاقة بين البلدين فى يوليو ١٨٥٠م، واعتقد « وارد » أن القنصل البريطانى فى زنجبار كان وراء سوء العلاقة بين الولايات المتحدة والسلطنة، وتوقع تفكك السلطنة بعد وفاة السيد سعيد وأشاع ذلك مما أغضب السيد سعيد..

ورغم أن السيد سعيد كان حريصا على استمرار العلاقة مع الولايات المتحدة فانه أضطر إلى توقف تلك العلاقة بعد أن استنفذ الوسائل المتاحة لكى يحل المشكلات التى أثيرت بين الطرفين، فقد بعث السيد سعيد برسالة إلى الحكومة الأمريكية فى سبتمبر ١٨٤٧م، إلا أنه لم يتلق ردا عليها مما دفعه إلى التمسك بتفسيره للمادة الثانية للمعاهدة المعقودة بين البلدين، وكانت الرسالة تطلب ضمانات أمريكية محددة حول المدى المحدد للتجارة الأمريكية فى سواحل أفريقيا الشرقية التابعة للسلطنة وتطلب تحديدا للاختصاصات القضائية للقنصل

١- ريتشارد ستيفنس : المرجع السابق ص١٣٠ .

الأمـريكى فى السلطنة، ووقف أى تدخل فى الشـئـون الداخليـة للسلطنة من جـانب القنصل الأمريكى..

وأرادت الولايات المتحـدة ألا تفـقـد صـداقة السلطـان فـأرسل الرئيس الأمـريكى « ميلارد فيلمور » رسالة حملها مبعوثه إلى السيد سعيد يدعى « الكومودور أوليك » وغادر القنصل « وارد » إلى الولايات المتحدة، وعندما وصل « أوليك » إلى زنجبار فى أول ديسمبر عام ١٨٥١م اجتمع مع التجار الأمريكيين قبل أن يسلم رسالة الرئيس الأمريكى للسيد سعيد، وعرف منهم مدى صداقة السيد سعيد وحسن معاملته لهم وأنه لم يسىء للعلم الأمريكى كما أدعى القنصل « وارد » وأنهم يتمتعون بامتيازات فى السلطنة تفوق ما يتمتع به غيرهم من التجار الأجانب ..

وعندما غـادر المبعوث الأمريكى « أوليك » زنجبار تـرك أثرا طيبا بين أهـل السلطنة وحكامها، وتحمل القناصـل الأمريكيـون منذ عـام ١٨٥٢م مسئولية العمل علـى تحسين العلاقـات بين السلطنـة والولايـات المتحـدة الأمـريكيـة. وبالفعـل امتلات تقـارير هؤلاء القناصل بالإشـادة بروح المودة التى يبديها السيد سعيد نحو الأمريكيين وأن العلاقات التجارية بين البلدين ثابتة ومستقرة (١) ..

ورغم أن العلاقة بين سلطنة عمان والولايات المتحدة خلال الفترة الممتدة من الاتفاقية التجارية لعام ١٨٣٣م، ولمدة مائة عام تقريبا لـم تعتبر ذات أهمية بالغة من وجهة نظر أى من الطـرفين، إلا أن وجـودها فى حد ذاته كان يبشر بعهد جديد فى مجال العلاقات الدولية ..

وتمشيا مع السياسة الودية بين سلطنة عمـان والولايات المتحدة التى بدأت مع معاهدة الصداقة والتجارة التى عقدت بين البلدين عام ١٨٣٣م بعث السيد سعيد بسفينته المسماة « سلطانة » فى رحلة إلى ميناء نيويورك الأمريكى عام ١٨٤٠م لشراء الأسلحة والذخيرة التى كان فى حاجة إليها أثناء صراعه ضد الوجود البرتغالى فى موزمبيق وتولى قيادة هذه السفينة ربان بريطانى يدعى « وليام سليمان » William Soliman واختار السيد سعيد أمين سره الخاص الحاج أحمد بن نعمان ليكون ممثلا له فى الولايات المتحدة، بل أول مبعوث عمانى إلى الولايات المتحدة ..

وقد حمل الحاج أحمد بن نعمان معه هدية السيد سعيد للرئيس الأمريكى وكانت عبارة عن جوادين عربيين، وبعض الجواهر وسيفا مطعما بالذهب إلى جانب العطور وقد أهدى الرئيس

١- نفس المصدر ، ص١٣٣ .

الأمريكى للسيد سعيد باخرة كبيرة مؤثثة بأثاث فاخر إلى جانب ٤ مسدسات تلقائية الدوران وبندقيتين تلقائيتى الدوران كذلك ..

كما حملت السفينة « سلطانة » أكثر من ألف جوال من أجولة التمر العمانى وحوالى عشرين بالة من السجاد الإيرانى،، ومائة كيس من قهوة « مخا » و١٠٨ من أنياب العاج وحوالى ثمانين جوالا من صمغ الكوبال الراتينجى و١٣٥ جوالا من القرنفل، وألف جلد من جلود الحيوان المجففة، وهذه الحمولة بيعت لحساب السيد سعيد فى نيويورك (١) ..

وقد لقى ركاب السفينة سلطانة كل تكريم وترحيب من محافظ « بيروكلين » ومن رئيس نادى البحرية فى نيويورك، وصدرت أوامر الرئيس الأمريكى « فان بورين » Van Buren ووزير بحريته بإدخال السفينة سلطانة إلى حوض الأسطول الأمريكى وتجهيزها للإبحار على نفقة الحكومة الأمريكية. ومن ثم شحنها بالمنتجات الأمريكية التى أشرنا إليها لتعود بها إلى السيد سعيد ..

استغرقت رحلة السفينة سلطانة حوالى عشرة أشهر منذ أن خرجت من زنجبار حتى عادت إليها، وقد قاد رحلة العودة إلى أرض الوطن ربان أمريكى استطاع أن يجتاز بها المحيط الأطلنطى بأمواجه المضطربة بسلام، عادت وعليها مبعوث السيد سعيد الحاج أحمد بن نعمان بعد أن أتم مهمته على خير وجه فكان بحق خير سفير لبلده فى تلك البلاد البعيدة ..

وإن دلت رحلة السفينة سلطانة إلى نيويورك على شىء فإنما تدل على رغبة كل من سلطنة عمان فى عهد السيد سعيد بن سلطان والولايات المتحدة الأمريكية فى تقوية واستمرار العلاقات الودية بين الطرفين وخاصة فى المجالات الاقتصادية وهى المجالات التى كانت تستهوى التجار الأمريكيين أكثر من أى شىء آخر، فى الوقت الذى لم تكن فيه حكومة الولايات المتحدة الأمريكية راغبة فى التدخل فى المشكلات السياسية انطلاقا من سياسة العزلة التى سارت عليها منذ أعلنت استقلالها عن انجلترا ..

وقد استفادت سلطنة عمان من علاقاتها بالولايات المتحدة فى أن الوجود التجارى الأمريكى القوى فى السلطنة قد جعل مسألة سيادة تلك البلاد واستقلالها عند وفاة السيد سعيد أمرا ثابتا لا يحتاج إلى نقاش. وحتى بعد انقسام السلطنة بين ولدى السيد سعيد : «ماجد » فى زنجبار « وتوينى » فى مسقط، فقد بقيت السلطنة فى مسقط بعيدة عن أى نزاع

١- دونالد هولى: المرجع السابق ص١٨٨ .

استعمارى لأن سيادتها ضمنتها اتفاقيات دولية بينما وقعت زنجبار فريسة للاستعمارين الإنجليزى والألمانى ..

وقد أشار تقرير عن السياسة الخارجية الأمريكية عام ١٩٤٦ م نحو إمارات الخليج العربى عامة وسلطنة عمان خاصة (١) بانه فى الوقت الذى تعترف فيه الولايات المتحدة بالوضع الخاص لبريطانيا العظمى فى إمارات الكويت والبحرين وقطر والساحل العمانى المتصالح فأن سياستنا – أى سياسة الحكومة الأمريكية – نحو هذه المنطقة تعتمد على أن الوضع البريطانى الخاص فى هذه الإمارات لن يؤدى إلى إلحاق الضرر بالمصالح الأمريكية أو مصالح السكان المحليين والحكومات القائمة. وأن سياستنا نحو سلطنة عمان تستند على واحدة من أقدم معاهداتنا التى مازالت نافذة المفعول وهى معاهدة الصداقة والتجارة الموقعة بين الطرفين فى ٢١ سبتمبر ١٨٣٣م ..

ويضيف التقرير مؤكدا على أهمية العلاقة بين الولايات المتحدة وسلطنة عمان مشيرا إلى أن الذكرى المئوية لتوقيع المعاهدة المشار إليها والتى أحييت فى مارس ١٩٣٤ تميزت بزيارة قامت بها بعثة دبلوماسية أمريكية خاصة لمسقط وفى عام ١٩٣٦استقبل الرئيس الأمريكى « فرانكلين روزفلت » Franklin Rosevelt فى واشنطن سعيد بن تيمور سلطان عمان كضيفه الخاص ..

واختتم التقرير سرده للأحداث المقارنة بين تلك المعاهدات التى وقعتها الإمارات العربية الخليجية مع بريطانيا العظمى ابتداء من أوائل القرن التاسع عشر وبين المعاهدات العمانية البريطانية فالإمارات العربية الخليجية تعهدت لبريطانيا منذ عام ١٨٢٠م بالمساعدة للقضاء على « القرصنة » فى الخليج العربى، ووضع حد لدخول السلاح والرقيق على بلادهم، وعن طريق سلسلة من المعاهدات أعطى حكام الإمارات للبريطانيين حق استغلال أراضيهم مقابل الحماية البريطانية، وفيما بين عامى ١٩١٣، و١٩٢٣ ربط حكام الإمارات العربية الخليجية أنفسهم أكثر بالتعهد بعدم إعطاء امتيازات للبحث عن البترول فى أراضيهم لأية دولة أخرى دون موافقة وقبول البريطانيين ..

بينما وافق سلطان عمان في عام ١٩٢٣م على استشارة المركز السياسى البريطانى فى الخليج وحكومة الهند البريطانية قبل البحث عن البترول فى سلطنته ..

١- Memorandum Prepared in the department of state (secret) Washington. March 15, 1946. No. 790 0014-946-Current U.S. policy toward the arab principalities of the persian Gulf and the Gulf of Oman.

ثالثا : الصراع الإستعمارى حول الجزر اليمنية فـــى القـــرن ١٩

مقدمة

تمثل الجزر اليمنية وأهمها سقطرى وبريم وكمران بمواقعها الجغرافية أهمية استراتيجية خاصة للقوى البحرية العالمية الساعية لفرض سيطرتها على مدخل البحر الأحمر الجنوبى وصولا للسيطرة على كل الأقطار المطلة على هذا البحر حتى برزخ السويس فى مصر شمالا..

وقد كانت البرتغال أسبق هذه القوى العالمية البحرية نشاطا فى هذا المجال منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادى حيث حاولت السيطرة على عدن وجزر سقطرى وبريم وكمران من خلال محاولاتها للوصول إلى موانى جدة والسويس والسيطرة على الأقطار الإسلامية المطلة على البحر الأحمر مثل مصر والحجاز والسودان واليمن بعد أن نجحت في السيطرة على المدن الإسلامية المزدهرة بشرق أفريقيا ومملكة هرمز وجزر البحرين فى الخيج العربى ..

ولولا صلابة موقف أهالى عدن والجزر اليمنية القوية فى مواجهة الإعتداءات البرتغالية المتكررة، ولولا التقليد الإسلامى الذى وضعه سلاطين المماليك فى مصر وأكده العثمانيون عندما أحتلوا مصر والحجاز منذ عام ١٥١٧م، ذلك التقليد الذى يحرم على السفن التى ترفع أعلاماً عليها صليب دخول مياه البحر الأحمر لأن أراضى الأماكن المقدسة للمسلمين فى مكة المكرمة والمدينة المنورة تطل عليه ..

لولا هذا وذاك لنجح البرتغاليون فى الإستيلاء على عدن والجزر اليمنية عند مدخل البحر الأحمر الجنوبى ومدوا عدوانهم إلى الحجاز والسودان ومصر، وكرروا ما فعلوه فى أقطار الخليج من ممارسات عدوانية غاشمة ليس على الأرض فقط بل وضد السكان الآمنين العزل الذين تعرضوا لوحشية وقسوة البرتغاليين ..

وإذا كان البرتغاليون قد جلوا عن تلك الجهات مع مطلع القرن الثامن عشر الميلادى فقد بدأت تظهر قوى بحرية عالمية أخرى تمثلت فى الهولنديين والفرنسيين ..

فعندما نجح بونابرت فى الإستيلاء على مصر أواخر القرن الثامن عشر تطلع إلى مداخل البحر الأحمر والخليج العربى بهدف السيطرة على طرق التجارة الشرقية ولضرب المصالح البريطانية في الهند، ولو طال أمد بقاء الحملة الفرنسية فى مصر وقتا أطول من فترة الثلاث سنوات التى بقيتها لتحقق لبونابرت بعض ما كان يهدف إليه إن عجز عن تحقيق كل الأهداف..

ونتيجة للحملة الفرنسية على مصر تنبهت بريطانيا إلى أهمية البحر الأحمر من مدخله عند باب المندب إلى شماله عبر مصر، ومن ثم ساهمت بأكبر قدر فى إخراج الحملة الفرنسية من مصر، وحرصت على أن يكون لها النفوذ الأعلى فى مصر بعد خروج الفرنسيين وارتقاء محمد على كرسى الباشوية فى مصر اعتباراً من عام ١٨٠٥م .

وعندما حاول محمد على السيطرة على مدخل البحر الأحمر الجنوبى من قواعده فى اليمن وقفت له بريطانيا موقف المعارضة بل والتهديد وانتهى الأمر باستيلائها على عدن عام ١٨٣٩م، ومن هذا الموقع أخذت تسيطر على مدخل البحر الأحمر الجنوبى عن طريق السيطرة على جزره الجنوبية (جزر اليمن) وأهمها سقطرى وبريم وكمران ..

ولكن القوة الفرنسية والقوة الإيطالية تطلعت إلى شرق أفريقيا وساحل البحر الأحمر وهنا تمت المساومات بين بريطانيا وهذه القوى من أجل تقسيم مناطق النفوذ خاصة بعد إجلاء مصر عن مناطق الصومال الشمالى وأريتريا إلى جانب السودان عام ١٨٨٥م، وقد انتهى الصراع بسيطرة بريطانيا على تلك الجزر المساندة لكل من عدن والصومال الشمالى المستعمرات البريطانية ..

التسابق الإستعمارى الأوروبى

لكى نستجلى الصراع حول الجزر اليمنية لابد لنا أن نبحث عن جذور هذا الصراع من خلال التسابق الإستعمارى الأوروبى فى أفريقيا وفى المنطقة العربية. فقد تميز القرن التاسع عشر بوضوح الظاهرة الإستعمارية الأوروبية وقد انطلقت الدول الأوروبية للإستعمار تحت ستار البعثات التبشيرية أو الشركات التجارية أو المستكشفين، ومن ثم حدثت منافسة بين الأوروبيين من أجل الفوز بمناطق نفوذ أو سيطرة أو الإمتلاك للأرض وما عليها من مواد خام..

جاء إفتتاح قناة السويس للملاحة البحرية العالمية عام ١٨٦٩م ليزيد المنافسة الدولية حول أفريقيا والمنطقة العربية. تلك المنافسة التى كادت تؤدى إلى صدام مما حدا بألمانيا أن تدعو إلى عقد مؤتمر يكون مقره برلين لتقسيم مناطق النفوذ والإستعمار فى أفريقيا دون الحاجة إلى الصدام المسلح، وبالفعل انعقد ما عرف بمؤتمر برلين من نوفمبر ١٨٨٤م وأصدر قراراته فى فبراير عام ١٨٨٥م.

وجاءت قرارات مؤتمر برلين لتعطى ضوءاً أخضر للدول الأوروبية لكى تنطلق فى سباق لاحتلال أراضى القارة الأفريقية، وذلك أنه على الرغم من أن المؤتمر انعقد أساساً لبحث

موضوع الإدعاءات البلجيكية فى حوض نهر الكونغو في مواجهة الإدعاءات الفرنسية شمال النهر والإدعاءات البرتغالية جنوب النهر، إلا أن أثره على الإستعمار الأوروبى فى أفريقيا السوداء كلها كان أكثر اتساعا وكان أقصى ماسعى إليه هو محاولة وضع مبدأ يمكن على أساسه دراسة الإدعاءات الإستعمارية والإعتراف بها (١).

وقد شهد القرن التاسع عشر نشاطا فرنسيا محموما لامتلاك أراضى خارج القارة الأوروبيـــة خاصة بعد حروب الثـورة الفـــرنسية ونابليـــون، وكان الدافع وراء هذا النشاط الفرنسى التنافس البريطانى الفرنسى على المستعـمرات فى العالم الجديد وفـــى منطقة البحر المتوسط وخاصة مصر وبلاد الشام، وفى منطقة الجنوب العربى والهند وشرق أفريقيا والخليج العربى .

وكان وراء النشاط البريطانى الإستعمارى عدة عوامل أهمها نجاح ثورة الإستقلال الأمريكية ضد الحكم البريطانى عام ١٧٨٣م بصورة أشعرت بريطانيا بضرورةالإتجاه شرقا لتعويض هذه الملتكات الغنية، كما أن تهديدات حكومة الثورة الفرنسية وحروب الإمبراطور نابليون الأول وأطماعه كانا من دوافع اتجاه بريطانيا لتأسيس إمبراطورية فى الشرق، وما صدامها مع حملة بونابرت على مصر سوى مظهر لهذا الإتجاه البريطانى ..

كما كان من عوامل بناء الإمبراطورية البريطانية الأسطول البريطانى التجارى والحربى الذى كان سيد البحار بلا منازع، والذى استخدمته فى الإستيلاء على رأس الرجاء الصالح عام ١٧٩٥م أولا من شركة الهند الشرقية الألمانية المفلسة، ثم ثانيا من الجمهورية البتافية (هولندا) عام ١٨٠٦م كرد فعل لتحركات نابليون فى أوروبا (٢) ..

هذا إلى جانب نظم الليبرالية ومبدأ حرية التجارة واتباع سياسة العزلة عن المشكلات المباشرة للقارة الأوروبية أو بمعنى آخر اتباع سياسة عدم التدخل فى الشئون الداخلية للدول الأوروبيـــة (٣) بالإضافة إلى نجاح الثورة الصناعية فى بريطانيا التى غدت كما عرفت طوال القرن التاسع عشر بأنها مصنع العالم ..

١- جون هاتش : تاريخ أفريقيا ص١١ .

٢- Kirkwood. K.: Britain and Africa. p. 16.

٣- د. محمد رياض وآخرون : أفريقيا .. ص٥٢ .

وقد أدركت بريطانيا أهمية مصر والبحر الأحمر منذ مجيء الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ وزادت أهمية البحر الأحمر فـــى نظر بريطانيـــا منذ افتتاح قناة السويس للملاحة البحرية عام ١٨٦٩م وأدركت أن البحر الأحمر هو الطريق الطبيعي إلى الشرق الأقصـــى أو علـــى حـد تعبير اللورد سالسبورى Lord Salisbury بـأن طـريق البحـــر الأحمر هـو « Our Road of Communicaton With the Indies. وتر بريطانيـــا الحســـاس ».. (١) our Senstive Nerve-String .

وكانت بريطانيا قد أخذت منذ أستولت على عدن عام ١٨٣٩م على إيجاد ممتلكات لها فى شرق وشمال شرق أفريقيا (٢) وأخذت تعمل على الانفراد بالسيطرة على البحر الأحمر خاصة بعد أن اشـترت الحكومة البريطانية نصيب مصـر من أسهم شركة قناة السويس بموافـقة الخديوى إسماعيل ..

وانطلاقا من حساسية بريطانيا لكل نشاط استعمارى آخر يفرض وجوده فى البحر، فإنها من موقعها فى عدن وجزيرة بريم عند مضيق باب المندب أخذت ترقب تحركات الإيطاليين أثناء نشاطهم لتحقيق مطامعهم فى إقليم أريتريا منذ رفع العلم الإيطالى على عصب فـــى ١٣ مـــارس ١٨٧٠ (٣)، ومـــنذ ضمت إيطاليا أراضـــى سلطنـــة « راحيتا » أو « رهيطة » إلى مناطق نفـوذها في أريتريا عام ١٨٨١م، وإن كـانت بريطانيـا قد أغـمضت عينيهـــا عن النشـــاط الإيطالى عندما تبين لبريطانيا عام ١٨٨١م أيضا أن الفـــرنسيين يبذلون أقصى جهد لإخراج مصر من قبضة بريطانيا (٤)، كما أن بريطـــانيا كانت تخشى من وقـــوع موانـــى سواحل البحـر الأحمر الغربى فى قبضة المهديين (٥).

وعلى الرغم من الموقف الودى من جانب بريطانيا نحو نشاط إيطاليا الإسـتعمـارى فى البحر الأحمر، فقد كانت حساسيتها لكل ما يحدث فى البحر الأحمر يدعوها إلى متابعة كل نشاط تقوم به إيطاليا فنجد مثلا برقية مرسلة من القنصل البريطانى العام في القاهرة سير

١- د. محمد صفى الدين : أفريقيا بين الدول الأوروبية ص ١٤٨ .

٢- Kirkwood. K.:op. cit.. p. 19.

٣- د. السيد رجب حراز : أرتيريا الحديثة ص ٨١ - ٨٢ .

٤- د. محمد صبرى : الامبراطورية السودانية فى القرن ١٩ ص ١٦٥.

٥- د. السيد رجب حراز : التوسع الإيطالى فى شرق أفريقيا ص ١٦٦.

إيفلن بارنج Evylen Baring يكتب لوزير الخارجية البريطانية اللورد « جرانفيل «-Gran ville يقول : إن الكولونيل« تشرمسيد » Chermside أبرق من عدن بأن الإيطاليين احتلوا جزر دهلك المواجهة لميناء مصوع » (١)

ونظرا لشدة حساسية بريطانيا نحو النشاط الإستعمارى الفرنسى بالذات فى شرق أفريقيا والبحر الأحمر، فقد دار صراع بين الطرفين حول جزر الأخوة وهى مجموعة من الجزر الأقرب إلى مدخل البحر الأحمر الجنوبى، وهى عبارة عن مجموعة من الجزر الصخرية عددها سبعة جزر وتبعد عن جزيرة بريم بحوالى عشرة أميال نحو الجنوب، وطبيعة سطح هذه الجزر بركانية لونها بنى وارتفاع سطحها متوسط (٢) وقد حاولت فرنسا احتلال هذه الجزر وخاصة جزر « موسى » و« أوباد » أو« أوقات » كما تذكر فى بعض المصادر عام ١٨٨٤م عند تأسيس المستعمرة الفرنسية فى« أوبوك »، ولكن الحكومة البريطانية سارعت إلى الإعلان بأن هذه الجزر صارت لبريطانيا العظمى منذ عام ١٨٤٠م بموجب تنازل من شيوخ « تاجورة » و« زيلع » (٣)

وبناء على هذا فقد أعلن الميجور هنترHunter بأن وجودا بريطانيا قد تأسس فعلا فى هذه الجزر (٤). ثم أعلنت الحكومة البريطانية على لسان نائب الملك فى الهند بأن العلم البريطانى قد تم رفعه على تلك الجزر فى الوقت الذى احتلت فيه القوات الفرنسية تاجورة (٥).

ومع ذلك فقد أصبحت جزر الأخوة من نصيب فرنسا التى رفعت العلم ذى الثلاثة ألوان على كل الجزر السبعة وذلك فى خريف عام ١٨٩٠م(٦) كجزء من توزيع مناطق النفوذ بين بريطانيا وفرنسا فى المنطقة، واستنادا إلى حصول بريطانياعلى ماعرف باسم الصومال

١- F.O. 403. Further Correspondence respecting the Red Sea and Somalicoast: No.83/ 277. Sir Evylen Baring to Earl Granville Cairo June 13. 1885 No. 478.

٢- Ibid, No. 126. Inclosure 3 in No. 26 : Extract from the "Red Sea Pilts" editian of 1883. p. 144.

٣- Ibid No. 82. No. 261. Mr. Godley to Sir J. Pannceforte. India Office. November 7. 1884.

٤- Ibid, No. 82No. 323, Sir Evylen Baring to Earl Granville, Cairo December 6. 1884.

٥- Ibid, No. 82. Inclosure in No. 349. The Viceroy of India to the Earl of Kimberley. Culcutta. December 11 1885.

٦- Ibid No. 126. Inclosure 2 in No. 26. Captain Aueste Brigadir General Jobb. Aden . September 11 .1890.

الشمالى الذى يضم موانى « زيلع » و« بلهار » و« بربرة » بينما تأسست مستعمرة فرنسية فى چيبوتى التى تنتمى إليها هذه الجزر الواقعة إلى الجنوب من جزيرة بريم التى تسيطر عليها بريطانيا ..

ومصدر أهمية هذه الجزر أنها تحرس المدخل الجنوبى للبحر الأحمر، ومن ثم فإن القوة التى تسيطر على هذه الجزر يكون لها صوت مسموع فى استراتيچية مدخل البحر الأحمر عند باب المندب وبالتالى يؤثر على بقية الأقطار المطلة على هذا البحر ..

ومصدر أهمية هذه الجزر أنها تحرس المدخل الجنوبى للبحر الأحمر، ومن ثم فإن القوة التى تسيطر على هذه الجزر يكون لها صوت مسموع فى استراتيچية مدخل البحر الأحمر عند باب المندب وبالتالى يؤثر على بقية الأقطار المطلة على هذا البحر ..

جزيرة سقطرى

تقع جزيرة سقطرى بالقرب من الساحل الجنوبى للجزيرة العربية إلى الشرق من عدن وهى جزيرة جبلية وعرة قليلة السكان . تنتشر حولها الشعب المرجانية، ولها أهمية استراتيچية لمن يريد التحكم فى مدخل البحر الأحمر ..

ونتيجة لهذا الموقع والأهمية الاستراتيچية فقد اتجهت أنظار بريطانيا إليها أثناء صراعها مع فرنسا على السيطرة على مدخل البحر الأحمر الجنوبى، ومن ثم استطاعت بريطانيا عقد اتفاق مع سلطان سقطرى بتاريخ ٢٣ أبريل عام ١٨٨٦م يضع الجزيرة وملحقاتها تحت الحماية البريطانية (١).

وكان قد ورد تقرير من حاكم عام الهند إلى المركيز سالسبورى بتاريخ ٢٩ يناير ١٨٧٥م حول تطور علاقة بريطانيا بجزيرة سقطرى جاء فيه :

١ – أن حق السيادة على الجزيرة للرؤساء الكبار من القبيلة العربية المسماة « المهارة » Mahare تقيم فى « كشين » Kisheen ، وقد تمت الموافقة بين حكام الجزر وحكومة الهند على إقامة محطة للفحم لتموين سفن الأسطول البريطانى منذ عام ١٨٣٣م.

٢ – وفى عام ١٨٣٨م قدم عرب « كشين » اقتراحا بربط سقطرى ببريطانيا ولكن الحكومة البريطانية رفضت.

١- F.O. 403. 88. No. 26. Mr. Godley to sir J. Pauncefote. India Office. September I. 1886.

٣ - وفى عـام ١٨٤٧م وردت إلى عدن أخبـار عن محـاولات فـرنسيـة لفرض السـيطرة الفرنسية على جزيرة سقطرى.

٤ - وفى عام ١٨٧١م حاولت إيطاليا فرض سيطرتها على جزيرة سقطرى (١) .

وكان قد حدث اتفـاق بين كل من على بن عبد الله بن سالم بن سعد بن عفرير سلطان سقطرى من جانب والبريجادير جنرال جون وليام شنيدر John William Schneider حاكم عدن من جانب الحكومـة البريطانية على ظهر الباخـرة البـريطانيـة « بريتون» Briton فى كشين بتاريخ ٢٣ يناير ١٨٧٦م تعهد فيها سلطان سقطرى عن نفسه وأهله وخلفائه من بعده بعدم الأتفـاق مع أية قـوة أخرى بما يتعـارض مع مصـالح بريطانيا بالنسبـة لجـزيرة سقطرى أو الجزر المجـاورة التابعة لها، فى مقـابل مبلغ ثلاثة آلاف دولار عند التوقيع ومبلغ ٣٦٠ دولار سنويا (٢) .

ومع إتفاقية ٢٣ أبريل ١٨٨٦م - أى بعد عشر سنوات من الأتفاق المبدئى أو تعهد سلطان سقطرى - طلب السطان أن تمتد الحماية البريطانية المتفق عليها عام ١٨٨٦م، لتشمل جزيرة « كـشين » Kishen وتوابعها، لكن الحكومة البريطانية طلبت أولاً إضـافة مادة جديدة لمعاهدة ١٨٨٦م تنص على تعـهـد السلطان بعـدم التـعـامل مع أية قـوة أوروبيـة أخـرى أو إعطائهـا تسهيلات فى أراضيه وذلك لمواجهة التطلعات الألمانيـة فى هذه الجهات (٣).

وقد تعـهد السلطان على بن عبد الله سالم عن نفسـه وعن ذويه وعن خلفـائه كتابة بعدم الدخول فى مراسلات أو اتفاقات أو معاهدات مع أية قوة أوروبية أخرى، مع التأكيد على قبول الحماية البريطانية على جزيرة سقطرى وملحقاتها والوقوف بإخلاص ضد أعداء السلطان سواء من المسيـحيين أو العرب أو من غيرهم وأن تدخل السلطنة فى أية اتفـاقات مع أية قوة خارجية دون علم الحكومة البريطانية، وأن السلطان يأمل أن توافق الحكومة على عقد اتفاق

١- F.O. 403. 8. Inclosure 1 in No. 64. The Governor-General of India in Council to the Marquis of Salisbury. Fort William. January 29, 1875.

٢- Ibid. Inclosure 4 in No. 131 . Brigadier-General Schneider to Mr. Thornton. Aden Residency. February L. 1876.

٣- F.O.403. 88. Inclosure 4 No. 26 the Earl of Kimberley to the Viceroy of India. India Office. March 27. 1886.

يضع بندر كشين وملحقاتها تحت الحماية البريطانية على غرار الاتفاق بوضع سقطرى تحت الحماية البريطانية(١) .

وقد صيغت هذه التعهدات فى اتفاقية تتكون من ثلاث مواد تم التوقيع عليها فى ٢٣ أبريل عام ١٨٨٦ م - التى سبق الإشارة إليها - وقعها عن الجانب البريطانى البريجا أ. ج. ف هـوج A.G.F. Hogg المقيم السياسى البريطانى فى عدن وعن سقطرى السلطان على بن عبد الله (٢) .

وتقع جزيرة سقطرى فى المحيط الهندى على بعد ٢٤٠ كيلو متراً من الشمال الشرقى لرأس عسير - الذى يسمونه فى بعض اللغات الأوربية رأس جوردافوى - الذى يقع فى أقصى الشمال الشرقى من أرض جمهورية الصومال الديموقراطية الحالية وتبلغ مساحة سقطرى ٣٥٧٩ كيلو متراً مربعًا، وعدد سكانها ١٥ ألف نسمة وأعلى موقع فيها ١٤٠٠ متر فوق مستوى سطح البحر .

ويقال إن اسم عاصمتها وميناءها « تمريدا » مشتق من اسم التمر، وينمو بها النخيل والسنط والطلح اللذان يؤخذ منهما الصمغ، ويزرع بها الطباق والرمان والمقاثئ - من خيار وبطيخ وشمام - والعود والند وغيرهما من الأشجار العطرية، وقد عرف قدماء المصريين سقطرى وكانوا يسمونها «ربى العطور» وبها الماشية المشهورة بدسم ألبانها، والسن من أهم صادرات سقطرى، ومن حيواناتها البرية حمار الوحش والسنور (القط) الذى يؤخذ منه الفرو وفى سقطرى أنهار يجرى بها الماء طول العام ويصطادون منها السمك.

وكانت سقطرى قاعدة بحرية وجوية لبريطانيا حتى أصبحت جزءًا من أرض جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية بعد الاستقلال.

جزيـرة بريـم

تقع جزيرة بريم في مضيق باب المندب على بعد ميل من الساحل العربى وأحد عشر ميلا من الساحل الأفريقى، وتفصل باب المندب إلى قسمين. المضيق الصغير الذى يفصل الجزيرة عن الشاطئ العربى وعرضه ثلاثة كيلومترات، والمضيق الكبير وعرضه نحو إحدى وعشرون

١- Ibid Inclosures. 15. 16. in No. 26. Sultan Ali bin-Abdulla-Bin-Salim-bin-Afrir to Brigadier-General Hogg. 20th Rajab. 1303 (April 23. 1886).

٢- Ibid Inclosure.19 in No. 26. Protectorate Treaty.

كيلومترا، وتستعمل السفن المضيق الصغير نظراً لوجود مجموعة من الجزر البركانية الصغيرة المسماة الأخوة فى المضيق الكبير.

وتتكون جزيرة بريم من تشكيلات صخرية بركانية هى عبارة عن مجموعة من التلال التى تنحدر نحو الشاطئ، وتحيط بالميناء وطولها حوالى ميل ونصف، وعرضها نصف ميل، ويبلغ أعلى ارتفاع فى الجزيرة نحو ٢٤٥ قدماً عن مستوى سطح البحر، وتبعد الجزيرة حوالى مائة ميل عن ميناء عدن ومائتى ميل عن جزيرة كمران.

ونتيجة لهذا الموقع فقد اتجهت أنظار بريطانيا نحو جزيرة بريم لتحكم السيطرة على مدخل البحر الأحمر الجنوبى، ولذلك احتلتها القوات البريطانية لتراقب تحركات القوى الأخرى فى المنطقة، ولذلك نجد الكابتن «سنيل» Captain Snell مساعد المقيم البريطانى فى بريم يكتب للمقيم السياسى البريطانى فى عدن البريجادير جنرال «هوج» فى ١٨ فبراير ١٨٨٦ م تقريراً عن تحركات الأتراك فى «الشيخ سعيد» وهى مدينة يمنية جاءها الأتراك من مدينة «مخا» اليمنية (١)

وفى ١١ مارس ١٨٨٦ م أرسل الميجور هنتر Major Hunter المقيم السياسى فى عدن إلى حكومة الهند البريطانية فى بومباى أرفق برسالته تقريراً من مساعد المقيم السياسى البريطانى فى بريم عن وصول قوات تركية من «مخا» إلى «الشيخ سعيد» ومعها أسلحتها من المدافع الكبيرة والبنادق (٢)، مما يؤكد استخدام بريم كمنطقة مراقبة بريطانية لكل ما يجرى قرب مدخل البحر الأحمر الجنوبى .

وفى ١٥ مارس ١٨٨٦ م كتب الكابتن «سنيل» مساعد المقيم السياسى البريطانى فى بريم تقريراً رفعه إلى البريجادير جنرال «هوج» عن تحركات الأتراك فى «الشيخ سعيد»، حيث ذكر فى التقرير أن الأتراك أنزلوا فى «الشيخ سعيد» ما يلى :-

٣٧ برميل بارود البنادق

٣٠٠ صندوق يحتوى كل منها على ٢ قذيفة صلبة.

١- F.O. 403. 87. Inclosure 2 in No. 97. Captain Snell to Brigadir-General Hogg. Perim. February 18. 1886.

٢- Ibid Inclosure 2 in No. 116. Major. Hunter to the Chief Secretary to the Govern ment. Bombay. Aden. March 11. 1886.

١٥٠ صندوق يحتوى كل منها على ٢ قذيفة مدفع (١).

والشيخ سعيد منطقة من مواطن اليمن البحرية وموقعها على مضيق باب المندب قريبًا من عدن بإزاء جزيرة بريم، وقد اعترفت المعاهدة التى وقعت فى الآستانة بين فرنسا والدولة العثمانية عام ١٨٧٠ م بحقوق فرنسا فى هذه المنطقة وأقرت حصول شركة «رابو وبازن» وهى إحدى الشركات التجارية الكبرى فى مرسيليا ملكية هذه المنطقة حتى انتقلت هذه الملكية إلى الحكومة الفرنسية عام ١٨٨٦م(٢).

ونتيجة لهذه المعاهدة انتهى الصراع العثمانى الفرنسى حول منطقة «الشيخ سعيد» وظلت تابعة لفرنسا حتى عادت القوات العثمانية إلى احتلال هذه المنطقة مرة أخرى أواخر القرن التاسع عشر، ولم ينته الوجود العثمانى فى الشيخ سعيد إلا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى لتظل المنطقة، نسيًا منسيًا وهى منطقة يمنية تعرضت أيضًا لمطامع إيطاليا بعد استيلائها على الحبشة عام ١٩٣٦ م، ونتيجة للصراع الفرنسى الإيطالى حول المنطقة ظلت المنطقة بعيدًا عن سيطرة القوتين الأوروبيتين حتى انتهاء الحرب العالمية الثانية.

وأما جزيرة بريم التى تعرف أيضًا باسم «ميون» فهى جزيرة من جزر البحر الأحمر اليمنية تقع فى مدخل باب المندب وتشرف عليه، وموقعها على خط عرض ١٢ درجة و ١٢ دقيقة شمالاً وخط طول ٤١ درجة و ٣ دقيقة شرقا، وتبعد عن ساحل جزيرة العرب بمسافة ثلاثة كيلومترات تقريبًا.

وكانت جزيرة بريم تابعة لإمام صنعاء حتى احتلتها بريطانيا عنوة عام ١٨٥٧ م وطولها من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى تسعة كيلومترات وعرضها خمسة كيلومترات ويبلغ أقصى ارتفاع سطحها ٧٥ مترًا عن سطح البحر، وقد بنى البريطانيون على هذه القمة فنارة عام ١٨٦٠ م، والجزيرة بيضاوية الشكل، وليس بالجزيرة ماء عذب، وجميع الظواهر تدل على أن جزيرة بريم بقيت بدون سكان مدة إلى أن احتلتها انجلترا لتتخذ منها مركزًا استراتيجيًا لسياستها الاستعمارية فى المنطقة (٣).

١- Ibid Inclosure 4 in No. 126. Brigadier-General Hogg to the Secretary to the Government. Bombay. Aden Residency, March 25 . 1886.

٢- عبد الواسع بن يحى الواسعى اليمانى : تاريخ اليمن .. ص ٦٤ - ٦٨.

٣- المرجع السابق ص٦٩-٧٣ .

وقد سمحت الحكومة البريطانية لشركة الهند الشرقية البريطانية منذ عام ١٨٥٩ م استخدام جزيرة بريم لخدمة عملياتها وأصبح العلم البريطاني يرفرف على الجزيرة منذ شهر فبراير من ذلك العام، ومن ذلك التاريخ استطاعت الشركة إقامة منشآت بريطانية كبناء قلعة تضم حامية عسكرية، ولها ميناء يستقبل السفن الكبيرة التي ترسو في حماية مدافع القلعة التي تشرف على الجزيرة كلها وعلى مضيق باب المندب.

وبسبب صعوبة الحياة على جزيرة بريم فإن بريطانيا ركزت نشاطها وسيطرتها على عدن مع بقاء حامية في بريم يتم تغييرها بين الحين والآخر مع تمسك بريطانيا بالجزيرة لأهميتها الإستراتيجية عند مدخل البحر الأحمر الجنوبي.

وتقع جزيرة بريم على بعد ١٦٠ كيلومتراً غربي عدن وتبلغ مساحتها ١٣ كيلومتراً مربعاً وهي جزيرة جرداء بركانية احتلها البريطانيون أولاً عام ١٧٩٩ م ثم هجروها لعدم وجود الماء بها، حتى احتلوها مرة أخرى عام ١٨٥٧ م - كما ذكرنا - ومیناؤها يبلغ اتساع مدخله ٧٨٦ متراً وبها الآن مطار صغير بناه البريطانيون وكانت الجزيرة خاضعة لسلطة حاكم عدن البريطاني قبل الاستقلال. وهي الآن إحدى الجزر التابعة لجمهورية اليمن الديموقراطية (الجنوبية).

جزيرة كمران

تقع جزيرة كمران على بعد مائتي ميل شمال مضيق باب المندب، وعلى بعد يسير لا يتعدى ثلاثة أميال من ساحل اليمن الشمالي، وتقع في مواجهتها مدينة الصليف الشهيرة بجبال الملح، وهي أكبر جزيرة في مجموعة الجزر الصغيرة والمرتفعات الضحلة المتناثرة في تلك المساحة وتعرف باسم كمران.

وتقع جزيرة كمران على خط الطول ٢٤ درجة و٣٦دقيقة شرقاً، وعلى خط العرض ١٥ درجة و٢٠ دقيقة شمالاً. وقد جاء اسم كمران في كتاب الهمزاني[١] بعد حديثه عن بلاد المهدي في قوله:ثم ينعطف البحر على اليمين مغرباً وشمالاً من عدن فيمر في ساحل لحج وأبين وكثيب بيرامس وهو رباط وسواحل بني مجيد من المندب فساحل العميرة كمران[٢].

١- الهمزاني : صفة جزيرة العرب ص٣٥ .

٢- حمزة لقمان : تاريخ الجزر اليمنية ، بيروت ١٩٧٣ ، ص٩ .

وقد جاء ذكر جزيرة كمران فى القرن التاسع عشر عندما فكر محمد على أن يمد نفوذه إلى اليمن فى الثلاثينيات من هذا القرن امتداداً من الحجاز فقرر إرسال حملة عسكرية تحت قيادة ابن أخته إبراهيم يكن باشا الذى سافر فى نوفمبر ١٨٣٧م متجهاً بجيشه نحو الحديدة ومخا، وكان الأسطول المصرى على أهبة الاستعداد فى مياه البحر الأحمر للاستيلاء على جميع الموانى اليمنية، وقد سبق لهذا الأسطول أن مهد لهذه الأعمال الحربية بالاستيلاء على جزيرة قمران أو « كمران » ومخا وزبيد وبيت الفقيه واللحية، ووضعت بها حاميات قوية، ولم يبق من الموانى الهامة سوى عدن (١).

وقد اضطر محمد على إلى سحب قواته من اليمن بل ومن الجزيرة العربية كلها وذلك أثناء صراعه مع السلطان العثمانى عام ١٨٣٩ م، خاصة أن بريطانيا استطاعت إقناع الدول الكبرى - روسيا وفرنسا على وجه الخصوص - بالوقوف إلى جانب الدولة العثمانية كما أن بريطانيا قد نجحت فى الاستيلاء على عدن فى يناير ١٨٣٩ م، وقد وقعت جزيرة كمران منذ انسحاب القوات المصرية فى دائرة النفوذ البريطانى.

وجزيرة كمران تبلغ مساحتها ٥٧ كيلومتراً مربعاً وتقع على بعد ٧٢ كيلومتراً شمالى ميناء الحديدة اليمنى، وعلى بعد ٣٢٠ كيلومتراً شمالى جزيرة بريم وأرضها مستوية رملية منخفضة، وكانت أيام الحكم التركى محجراً صحياً للحجاج واستولت عليها بريطانيا عام ١٩١٥ م أيام الحرب العالمية الأولى

وهى من جزر جمهورية اليمن الديموقراطية (الجنوبية) ويسكنها الآن حوالى ألف نسمه يشتغلون بالصيد، ويستبدلون بصيدهم الخضروات من أهل اليمن وبها مصايد صغيرة للؤلؤ. وبعض المراجع الأجنبية يذكر أن اسمها مثنى « قمر » ولم يذكر فى المراجع العربية إلا بالكاف : كمران.

١- المرجع السابق ص٦٩-٧٣ .

مصادر الكتاب

١- ابن زنبل أحمد الرمال : أخرة المماليك فى مصر.

٢- ابن تيمية (تقى الدين أبى العباس أحمد بن تيمية) : كتاب الزيارة من مجلد الجامع الفريد.

٣- د. أحمد عزت عبد الكريم وأخرون : دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة ، القاهرة.

٤- د. أحمد مصطفى أبو حاكمة : تاريخ شرقى الجزيرة العربية فى العصور الحديثة، القاهرة.

٥- أحمد أمين: زعماء الاصلاح فى العصر الحديث لجنة التأليف والنشر، القاهرة ١٩٤٨م.

٦- أحمد أمين: ظهر الإسلام ، القاهرة ١٩٥٢م.

٧- أحمد سة : مجزة فوق الرمال ، بيروت ١٩٦٦ .

٨- السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية ، تاريخ العرب منذ عصر الجاهلية حتى الدولة الأموية، القاهرة ١٩٧١ .

٩- د. السيد رجب حراز : التوسع الإيطالى فى شرق أفريقية ، القاهرة ١٩٦٠م.

١٠- د. السيد رجب حراز : المدخل إلى تاريخ مصر الحديث ، القاهرة ١٩٧٠م.

١١- د. إبراهيم العدوى: يقظة السودان ، القاهرة ١٩٥٦م.

١٢- إبراهيم فوزى باشا: السودان بين يدى غوردون وكتشنر جزأن، القاهرة١٩٠١م.

١٣- أحمد شفيق باشا: مذكراتى فى نصف قرن جزأن ، القاهرة ١٩٣٤-١٩٣٦م.

١٤- أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ٨ أجزاء .

١٥- أحمد حسنين : فى صحراء ليبيا مطبعة مصر بدون تاريخ.

١٦- أحمد صدقى الدجانى: أحاديث عن تاريخ ليبيا فى القرنين ١٩،١٨ ، طرابلس ١٩٦٥م.

١٧- ابن غلبون (أبو عبدالله محمد بن خليل غلبون) تاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان من الأخبار عنى بنشره وتحقيقه الطاهر الزاوى: القاهرة ١٣٤٩هـ.

١٨- أبى محمد عبدالله بن محمد المدينى البلوى تحقيق وتعليق محمد كرد على : سيرة أحمد بن طولون ، القاهرة .

١٩- أحمد النائب الأنصاري : المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب جزآن، الاستانة ، ١٨٩٩م.

٢٠- أحمد مختار العبادي: في تاريخ الأيوبيين والمماليك ، الاسكندرية ١٩٩٤م.

٢١- الطاهر أحمد الزاوي : ولاة طرابلس من بداية الفتح العربي إلى نهاية الحكم التركي: بيروت ١٩٧٠م.

٢٢- الطاهر أحمد الزاوي: معجم البلدان الليبية: طرابلس ١٩٦٨م.

٢٣- التعليم الديني في ليبيا : بحث مقدم لوزارة التربية والتعليم والوزراء المسئولين عن التخطيط الاقتصادي في الدول العربية المنعقد في طرابلس: أبريل ١٩٦٦ .

٢٤- جامعة السيد محمد بن على السنوسي الإسلامية ماضيها وحاضرها: طرابلس ١٩٦٢م.

٢٥- د. جلال يحيى: الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية، القاهرة ,١٩٥٩

٢٦- جلال الدين السيوطي: تاريخ الخلفاء، القاهرة.

٢٧- د. جلال يحيى: التنافس الدولي في شرق أفريقية ، القاهرة ١٩٥٩م.

٢٨- د. جميل صليبا : الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام وأثرها في الأدب الحديث، القاهرة ١٩٥٨م.

٢٩- جورج كيرك تعريب عمر الاسكندري : موجز تاريخ الشرق الأوسط، القاهرة ١٩٣٥م.

٣٠- حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ٣ أجزاء ، القاهرة.

٣١- حسين بن غنام : تاريخ نجد أو روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام ، القاهرة ١٩٦١م.

٣٢- د. حسن سليمان محمود: المملكة العربية السعودية : القاهرة ١٩٦٠م.

٣٣- د. حسن سليمان محمود: ليبيا بين الماضي والحاضر ، القاهرة ١٩٦٢م.

٣٤- د. حسين فوزي النجار: الشرق العربي بين حربين ، القاهرة .

٣٥- د. حسن صبري الخولي: سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين ، القاهرة ١٩٧٠م جزآن.

٣٦- د. حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقية ، القاهرة ١٩٦٣م.

٣٧- حسين مؤنس : الشرق الإسلامي في العصر الحديث، القاهرة ١٩٣٨م.

٣٨- خليفة المنتصر: ليبيا قبل المحنة وبعدها ، طرابلس ١٩٦٠م.

٣٩- د. رأفت الشيخ: تطور التعليم فى ليبيا فى العصور الحديثة ، طرابلس ١٩٧٢م.

٤٠- د. رأفت الشيخ ود. محمود متولى: أفريقيا فى العلاقات الدولية، القاهرة ١٩٧٥م.

٤١- ريتشارد توللي ترجمة عمر الديراوى: عشر سنوات فى بلاط طرابلس: طرابلس ١٩٦١م.

٤٢- رحلة الحشائشى إلى ليبيا (عثمان الحشائشى التونسى) تحقيق على مصطفى المصراتى: بيروت ١٩٦٥م.

٤٣- رودلفو ميكاكى تعريب طه فوزى: طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمانلى : القاهرة ١٩٦١م.

٤٤- د . زاهر رياض : شمال أفريقيا فى العصر الحديث، القاهرة ١٩٦٧م.

٤٥- د. زاهر رياض: استعمار أفريقيا، القاهرة ١٩٦٥م.

٤٦- ساطع الحصرى: البلاد العربية والدولة العثمانية ، بيروت ١٩٦٠ .

٤٧- سليمان البارونى: صفحات خالدة من الجهاد، تحقيق زعيمة سليمان البارونى، القاهرة ١٩٦٠م.

٤٨- سردار بانيكار ترجمة عبد العزيز جاويد: آسيا والسيطرة الغربية ، القاهرة ١٩٦٢م.

٤٩- سعيد عبد الفتاح عاشور : الأيوبيين والمماليك فى مصر والشام، القاهرة ١٩٩٠م.

٥٠- د. صلاح العقاد: المغرب العربى، القاهرة ١٩٦٩م.

٥١- د. صلاح العقاد: تطور السياسة الفرنسية فى الجزائر ، القاهرة ١٩٥٩م.

٥٢- د. صلاح العقاد: الجزائر المعاصرة ، القاهرة ١٩٦٤م.

٥٣- د. صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى، القاهرة ١٩٧٤م.

٥٤- عزيز سامح ترجمة عبد السلام أدهم : الأتراك العثمانيون فى أفريقيا الشمالية ١٩٦٩م.

٥٥- عبد الكريم الخطيب: الدعوة الوهابية طبعة ثانية، القاهرة ١٩٧٤م.

٥٦- د. عبد الرحيم عبد الرحمن : الدولة السعودية الأولى، القاهرة ١٩٦٩م.

٥٧- د. عزة النص: أحوال السكان فى العالم العربى، القاهرة ١٩٥٥م.

٥٨- عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار .

٥٩- على إبراهيم عبده: المنافسة الدولية فى أعالى النيل، القاهرة ١٩٥٨م.

٦٠- عبد العزيز عبد المجيد: التربية فى السودان والأسس النفسية والاجتماعية التى قامت عليها ٣ أجزاء ، القاهرة ١٩٤٩م.

٦١- عبد المجيد عابدين: الثقافة العربية فى السودان ، القاهرة ١٩٥٣م.

٦٢- عبد الرحمن الرافعى : مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال، القاهرة ١٩٦٦م.

٦٣- على بن أحمد بن عبد الكريم ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ، القاهرة ١٣٤٨هـ .

٦٤- د. فيليب رفلة: الجغرافيا السياسية لأفريقيا، القاهرة ١٩٦٥م.

٦٥- فيليب حتى: تاريخ العرب المطول.

٦٦- كارل بروكلمان: تعريب نبيه أمين ومنير البعلبكى : تاريخ الشعوب الإسلامية ، بيروت ١٩٦٥م.

٦٧- قاسم عبده قاسم : الأيوبيين والمماليك ، التاريخ السياسى والعسكرى، القاهرة ١٩٩٦م.

٦٨- الليدى آن بلنت ترجمة محمد أنعم غالب: رحلة إلى بلاد نجد ، الرياض ١٩٦٧م.

٦٩- لوثروب ستودارد ترجمة عجاج نويهض : حاضر العالم الإسلامى.

٧٠- مصطفى بعيو : المجمل فى تاريخ لوبيا، القاهرة ١٩٤٧م.

٧١- مصطفى بعيو: دراسات فى التاريخ اللوبى ، القاهرة ١٩٤٥م.

٧٢- محمد رشيد رضا: الوهابيون والحجاز ، القاهرة ١٩٢٥م.

٧٣- محمود الشنيطى : قضية ليبيا ، القاهرة ١٩٥١م.

٧٤- محمد مصطفى بازامة : بداية المزساة أو التمهيد السياسى للاحتلال الإيطالى: بنغازى ١٩٦١م.

٧٥- محمد مصطفى بازامة : العدوان أو الحرب بين إيطاليا وتركيا فى ليبيا طرابلس ١٩٦٥م.

٧٦- محمد الطيب الأشهب : عمر المختار، القاهرة ١٩٥٦م.

٧٧- محمد الطيب الأشهب : السنوسى الكبير .

٧٨- محمد بن على السنوسى : الدرر السنية فى السلالة الأدريسية بنغازى ١٩٦٨م.

٧٩- د. محمد فؤاد شكرى: السنوسية دين ودولة ، القاهرة ١٩٤٨م.

٨٠- د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسيادة على السودان الوضع التاريخى للمسألة ، القاهرة ١٩٤٦م.

٨١- د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٥٧م.

٨٢- د. محمد رفعت : تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة ، القاهرة ١٩٢٧م.

٨٣- د. محمد رفعت رمضان : على بك الكبير ، القاهرة ١٩٥٠م.

٨٤- محمد بن جرير الطبرى: تاريخ الأمم والملوك.

٨٥- د. محمود القبانى : السودان والإنجليز مجموعة رسائل نشرت أصلا فى الأهرام ، القاهرة ١٨٩٦م.

٨٦- د. مكى شبيكة : السودان عبر القرون ، بيروت ١٩٦٤م.

٨٧- د. مكى شبيكة: مملكة الفونج الإسلامية ، القاهرة ١٩٦٤م.

٨٨- د. محمد عوض: السودان الشمالى سكانه وقبائله، القاهرة ١٩٥١م.

٨٩- محمد بن عبد الوهاب: كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد.

٩٠- محمد بن عبد الوهاب : ثلاث عشر رسالة فى مجلد الجامع الفريد .

٩١- محمد بن عبد الوهاب : كتاب كشف الشبهات فى التوحيد فى مجلد الجامع الفريد.

٩٢- محمد بن عبد الوهاب: مختصر سيرة الرسول.

٩٣- محمد كرد على: القديم والحديث.

٩٤- د. محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى، القاهرة ١٩٦٥م.

٩٥- د. محمد أنيس ود. السيد حراز: الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر، القاهرة١٩٦٧م.

٩٦- محمود الشرقاوى: مصر فى القرن الثامن عشر ٣ أجزاء ، القاهرة ١٩٥٧م.

٩٧- د. محمد أنيس : أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ٣ أجزاء القاهرة ١٩٦٩م.

٩٨- د. محمد مصطفى صفوت : الاحتلال البريطانى لمصر وموقف الدول الكبرى ازاءه ، القاهرة ١٩٥٢م.

٩٩- محمد على حيدر، الدويلات الإسلامية فى المشرق، القاهرة.

١٠٠- د. محمد صفوت : مؤتمر برلين ١٨٧٨ م وأثره فى البلاد العربية ، القاهرة ١٩٥٧م.

١٠١- محمد محمود السروجى: العلاقات التونسية الفرنسية من الحماية إلى الاستقلال .

١٠٢- د. محمد صبرى: الإمبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٤٨م.

١٠٣- د. نقولا زيادة: ليبيا من الاحتلال الإيطالى إلى الاستقلال، القاهرة ١٩٥٨م.

١٠٤- د. نقولا زيادة: برقة الدولة العربية الثامنة، بيروت ١٩٥٠م.

١٠٥- نعوم شقير: تاريخ السودان الحديث وجغرافيته ٣ أجزاء، القاهرة ١٩٠٣م.

١٠٦- كرومر ، تقرير عن المالية والإدارة والحالة العمومية فى مصر والسودان سنة ١٩٠٣م رفعة الإيرل كرومر قنصل جنرال دولة انكلترا ووكيلها السياسى فى مصر إلى جناب المركيز لنسدون ناظر خارجيتها.

١٠٧- أنخل جنثالث بالنثيا ترجمة د. حسين مؤنس: تاريخ الفكر الأندلسى ، القاهرة ١٩٥٥م.

١٠٨- محمد لبيب البتنونى: رحلة الأندلس الطبعة الثانية القاهرة، د.ت .

١٠٩- أحمد شوقى بك : دول العرب وعظماء الإسلام، مطبعة مصر القاهرة ١٩٣٣م.

١١٠- أحمد شوقى بك : الشوقيات ، الجزء الأول دار الكتب، القاهرة ١٩٤٦ .

١١١- جلال يحيى : المغرب الكبير(العصور الحديثة) الاسكندرية ١٩٧٤م.

١١٢- محمود أبو رية: جمال الدين الأفغانى الطبعة الثانية : القاهرة ١٩٧١م.

١١٣- د. رأفت الشيخ وآخر : قضايا إسلامية معاصرة ، القاهرة ١٩٨٠م.

١١٤- نصر الدين عبد الحميد: مصر وحركة الجامعة الإسلامية ، ١٩٧٩م.

١١٥- رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده ٣ أجزاء، القاهرة ١٩٣١م.

١١٦- د. محمود صالح منسى : حركة اليقظة العربية، القاهرة ١٩٦٩م.

١١٧- . محمود أمين: زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ، القاهرة ١٩٤٨م .

١١٨- مصطفى عبد الرازق : العروة الوثقى القاهرة.

١١٩- عبد المتعال الصعيدى: المجددون فى الإسلام من القرن الأول إلى الرابع عشر (١٠٠-١٣٧٠هـ) القاهرة ، د.ت.

١٢٠- د. زكريا سليمان : التيارات السياسية والاجتماعية ، القاهرة.

١٢١- Holt. P.M. : Egypt and Fertile Crescent.

١٢٢- Kedawie . E. Afghani and Abduh

محتويات الكتاب

الباب الرابع: العرب والمطامع الأوروبية

رقم الإيداع ٢٠٠٧٨ / ٢٠٠٤

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 322 - 150 - 4

مطابع زمزم ت: ٧٩٥٢٣٦٢ - ٧٩٥٠٦٩٤

٥٣ شارع نوبار - باب اللوق